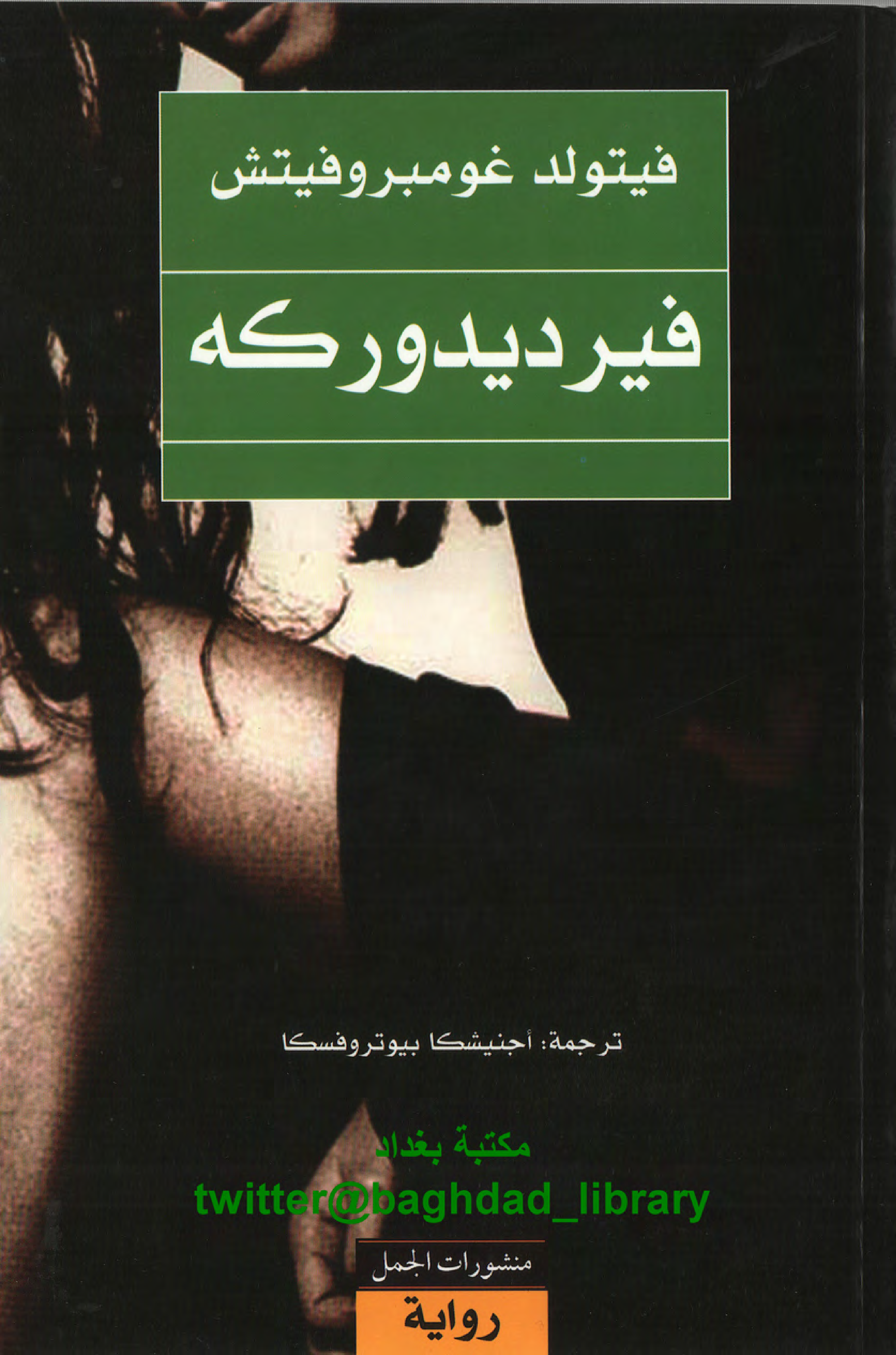

فيتولد غومبروفيتش

فيرديدوركه

ترجمة: أجنيشكا بيوتروفسكا

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

منشورات الجمل

رواية

فيتولد غومبروفيتش

فيرديدوركه

ترجمة: أجنيشكا بيوتروفسكا و معتصم بهائي

راجع الترجمة: هاتف جنابي

منشورات الجمل

twitter @baghdad_library

فيتولد غومبروفيتش: فيرديدوركه

ترجمة: **أجنيشكا بيوتروفسكا، و معتصم بهائي**

راجع الترجمة: **هاتف جنابي**

Witold Gombrowicz: Ferdydurke, Roman

© 1961, 1979, Witold Gombrowicz

الطبعة الأولى ٢٠١٦

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٢٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2016*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة الطبعة الأولى الإسبانية (١٩٤٧)

رأى هذا الكتاب النور في بولندا، قبل عام واحد من الحرب[١]، ولكي نتفهم أجواءه فلا بدَّ لنا ألا ننسى ذلك التاريخ. كنت قد نشرت قبل ذلك مجموعة قصصية تحت عنوان «مذكرات من مرحلة المراهقة».

بما أنَّ العقلية البولندية في حقبة ما قبل الحرب كانت تمضي في طرق مختلفة تماماً عمّا كنت قد اخترته لنفسي، فإن نشر فيرديدوركه لم يكن لينطوي على آمال كبرى في النجاح. إذا كان الأمر في النهاية قد خرج بصورة ليست بالغة السوء، بفضل مجموعة من الأنصار الحازمين المتحمسين لهذه المغامرة، كان أغلبهم من الشباب. بفضلهم تم تحليل الكتاب على نطاق واسع وما كُتب عن فيرديدوركه من دراسات ومجادلات وتعليقات وما إلى ذلك قد تجاوز حجمها مرات عدَّة. مع ذلك، لا أنا ولا فيرديدوركه قد دخلنا تماماً في الأدب الرسمي البولندي وهو، بطبيعة الحال، ما أصابنا بحزن شديد.

عندما بدأت موجات الجدال حول الرواية في الهدوء، وبدأت أفكر في كتابة شيء جديد، تمت دعوتي للمشاركة في رحلة افتتاح سفينة بولندية جديدة عابرة للمحيط، وُضِعت للخدمة بين بولندا والأرجنتين.

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩. م

twitter @baghdad_library

جئت إلى هنا كي أقضي ثلاثة أسابيع فقط، لكنها امتدت إلى ستة أعوام، فقد اندلعت الحرب. الذين سوف يقبضون على بعض خصوصيات روحي من خلال فيرديدوركه سيتفهمون لماذا الروح، بدلاً من السعي إلى صلات بـ «الدوائر» المحلية، كانت لديها حياة مجهولة وبوهيمية شديدة القرب، للأسف، من البؤس. ضائعاً في هذا البلد مسلوب العقل ومسحوقاً جرّاء الأحداث في أوروبا، كنت أتجول في الشوارع دون رغبة في فعل أي شيء، أو كنت أبكي على مائدة مقهى بكاء مرّاً. ابتعدت تماماً عن الأدب، وأدين لميلي السعيد تجاه الصبيانية فقط، فرغم جميع أنواع الكوارث والإذلال، استطعت الحفاظ على حبة من الفرح. في الآونة الأخيرة عادت إليَّ الرغبة في العمل الأدبي وأعتقد أنه سيكون من دواعي سروري أن أنشر عما قريب عملاً جديداً.

ها أنتم تعرفون الآن من أين وقع عليكم هذا الكتاب. من الواضح أن الأمر لا يتعلق هنا برواية واقعية ومن ثمّ ليس علينا أن نتخيل، على سبيل المثال، أن طلابَ المدارس البولندية يهتمُّون في الواقع ببراءتهم إلى نقطة بعينها أو أن الخادمين يتمُّ صفعُهم على أيدي أسيادهم. كذلك لا يتعلق الأمر بعريضة سياسية، فهذه العريضة ليست على أية علاقة باليمين ولا باليسار. بِمَ يتعلق الأمر إذن؟ تحققت أنه في بولندا، رغم وفرة المقدمات والتصريحات، فإن المعنى العام لفيرديدوركه قد هرب من قرّاء عديدين، إلى درجة أن الكثيرين وصلوا إلى الشك إذا ما كانت الرواية تحمل أي معنى من الأساس. رغم ذلك فإنها تحمل معنى وليس ثمة ما يمنع من عرضه هكذا مجرداً - بطريقة بسيطة ودون أي نوع من التذمر - إذا كان بإمكان هذا أن يسهل القراءة.

مشكلتا فيرديدوركه الكبيرتان هما عدم النضج والشكل. إنها لحقيقة أن

الرجال مجبرون على إخفاء عدم نضجهم، فعملية الإظهار لا توفر سوى ما هو ناضج فينا بالفعل. تثير فيرديدوركه هذا السؤال: ألا ترون أن نضجكم الخارجي هو شيء خيالي وأن كل ما تحاولون التعبير عنه لا يتطابق وواقعكم الحميم؟ بينما تتظاهرون أنكم ناضجون وفي الحقيقة تعيشون في عالم بالغ الاختلاف. إذا لم تتمكنوا بأية طريقة كانت أكثر فعالية من وصل هذين العالمين، فإن الثقافة ستظل دائماً بالنسبة لكم أداةً للخداع.

ولكن فيرديدوركه لا تنشغل فقط بما يمكن أن نسميه عدم النضج الطبيعي للإنسان ولكن قبل كل شيء تنشغل بعدم النضج، المتحقق من خلال وسائل اصطناعية؛ بمعنى أن المرء يدفع الآخر إلى عدم النضج وأيضاً - ويا للعجب - بالطريقة نفسها تعمل الثقافة. ثمة أسباب كثيرة وراء أن يكون لأحدهم مصلحة في أن يسقط الآخر في عدم النضج، عدم النضج الأهم تتمثل في حبنا لعدم النضج في ذاته. الآن تحيل الثقافةُ الإنسانَ طفلاً لأنها تنحو آلياً إلى التطور وعلى هذا فهي تتجاوز الإنسان وتنأى عنه.

بطل فيرديدوركه، والذي تمَّ جعله طفلاً أولا على يد بينكو المخيف، يتم سحبه في عملية عدم النضج الصبيانية المتبادلة وهي أعظم متعة سرية للبشرية، متعتهم الأكثر عذوبة وألمهم الأكثر فظاعة. إلى أي نوع من السيكولوجيا تحملنا هذه العملية؟ إن شخصيات فيرديدوركه ليست لديها مُثُل ولا آلهة فقط: «أساطير غير ناضجة» يمكننا تعريفها بأنها مثال تم تكييفه على مستوى الحقيقة الفريدة والحميمة للإنسان (أسطورة عامل المزرعة، تلميذة المدرسة، العمّة، إلخ) هم لا يفعلون ما يريدون، ولا يشعرون كذلك وفقا لطبيعتهم الخاصة، بل إن معظم مشاعرهم وأفعالهم مفروضة عليهم من الخارج. يدفعون بعضهم

twitter @baghdad_library

البعض نحو تصرفات ومواقف وأحاسيس أو أفكار خارجةً عن إرادتهم وبعد ذلك فحسب يتكيفون نفسياً مع ما وقع لهم باحثين عن مبررات سابقة ولاحقة وتفسيرات... مهدَّدين دائماً بالعبث والفوضى. إن الخصيصتين الأبرز لهم هما التاليتان: أولاً: جهاز الأشكال الناضجة للثقافة ليس بالنسبة إليهم سوى ذريعة من أجل أن يتواصلوا مع بعضهم البعض - ولكي يتلذذوا ويهتاجوا بالتبادل - ولكي ينسجموا مع بعضهم البعض في ألعابهم المؤلمة وغير الناضجة. المهم بالنسبة لهم هو الرقص، أي رقص يرقصون، لا يهتمون. ثانياً: هم ينتجون الشكل بلا توقف، ولكنهم لا يتحصلون عليه أبداً. ليس لديهم معتقدات ولا مُثُل ولا قناعات ولا كفاءات ولا مشاعر وإنما يقومون بصنعها تبعاً لاحتياجاتهم واحتياجات الوضع. في كل لحظة يصنعون شخصياتهم فيما بينهم - الواحد يصنع الآخر.

تعضد فيرديدوركه فكرة أنّ رغبتنا في النضج هي بالضبط ما يجرنا إلى عدم النضج ذاك رقم اثنين، أي عدم النضج المصطنع - ورغبتنا في الشكل هي التي تحمّلنا إلى شكل هابط. وكمن يخشى من عريه ذاته، فإننا نمدُّ يَدَنا إلى أية ملابس في متناولنا، حتى أبشعها، وهكذا يتشكل ذاك العالم من التراخي وعدم الكفاية وعدم الجدية وعدم المسؤولية، عالم من ثقافة تحتية لأشكال معيوبة، مجهضة، منحرفة وغير نقية، حيث تنبسط حياتنا الداخلية. هناك تتشكل مُثُلٌ تحتية مذهلة، أديان تحتية، مشاعر تحتية وعددٌ من الأشياء التحتية بالغة الاختلاف عن تلك التي للعالم الرسمي. والمهم أن كل هذا يتمّ عبر طرق شكلية: بهذا المعنى، حتى يُجبر شخصان بعضهما على النكوص لا يلزم أن يكونا مريضين لدى فرويد أو من أتباع الفرويدية، لأنَّ الأمر هنا يتعلق بشيء أساسي وهو أن نمط كينونة شخص يؤثر على نمط كينونة الآخر.

ما الذي ينبغي أن يكون عليه سلوكنا، ككائنات واعية، أمام ذلك العالم التحتي؟ الرغبة السامية لـ فيرديدوركه تتمثل في إيجاد شكل عدم النضج. ولهذا فهي مستحيلة. يمكننا في شكل ناضج أن نعبر عن عدم النضج الغيري، يمكننا على سبيل المثال، أن نصفه بشكل فني أو علمي، لكن هذا لا يحقق أي شيء، لأننا هكذا لا نعبر عن عدم نضجنا ذاته، بل - بشكل ناضج - نَصِف عدم النضج الغيري. حتى إذا قمنا بالتحليل والاعتراف بعدم كفايتنا الثقافية فإننا سنقوم بذلك من خلال وجهة نظر الثقافة وبشكل ناضج. لكن كي نعبر عن عدم الكفاية الثقافية تلك بشكل واعٍ وفي الوقت نفسه يكون مباشراً فسوف نكون في حاجة إلى أن نبذل جهداً ليس في كتابة كتب حكيمة حول موضوع التفاهة، لكن ببساطة أن نكتب كتباً تافهة - وسيئة ومتراخية - والتي هي، بطبيعة الحال، هراء. لهذا، فلا العلم ولا الفن ولا أي شكل آخر من أشكال التعبير الثقافي يسمح للإنسان أن يعبر بطريقة مباشرة عن واقعه غير الناضج ذاته، المحكوم عليه بالصمت الأبدي. لكن من ناحية أخرى، إذا واصلنا جميعاً هذه المهزلة الإلزامية والتي لا يمكن تجنبها، فإنَّ الثقافة سوف تستحيل على نحو متزايد إلى لعبة آلية ومجزأة، وفي النهاية ستفقد كل اتصال بنا. إذا كنت أتحدث إلى فلان فإنني أحاول دائماً أن أكون مهذباً ما أمكنني وهو يفعل الشيء نفسه كذلك، وحديثنا من شدَّة تهذيبه سرعان ما سيتحول في نهاية المطاف إلى شعور بالضيق الكثير من جانبنا - وهذا ما يحدث مع فننا الذي يستحيل «فنياً» بإفراط، برهافتنا التي تعود رهيفة بشكل زائد، أو ببطولتنا التي تصبح بطولية للغاية. ما الذي يتعين علينا القيام به إذن؟ نحن في موضع طفل يُجبر على ارتداء بذلة كبيرة جداً بالنسبة له ويشعر داخلها بالانزعاج والسخافة؛ الطفل لا

twitter @baghdad_library

يمكنه خلع البذلة فليس لديه غيرها، ولكن على الأقل يمكنه الشكوى بصوتٍ عالٍ أن البذلة ليست على مقاسه، وبهذه الطريقة فإنه يقيم مسافة بين البذلة وبين شخصه. هذا يعني اتخاذ مسافة من الشكل. عندما نتمكن من الامتزاج جيداً مع فكرة أننا أبداً لم نكن ولن نستطيع أن نكون متفردين، وأن كل ما يحددنا - سواء أكانت أفعالنا، أو أكانت أفكارنا، أو أكانت مشاعرنا - لا يأتي مباشرة منا بل هو نتاج الصراع بين أنانا وبين الواقع الخارجي، كثمرة لتكيف مستمر، إذن، ربما ستصبح الثقافة في هذه الحالة أقل وطأة بالنسبة لنا.

بالإضافة إلى ما تطرحه فيرديدوركهٔ من الفرضية النظرية هذه، فإنها تقترح تحقيقها فيِ الممارسة العملية. بالطبع لم يكن بإمكاني فعل شيء آخر سوى محاولة عمل كتاب جيد وليس سيِّئاً. لكن ما أردتُ التحصُّلَ عليه، مهما كلَّفني الأمر، كان حريةً للكلمة في هذا الحقل الثقافي، حيث الكاتب السيئ لا يمكنه قول شيء لأنه سيئ والجيد كذلك لا يمكنه قول شيء لأنه جيد - لأنه عبد لمستواه ولأسلوبه - فهو خائف من جراء عظمته ووضعه الاجتماعي ومسؤولياته المتعددة (في أغلب الأحيان وهمية). لهذا فبدلاً من إخفاء شخصي كمؤلف فقد وضعته في اللعبة بجانب شخصيات أبطالي. وبدلاً من تخبئة عدم كفاءتي الثقافية واعتمادي على المجال التحتي والدوافع الشخصية لعملي، كما يفعل مؤلفون آخرون، فقد عرَّيتُها بكلِّ قسوة وكذلك عرضت خلافي ذاته مع شكل العمل. يمكن للمراقب أن يرى كيف يصيبني بالجنون طغيان الأشكال اللغوية وآلية الأسلوب والبناء والانسجام بين أجزاء العمل إلخ، إلخ... وهكذا فإن فيرديدوركه لديها شقّان: من جانب هي حكاية، رواية، وصف ومن جانب آخر هي فعل من صراعي الشخصي مع

الشكل. هنا المؤلف، معترفاً بعدمِ نضجه الشخصي قد تحصل - أفترض هذا - على سيادة وحرية أكثر أمام الشكل، وفي الوقت نفسه يلمح إلى آلية عدم نضجه.

أُفٍ! سيكون هذا هو الهيكل العظمي الذهني لـ فيرديدوركه. أنا لست فيلسوفاً ولا عالم نفس لأقدّم اعتذاراً عن الأخطاء المحتملة لعرضي هذا. لا أعرف حتى إن كانت وجهات نظري جديدة وأصيلة؛ وهذا لا يقلقني لأنني لا أنتظر عمل اكتشافات، بل أن أعرض للخارج بكل طاقتي الممكنة كومةً من الموضوعات والتي جعلتني، بلا شك، أعاني الكثير. أعتني بنفسي للغاية حتى أن صوتي لا يرنّ أبدا كصوت «كاتب»، «فيلسوف»، «شاعر»، «مثقف»، بل كصوت شخص خاص. في الحقيقة عندما شرعت في كتابة فيرديدوركه لم أكن أعرف شيئاً تقريباً عن تلك الأفكار، إذ جاءتني وحدها وقت الكتابة. بإبداع هذه القصيدة العملية بكل فخر كنت أعرف فحسب أنه عليّ البدء بشيء هكذا مثل «النقد من الأسفل»، وأنه قد حان الوقت لتصفية الحسابات مع العالَمين الفوقي والتحتي، فكلاهما كان يضجرني كثيراً. وبكل صراحة يصعب عليّ اختصار عمل مجنون في عبثيته ومطلق العنان في مرامه إلى هيكل عظمي جاف وجامد وقاس.

أتجرأ على الظن أنه في كل الأحوال كان نشر فيرديدوركه في أمريكا اللاتينية لديه سبب للوجود. ثمة عدد من أوجه التشابه بين الوضع الروحي لبولندا وبين هذه القارة. مشكلة عدم النضج نابضة هنا كما هناك. وهنا كما هناك يضيع أكثر الجهد في تقليد الآداب الأجنبية «الناضجة» .هنا وهناك ينشغل الأدباء بكل شيء عدا تثبتهم من حقهم في

twitter @baghdad_library

الكتابة كما يكتبون. في بولندا وفي أمريكا الجنوبية يفضل الجميع التأسف على الوضع المتدني والمزري بدلاً من قبوله كنقطة انطلاق جديدة مثمرة. لكن في حين أنه في بولندا يفضح الضغط الهائل للحياة تلك «المدرسة الأدبية» (كلمة مدرسة هنا مبررة تماماً)، فإن الوجود السلمي لأمريكا الجنوبية السعيدة يسمح لها بتحاشي المراجعة الأساسية لتلك المسائل، ويحرضها غالباً على مجموع التوافه الجمالية والثقافية وعلى شكلانية عقيمة تخنق كل تعبيرها. أشك كثيراً فيما إذا كانت حججي هذه ستكون مقبولة من قبل الأساتذة المكرسين في كلا الأدبين، لكنني أعلق آمالي على الأساتذة الذين لم يولدوا بعد.

تمت هذه الترجمة عن طريقي وهي فقط تشبه النص الأصلي من بعيد. إن لغة فيرديدوركه تضع المترجم أمام صعوبات كبيرة. أنا لا أتقن القشتالية[1] تماماً. ولا يوجد حتى قاموس قشتالي - بولندي. في ظروف كهذه فإنَّ المهمة تصبح شاقة للغاية ومظلمة، لنقل، ويتم تنفيذها بلا تبصر - فقط بفضل المساعدة النبيلة والفعالة لعدد من أبناء هذه القارة والذين أثارت مشاعرَهم الإعاقةُ اللغوية لأجنبي مسكين.

إنجاز هذه الترجمة يعود أولاً إلى مبادرة ودعم ثيثيليا بينيديت دي دييينيديتي، وإليها أتقدم ببالغ الشكر.

تحت رئاسة بيرخيليو بينييرا، الممثل المميز لأدب كوبا البعيدة، في زيارة لهذا البلد، تم تشكيل لجنة الترجمة وضمت كلاً من الشاعر والرسام لويس ثينتوريون، الكاتب أدولفو دي أوبييتا، رئيس تحرير

(١) القشتالية: الاسم الأصلي لما يعرف باللغة الإسبانية التي يتم التحدث بها في إسبانيا وفي بلدان أمريكا اللاتينية. م

المجلة الأدبية «أوراق بوينوس أيرس» وأومبرتو رودريغيث تومِوْ، ابن آخر مثقف من كوبا البعيدة. أمام كل هؤلاء الفرسان والأبطال[1] أنحني بعمق. لكن، كذلك، ساهم في الترجمة بكل المثابرة والتضحية الكثير من ممثلي بلاد وأقاليم ومدن وأحياء مختلفة، وعندما أفكر في ذلك لا يمكنني الوقوف في وجه شيء من الفخر الشرعي. تعاونَ أيضاً: خورخي كابيتّي، مانويل كلابس، كارلوس كولدارولي، آدان هوسزوفسكي، غوستابو كوتكوفسكي، بابلو مانين (صيّادون صبورون للكلمة)، ماورثيو أوسّوريو، إدواردو باسيوركوفسكي، إرنستو بلونكيت، لويس روتشا (هنا تتجمع البرازيل وبولندا وانجلترا والأرجنتين)، أليخاندرو روسّوفيتش، كارلوس سانديلين، خوان سيدون (باحثون عنيدون عن العبارات المناسبة)، خوسيه تاوريل، لويس تييّو، خوسيه باتريثيو بيافويرتي (أكفاء وحدسيون). أنا مدين أيضاً بالشكر العميم إلى أحد السادة بالغي اللطف، وهو في سن متقدمة وعاشق كبير للبلياردو، في لحظة من الإلهام السعيد سهّل لي كلمة «زحزح»، والتي كنت قد نسيتها تماماً. عليّ أن أتقدم بالشكر - يا إلهي! - إلى كل هؤلاء الدكاترة في النبل وإلى الكريوليين[2] أقول لهم فقط: يحيا الوطن الذي له أبناء مثلكم! إذا كانت ثمة أخطاء في النص الإسباني رغم العدد الكبير من المساهمين، فإنها لا ترجع إلى صعوبات الترجمة التي لا يمكن

---

(١) في الأصل والغواتشي مصطلح شائع في بلاد مثل الأرجنتين وتشيلي والأوروغواي وفي الأرجنتين تحديدا يعني الشخص Guachos اللطيف والكريم والنبيل والفارس الشهم. والغواتشي في الأصل هو فلاح سهول الأرجنتين وجنوب البرازيل وتشيلي والأورغواي. م

(٢) يشير مطلح الكريولي حسب قاموس الأكايمية الملكية الإسبانية إلى المولود من أبوين أوروبيين في مختلف المستعمرات الإسبانية في أمريكا وبعض المستعمرات الأوروبية. م

twitter @baghdad_library

تجاوزها، بل إلى السهو، يعود هذا فيما أعتقد إلى فرط المناقشات الممتعة التي ميزت الجلسات، والتي تمت معظمها في كافيتريا ريكس تحت الابتسامة الغامضة واللطيفة لمدير الصالة، المعلم باولينو فريدمان.

سعيد أن فيرديدوركه قد وُلدت في القشتالية على هذا النحو وليس في الورشات الحزينة لتجارة الكتب. لا يزال لدي كلمة أخرى: ربما سيمضي الكِتاب دون أن يلفت الانتباه، لكن المؤكد أنّ بعضاً من أصدقائي سوف يشعر أنه مجبر على أن يقول لي جملة أو جملتين، من تلك التي تقال عادة عندما ينشر مؤلفٌ كتاباً. أود أن أطلب منهم ألا يقولوا أي شيء، لا، ألا يقولوا أي شيء، نظراً لأن جميع أنواع التزوير والوضع الاجتماعي لما يسمى «الفنّان» قد أصبحت في زمننا هذا طنانة إلى درجة أنه لا يمكنك أن تقول له شيئاً دون أن يبدو زائفاً، وكلما وضعتم المزيد من الصدق والبساطة في عباراتكم التي من قبيل «لقد أعجبني كثيراً»، «أنا سعيد للغاية» فإنَّ مزيداً من الخجل سوف يصيبه ويصيبكم. لتسكتوا، إذن، أتوسل إليكم، لتسكتوا في انتظار مستقبل أفضل. في الوقت الراهن إذا كنتم ترغبون في التعبير عن إعجابكم فالمسوا ببساطة، عند رؤيتي، الأذن اليمنى وإذا أمسكتم بالأذن اليسرى فسوف أعرف أن الرواية لم تعجبكم، لمس الأنف يعني أن حكمكم عليها بينَ بين. بحركة خفيفة وكتومة من اليد سوف أقدر هذا الاهتمام إزاء عملي وهكذا سيتم تحاشي مواقف غير مريحة وحتى سخيفة، سنفهم بعضنا البعض في صمت. تحياتي الجمّة للجميع.

ترجمة عن الإسبانية: **أحمد يماني**

الحفلة التنكرية العظيمة

يجي فرانتشاك

نشرت رواية فيرديدوركه في خريف عام ١٩٣٧. يقترن هذا التاريخ في ذهن كل أوروبي بإرتباط واحد: لقد بدأ العد التنازلي النهائي. في غضون عامين ستندلع الحرب العالمية الثانية - الكارثة التي ستأخذ شكل وحش لا سيما في وسط وشرق أوروبا، أي في المناطق التي يسميها المؤرخون المعاصرون «الأراضي الدموية» (bloodlands). ونتيجة لتفعيل برنامج Endlösung، أي «الحل النهائي للمسألة اليهودية»، وأيضاً بسبب العمليات الحربية وقمع القرى والمدن المقاومة والإعدامات والغارات الجوية سيلقى نحو خمسة ملايين ونصف مواطن بولندي حتفهم، أي أكثر من ستة عشر في المئة من سكان فترة ما قبل الحرب. لكن غومبروفيتش سيكون محظوظاً؛ في يوليو ١٩٣٩ سيكون على متن سفينة الركاب «MS Chrobry» التي انطلقت في رحلتها الأولى إلى أمريكا الجنوبية. الأنباء عن اندلاع الحرب سيتلقاها في بوينس آيرس، حيث سيقرر أن يبدأ حياة جديدة. سيسكن في عاصمة الأرجنتين - حيث سيعمل أولاً موظفاً في Banco Polaco، ثم سيكسب عيشه عن طريق قلمه - حتى عام ١٩٦٣، عندما يعود إلى أوروبا بدعوة ومنحة من

twitter @baghdad_library

مؤسسة «فورد» ليستقر لفترة قصيرة في برلين الغربية ثم في فونس، بالقرب من نيس، حتى وفاته في سنة ١٩٦٩

تبدو فيرديدوركه اليوم كجوهرة الثقافة الرائعة في فترة ما بين الحربين العالميتين - تيار السخرية والليبرالية والابتكار الذي وصل ذروته نهاية الثلاثينيات، عشية الكارثة. كانت مرحلة الاستيعاب المحموم للمشروع الحضاري الغربي والتعويض عن التأخر الناجم عن العوامل التاريخية والحماس العظيم تجاه كل ما هو حديث - «المدينة - الجموع - الآلة»، التي تغنى بمحاسنها أعضاء الطليعة، أي التقدم التقني، والديمقراطية الوليدة، وحركات التحرر، والثورة الفنية، والثورة على التقاليد. في مجموعته القصصية القصيرة «مذكرات بولندية» التي كتبها غومبروفيتش لاحقاً عكس فيها مناخ ذلك العصر باختصار هائل: «لقد كان ذلك كأنه صحوة مؤثرة لحياة جديدة، مليئة بالوعود وتحطيم العروش الملكية والياقات المنشاة والشوارب، وخرافات الشرف، حرية الجسد المختلطة بحرية الروح، مذبحة السترات المشقوفة الذيل والأحذية اللامعة والاسترخاء الكبير للشباب وهم يرحبون بزمنهم، رياح الحرية العظيمة حيث تظهر سيقان النساء من تحت التنانير».

ولكن في الوقت نفسه يدخل مشروع الحداثة الغربية أزمة مصيرية في بداية القرن. بعد أن تمَّ تقويض قواعده الفلسفية من قبل «سادة الشك» مثل ماركس ونيتشه وفرويد. جلبت الحرب العظمى ما بين ١٩١٤-١٩١٨ الهلع من الإبادة الجماعية الممكنة وهزّت إيمان عصر التنوير بالتقدم التاريخي. غومبروفيتش - مثل غيره من كبار ممثلي أدب هذه الفترة - برونو شولتز وستانيسلاف إجناسى فيتكيفيتش - ظل بعيداً لأقصى درجة عن التفاؤل الحضاري. كان يلاحظ بقلق متنامٍ الزيادة في

الحركات القومية و«عتمة الأفق السياسي»، ويعتبر من أوائل من أبصروا اقتراب الكارثة. كان غباء معاصريه يثير أعصابه، مثل السيد والسيدة الغلامي في فيرديدوركه - عقلانيين وعديمي التفكير ومؤمنين على نحو أعمى بفوائد الحداثة والابتذال الإنساني.

ينتمي غومبروفيتش إلى الجيل الذي تصادف أنه يعيش بين نهاية عصر وبداية عصر، وساهم هذا الجيل في العديد من التحولات التاريخية - الحروب والهجرات والثورات السياسية والتكنولوجية والأخلاقية. ولكن الظروف المحلية لم تكن تقل أهمية. ولد مؤلف فرديدوركه عام ١٩٠٤ كمواطن من مواطني القيصر نيقولا الثاني. لم تظهر بولندا على خرائط العالم منذ أكثر من مائة سنة، وبالتحديد منذ سنة ١٧٩٥ عندما تم تقسيمها بين القوى الثلاث المجاورة - روسيا والنمسا وبروسيا. ظلت الثقافة البولندية طوال القرن التاسع عشر كله ثقافة شعب محروم من أرضه وتطورت في ظل واجبات المجتمع. تم تكليف الفن والأدب للقيام بالإلتزامات الوطنية؛ كان يجب عليها التذكير بمجد الماضي والحفاظ على لغة الآباء والتقاليد الوطنية، وأخيراً - تطوير أفكار التحرر الوطني والدعوة إلى التمرد والتحفيز على المقاومة. على مدى ١٢٣ عاماً كان الأدب البولندي إما يقبل الواجبات الوطنية أو يتمرد على تلك العبودية. غومبروفيتش الذي ينتسب إلى ملاك الأراضي الأثرياء وسط بولندا، أحسّ في وقت مبكر جداً بضغط المجتمع. أولاً، عندما كان طفلاً وتم إخضاعه للعادات الأرستقراطية، بينما كان يميل لألعاب أبناء الفلاحين. وعندما اندلعت الحرب ضد البلشفيين في سنة ١٩٢٠ لم يتجند السيد الشاب في الجيش خلافاً لتوقعات جميع من حوله. كانت هذه لحظة حاسمة في سيرته الذاتية. بقي فيتولد مرتدياً

twitter @baghdad_library

ملابسه المدنية، واعتبر الجميع ذلك فراراً من الجندية. لم يحقق مراسم الدخول في الرجولة، لقد انسحب في الشباب والغموض. وآنذاك أدرك مهمته - كان يحسُّ برغبة في إنقاذ الذاتية الفردية من محاولات سيطرة المجتمع، ومن نمطية التفكير والجمود العام.

لم يكن يعرف بعد إنه بدأ الصراع ضد تيارات العصر السائدة الذي سيحدد حياته وكتاباته... دعونا نحاول تلخيص هذه المغامرة الفكرية عن طريق مشهدين. العام هو ١٩٣٧، بعد نشر فيرديدوركه يمضي الكاتب في رحلة إلى روما - يذهب إلى هناك (أقتبس الآن «السيرة الذاتية» بقلمه) لكي «يقول للكاتدرائية وتماثيل العذراء والمنتدى الروماني والفريسكوهات والمكتبات: أنتم رداء الإنسان، ليس أكثر من ذلك.» يعود إلى وارسو من خلال فيينا وهو مقتنع بأنه نجح في التغلب على الشكل الميت للثقافة وتحرير الذاتية الفردية منها، ويصبح هناك الشاهد بالمصادفة لآنشلوس: «في فيينا يجيء القطار وسط الحشود والمظاهرات ذات المشاعل... يدخل هتلر!! في وارسو الإثارة، وجموع الناس، والحمى، والتصميم، التجهيز للحرب... ومن جميع الدول المهددة جاء الغضب المصحوب بالرعب. تعبئة عامة! ما أهمية استرخائي الروماني المنتصر في مواجة ذلك الجمود الجديد الرهيب؟ ألم أكن إذن متناقضاً مع زمني؟ لقد فهمت على أي حال: إن فيرديدوركه محكوم عليها بالفشل وأنا كذلك». تجري أحداث المشهد الثاني بعد عشرين عاماً بالضبط: نحن في سنة ١٩٥٧، يعيش غومبروفيتش في الأرجنتين، ومعترف به بالفعل أما فيرديدوركه فقد اعتبرت عملاً كلاسيكياً. يستعد لطباعة الجزء الأول من «يوميات» ويسجل في بدايتها هذه السطور الشهيرة: «الاثنين - أنا. الثلاثاء - أنا. الأربعاء - أنا.

الخميس - أنا».. ويرى نفسه «في أشد جوانب المعارضة تجاه جميع الاتجاهات الأدبية التي أنكرت الذات». النضال الذي أعلنه للعالم في مرحلة شبابه، لا يزال مستمراً.

عموماً فإنَّ المناوشات التي قام بها غومبروفيتش، لم تكن تتصف بمثل هذا الطابع التجريدي. كرر أن منهجه هو إظهار نضاله ضد الناس من أجل شخصيته الذاتية عن طريق استخدام الاحتكاكات الأكثر حميمية... وتلك لم تكن أبداً غائبة لأنَّ الكاتب كان معروفاً بغرابته وقدرته على الاستفزاز. لنعدْ إلى فترة ما بين الحربين: نحن في سنة ١٩٣٣، يبدأ غومبروفيتش تأليف مجموعته القصصية الأولى بعنوان: «مذكرات من مرحلة المراهقة» - مجموعة قصص ممتازة عن المنشقين من المجتمع الذين ينسحبون من شعائر الانضمام إليه ولا يدخلون في عالم علاقات البالغين المنظم والواضح. بعد النشر يراقب الكاتب الشاب بعناية ردود أفعال النقاد، وحتى يجمع مجموعة اقتباسات من المراجعات النقدية لكي يهديها للاصدقاء. ولكن يهيمن على التعليقات عدم اليقين: هل المؤلف ذو التسعة وعشرين عاماً يقدم لنا رؤيته الغريبة للعالم بجدية أم إنه يهدف إلى الاستفزاز؟ بينما نقاد آخرون ينكرون وجود أية قيمة للكتاب. الروائي المعروف من الجيل القديم، يوليوش كادن-باندروفسكي، يصرح ببساطة أن الكتاب ممتلئ بـ«سلسلة من الأحداث غير المتصلة والتي لا طائل منها، وهي محبوكة عن عمد من قبل المؤلف». يلاحظ الكاتب الشاب والحساس باستغراب متزايد كيف أن جميع أنواع خبراء وحراس القيم يقدمون له أحكامهم المسبقة والسطحية أو يقومون بإعطاء النصائح والتعليمات من أعلى. «كما لو أنهم رقصوا على وجهي - يعترف - للمرة الأولى أحسست بنفسي

twitter @baghdad_library

بالنقد الأدبي الذي، ويا للأسف، في نسبة كبيرة منه كان وسيكون نهيق حمار».

ماذا يجب أن نفعل؟ أن يدخل الشخص نزاع مع «العمَّات المثقفات»؟ وعلى أي أساس؟ لماذا يجب على الفنان أن يكون عاجزاً، محكوماً عليه بـ«الخرس الجزئي»؟ لماذا يسمح له بالغناء، ولا يسمح له بالكلام؟ من خلال هكذا نوع من الغضب نشأت فكرة فيرديدوركه. في البداية أراد غومبروفيتش أن يرد على النقاد، إلا أنه وفي أثناء الكتابة اكتشف أن سوء الفهم بين الكاتب والقارئ يمكنه أن يكون بمثابة نموذج للعلاقات الإنسانية، لأنَّ علاقاتنا اليومية تتأثر، هي الأخرى، بالرداءة وتستند على أشكال مختلفة من العنف الرمزي. بدأت الرواية تنمو وتكتسب أهمية إشكالية، لقد تحولت إلى عمل كامل، والذي لا يزال فيه الهجاء الاجتماعي في خدمة المفهوم الفلسفي والفني الأصلي.

تبدأ القصة هكذا: يظهر البطل من الفراغ والفوضى، كأنه يبرز إلى الوجود ex nihilo، المليء «بالخوف من اللاوجود والقلق من اللاحياة والفزع من فقدان الواقعية». من هو في الواقع؟ في البداية يحدثنا كشخص يقدم نفسه على أنه مؤلف «مذكرات من مرحلة المراهقة»، أي غومبروفيتش نفسه (ويتعزز هذا التلميح لسيرته الذاتية بكلمات الرواية الأخيرة - الحروف الأولى: ف.غ.). ولكن سرعان ما نعرف أن راوي القصة هو جوي كوفالسكي. لماذا هذه الازدواجية للراوي إذن؟ (أو حتى أكثر من ذلك، إذا تذكرنا أن «فيليدور المبطن بالطفل» موقع عليها من قبل شخص يسمى أنطوني شْفِيسْتَك)؟ ان ذلك جزء من اللعبة المعقَّدة التي تجري على جميع مستويات العمل: من ناحية اللغة والسرد والنوع الأدبي، وكذلك على هذا المستوى حيث نواجه الصعوبة في

تحديد هوية الراوي بوضوح. إنه يلعب أدواراً مختلفة ويرتدي مجموعة متنوعة من الأقنعة، كما لو كان يهرب من «الدمامة» التي نود أن نركِّبَها له (عن طريق أن نقول إننا نتعامل مع شخصية روائية، مع مؤلف أو alter ego للمؤلف).

في الحلم يرى جوي نفسه بأنه «صبي يافع أخضر»، وبعد الاستيقاظ من النوم لا يزال يشعر بـ «ذُعر من التشتت»، أي غموضه الروحي والبدني والاجتماعي. يجب عليه أن ينتقل إلى «أشكال محدّدة ومتبلورة» لذلك يصفع صِنْويه الذي يظهر فجأة في الغرفة، لأنه يلاحظ فيه «شيئاً عشوائياً شيئاً غريباً تمَّ فرضه علي». أنه لا يوافق على «شيء وسط بين العالم الخارجي والداخلي»، يقرر «أن يخلق شكله الخاص». بيد أنه عندما يبدأ في الكتابة، يدخل نظام اللغة. عند هذه النقطة، شيء غريب يحدث: تتغيير الصور البلاغية إلى أشكال السرد والمفاهيم والاستعارات - في الشخصيات والأحداث الروائية. يظهر بيمكو (الذي يعتبر مؤلف المراجعة النقدية لـ«مذكرات»!) - وهو يجسد التفكير المنمّق التقليدي والتفاهة اللغوية والطقوس الفارغة. حينما يلاحظ ذلك «اللغوي من كراكوف» مسودة كتابه (الذي هو بداية الرواية التي نقرأُها!) يكون قد فات الأوان. يكتشف جوي كوفالسكي أنه من المستحيل خلق العمل الأصلي والخاص به والأصيل و«ومتطابق معه تماماً».

لماذا؟ أولاً، لأنَّ كلَّ شكل من أشكال التعبير الفني يبقي مجرد شكل، أي نموذج مُقيَّد. ثانياً، اللغة ليست أداة شفافة، لكنها منظومة من المعاني التي تفرض نفسها علينا بطريقة غير ملحوظة وساحقة على حد سواء. ثالثاً، كل كلمة وكل شكل لهما ماضيهما، فالمتحدث يدخل

twitter @baghdad_library

في حيز الثقافة التي تستعبده وتمنعه عن التعبير الفردي، بمعنى «مائة ألف روح تخنق روح جوي فجأة». أخيراً، ليست هناك حدود واضحة بين الكلمة والفعل. كل تعبير هو في الواقع نشاط تحدد شروطه قواعد لعبة التفاعل بين البشر وأقوالنا مرتبطة بمن نتحدث إليه. بعبارة أخرى، يكتشف جوي الحقيقة التي تجلت في «**مقدمة لفيليدور المبطن بالطفل**» أن «الإنسان لا يعبر عن نفسه بطريقة مباشرة وبما يتفق مع طبيعته، ولكن دائماً في إطار شكل معين وأن ذلك الشكل وذلك الأسلوب والسلوك الوجودي ليس من صنعنا فحسب، بل إنه مفروض علينا من الخارج». تتشكل أحداث القصة في سلسلة من السجون والاختطافات والتدليكات. وفي كل مرة يحدِّد جوي هويته الذاتية وصورته الخارجية، يجد نفسه تم «تصغيره» واستعباده من خلال الأشكال مرة أخرى. مرتين يتمُّ حرمانه لصالح تلك القوى العظمى ويصبح تحت رحمة التشتت الداخلي والاضطهاد الخارجي، لابد على جوي أن يستحدث استراتيجية لتحركاته. أولاً يختطفه بيمكو وهو «الخوجة الكلاسيكي» الذي يعامل الجميع معاملة الطلاب. بعد هذا الـ«كدنابنج» يتعرض البطل ذو ثلاثين عاماً إلى عملية «صبينة» منظمة في مؤسسة الناظر بيوركوفسكي. ويشارك في عدد من الأنشطة الغريبة التي تتكون منها طقوس المدرسة، ويخضع لعملية «تركيب بوبو» ممنهجة. يشعر إنه يعتمد على الآخرين بشدة ويظل «أسير تكشيرة شخص آخر، وجه آخر». يقتصر دوره على المراقبة والتعليق، وبينما هو يتصرف كأنه عالم أعراق بشرية يكتشف ثقافة غريبة في رحم ما هو معررف ومألوف. أثناء مبارزة إعطاء الوجوه الذي يتنهي بها هذا الجزء من الرواية يحس جوي - الحكم الرئيسي بـ«الكراهية أن يعبر بأي شيء» ويحلم فقط بالهروب. حينئذ مرة أخرى، يظهر بيمكو

مثل[1] *Deus ex machina* ويطلق سراح جوي من كابوس المدرسة - ولكن فقط من أجل أن يسجنه في «تلميذة المدرسة» ويلقي به في سجن الحداثة.

عند السيد والسيدة الغلامي يجب على جوي أن يواجه أيديولوجية التقدم والأخلاق الحديثة. في البداية يخضع لإملاءات الشكل ويحاول بأي ثمن أن يثبت للجميع بأنه ليس متكلفاً ولا من الطراز القديم. عندما لا يحقق ذلك نتائج، يغير استراتيجيته ويقرر أن «يتعامل مع كل عنصر تشويهيّ ومضحكٍ وغامضٍ وكاريكاتوري ومتنافر». يبدأ في التآمر على الشكل حتى يتمكن «عنصرٌ غامضٌ، رخوٌ وخالٍ من الأسلوب، شيء مخالف للقانون لا معنى ولا شكل له» من أن يحطم نظام الأسرة المودرن. يدخل متعمداً في عالم السيد والسيدة الغلامي المنظم والعقلي عناصر من الطراز القديم (مثل كلمة «ماما»، التي قدمها لهم خلال وجبة الغداء) أو أخرى غير منطقية (مثل ذبابة منزوعة الأجنحة داخل الحذاء الرياضي أو الغصن في فم المتسول). في النهاية، يدعو بيمكو وكوبريدا إلى غرفة زوتى ويفضح الوضع برمته لوالديها المندهشين. أبطال المشهد الذي دبَّره يلقون أقنعة التسامح والاستنارة التقدمية. مما يؤدي إلى تبادل الشتائم والسباب والشجار وأخيراً يتحولون إلى «كومة» هزلية، أما الشكل المودرن يصاب بنوبات من الغرابة.

ما هي نتيجة تلك المكائد؟ إنها تكشف لنا بأنَّ النظام العقلاني له أساس هش للغاية وأن «المعتاد» مبطن بـ «اللا معقول» وأن الطبيعية هي مثل «بهلوان يمشي على حبل مشدود فوق هاوية غير الطبيعية». يتضح

(١) ما يطرأ على سير القصة فتنقلب به أحوالها من ضراء إلى سراء.

twitter @baghdad_library

أن الإنسان مسير من خلال أنشطة عمياء وأن تلقائية ردود الأفعال ورجعية الغرائز تدفع به إلى أفعال لا يفهمها، ولأنه لا يرغب في الإنسحاب، فإنه يأتي بدوافع ناضجة ex post ولذلك «يستمر العالم في الوجود فقط من خلال حقيقة أن أوان التراجع دائماً يفوت». ضغوط المعايير الاجتماعية ونظام الثقافة بأكمله يشوه الفرد باستمرار ويعزله عن احتياجاته ورغباته الخاصة.

إذن يقوم جوي بتنفيذ نوع من التجربة المعرفية التي تسمح له بصياغة بعض الإستنتاجات العامة المثيرة للاهتمام. ولكن هل ينجح في كسر «الحفلة التنكرية العظيمة» ويحافظ على «ذاته»؟ عندما تتكون في غرفة زوتى «الكومة» الغريبة فإنه ينظر إلى كل شيء من بعيد «كما وجد على الجهة الأخرى من الزجاج». «أين ذهب انتقامي؟» - يتأمل - «وانكسار الأسلوب وجنوني على الأنقاض؟ بدأت المهزلة تنهكني ببطء». مرة أخرى يختار الهروب. بعد مغادرة غرفته عند السيد والسيدة الغلامي يشعر بالحرية، وتلك الحرية ما هي إلا عدم وجود أي شكل، «لم أكن شابا ولا عجوزاً، لا مودرن ولا من طراز قديم، لا طالباً ولا صبياً، لا ناضجاً ولا غير ناضج»، إنها محض احتمال، مجموعة من الامكنيات. يستمر «لجزء من المائة من الثانية،» لأنه على الفور يظهر الكباس والعالم «ينهار ويعيد ترتيب نفسه تبعاً لقواعد عامل المزرعة». وأيضاً في الجزء الثالث، في النهاية عندما يقتحم الفلاحون القرية: «كنت أبحث عن علاقة - يقول جوي - عن ترتيب جديد ولو حتى مؤقت، حتى لا أظلُّ معلقاً في الفراغ». والحل الوحيد الـ«ناضج» الذي يبدو له هو إختطاف صوفيا. الحرية، التي يشعر بها فيما بين شقوق الأشكال لها طبيعة سلبية محضة، لأنها في الواقع تشكل انتقالاً من الفوضى إلى

الشكل، ومن الوحدة، التي تنغمس فيها الـ«ذات» إلى قواعد التعايش الاجتماعية.

والأهم أن كل تلك الألاعيب الفكرية التي توصف هنا لا تحدث على الإطلاق في المرتفعات، في حيز التأمل المحض، لكنها تأخذ شكل القصة الرشيقة والمثيرة والممتعة! وهذا هو ما يميز غومبروفيتش عن مؤلفي «الروايات الفلسفية»، أمثال جان بول سارتر. بالطبع فأنه يبدو أقرب للوجوديين بالنسبة لمفهوم الإنسان بوصفه الكائن المأساوي، الذي ألقي به في عالم غريب وعبثاً يحاول بحثاً عن المعنى، ولكن بدلاً من روح الجدية والسعي البطولي إلى الأصالة يختار التلاعب بالأقنعة والهراء الواعي. روح جدية الواعظ والعقائدية والتأويل الأخلاقي ليست منه في شيء. إنه يطرح المواضع الفلسفية الأكثر أهمية في عصره فقط لكي يعرضها لألاعيب الأدبية الحرة. من الصعب عدم الاتفاق مع ميلان كونديرا حينما يصرح بأسى: أن تصبح رواية «الغثيان» لـ«سارتر» نموذج للاتجاه الجديد وليست «فيرديدوركه» كان أمراً له عواقب مأسوية - ليلة زواج الفلسفة والرواية منذ ذلك الحين تطورت في مناخ من الملل المتبادل.

وفي الوقت نفسه لا يستخدم التجريد التصويري، بل يستخدم تفاصيل الحياة اليومية التي تنقلنا لواقع بولندا قبل الحرب. قدرته الممتازة على الملاحظة تسمح له بالتقاط خصائص سلوك الطبقات الاجتماعية المختلفة - الانتلجنسيا والطبقة الوسطى الحديثة وملاك الأراضي التقليديين. في شخصيات بيمكو والسيد والسيدة الغلامي وعائلة خُوْرليتسكي تجتمع السمات المميزة لكل طبقة من الطبقات الاجتماعية في بولندا ما بين الحربين. ولا تخلو فيرديدوركه أيضاً من

twitter @baghdad_library

رؤية الصراع الطبقي، يكفي أن نتذكر مشهد قطيع الفلاحين وهم يتحولون إلى كلاب ويحاصرون جوي والكباس. هذه الصورة للحشود البشرية التي يحركها الغضب والاحتقار والرغبة في الانتقام التي لا يمكنها أن تتحول إلى مكونات التاريخ الجماعي - مكونات الثورة. وبدا أن النداءات العقلانية للقادمين الجدد وتحذيراتهم الليبرالية غير مجدية - لا يشعر الفلاحون بأنفسهم مواطنين، بل كلاب لأنهم يشكلون في الواقع جزءاً من النظام الإقطاعي ومازالوا يندفعون تجاه القادمين الجدد بعدوانية. ويعود النظام في غمضة عين بظهور العمة الغنية - حينئذ فقط يرجع الجميع إلى أدوارهم ويقبلون مرة أخرى علاقة السيد والعبد المغطاة بورقة توت التقاليد. رؤية غومبروفيتش هنا حادة جداً، تطرف الإعتقادات السياسية والمزاج الثوري المتنامي لم تؤدِ إلى أي تغيير. وقع الهيكل الاجتماعي الهرمي كله في حالة خراب بعد سنتين من نشر فيرديدوركه بسبب وحشية الغزاة: تعرضت الانتلجنسيا لإبادة موجهة، ومع القتل الجماعي لليهود اختفت البرجوازية الصغيرة أما طبقة ملاك الأراضي فقد أفنيت مباشرة بعد الحرب، عندما أصبحت بولندا دولة تابعة للاتحاد السوفيتي في عهد ستالين.

ولا يعني ذلك أن فيرديدوركه شاهدة على عصر بائد وإنها بمثابة أثر تاريخي! بعد أكثر من سبعين عاماً من طبعتها الأولى مازالت تحتفظ الرواية بنضارتها، ويمكننا أن نقرأها كأنها عمل معاصر تقريباً. وبالطبع، في بولندا، فإنَّ الوضع أكثر خصوصية. أصبح غوميروفيتش من التراث. أصبحت تعبيرات مثل «ركب دمامة» أو «بوبو» جزءاً من اللغة اليومية. أدرجت فيرديدوركه في قائمة الكتب الكلاسيكية ووضعت في مناهج القراءات المدرسية. كل عام آلاف من «شحاب» يثبت للشباب أن

غومروفيتش يثير إعجابنا وبأنه كاتب عظيم. نزوة الفوضوية تتبدد، وتم تنظيم المعارضة العقلية. بيد أن هذا الكتاب الرائع لايزال لديه الفرصة لكي يعود إلى الحياة - وذلك عن طريق تأويلات مبتكرة وبترجمات جديدة. لدي انطباع إنها كلما تدخل إلى منطقة لغوية جديدة، فإنها تكشف عن قوة اغرائية وسحر وتسلية، وصدمة، وغضب. لكنها قبل كل شيء، تجبرنا على إعادة النظر في العديد من القضايا العالمية التي يواجهها سكان مناطق العالم والثقافات والعصور المختلفة.

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

اختطاف

يوم الثلاثاء، استيقظت في ذلك التوقيت الباهت الخالي من الروح، حينما أوشك الليلُ على الانتهاءِ ولكنّ الحقيقةَ أن الفجرَ لم يبزغْ بعدُ. استيقظت فجأة، كنت أريد أن أستقل التاكسي إلى محطة القطار، حيث بدا لي أنني على وشك أن أغادر - ولكن فقط في اللحظة التالية أدركت في شقائي أن القطار لا ينتظرني في المحطة وأن ساعة الرحيل لم تدُقّ بعد. كنتُ مستلقياً في ضوء خافتٍ، بينما كان جسدي خائفاً خوفا غير محتمل، الخوفُ يسحقُ روحي وروحي تسحقُ جسدي وحتى أصغر أنسجة جسدي، انكمشت وهي تحسبُ بأنَّ شيئاً لن يحدث، بأنَّ شيئاً لن يتغيّر، ولا شيء سيأتي أبداً، مهما اتخذتُ من تدابير، فلن يحصل أي شيء، أي شيء. كان هذا الخوف من اللاوجود والخشية من الفناء والقلق من اللاحياة والفزع من فقدان الواقعية، صرخة بيولوجية لجميع خلايا جسدي في مواجهة تمزقي الداخلي وتشتتي وانسحاقي. خوفٌ من التفاهة والضآلة غير اللائقين وذعرٌ من التشتُّت وهلعٌ من التفتت وخشية من الاغتصاب الذي في داخلي ومن الاغتصاب الآخر الذي كان يتهدّدني من الخارج - والأهم، كنتُ دوماً مَصحوباً، ودون أن يتركني في أية خطوة، بالشيء الذي يمكن أن أسمّيه بمزاج التقليد والاستهزاء

twitter @baghdad_library

الجزيئي الداخلي، والضحك الماجن الفطري لأجزاء جسدي وأجزاء روحي المماثلة.

أساس هذا الخوف كان حلماً شغلني في الليل وأيقظني. حلمتُ بنفسي - عن طريق انعكاس الزمن الذي ينبغي أن يكون محرّماً على الطبيعة - كما كنتُ عندما كان عمري خمس عشرة أو ست عشرة سنة وانتقلتُ بنفسي إلى مرحلة الشباب، واقفاً في مهب الريح، على صخرة، بجانب الطاحونة عند النهر، وكنت أقولُ شيئاً، وسمعتُ صوتي الحاد الشبيه بصوت الدِيك، المطمور منذ فترة طويلة، ورأيتُ أنفاً منمنماً على وجهٍ لم يصل إلى اكتمالِ تشكُّله ويدين أكبر مما يجب - شعرتُ بالقوام غير المستحب لهذه المرحلة الانتقالية المؤقتة من النمو. استيقظتُ ضاحكاً وخائفاً لأنه بدا لي وأنا اليوم في الثلاثينات من عمري أنني أقلّد وأسخر من ذلك المراهق الذي لم ينبت شعرُ ذقنه بعد، والذي كان أنا يوماً ما، وهو في المقابل يقلّدني- على قدم المساواة - كلانا كان يقلِّدُ الأخر. يا للذاكرة التعيسة، التي تُجبرنا على أن نفصح عن المسارات التي أوصلتنا إلى حاضرنا الحالي! وبعد ذلك، بدا لي وأنا شبه حالمٍ لكنْ في يقظتي أن جسدي غير متجانس وأن بعض أجزائه ما زالت أجزاء الصبي، وأنَّ رأسي تهزأ من سمانة ساقي وتزدريها وسمانة ساقي تهزأ وتزدري رأسي، ويضحك الإصبع على القلب، والقلب على الدماغ، والأنف على العين، وتسخرُ العين من الأنف وتقهقهُ - واغتصبتْ جميع الأجزاء بعضها بعضاً بوحشية في مناخ كُلّي الازدراء شامل ومؤثر. وعندما استعدت وعيي تماماً وقمت بالتأمُّل في حياتي الخاصّة، لم يتراجع الخوف قيد أنملة، بل أنه أصبح أكثر قوَّة على الرغم من أن قهقهة قاطعته أو عزّزته في بعض الأحيان، قهقهة لم

يتمكن الفم من منعها. كنت في منتصف مشوار رحلتي عندما وجدت نفسي في عمق ظلام غابة، وأسوأ شيء هو أن هذه الغابة كانت «خضراء».

لأنني في يقظتي كنت كما في حلمي غير محدد وممزقاً. عبرت مؤخراً روبيكون[1] ثلاثيني الذي لا مفرّ منه، مرّرت على هذا المَعْلَم، وبدا من شهادة الميلاد ومن المظاهر أنني رجلٌ ناضج ولكنني لم أكن كذلك - ماذا كنتُ إذن؟ هل أنا لاعب بريدج ثلاثيني؟ موظف مؤقت يتولى أعمالا هامشية محددا لها مواعيد تسليم نهائية في الحياة؟ ماذا كان وضعي؟ ترددتُ على المقاهي والحانات والتقيت بأناس نتبادل الأحاديث بغير كلفة وأحياناً حتى الأفكار ولكن لم يكن وضعي واضحاً ولم أعرف هل أنا رجل ناضج أم صبي يافع أخضر؛ وهكذا في مطلع أعوامي هذه لم أكن هذا ولا ذاك - كنت لا شيء - ورفاقي الذين قد تزوجوا وإستقروا بمواقع معينة، لم يكن إستقرارهم دائماً في كل مواقع الحياة، ولكن على الأقل إنهم، في كل المواقع الحكومية، عاملوني بإرتياب مفهوم. عماتي، العديد من أولئك «أرباع الأمهات» المشدودات إليّ والملتصقات بي ولكنهن محبات لي بإخلاص، فقد ألححن علي منذ مدة طويلة كي أستقرّ بوظيفة، وذلك كمحام أو كموظف حكومي - كان غموضي كريهاً لهنّ للغاية، فقد كُنَّ لا يعرفْن كيف يتحدثن معي لأنهنَّ لم يعرفْنَ من أنا، فكنَّ على الأكثر يُتمتمنَ فقط.

- جو[2] - يرددنَ بين تمتمةٍ وأخرى - لقد حان الوقت أيها الطفل

---

(١) نهر في شمال إيطاليا الذي عبرها يوليوس قيصر في سنة ٤٩ م. وحينئذ نشبت الحرب الأهلية.

(٢) إسم تصغير ليوسف (يوزيف بالبولندية وتصغيره: يوجو أو يوزو).

twitter @baghdad_library

العزيز. ماذا سيقول الناس؟ إذا كنتَ لا تريد أن تكون طبيباً، كُنْ، على الأقل، زير نساء أو مربي خيول، ولكن كُنْ شيئاً... كُنْ شيئاً واضحاً...

وسمعتُ همسَ إحداهنَّ إلى الأخرى بأنني غير مؤهل اجتماعياً وقليل التجربة، ثم أخذن يتمتمن من جديد وهنّ معذبات بالفراغ الذي كنت أخلقه في رؤوسهن. في الواقع، لا يمكن أن يستمرّ هذا الوضع للأبد. كانت عقارب ساعة الطبيعة بلا رحمة وصارمة. عندما نمت ضروسي الأخيرة، ضروس العقل، كان من المفترض أن نموي قد إكتمل وحان وقت القتل الذي لا مفرّ منه، ينبغي أن يقتلَ الرجلُ الفتى الذي لا عزاء له من الحزن، أن يطير بعيداً مثل فراشة تاركة خلفها الشرنقة التي أُستُهلِكَت. كان من المفترض أن أخرج من غشاوة الغبار ومن الفوضى ومن المستنقعات العكرة والدوامات والهدير وتعرجات النهر، ومن القصب والشجيرات ومن نقيق الضفادع؛ كان يجب عليّ أن أنتقل إلى أشكال محدّدة ومتبلورة، أن أجهز نفسي وأسوِّي أموري وأدخل حيّزَ الحياة الاجتماعية للبالغين وأندمج معهم.

حسنا! لقد حاولت بالفعل واجتهدت ولكنّ القهقهةَ هزتني بسبب نتائج المحاولة. ولكيْ أهندم نفسي وأشرح موقفي قدر المستطاع، شرعتُ في كتابة كتابٍ غريب، ولكن بدا لي أن دخولي العالم محال أن يتمّ بدون تفسير، وبرغم ذلك لم يظهر بعد أي تفسيرٍ من شأنه ألا يُزيد التشويش. كنت أرغب بدايةً في كسب ودّهم بكتابٍ، وذلك حتى أصل لاحقاً عند حدوث المواجهة الشخصية، إلى أرضية ممهدة و- ظننت - أنني إذا استطعت أن أزرع في نفوسهم صورة إيجابية عنّي، فستشكلني هذه الصورة بدورها؛ وهكذا حتى لو لم أكن راغباً، فسأصبحُ ناضجاً. إذاً لماذا خانني القلمُ؟ لماذا لم يسمح لي هذا العارُ المقدّس بكتابة رواية

سطحية كما هو معتاد؟وبدلاً من أن أحبك الرواية بحبكة من علياء القلب والروح، فإنني حبكتها من أطراف أدنى وحشوتُ في النص بعض الضفادع، والسيقان كمضمون غير ناضج، متهيج فحسب، ومعزول على الورق فقط بالنمط والصوت والنبرة الهادئة المحسوبة، ومُبيّناً بهذه الطريقة أنني أرغب في فصل عناصر الهياج. لماذا - كما لو كانت على عكس ما كنت أنتوي - أعطيت هذا العنوان للكتاب: «مذكرات من مرحلة البلوغ»؟ نصحني أصدقائي عبثاً بعدم إعطاء هذا العنوان وأن أتجنّب بشكل عام ولو أبسط إشارة إلى عدم النضج. «لا تفعل ذلك - كانوا يقولون - عدم النضج فكرة حسّاسة، وإذا اعتبرت نفسك غير ناضج، فمن إذن سيعتبرك ناضجاً؟ ألم تفهم أن شرط النضوج الأول والأهم، والذي من دونه لا يوجد شيء البتة، هو أن - تعتبر نفسك ناضجاً؟». ولكن بدا لي أنه لا يجوز بسهولة وبساطة أن أتخلّص من الولد «أبو مخاط» الذي في داخلي وأن «البالغين» أكثر ذكاءً وأبعد نظراً من أن يتم خداعهم، وأن الشخص الذي يطارده بشكل متواصل الولد أبو المخاط بداخلي، لم يكن يُسمح له بأن يظهر في العلن دون الولد أبو المخاط. ولكن ربما كان موقفي تجاه الجدية شديد الجدّية، وبالغت في تقدير بلوغ البالغين.

الذكريات، الذكريات! رأسي مستريح على الوسادة، قدماي تحت الأغطية، قمتُ بموازنة دخولي بين البالغين، مرّة من خلال الضحك ومرة من خلال الخوف. هناك صمتُ أكثر مما ينبغي عن العيوب الشخصية والداخلية لهذا الدخول المشحون بالعواقب إلى الأبد. الأدباء، هؤلاء الناس الذين لديهم موهبة إلهية للكتابة في المواضيع البعيدة عنهم والأكثر تجريدية، مثل دراما الحزن في روح الإمبراطور تشارلز الثاني

twitter @baghdad_library

بسبب زواج برانهيلد[1]، يترددون في ملامسة الموضوع الأهم وهو تحولهم إلى كائن عام واجتماعي. ظاهراً كانوا يودّون أن يعتقد كل شخص بأنهم كتّاب بفضل الوحي الإلهي، وليس... الإنساني، وأنهم سقطوا إلى الأرض من السماء مع موهبتهم؛ إنهم يخجلون من عرض هذه التنازلات والكوارث الشخصية التي تحمّلوها ليحصلوا على حق الكتابة المفصلة عن برانهيلد، أو على الأقل عن حياة النحّالين. لا، ولا حتى كلمة عن حياتهم الخاصة - فقط عن حياة النحالين. بالتأكيد، بعد إنتاج عشرين كتاباً عن حياة النحالين يمكن للفرد أن يشيد لنفسه تمثالاً - ولكن ما هي العلاقة وأين هي الصلة بين ملك النحالين والرجل بداخله، أين هي الصلة بين الرجل والشاب، والشاب بالصبي والصبي بالطفل، الذي، بعد كل شيء، هو من كان في ما مضى، وأية راحة تلك التي لدى ولدكم أبو المخاط من ملككم؟ الحياة التي لا تلتزم بهذه الارتباطات ولا تتطور ذاتياً بشكل متواصل في كافة النواحي، هي مثل بيت بُنيّ من أعلى لأسفل ويجب أن تنتهي لا محالة بتشتت النفس وانفصامها.

الذكريات! ابتلاء البشرية هو أن وجودنا في هذا العالم لا يتقبّل أيَّ تسلسلٍ هرميٍّ ثابت ومحدد، ولكن بالرغم من ذلك فإنَّ كلَّ شيء لا يزال يسيلُ ويتدفق ويتحرّك وأنَّ كلَّ شخص يجب أنْ يكون محسوساً ومقيماً من قبل كل شخص، وأن آراء الجاهلين ومحدودي الأفق والأغبياء عننا ليست أقلَّ أهميةً من آراء الأذكياء والمستنيرين والبارعين. حيث أنّ اعتماد الإنسان على انعكاسه في روح إنسان آخر هو أعمق ما

---

(١) المحاكاة الساخرة لهذا النوع من البحث التاريخي.

يكون حتى لو كانت هذه الروحُ حمقاء. وأنا بحزم أختلف مع معتقد زملائي الأدباء، فيما يتعلق برأي الأغبياء باتخاذهم منهم موقفاً ارستقراطياً مُتَعَجْرفاً وهم يُعلنون odi profanum vulgus[(١)] يا لها من طريقة رخيصة ومبسّطة لتجنّب الواقع، هروب بائس إلى عجرفة كاذبة! على العكس من ذلك تماماً، أعتقد أنه كلما كان الرأي غبياً ومحدوداً كان أوجهَ وأكثر إلحاحاً، تماماً كما الحذاء الضيق الذي يؤلمك، فهو على عكس الحذاء المريح للقدم. أوه، هذه الأحكام البشرية وهذا المحيط من الأحكام والآراء عن عقلك وقلبك وشخصيتك وجميع التفاصيل الخاصة بتكوينك - التي تُكشَف أمام متهور زيّنَ أفكاره بالطباعة وأطلقها بين الناس على الورق، أوه، ورق، ورق، طباعة، طباعة! ولا أتحدث هنا عن الأحكام شديدة الودّ واللطف لعماتنا بالعائلة، لا، بل أودّ أن أشير إلى أحكام العمّات الأخريات - العمّات المثقفات، والعديد من هولاء «أرباع المؤلفات» وأشباه الناقدات المتابعات، اللاتي يعبرْنَ عن أحكامهنَّ في كافة المجلات الأدبية. لأنَّ الثقافة العالمية قد هبط عليها قطيع من «الولايا» المتابعات الملتصقات بالأدب، فُرضن بامتياز على المناحي الروحية وملمات بالجماليات المنمقة، وفي أغلب الأحيان يمتلكن بعض المعتقدات والأفكار، المدركات أن أوسكار وايلد قد ولت أيامه وأن برنارد شو هو ملك المفارقات. آه، يعرفن تماماً أن عليهن أن يكنّ مستقلات وحازمات وأكثر عمقاً، ومن ثم عادة ما يصبحن مستقلات وأكثر عمقاً وحازمات بلا مبالغة وممتلئات بخير العمّات. العمّة، العمّة، العمّة! أوه، مَنْ منّا

(١) احتقر عوام الناس (من اللاتينية).

twitter @baghdad_library

لم يكن تحت ميكروسكوب العمّة المثقفة ولم يتم تشريحه وهو صامت دون أن يتأوّه من خلال عقلياتهنَّ المسفهة التي تسحب كل الحياة من الحياة، ومن لم يقرأ في الجريدة حكم العمّة عليه فقد غاب عنه أن يعرف أي شيء عن التفاهة ولا يدرك ما فاته من «تفاهة العمة» بالتحديد.

بعدئذ، لنأخذ أحكام مُلاّك ومالكات الأراضي وأحكام تلميذات المدارس والأحكام ضيقة الأفق لصغار الموظفين والأحكام البيروقراطية لكبار المديرين وأحكام محامي الأقاليم وأحكام التلاميذ المبالغ فيها والأحكام المتعجرفة للكهول بالإضافة إلى أحكام الصحفيين وأحكام النشطاء الاجتماعيين وأحكام زوجات الأطباء وأخيراً أحكام الأطفال المنصتين إلى الأحكام الأبوية وأحكام المربّيات والخادمات والطباخات وأحكام بنات العم وأحكام تلميذات المدارس - بحرٌ واسع من الأحكام، يحدّدك كلٌّ منهم في شخصية مختلفة ويخلقك في روحها. كما لو كنتَ ولدتَ داخل ألف روحٍ ضيّقة أكثر مما يجب! بيد أن موقفي هنا كان أصعب وأكثر تعقيداً من ذلك بكثير، حيث أن كتابي كان أكثر صعوبة وحساسية من القراءات تقليدية النضج. صحيح أنه قد أكسبني حفنة من الأصدقاء ذوي الشأن ولو فقط تمكنت العمّات المثقفات والآخرون من ممثلي العامة من معرفة كيف كان يحتفى بي في داخل دائرة صغيرة مغلقة عصية الوصول حتى على أحلامهنّ، في دائرة المحترمين والرائعين، وكيف أنني في تلك القمم كنت أجري أحاديث فكرية، لخرّوا أمامي ساجدين وقبلوا قدميّ. ولكن من ناحية أخرى يبدو أنه كان هناك شيءٌ غير ناضج في كتابي، شيء ما أذِنَ لخصوصية غير ضرورية ثم جذب تلك الكائنات الانتقالية التي لم تكن من ذوات الريش أو من ذوات اللحم، هذه الطبقة الأكثر فظاعة بين أشباه المثقفين - كما

لو ان مرحلة النضوج قد فتنت محظيات الثقافة. فمن الممكن أن يكون كتابي رقيقاً أكثر مما يجب للعقول البليدة، وربما كان في الوقت نفسه قليل الغطرسة والطنطنة إزاء الغوغاءالذين يستجيبون فقط لعلامات الجدية الخارجية. وكثيراً ما كنت أخرج من إحدى تلك الأماكن المقدسة والمحترمة حيث كان يتم الإحتفاء بي بترحيبٍ حار، لألتقي في الشارع بإحدى زوجات المهندسين أو بتلميذة مدرسة، من اللاتي كن يعاملنني بألفة تامّة كأنني أحد زملائهنّ أو رفاقهنّ أو أقربائهن غير الناضج، فتربّت على كتفي وهي تصرخ:

- أهلا يا جو، يا أحمق، يا... يا غير ناضج! وهكذا كنت حكيماً عند البعض وأحمق عند البعض الآخر وذا حيثية عند البعض وبالكاد يراني البعض الآخر وبسيطاً للبعض وأرستقراطياً للآخرين. مُتنازَعاً بين التفوّق والدونية، وحميماً مع هذا وذاك ومحترماً ومتجاهلاً وشهيراً ومحتقراً وواسع الحيلة وعاجزاً، وعشوائياً، كيفما ترسو بي الأوضاع! أصبحت حياتي منذ ذلك الحين ممزقة أكثر من تلك الأيام التي قضيتها في كنف الأسرة. ولم أعد أعرف لمن أنتمي - هل لهؤلاء الذين يقدرونني أو لأولئك الذين لا يقدرونني.

ولكن، ما هو أسوأ - أن أثناء كراهيتي للغوغاء أنصاف المثقفين، كما لم يكره ربما أحد من قبل، كارها بعدوانية، كنت أخدع نفسي مع هؤلاء الغوغاء؛ كنت أتجنب النخبة والأرستقراطية وأهرب من أيديهم الممدودة بالصداقة إلى الحوافر الغليظة لأولئك الذين كانوا يعتبرونني صبياً يافعاً. في الحقيقة، أن الأمر ذو الأهمية القصوى والحاسم في استمرارية تطور الفرد هو كيف يضبط المرء نفسه وتجاه أي شيء يتوجه - إذاً، على سبيل المثال، حين يعمل ويخطب ويتكلم بحماقة ويكتب،

twitter @baghdad_library

فإما أن يوجه نفسه فقط تجاه الناس البالغين المكتملين في التطور وتجاه عالم واضح ومتبلور المفاهيم، أو أن يترك الشخص نفسه ليصبح فريسة عدم نضوج تلاميذ وتلميذات المدارس وأعيان الأراضي والريف والعمات المثقفات وأصحاب الأعمدة الصحفية والصحفيين وأشباح المحظيات اللاتي، ينتظرنك في مكان مظلم حتى يكسونك ببطء ويلتففن حولك بنباتات خضراء متسلقة وبغيرها من النباتات الأفريقية. لم أستطع أن أنسى ولو للحظة العالم الذي ليس عالماً بعد للناس التي ليست ناساً بعد، ورغم خوفي وإشمئزازي وأنا أرتعد من تصور هذا المستنقع الأخضر فلم أستطع أن أنتزع نفسي منه وكنت مفتوناً به مثل طائر صغير عند رؤية ثعبان. كأن شيطاناً كان يغريني بعدم النضج! وكأنني وعلى عكس طبيعتي أتحيز وأحب الطبقة الدنيا وذلك لأنها تبقيني أسيراً عندها كصبي يافع. لم أستطعْ ولو لثانية واحدة أن أتكلم بحكمة لأنني عرفت أن في مكان ما «في الأقاليم» قد يعتبرنى أحد الأطباء أحمقَ وهو يتوقع مني الحماقة فحسب؛ ولم أتمكن أن أتصرف بأية طريقة لائقة أو أن أنسجم في المواقف الإجتماعية لأنني عرفت أن تلميذات المدارس كن يتوقَّعنَ مِنّي فقط تصرفات مشينة. حقاً، في عالم الأرواح الاغتصاب هو الروتين اليومي، ولسنا مستقلين، نحن مجبرون على أن نكون كما يرانا الآخرون وأن نُظهِر أنفسنا من خلالهم، وكانت هزيمتي الشخصية إنني أدمنت بمتعة مرضية أن أجعل نفسي معتمداً على الصبيان والأحداث والبنات المراهقات والعمات المثقفات. أه، ودائماً، دائماً تكون العمة حملاً على ظهرك - أن تكون ساذجاً لأن شخصاً ساذجاً يعتقد إنك ساذج، أن تكون أحمق لأن شخصاً أحمق يعتقد إنك أحمق، أن تكون أخضر لأن شخصاً غير ناضج يغمرك ويغرقك بخضرته -

يمكن أن يؤدي بك ذلك إلى الجنون لولا كلمة «أه» التي تسمح لك بالتحمل والاستمرار! أن تكون على مقربة من عالم أعلى وأكثر نضجاً ورغم ذلك لا تستطيع إختراقه، أن تكون على بعد خطوة من التهذيب والأناقة والذكاء والجدية ومن الأحكام الناضجة والاحترام المتبادل والهرمية والقيم وتلحس هذه الحلوى من خلال زجاج العرض فحسب، أن لا تكون لديك وسيلة للوصول إلى تلك الأمور، أن تكون غيرَ مجدٍ. أن تختلط بالبالغين ولا يزال لديك الإحساس بأنك فقط تتظاهر بالنضج كما كانت الأمور وأنت إبن ستة عشر عاماً. وأن تتظاهر بأنك كاتبٌ وأديبٌ، تحاكي بسخرية الأسلوب الأدبي والتعبيرات الناضجة المهذبة. وأن تنضم كفنان لصراع علني بدون رحمة من أجل بقاء «ذاتك» الحقيقية وفي الوقت نفسه تختار صفَّ أعدائك بصورة سرية.

أوه نعم، في بداية الحياة العامة تم ترسيمي ترسيماً غير مقدس ككاهن وتم مسحي بالزيت من الطبقة الدنيا. وما عقد الأمور أكثر من ذلك أن سلوكي الاجتماعي افتقر إلى الكثير مما هو مرغوب فيه، وكنت أتلعثم بصورة بائسة وعاجزة في علاقاتي تجاه الرجال أنصاف المتألقين من ذلك العالم. ارتباك نابع من تناقض وربما من قلق، لم يسمح لي أن أجد نفسي في أي من نواحي النضوج، وأحياناً كثيرة كنتُ بسبب الخوف أقرص الشخصَ الذي كانت روحه تتجاوب مع روحي. كم كنت أحسد هؤلاء الأدباء المرموقين المقدر لهم من المهد الوصول إلى الأعالي والتي تتصاعد أرواحهم باستمرار كما لو كانت مؤخرات أرواحهم تتدغدغ بمثقاب - هؤلاء الكتاب الجادين الذين أخذتهم أرواحهم على محمل الجد والذين بسهولة فطرية، وبعذاب إبداعي عظيم تعاملوا مع مفاهيم سماوية ومقدسة إلى الأبد حيث أصبح الله

twitter @baghdad_library

نفسه بالنسبة لهم شيئاً عادياً وقليل النبل. لماذا لا يُسمَح لأي شخص بكتابة رواية غرامية أخرى أو بإثارة أوجاع شديدة لعلة اجتماعية وبالتالي يصبح بطل قضية المضطهدين؟ أو أن يكتب قصائد ويصبح الـ«شاعر» الذي يؤمن بـ«المستقبل الباهر للشعر»؟ أو أن يكون موهوباً ويرفع بروحه أرواح الجماهير غير الموهوبة؟ وما هي المتعة أن تؤلم وتعذب نفسك وتحترق في قربان التضحية بالذات وذلك في عالم السمو والرفعة والنضوج؟ الارتياح الخاص وارتياح الآخرين - هو أن تحقق ذاتك من خلال مؤسسات ثقافية عمرها ألف سنة، تماماً كأنك تضعَ مبلغاً من المال في صندوق ادخار. لكنني كنت للأسف صبياً يافعاً وكان صباي هو مؤسستي الثقافية الوحيدة. لقد أُمسِكت وتعطلت مرتين، مرة بماضيّ الطفولي الذي لم أتمكن من أن أنساه، والثانية بطفولية تصورات الناس عني، بهذا الكاريكاتير الذي غرقت به في نفوسهم - كنت السجين الحزين لكل ما هو أخضر، مجرد حشرة في حشائش عميقة وكثيفة.

وضع غير محبب والأكثر من ذلك أنه وضع خطير. لأن الـ«بالغين» لا يشمئزون من شيء قذر اشمئزازهم من عدم النضج ولا يكرهون شيئاً أكثر منه. سيتحملون التدمير الأكثر عنفاً، طالما تم ذلك في سياق النضج، والثائر الذي يحارب أحد المباديء الناضجة بمبدأ أخر ناضج لا يمثل تهديداً لهم، كأنْ يدمر الملكية لصالح الجمهورية أو على العكس من ذلك، يقتحم ويلتهم الجمهورية لصالح الملكية. بل على النقيض، مشاهدة ذلك يعطي لهم متعة أن يشاهدوا بيزنيس النضوج ينتعش. ولكن إذا استشعروا عدم النضج لدى شخص ما، إذا إستشعروا الصبي اليافع وأبو المخاط، فإنهم يهجمون عليه مثل قطيع من البجع يهاجم بطة حتى الموت - يقتلونه بالتهكم والازدراء والسخرية، لن يسمحوا للقيط من

العالم الذي تبرؤوا منه منذ فترة طويلة أن يلوث عشهم. إذن كيف سوف ينتهي كل ذلك؟ إلى أين سيأخذني هذا الطريق؟ وتساءلتُ على أية خلفية نشأت عندي عبودية عدم اكتمال تطوري الذاتي ومن أين أتى أصل إعجابي بالخضار - هل لأني جئت من بلد يعج بكائنات غير مؤهلة، ضئيلة، ومؤقتة، حيث تشعر بالغرابة عند ارتداء ياقة منشأه، بلد ليست «للحزن والقدر» بل يتجول في حقولها «الأحمق والفاشل»[١]، تتأوه؟ أم ربما لأني عشت في العصر الذي يُصدِر كل خمس دقائق شعارات ونزوات جديدة وعند أقل فرصة يتجهم بتشنج... في عصر إنتقالي؟ تسرب فجر شاحب من خلال الستائر نصف المفتوحة، وأنا بدوري عندما تأمَّلتُ رصيد حياتي احمرّ وجهي خجلا وإهتززت بضحكة داعرة وأنا بين أغطية السرير - انفجرتُ بضحك حيواني آليّ واهن، من أدنى ساقي، كما لو أنّ أحداً كان يدغدغ قدمي، كما لو كان هذا ليس وجهي الذي يضحك بل ساقاي. كان من الضروري أن أتخلص من ذلك، أن أنفصل عن الطفولة، أن أخذ قرارا وأبدأ من جديد - كان من الضروري أن أفعل شيئا! أن أنسى في النهاية، أن أنسى تلميذات المدارس! أن أنفصل عن الولع بالعمات المثقفات والفلاحات، أن أنسى صغار الموظفين البغيضين، أن أنسى الساق والماضي المخزي الخاص بي، أن أحتقر الصبي اليافع أبو المخاط - أن أستقر بثبات على أرضية البلوغ، آه، وأخيرا أن آخذ الموقف الأرستقراطي وأحتقر ثم أحتقر! ليس كما كنت أفعل حتى الآن، أن أجتذب عدم نضج الآخرين بعدم نضجي، ولكن - على العكس - أن أنتزع النضج من نفسي وبه

(١) المحاكة الساخرة للخطاب الأدبي في العصرانية البولندية من الفترة ما بين ١٨٩١-١٩١٨.

twitter @baghdad_library

أستدعي نضج الآخرين، أن أتحدث بروحي إلى روحهم! بروحي؟ ولكن هل يمكن أن أنسى ساقي؟ بروحي؟ وأين ساقي؟ هل يمكن أن أنسى سيقان العمات المثقفات؟ وبعدئذ - ماذا سيحدث إذا لم أتمكن برغم كل محاولاتي من التغلب على الخضار النابت والنامي حولي (وأنا شبه متأكد بأنني لن أستطيع) ماذا سيحدث إذا أنا عاملت الناس بنضج واستمروا هم في معاملتي بعدم نضج، إذا أنا ناديتهم بالحكمة، وأجابوني هم بالحماقة؟ لا، لا، أفضل أن أبدأ أنا بعدم النضج، لا أريد أن أَعرِض حكمتي على حماقتهم، أفضل أن أوجه حماقتي ضدّهم! ولكن لا أريد، لا أريد، أفضل أن أكون واحداً منهم لأنني أحبهم، أحب هذه البراعم، هذه الشطئات، هذه الشجيرات الخضراء، أوه!- شعرت أنهم ينتزعوني من جديد ويلتقطونني في حضن محبتهم، ومرة أخرى قهقهت من أدنى ساقي وغنيت أغنية بذيئة:

في بلدة سكوليموفو في منزل فاراموشكا،

في غرفة الخادمة الآنسة ميتشيا

إختبأ قاطعاً طريق في الدولاب

وفجأة أحسست بمرارة في فمي وأصبح حلقي جافا... فأدركت بأنني لست وحدي. كان هناك شخص أخر في الغرفة في زاوية لم يصلها الضوءُ بعدُ.. بالقرب من المدفأة، . كان في الغرفة رجل آخر.

بما أن البابَ كان مغلقاً. إذن، لم يكن ذلك رجلاً بل شبح. شبح؟ شيطان؟ عفريت؟ شخص ميت؟ فجأة أدركت بإنه ليس شخصاً ميتاً، ولكنه إنسانٌ على قيد الحياة، وقف شعر رأسي على الفور من الخوف - شعرت مثلما يشعر كلب بكلب آخر. ومرة أخرى فمي جاف، قلبي

ينبض، ونفسي مكتوم - فقد كنت أنا بنفسي الواقف بجانب المدفأة. وفي هذه المرة لم يكن ذلك حلماً، فعلا كان صِنْوي يقف بجانب المدفأة. لكنني أدركت بأنه خائف أكثر مني؛ كان واقفا مطأطئ الرأس خافض النظر ويداه على امتداد جانبيه - خوفه زاد من شجاعتي. نظرت سرّاً من تحت اللحاف ورأيت وجه هو وجهي ولكنه ليس وجهي. كان يظهر داخل خضار عميق وداكن وهو نفسه أكثر خضاراً - كانت نفس ملامحي كما كانت دائماً. هذا أنفي... هذا فمي... وهاتان أذناي، منزلي. مرحباً بالأركان الأربعة المألوفة! يا لها من ألفة! كم عرفت تعرجات هذه الشفاه التي تخفي القلق والتوتر. هذه هي غمزات الفم... هذا الذقن... الأذن التي قطع «زجزج» منها جزء في الماضي... علامات وأعراض تأثير ثنائي، وجه بين قوتين، خارجية وداخلية وهو واقع بينهما. كان هذا كله لي - أو ربما كنت أنا هو - أو لعل كل ذلك كان لشخص آخر ومع ذلك كان أنا.

بدا لي فجأة إستحالة أن يكون هو أنا. شعرت كشخص نظر بالصدفة في المرآة وللحظة لم يتعرف على نفسه، هكذا صدمت وإندهشت لغرابة تجسد هذا الشكل. الشعر القصير بتصفيفة مضحكة، الأجفان، بنطلون مثل بنطلوني، أعضاء الاستماع والرؤية والتنفس... أكانت هذه أعضائي؟ هل هذا أنا حقيقة؟ تفاصيلي الدقيقة حددتنى، وضوح ودقة الخطوط الخارجية - كلها واضحة أكثر مما يجب. بالتأكيد لاحظ أنني أرى كل هذه التفاصيل فابتسم على إستحياء، ولوح بيده بحركة مترددة بدا إنها تبددت في الظلام.

ولكن الضوء من النافذة إزداد وظهرت هيئته بشكل أوضح وأكثر حيوية - وبدأت أرى أصابعه وأظافره - ورأيت... ولكن الشبح بعد أن

twitter @baghdad_library

أيقن أنني رأيته إنكمش قليلاً وبدأ يشير بيديه ناحيتي بأن لا أنظر إليه. ولكنني لم أستطع إلا أن أنظر إليه. تلك كانت هيئتي. غريبة حقاً، مثل مدام بومبادور. وغير متوقعة. لماذا كانت تبدو هكذا وليست بشكل آخر؟ دخان زائل. زحفت منه عيوبه وأخطاؤه في ضوء النهار بينما كان واقفاً منكمشاً مثل أحد المخلوقات الليلية التي تصبح لا حول لها ولا قوة في ضوء النهار، مثل فأر تم الإمساك به في وسط الغرفة. وأخذت التفاصيل تبرز بشكل أوضح فأوضح، وأفظعَ فأفظع، حيث تسللتْ أجزاء جسمه خارجة من جوانبه، واحدة تلو الآخرى، وكانت هذه الأجزاء محددة بدقَّةٍ ووضوح... إلى أقصى حدود الوضوح الفاضح... إلى أقصى حدود الفضيحة... رأيت إصبعه وأظافره وأنفه وعينه وفخذه وقدمه، وجميعهم الآن في الهواء الطلق، كما لو كنت منوماً مغناطيسياً بكل هذه التفاصيل، وقفت وتحركت نحوه. فارتعش ولوح بيده كأنه يعتذر لي وبدا كأنه يقول إنه ليس هو، «لا تهتم... دعني، سامحني، أتركني في حالي»... ولكن حركتي التي بدأت كمجرد تحذير انتهت بخسة، حيث اندفعت نحوه وأنا غير قادر على أن أكبح يدي الممدودة وهي تطيح وجهه بلكمة. إنصرف! إنصرف! لا، هذا ليس أنا على الإطلاق! هذا شيء عشوائي شيء غريب تم فرضه علي، شيء غريب عني، متطفل، شيء وسط بين العالم الخارجي والداخلي، انه ليس جسدي!

تأوه واختفى بحَجْلَةٍ. فبقيت وحدي لكن في الواقع لم أكن وحدي - لأنني لم أكن موجوداً بالأساس، لم أشعر بأنني كنت موجوداً، وكل فكرة، كل إيمائة، كل حركة، كل كلمة، لا شيء بدا أنه لي ولكن كأن كل شيء إستقر في مكان ما خارجا عنّي، وهو مصنوع لي - فأنا في الواقع مختلف! وذلك سبب لي اضطراباً رهيباً. آه، أن أخلق شكلي الخاص! أن أُنقَل من الداخل إلى الخارج! أن أعبّر عن نفسي، أن يولد

شكلي مني، وليس أن يُصنَع لي! يدفعني الاضطراب إلى ورق الكتابة. أسحب الورق من الدرج، الوقت نهار الآن، ضوء الشمس يغمر الغرفة، تأتي خادمة بقهوة الصباح وكسرات الخبز الصغيرة، وأخيراً وأنا في وسط أشكال لامعة ومصقولة، أبدأ في كتابة أولى الصفحات من عملي الخاص بي الذي سيكون مثلي ومتطابقاً معي تماماً، سيكون المجموع الأجمالي لي، سيكون حرّاً في سرد أفكاري تجاه أي شيء وأي شخص، وفجأة يدقّ الجرس، تفتح الخادمة ويظهر في الباب «ت.بيمكو»، دكتور وأستاذ، وفي الحقيقة هو مجرد معلم مدرسي، لغوي مثقف من كراكوف، صغير وقصير ونحيف وأصلع، يضع نظارة على أنفه ويرتدي بنطلوناً مقلَّماً وعليه سترة من قماشة مختلفة وأظافره بارزة وصفراء وحذاؤه من الشمواة الأصفر.

هل تعرفون الأستاذ؟

هل الأستاذ معروف لكم؟

الأستاذ؟

إيه، إيه، إيه، إيه! على مرأى من هذا الشكل شديد الابتذال والتافه للغاية، إرتميت بنفسي على كتاباتي مغطياً إياها بكل جسمي ولكنه جلس فاضطررت أنا أيضاً إلى الجلوس نتيجة ذلك، وبعد أن جلس قام بتعزيتي بعمَّةٍ لي توفيت منذ فترة طويلة إلى حد ما والتي كنت نسيتها تماماً - . ذكرى الموتى - قال بيمكو - هي تابوت العهد بين السنوات الجديدة والقديمة، مثل أغنية جماعية[١] (ميتسكيفيتش)[٢] نحيا بحياة

(١) إحالة إلى كتاب لآدم متسكفيتش «كونراد والينرود» (Konrad Wallenrod).

(٢) آدم ميتسكيفيتش (Adam Mickiewicz, 1798- 1855) - أهم شاعر وطني بولندي.

twitter @baghdad_library

الموتى (أ.كومت). توفيت عمة سيادتكم وهو سبب مناسب كي نهدي لها دراسة عن إسهاماتها في الفكر الثقافي. كانت للمرحومة عيوبها (ذَكَرَها) ولكن كانت أيضاً لها محاسن (ذكرها) التي أفادت عامة الناس، في المجمل لم تكن كتاباً سيئاً، بل أقصد أنها يمكن أن تأخذ تقديراً وعلامة جيدة - أخيراً وباختصار، كانت المرحومة عاملاً إيجابياً وتقييمي العام لها مرضي وإيجابي وبناء عليه فإنه من دواعي سروري أن أعلن لك ذلك، بما إنني أنا، بيمكو، حارس القيم الثقافية التي بلا شك ما زالت تمثلها عمتك، خاصة إنها توفيت. وعلى أي حال – أضاف بتساهل – de mortius nihil nisi bene[١]، وبالرغم من أنه يمكن أن أنتقد هذا أو ذاك، لماذا نثبط من عزيمة مؤلف شاب، عفواً، ابن أخت لها... ولكن ما هذا؟ - صرخ عندما رأى مسودة حديثة لكتاباتي على الطاولة.

- ليس فقط ابن أخت ولكن مؤلف أيضاً!أرى بأننا نقوم بمحاولة إختبار قدراتنا في الحقل، صو، صو، صو، أيها المؤلف! سوف أتصفحها وأشجعك فوراً...

مد يده لأوراق عبر الطاولة وهو ما زال جالساً ووضع النظارت فوق أنفه ثم اعتدل في جلسته.

- إنه ليس... إنه مجرد - تمتمت وأنا ما زلتُ جالساً.

انكسر عالمي فجأة. كلامه عن العمَّة والمؤلِّف أزعجني بشدَّة.

- حسناً، حسناً، حسناً - قال - صو، صو، أيها الفرخ الصغير.

قال هذا وهو يفرك عينه، ثم أخرج سيجارة وبينما أمسك بها بين

---

(١) عن الموتى لا شيء الا جيداً (مقولة باللاتينية). تقابلها بالعربية مقولة: «لا تجوز على الميت إلا الرحمة».

إصبعين لليد اليسرى، قام بضغطها بإصبعين من اليد اليمنى؛ وأتبع ذلك بعطسة لأن التبغ وخز أنفه، وبدأ في القراءة وهو ما زال جالساً. وجلسته كانت تنم عن الحكمة حين كان يقرأ. أما أنا، فقد شعرت بالغثيان عندما رأيته يقرأ. انكسر عالمي وبدأ على الفور في إعادة تنظيم نفسه تبعا لقواعد هذا الخوجة[1] التقليدي. لم أتمكن من الهجوم عليه لأنني كنت جالساً، كنت جالساً لأنَّهُ كان جالساً. وبدون سبب واضح برز الجلوس في المقدمة وأصبح أكبر عقبة. لذلك تململت على مقعدي وأنا لا أعرف ما يجب القيام به وكيف يجب أن أتصرف، وبدأت في تحريك قدمي والنظر إلى الجدران وقضم أظافري، بينما استمرَّ هو جالساً بمنطقية وثبات وبجلسة مرتبة وممتلئة بالخوجة الذي كان يقرأ. طال هذا الأمر للغاية. مرت علي الدقائق ثقيلة كالساعات وتمددت الثواني فشعرت بحمل ثقيل كأنني شخص يحاول أن يشرب ماء البحر بشفّاطة. تأوهت قائلاً:

- بالله عليك، أي شيء إلا الخوجة! أي شيء إلا شكليات تصرفات الخوجة!

الخوجة الجامد الحاد الزوايا كان يقتلني. بيدَ أنه استمر يقرأ بقراءته «المتخوجة» واستمر في استيعاب كتاباتي الهائجة بطريقته «الخوجية» الأصيلة وهو يمسك ورقة بالقرب من عينيه، بينما كانت هناك عمارة بالخارج، بعرض اثنتي عشرة نافذة وطول اثنتي عشرة نافذة!حلم؟! يقظة؟ لماذا جاء هنا؟ لماذا جلس، لماذا جلست أنا؟ بأية معجزة كل الأحداث السابقة - الأحلام، الذكريات، العمات، العذابات، الأشباح، العمل الذي تم بدايته - تلخصت الآن بجلوس هذا الخوجة التافه؟ كل

---

(١) معلم (العامية المصرية).

twitter @baghdad_library

عالمي انكمشَ في هذا الخوجة. شيء غير محتمل. جلوسه كان منطقياً (لأنه كان يقرأ) ولكن جلوسي لم يكن منطقياً لي. حاولتُ بجهد شديد أن أقف ولكن في تلك اللحظة بالضبط نظر إلي باستخفاف من تحت نظارته وفوراً... تصاغرت وأصبحت ساقي ساقا صغيرة ويدي يدا صغيرة وشخصي - شُخَيْصا وكياني - كيانا صغيراً وعملي - عملا صغيراً وجسمي - جُسَيْمَا، بينما كان هو في المقابل يكبر ويكبر وجلس ينظر إلي بنظرات خاطفة وكان يقرأ مخطوطاتي إلى أبد الآبدين، آمين - جالساً.

هل تعرفون شعور أن تتصاغروا داخل شخص آخر؟ آه، أن تتصاغر في العمَّة فهذا شيء غير ملائم بغرابة، ولكن أن تتصاغر في خوجة ضخم تافه فذلك هو ذروة التصاغر غير الملائم. ولاحظت أن الخوجة مثل بقرة تلتهم خضاري. شعور غريب للغاية - عندما يقضم خوجة من خضار مرجِك بينما هو في الحقيقة في شقتك جالس على كرسيك يقرأ - وهو في الحقيقة يقضم ويلتهم. شيء رهيب كان يحدث لي، كنت محاطاً بشيء غبي وغير حقيقي بوقاحة.

- روح! - صرخت - أنا! روح! لست مؤلفاً صغيراً! روح! روح على قيد الحياة! أنا! لكنه استمر جالساً وجالساً وجالساً، ملتصقاً في مقعده وطال جلوسه في مجلسه هكذا، جلوس في منتهى الغباء ولكن في نفس الوقت ساحق. وبعد أن خلع النظارة عن أنفه فركها بمنديل، ثم وضعها على أنفه وكأن أنفه أصبح شيئاً لا يُقهر. كان أنفا أنفياً، تافهاً وفارغاً، أنفاً «خوجيا»، طويلاً إلى حد ما ومكوَّناً من أنبوبين متوازيين محدودين. وقال:

- ماذا تريد؟ أيّ روحٍ؟

صرخت:

- روحي!

حينئذٍ سأل:

- روحُ منطقتك؟ روحُ وطنك؟

- ليست روح منطقتي ولكن روحي الخاصة بي!

- الخاصة بك؟ - متسائلاً بود وهو جالس - هل تتحدث سيادتك عن الروح الخاصة بك؟ ولكن هل روح الملك فلاديسلاف مألوفة لسيادتك على الأقل؟ واستمرّ جالساً.

أيّ ملك فلاديسلاف؟ شعرت كأنني قطار انتقل فجأة من سكته إلى تحويلة جانبية للملك فلاديسلاوف. فرملتُ وفغرتُ فاهي حين أدركت إن روح الملك فلاديسلاف غير مألوفة بالنسبة لي.

- وهل تعرف سيادتك روح التاريخ؟ وروح الحضارة الهيلينية؟ وروح الحضارة الغاليّة وروح الاعتدال والذوق السليم؟ وروح كاتب الأنشودات الرعوية من القرن السادس عشر الذي لا يعرفه أحد غيري، والذي استخدم لأول مرة كلمة «سُرّة»؟ وروح اللغة؟ وهل الصحيح أن نقول: «استخدم الشيء» أم «انتفع بالشيء»؟

فاجأني السؤال. مائة ألف روح خنقت روحي فجأة، غمغمت بأنني لا أعرف فاستمر يسأل ماذا أعرف عن روح الشاعر كاسبروفيتش[١] وكيف كان تعامله تجاه الفلاحين، وأعقبه بسؤال إضافي عن الحب

(١) يان كاسبروفيتش (Jan Kasprowicz, 1860-1926) - رائد الشعر الحر في بولندا من فترة الحداثة البولندية) (هيمن موضوع الفلاحين على المرحلة المبكرة من إبداعه).

twitter @baghdad_library

الأول لليليفيل[١] تنحنحتُ وألقيت نظرة خلسة إلى أظافري - كانت أظافري نظيفة، لم يكن عليها قصاصة للغش. آنئذ التفَتُّ برأسي إلى الوراء - كما لو كنت أتوقع أن شخصاً ما سوف يلقنني الإجابة. لكن لم يكن هناك أحد ورائي. يا له من كابوس فظيع رحماك الله! ماذا يحدث يا الله! أرجعت رأسي بسرعة إلى وضعها الطبيعي ونظرت إليه، ولكن بنظرة لم تكن لي، كانت نظرة عابسة وصبيانية ومشبعة بكراهية طلابية. إستولت علي فجأة نزوة غير ملائمة وعتيقة بَطُل إستعمالها... أن أضرب المعلم بكرة ورقية في أنفه بالضبط. أثناء إدراكي أنني أفقد السيطرة على نفسي، بذلت جهداً شديداً لكي أسأل بيمكو بنبرة ودية عن أخبار المدينة، ولكن بدلاً من صوتي العادي أصدرت صوتاً ناعماً ومبحوحاً، كأن صوتي يعود من جديد إلى ما كان عليه وأنا صبي وسكت؛ فسأل بيمكو ما أعرفه عن ظرف الحال وأمر بتصريف الأسماء: mensa, mensae mensae والأفعال: amo, amas, amat ثم عبس قائلاً:

- حسناً، نعم، يجب علينا أن نعمل أكثر - أخرج دفترَ ملاحظاته وأعطاني درجة سيئة واعتدل في جلسته أثناء ذلك وكأن جلوسه مطلق، لانهائي.

ماذا؟ ماذا؟ كنت أريد أن أصرخ بأنني لست طالباً، كل ذلك خطأ وهممت بالهروب ولكنَّ شيئاً أمسك بي من ورائي مثل القراضة وثبتني على وضعي - أمسك بي البوبو[٢] الطفولي الصبياني.

---

(١) يواخيم ليليفيل (Joachim Lelewel, 1786-1861) - مؤرخ بولندي وناشط سياسي. (مدحه ميتسكيفيتش بقصيدة).

(٢) مؤخرة المرء (عامية بولندية).

لم أستطع التحرك بسبب مسكة البوبو، وكان الخوجة ما يزال جالساً وفي جلوسه كان يمثل «الخوجية» الكاملة إلى درجة إنني بدلاً من أن أصرخ، رفعت إصبعين إلى أعلى، كما يفعل التلاميذ في المدرسة عندما يريدون التحدث. عبس بيمكو وقال:

- اجلس كوفالسكي. مرة أخرى تريد الذهاب إلى الحمام؟

فجلست في هذا الهراء غير الواقعي وكأنني في حلم، مكمِّماً حيث تم «تخويجي» وفُرِضَتْ عليّ «خوجيته»، وجلست على بوبوهي الطفولي بينما كان هو يجلس كأنه جالس على قمة الأكروبوليس[١] ثم سجل شيئاً في دفتر ملاحظاته. وأخيراً قال:

- حسناً، جو، لنذهب إلى المدرسة.

- إلى أية مدرسة؟!

- إلى مدرسة الناظر بيوركوفسكي. إنها مركز تعليمي من الطراز الأول. ولا تزال هناك أماكن شاغرة في الصف السادس. تعليمك كان مُهْمَلا ويحتاج أولاً إلى ملء فجواته.

- ولكن إلى أية مدرسة؟!

- إلى مدرسة الناظر بيوركوفسكي. لا تَخَفْ، نحن المعلمين نحب الكتاكيت، صو، صو، صو، دعوا الاولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم[٢]

- ولكن إلى أية مدرسة؟!!

- إلى مدرسة الناظر بيوركوفسكي. لقد طلب مني سابقا أن أملأ له

---

(١) كلمة يونانية معناها المدينة العالية أو الحصن.

(٢) إنجيل مرقس ١٠، ١٣-١٤

twitter @baghdad_library

كافة الأماكن الشاغرة. المدرسة يجب أن تعمل. وبدون الطلاب لن تكون هناك مدرسة وبدون المدرسة لن يكون هناك مدرسون. هيّا إلى المدرسة! إلى المدرسة! بالتأكيد هناك في المدرسة سوف يجعلون منك طالباً.

- ولكن إلى أية مدرسة؟!!!

- أوه رجاء، لا تتجهم! إلى المدرسة! إلى المدرسة! - نادى الخادمة وأمرها أن تأتي لي بمعطفي، والفتاة لم تفهم لماذا يأخذني هذا السيد الغريب، فلذا انفجرتْ بالنواح، ولكن بيمكو قرصها - ولم تستطع الخادمة المقروصة أن تنوح أكثر، فصكت على أسنانها ورسمت إبتسامة عريضة كما ينبغي لخادمة مقروصة - أمسكني من يدي وقادني إلى خارج المنزل وفي الشارع كانت البيوت كما هي في أماكنها والناس تمشي في طريقها!

يا شرطة! ما هذا الغباء؟! غباء إلى درجة غير معقولة! شيء مستحيل من فرط غبائه! غبي بشكل يمنعني من المقاومة... لم أستطع أن أقاوم أمام هذا الخوجة المبتذل الذي كان خوجة تافها. تماماً مثل أن يسألك شخص سؤالا تافها ومبتذلا أكثر مما يجب، فلم أستطع أنا أيضاً أن أقاوم. بوبوهي الغبية الصبيانية شلتني وسلبتْ مني كل قدرة على المقاومة؛ أثناء هرولتي بجانب هذا الكولوسوس[1] وهو يثب بخطواته الواسعة، لم أستطع أن أجاريه بسبب بوبوهي مهما حاولت. وداعاً، أيتها الـ«روح»، وداعاً أيها العمل الذي كان في بدايته، وداعاً يا شكلي

(١) تيتان من الميثولوجيا الإغريقية.

الأصلي والحقيقي، وأهلا بك أيها الشكل الصبياتي الرهيب، شكل أخضر لم ينبت ريشه بعد! تم تخويجي وأنا أهرول بخطواتي الصغيرة بجانب الخوجة العملاق الذي كان يتمتم فقط - «صو، صو، فرخ صغير... الأنف أبو المخاط... أحب... أأأ... أيها الرجل الصغبر، يا صغيري، أأ، صو صو صو، يا كتكوت، جو، جو، جو الصغير، جو الحبوب، يا صغنون[1]، يا صغنون، صو، صو، بوبو، بوبو...» - وكانت أمامنا سيدة أنيقة معها كلب صغير مربوط في سلسلة وفجأة اندفعَ الكلب نحو بيمكو مزمجراً وممزقاً بنطلونه وصرخ بيمكو وأبدى ملاحظة سلبية تجاه الكلب وسيدته ثم شبك ساق البنطلون بدبوس وأكملنا طريقنا.

---

(١) صغير (عامية).

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

سجن ومزيد من التصاغر

والآن أمامنا - لا، لا أصدق عيني - مبنى مسطح إلى حد ما، المدرسة التي يجرنى بيمكو بيدي الصغيرة نحوها على الرغم من صرخاتي واحتجاجاتي ويدفعنى إليها من خلال البوابة. وصلنا أثناء فترة الاستراحة الكبيرة وفي فناء المدرسة كانت هناك كائنات انتقالية تتراوح ما بين العشرة والعشرين عاماً يمشون في دوائر وهم يتناولون غداءهم الذي يتكون من الخبز مع الزبدة أو الجبن. كانت الشقوق في السياج المحيط بالفناء تسمح للعمات والأمهات - اللاتي لا يمللن أبداً من متابعة أحبائهن الصغار. إستنشق بيمكو رائحة المدرسة من خلال أنابيبه الأنفية المدربة.

- صو، صو، صو - هتف - يا صغيري، يا صغيري...

وفي تلك اللحظة توجه إلينا رجل أعرج تبدو عليه علامات الثقافة، بالتأكيد هو المعلم المسؤول عن مناوبة ساعة الاستراحة ورحب بنا بتذللٍ شديد تجاه بيمكو.

- يا أستاذ - قال بيمكو - هذا جو الصغير الذي أود أن ألحقه بطلاب الصف السادس، جو، قل مرحباً للأستاذ. بعد قليل سأتحدَّث مع

twitter @baghdad_library

بيوركوفسكي وفي غضون ذلك سأتركه معك، ليتعود على الحياة الطلابية.

كنت أرغب في الاحتجاج ولكنني فقط دبدبت على الأرض بقدمي، هب نسيم خفيف، حرك فروع الأشجار ومعهم حفنة من شعر بيمكو.

- آمل أن سلوكه سيكون جيداً - قال المربي العجوز وهو يربِّتُ على رأسي الصغيرة.

- حسناً وكيف حال الصبيان؟ - سأل بيمكو بهدوء - أرى إنهم يتجولون في دوائر - جيد جداً. يتجولون، يتحدثون مع بعضهم البعض بينما أمهاتهم يتلصصنَ عليهم - جيد جداً. ليس هناك شيء أفضل من أم تتابع من وراء السياج صبيًاً في سن الدراسة. لا أحد يستطيع أن يستخرج منهم ذلك البوبو الطازج الطفولي أفضل من أم متمركزة جيداً وراء السياج.

- على الرغم من هذا، فهم ليسوا ساذجين بما فيه الكفاية - اشتكى المدرس بحدة - لا يريدون أن يتشكلوا بشكل البطاطس الطازجة. لقد تأكدنا أن الأمهات رقدنَ عليهم مثل الدجاجة على بيضها ولكن حتى هذا لم يكن كافياً. ما زلنا لا نستطيع نستخرج منهم تلك النضارة والسذاجة الصبيانية. سوف لا تصدق، يا صديقي، كم هم عنيدون ومقاومون في هذا الصدد. إنهم بكل بساطة لا يريدون.

- ذلك لأنكم تفتقدون المهارات التربوية المناسبة! - وبَّخه بيمكو بحدَّة.

- ماذا؟ لا يريدون؟ ولكن يجب عليهم! سأريك كيف توقظ فيهم السذاجة. أراهن أن بعد نصف ساعة ستتضاعف جرعة سذاجتهم. خطتي

هي كما يلي: سأبدأ بمراقبة الطلاب وسأعرفهم بأكثر الطرق الممكنة سذاجة، إنني أراهم ساذجين وبريئين. هذا طبعاً سيغيظهم، سيريدون أن يظهروا لي أنهم ليسوا ساذجين وحينئذ فقط سيغطسون في السذاجة والبراءة الحقيقية والحلوة جداً بالنسبة لنا، نحن المربين!

- ولكن ألا تعتقد - سأله المعلم - أن دسّ السذاجة في الطلاب هي حيلة تربوية بَطُلَت وأصبحت عتيقةً؟

- تماماً! - قال بيمكو - أعطِنِي من تلك الحيل العتقية أكثر ما يمكن! العتاقة هي الأفضل! ليس هناك شيء أفضل من الحيل التربوية العتيقة الأصيلة! هؤلاء الصغار الحلوين الذين ربيناهم في مناخ غير واقعي تماماً، يشتاقون قبل كل شيء إلى الحياة والواقع ولذلك لا شيء يضايقهم أكثر من براءتهم. ها ها ها، دعني أوحي إليهم الآن ببراءتهم، سأُعَلِّبَهُم في هذا المفهوم اللطيف وسترى كم سيصبحون أبرياء!

واختبأ فجأة وراء جذع شجرة البلوط الكبير الذي كان ينبت خارج مسار المشاة فأمسكني المعلم بيدي الصغيرة وقادنى إلى الطلاب قبل أن أستطيع أن أشرح وأحتج. ثم أطلقني وتركني في وسطهم.

تمشى الطلاب. بعضهم لكز البعض الآخر أو كان ينقرهم بنقرات خفيفة بأصابعه وآخرون ألصقوا رؤوسهم في كتبهم وهم يحشونها باجتهاد بينما كانوا يسدُّون أذانهم بأصابعهم، أما بعضهم فكانوا يقلدون أنفسهم أو كانوا يشنكلون[1] الآخرين وكانت نظراتهم الفارغة العبيطة

(١) شنكل (عامية) - أن يمد قدمه لكي يتعثر شخص أخر.

twitter @baghdad_library

تنزلق من علي دون أن تكتشف أن عمري ثلاثون عاماً. تقدمت إلى أحدهم على مقربة مني - كنت مقتنعاً أن هذه المهزلة الساخرة لا بد أن تنتهي قريباً.

- عفوا يا زميلي - بدأت بالحديث - مؤكد أنك لاحظت إنني لست...

لكنه صاح:

- انظروا! زميلوس جديدوس[1] (زميل جديد)!

أحاطوا بي وصرخ أحدهم:

- *وأي ريح ونزوات خبيثة ألقت بشخص حضرتكم الكريم إلى هذه الخرابة القذرة في هذا الوقت المتأخر؟*

وطالبٌ آخر أطلق صوتاً حاداً قصيراً وسط ضحكة مصابة بحالة مستعصية من العبط:

- *هل يا ترى من الممكن أن تكون علاقة غرامية مع آنسة ما هي التي عوقت حضور االزميلوس المحترموس؟ ربما تصادف أن الزميلوس المتغطرس كسلان؟*

سكت أثناء سماع هذا الكلام البشع، كأن أحداً عقد لساني ولكنهم لم يتوقفوا أبدا كأنهم لا يستطيعون - كلما كانت كلماتهم أكثر بشاعة، كلما لوثوا أنفسهم وكل شيء حولهم بسعادة أكبر وعناد جنوني. وقالوا - جنس *لطيف*، *آنسة*، *عاهرة*، *المزين*، *فيبوس*[2]، *شهوة الحب*، *قزم*،

---

(١) المحاكاة الساخرة لطريقة كلام الطلبة البولنديين في هذه الفترة تتكون من مزج الكلمات اللاتينية والبولندية القديمة.

(٢) أحد أسماء الإله الإغريقي أبولو.

الأستاذوس، *درسوس اللغة البولنديوس*، *مبادئوس*، *رغبة جنسية*. كانت حركاتهم خرقاء - وجوههم بدت محشوة ومنتفخة - وكان موضوعهم الرئيسي أما - بالنسبة لصغار السن - الأجزاء الجنسية - أو - بالنسبة للأكبر سناً - العملية الجنسية وكل ذلك مع دمج الكلمات في أسلوب قديم ونهايات لاتينية مما شكل كوكتيلاً سيئاً للغاية. بدا كأنهم كانوا محشورين في شيء، في غير موضعه وخارج سياق المكان والزمان، وألقوا نظرات سريعة على المعلم أو على الأمهات وراء السياج ومتشبثين ببوبوهاتهم بشدة ونتيجة إحساسهم بالمراقبة المستمرة أعيقوا عن تناول إفطارهم.

وقفت مذهولاً من كل ذلك، غير قادرٍ على استيعاب الأحداث وأدركت أن المهزلة لا تقترب من الانتهاء. عندما لاحظ هؤلاء طلبة العلم السيد الغريب مختبأ وراء شجرة البلوط يراقبهم عن كثب وبعناية، زادت عصبيتهم إلى أبعد حد وانتشرت الهمسات بأنَّ مفتشاً قد جاء إلى المدرسة ويقف الآن وراء الشجرة ويتجسس. «مفتش!» - قال بعضهم ومدوا أياديهم إل كتبهم واقتربوا بشكل متباهٍ من شجرة البلوط. «مفتش!» - قال آخرون أثناء ابتعادهم عن شجرة البلوط، ولكنهم جميعا لم يتمكنوا من أن يرفعوا عيونهم عن بيمكو الذي اختبأ وراء شجرة وكان يكتب بقلم رصاص على قصاصة ورق قطعها من دفتره. «إنه يكتب شيئاً» - همسوا يمينا ويساراً. «يسجل ملاحظاته» - وفجأة ألقى بيمكو بحركة ماهرة هذه القصاصة كأن الرياح هي التي أطارتها. وكان مكتوباً على القصاصة:

إستنادا إلى ملاحظاتي التي قمت بها في المدرسة «س» خلال فترة

twitter @baghdad_library

الاستراحة، أعتقد بأن ذكور شبيبتنا أبرياء! هذا هو اقتناعي العميق. دليلي على ذلك - مظهر الطلاب وأحاديثهم البريئة

بالإضافة إلى بوبوهاتهم البريئة واللطيفة.

ت. بيمقو

وارسو... ١٩٣-٠٩-٢٩.

عندما وقعت المذكرة في يد الطلاب، احتشدت المدرسة مثل بيت النمل. «ماذا؟ نحن أبرياء؟ نحن شباب اليوم أبرياء؟ نحن الذين نضاجع النساء؟» - ازدادت الضحكات والقهقهات الملتهبة ولكن في سرية، وعجّ المكان بالتهكم. «آه، يا له من حاج ساذج! يا لها من سذاجة! ياه، يا لها من سذاجة!». ولكنني أدركت سريعا أن الضحك استغرق وقتاً طويلاً أكثر مما يجب... وبدلا من أن ينحسر فقد نما وزاد وبينما كان الضحكُ يؤكد نفسه أصبح اصطناعياً في إفراطه في الغضب. ماذا كان يحدث؟ لماذا لم ينحسر الضحك؟ فقط بعد فترة أدركت ما هو نوع السمِّ الذي حقنهم به بيمكو الشيطان المكيافيلي. لأن الحقيقة هي أن هؤلاء الكلاب الصغار المحاصرين في المدرسة والمبعدين عن الحياة - كانوا أبرياء بالفعل. نعم، كانوا أبرياء، على الرغم من أنهم لم يكونوا أبرياء! كانوا أبرياء في رغبتهم أن لا يكونوا أبرياء. أبرياء مع إمرأة بين أذرعهم! أبرياء في عراكهم وضربهم. أبرياء عندما كانوا يُلقون قصائد الشعر وأبرياء عندما كانوا يلعبون البلياردو. أبرياء عندما كانوا يأكلون وينامون. أبرياء عندما كانوا يتصرفون ببراءة. مهددين طول الوقت

بسذاجة مقدسة، حتى عندما كانوا يسكبون الدم ويعذبون ويَغتَصِبون أو يلعنون - كانوا يعملون كل شيء لكي يتجنبوا الوقوع في البراءة!

ومن ثم ضحكهم بدلاً من أن يهدأ، نما وترعرع، وبعض الطلاب امتنعوا عن الإتيان بردود أفعال عنيفة بينما أخرون لم يتمكنوا من ذلك - وفي البداية ببطء، ثم بسرعة أكبر هبطوا إلى أفحش كلام ممكن وبذاءة تجعل حتى سائقَ حنطورٍ سكرانَ يخجل منه. وبانفعال شديد تبادلوا الشتائم البذيئة والقذارات الأخرى بسرعة وسرية بينما بعض منهم رسموا هذه الشتائم بالطباشير على سور المدرسة على هيئة أشكال هندسية؛ وعج هواء الخريف الشفاف بكلمات أسوأ بمائة ضعف من تلك التي قابلوني بها في البداية. بدا لي أنني كنت أحلم - لأنه فقط في الأحلام نكون في مواقف أكثر غباء مما يمكن أن نتخيل. حاولت أن أمنعهم.

- لماذا تقولون (طيز) - سألت أحدَ الزملاء محموماً - لماذا تقولون ذلك؟

- اسكت يا أبو شَخة! - أجاب وغد وهو يوكزني بكوعه - انها كلمة رائعة! أنت يجب أن تقولها فوراً - زمجر وهو يدوس على قدمي بطريقة مؤلمة - قُلْها فوراً! فهي دفاعنا الوحيد ضد البوبو! ألا ترى أن المفتش وراء شجرة البلوط يُرَكِب لنا بوبو؟ يا فرفور، يا كلب لولو، إذا لم تتكلم ببذاءة فوراً سوف ألوي عنقك. يا ميزو، تعال، راقب عن كثب هذا المستجد حتى نتأكد أنه يتصرف بشكل صحيح. وأنت يا هوبا، أسمِعْنا أية نكتة بذيئة. هيا يا حضرات وإلا سَيُرَكِب لنا البوبو هو أيضاً!

بعد إصدار تلك الأوامر، الوغد الفظ - الذي كانوا يطلقون عليه كباس - تسلل إلى شجرة البلوط وحفر عليها ثلاثة أحرف بزاوية غير

twitter @baghdad_library

مرئية لبيمكو ولا للأمهات من وراء السياج. تردد حول المكان الضحك المكتوم والممتلئ بسعادة خفية وعندما سمعت الأمهات من وراء السياج وبيمكو من وراء شجرة البلوط أصواتَ ضحك الشباب هم بدأوا بالضحك أيضاً بنية طيبة - وساد الضحك المزدوج.

إن الشباب ضحكوا بخبث لأنهم خدعوا الكبار والكبار ضحكوا بحسن نية ابتهاجاً بالسرور الخالي من الهموم لدى الصبيان - وبذلك وفي نسمات الخريف تصارعت القوتان في وسط أوراق أشجار البلوط المتساقطة وضوضاء الحياة المدرسية، وأثناء ذلك كله كان البواب العجوز يكنس النفايات داخل الجاروف بينما اصفرّ العشب وأصبحت السماء باهتة...

ولكن فجأة وفي غمضة عين أصبح كل شيء ساذجاً جداً - بيمكو من وراء شجرة والأوغاد المتصايحون بسعادة والمتملقون بأنوفهم المدسوسة في الكتب وبشكل عام صار الوضع ساذجاً بطريقة مثيرة للغثيان - حتى إنني أحسست أنني أغرق مع كل إحتجاجاتي غير المعلنة. ولم أكن أعرف من يجب علي أن أنقذه - نفسي أم الزملاء أم بيمكو؟ اقتربت قليلاً من الشجرة وهمست:

- يا أستاذ.

- ماذا؟ - سأل بيمكو وهو يهمس أيضاً.

- يا أستاذ، لو سمحت أخرج من مكانك. لقد كتبوا كلمة بذيئة على الجانب الآخر من الشجرة. وذلك سبب ضحكهم. لو سمحت أخرج يا أستاذ.

وعندما همست في الهواء بهذه الجملة البلهاء، أحسست أنني

أصبحت مثل درويش صوفي معتوه، وخفت من إحساسي هذا - يدي تكمم فمي، بالقرب من شجرة البلوط وأنا أهمس شيئاً لبيمكو الذي يقف خلف شجرة البلوط في فناء المدرسة...

- ماذا؟ - سأل الأستاذ الرابض خلف الشجرة - ماذا كتبوا؟

زمرت سيارة من بعيد.

-كلمة بذيئة! كتبوا كلمة بذيئة! لو سمحت أخرج يا أستاذ!

- أين كتبوها؟

- على الشجرة. من الجانب الأخر! لو سمحت أخرج يا أستاذ! أخرج وضعْ حدّاً لكل هذا! لو سمحت، لا تسمح لهم بخداعك يا أستاذ! أنت أردت أن تقنعهم بأنهم أبرياء وساذجون فكتبوا لك كلمة بذيئة... لو سمحت يا أستاذ أوقف هذا الاستفزاز لهم. كفاية. لا أستطيع أن أعيد كلامي في الهواء. سيصيبني الجنون. يا أستاذ، لو سمحت أخرج!كفاية!كفاية!

تمايلت خيوط العنكبوت الرقيقة بكسل مع النسمات الصافية عندما كنت أهمس بينما تساقطت أوراق الشجر...

- ماذا، ماذا؟ - هتف بيمكو - هل لي أن أشك في نقاء شبابنا؟ أبدا! لا تقلْ هذا لجندي متمرس وتربوي مثلي!

خرج من وراء الشجرة وبعد أن ظهر عليهم بكامل هيئته، إنطلق الطلاب في زئير متوحش.

- أيها الشباب! - قال بعد أن هدأوا قليلاً. لا تعتقدوا أنني لا أعرف أنكم تستخدمون في ما بينكم كلمات فاحشة وبذيئة. أنا أعرف هذا جيداً.

twitter @baghdad_library

ولكن لا تقلقوا، حتى أسوأ تجاوزاتكم لن تنجح في أن تهز في داخلي قناعتي العميقة بأنكم متواضعون وأبرياء بالأساس. صديقكم القديم سيعتبركم أنقياء ومتواضعين وأبرياء دائماً، وسوف يؤمن بتواضعكم وبنقائكم وبراءتكم دائماً. أما بالنسبة للكلمات البذيئة، فأنا أعرف بأنكم ترددونها دون فهمها، من أجل التفاخر فحسب، بعد أن سمعها واحد منكم من فم خادمة. حسناً، هذا ليس شيئاً سيئاً، على العكس - هذا شيء أكثر براءة مما تظنون.

ثم عطس وما أن مسح أنفه بارتياح حتى اتجه إلى مكتب الإدارة ليناقش موقفي مع الناظر بيوركوفسكي. أما الأمهات والعمات من وراء السياج فتحمّسْنَ إلى أقصى حد وتناوبن على احتضان بعضهنَّ بعضاً:

- يا له من مُرَبٍّ بارع!! بوبو، بوبو، بوبو، يا لها من بوبوهات لدى أطفالنا الصغار!

ولكن كلامه سبب الذعر بين الطلاب. كانوا يراقبون انصراف بيمكو وهم مصعوقون وبعد اختفائه انهمر وابل منِ الشتائم.

- أسمعتم؟ - زأر الكباس - نحن أبرياء!أبرياء، خرا، اللعنة! يعتقد بأننا أبرياء - نحن أبرياء! إنه يصر بأننا أبرياء! أبرياء - ولم يتمكن بأي طريقة من تحرير نفسه من هذه الكلمة التى كبلته وقيدته وكانت تقتله ويبدو إنها بطريقة ما قد «سذّجته» أكثر وجعلته أكثر براءة. ولكن في تلك اللحظة ثمة شاب بدين وطويل كان أصدقاؤه يسمونه سيفون، حان دوره لأنْ ينجرف في السذاجة التي كانت مستعرة في الأجواء - تحدث لنفسه بطريقة تجعل الكل يسمعون ما يقول - في الهواء النقي الشفاف الذي جعل صوته فيه يبدو مثل صوت أجراس الأبقار في الجبال:

- براءة؟ لم لا؟ إن البراءة من الفضائل... يجب على الشخص أن يكون بريئاً... لم لا؟

وما أن أنهى كلماته، حتى انقضّ عليه الكباس قائلاً:

-ماذا؟ إنك تؤمن بالبراءة؟

ثم تراجع خطوة إلى الوراء لأنَّ كلامه بدا سخيفاً بطريقة ما.

ولكن سيفون المتوتر مسك عليه تلك الكلمات وقال:

- أنا أؤمن بذلك!ولم لا؟ أنا لست صبيانياً في هذا الصدد.

أغضب ذلك الكباس الذي اندفع يقذف سخريته في الأجواء.

- هل سمعتم كلكم؟ سيفون بريء! ها، ها، ها، سيفون بريء!

توالت الهتافات:

- سيفونوس بريئوس!هل هناك مصادفة أن سيفون المتغطرس لم يتعرف على أي إمرأة؟

انهمر وابل من الإبيجرامات[١] الداعرة على غرار الشعراء رَيْ[٢] وكوخانوفسكي[٣] وصار العالم من جديد ملوثاً لمدة قصيرة.

ولكن أثارت الإبيغرامات غضب سيفون فأصرَّ على موقفه.

---

(١) صنف من القول الشعري المركز كالحكم وما شابه عرفه الشعر الإغريقي ثم العربي والأوروبي أيضاً.

(٢) ميكواي رَيْ (Mikolaj Rej, 1505-1569) - شاعر بولندي من عصر النهضة يسمى «أب الأدب البولندي».

(٣) يان كوخانوفسكي (Jan Kochanowski, 1530-1584) - شاعر بولندي من عصر النهضة وأحد أهم شعراء هذه الفترة في أوروبا، اشتهر بمرثياته لابنته أورشولا.

twitter @baghdad_library

- نعم، أنا بريء - وسوف أقول أكثر من ذلك، أنا لم «أجرب» مثل هذه الأشياء ولا أرى سبباً يجعلني أخجل من ذلك. يا أصدقاء، بالتأكيد لا يستطيع أحد منكم أن يدعي بصدق بأن النجاسة أفضل من الطهارة.

وتراجع خطوة إلى الوراء لأن كلامه بدا غير مريحٍ بطريقة ما.

ساد صمت. وأخيراً ترددت الهمسات.

- سيفون، أنت تمزح؟ أنت حقاً غير «مُجَرِب»؟ سيفون، لا يمكن أن يكون هذا صدقاً!

وتراجعوا خطوة إلى الوراء. لكن الكباس بصق على الأرض.

- يا سادة، هذا صحيح! فقط ألقوا عليه نظرة! هذا ظاهر عليه! إتفو، إتفو!

ثم صاح ميزو:

- سيفون، مستحيل، أنت تجلب لنا كلنا العار، هيا أترك نفسك «للتجريب»!

سيفون:

ماذا؟ أنا؟ مفترض علي أن أترك نفسي «للتجريب»؟

هوبا:

سيفون، بالله عليك، إن ذلك ليس شأنك أنت وحدك، أنت تجلب لنا العار كلنا - لن أجرؤ أن أنظر إلى أي بنت بعد ذلك.

سيفون:

لا توجد بنات، هناك فتيات فقط.

الكباس:

الفتياا... هل سمعتم؟ وربما كذلك هناك فتيان فقط؟ هه؟ ربما فتيان فقط؟

سيفون:

صحيح، لقد أخذت الكلام من على لساني، يا زميلي... فتيان! يا جماعة، لماذا علينا أن نخجل من هذه الكلمة؟ هل هي أسوأ من الكلام الآخر؟ لماذ نخجل في بلدنا الوليد من فتياتنا على العكس، يجب علينا أن نتعهدهن داخلنا بالعناية! لماذا، إذا سمحتم لي أن أسأل، فقط من قبيل السخرية المصطنعة أن نخجل من تعبيرات نقية، مثل «فتى» و«نسر» و«فارس» و«صقر» و«فتاة» - إنها كلمات أقرب إلى قلوبنا الفتية من اللغة السوقية التي تلوث بها خيال زميلنا العزيز منتلسكي (الكباس).

- كلامه صحيح! - أيّدَ بعضهم.

- متملق! - هتف آخرون.

- يا زملاء! - أكمل سيفون كلامه بحدة وقد انجرف في عواطفه بالفعل وثمل ببراءته الخاصة - ارتقوا بقلوبكم! أود أن أقترح بأن نُقسِم جميعاً وعلى الفور بأننا لن نتبرأ أبدا من الفتى ولا النسر! لن نتخلى أبدا عن أرض ميلادنا[١]! إننا أبناء الفتى والفتاة! أرضنا هي الفتى والفتاة. كل من هو فتى ونبيل، فليتبعني! إن شعارنا هو - حماس الفتيان! وكلمة السر- إيمان الفتيان!

في إستجابة لهذا النداء رفع بعض أنصار سيفون الذين إنجرفوا

(١) إعادة الصوغ لأول الكلمات من النشيد الوطني البولندي.

twitter @baghdad_library

بحماس الفتيان أيديهم وأقسموا يميناً بجدية مفاجئة وإشراق على وجوههم، وإنقض الكباس على سيفون في الهواء الصافي، فإشتعل غضب سيفون - ولكن لحسن الحظ تم تفريقهم قبل أن تبدأ المعركة.

- يا سادة - أعلن الكباس - لماذا لا تركلون هذا النسر، هذا الفتى على مؤخرته؟ أليست فيكم شجاعة على الإطلاق؟ أين نخوتكم؟ فقط ركلة واحدة، لماذا لا تركلونه؟ ركلة واحدة فقط ستنقذكم! كونوا أولاد! أظهروا له بإننا أولاد نصاحب بناتاً ولسنا فتياناً نمرح مع الفتيات!

كان يستشيط غضباً. نظرت إليه وقطرات العرق على جبهتي وخدي تغلف وجهي الممتقع. بقى لدي بصيص من الأمل بأنني بعد رحيل بيمكو سأتمكّن من لملمة شتات نفسي وأن أشرح وضعي - أه، وكيف لي أن أتمكن من لملمة شتات نفسي وعلى بعد حوالي خطوتين مني في الهواء العليل والمنعش كانت وتيرة السذاجة والبراءة تتصاعد. البوبو إستحوذت على الولد والفتى. وبدا كأن العالم انكسر وأعاد ترتيب نفسه من جديد على أساس الفتى والولد. تراجعتُ خطوة للوراء.

سيفون، المعكر المزاج، صرخ في الفضاء الباهت المائل للزرقة، وهو يقف على أرض الفناء الصلبة التي غطتها عروق الظلال وبقع الأضواء:

- أنا آسف، الزميل الكباس هو المهتاج! وأقترح بأن نتجاهله ونتصرف كأنه ليس موجودا، فلْنَنْسَهُ، يا زملاء، فهو خائن... خائن لفتوته، ليس لديه مُثُلٌ عليا!

- أية مُثُل عُليا يا حمار؟ أية مُثل عُليا؟ مُثُلك العُليا - مهما كانت راقية - لا يمكن أن تختلف عنك - إستشاط الكباس غضباً في شِباك

كلماته - ألا تدركون، ألا تروون بأنَّ مُثُلَهُ يجب أن تكون أيضاً وردية وسمينة وبأنف كبير؟ يا بهائم! قريبا سوف يلحق بنا العار عند نزولنا للشارع! ألا تعرفون أن الأولاد الحقيقين، أبناء البوّابين والفلاحين والعمّال وصبيان الأسطوات بكافة أنواعهم وعمال المزارع ممن هم في عمرنا يسخرون منا! نحن لا شيءَ بالنسبة لهم! دافعوا عن الولد ضدَّ الفتى! - قالها في كل اتجاه - دافعوا عن الولد!

ازدادت الإثارة. التلاميذ بوجوه محمرة تشاجروا مع بعضهم البعض، استمر سيفون بلا حراك ويداه متشابكتان على صدره، بينما الكباس ضم قبضتيهِ. من وراء السياج الأمهات والعمّات، بدون أن يكون لديهنَّ فكرة عما يجري، هُنَّ أيضاً كُنّ متحمِّسات. لكن كان معظم الطلاب لم يحددوا موقفهم بعد، وأثناء تناولهم، بنَهَم، خبزاً بزبدة، كرَّروا ببساطة:

- هل هناك مصادفة أن الكباس المتغطرس يعدُّ سفيهاً؟ هل سيفونوس هو مثاليوس؟ لنذاكر بحماس ونحفظ بإجتهاد وإلا سنسقط!

الآخرون الذين فضلوا ألا يتورطوا في ذلك الأمر، قاموا بتبادل أحاديث شيِّقة عن الرياضة وتظاهروا بأنهم يبدون اهتماماً بإحدى مباريات كرة القدم. ولكن بين حين وأخر كان واحد منهم وكما يبدو لعدم تمكنه من مقاومة النزاع اللاذع والملتهب، كان يلقي بسمعه ويفكر ويحمرُّ وجهُهُ فينضمّ إما إلى معسكر سيفون أو إلى الكباس.

استغرق المعلمُ في نوم خفيف على مصطبة في الشمس وتذوق في منامه من بعيد السذاجة الصبيانية. «هاه، بوبو، بوبو» - تمتم. فقط هناك طالب وحيد لم ينجرف إلى الإثارة الإيديولوجية العامة. كان واقفاً على

twitter @baghdad_library

جانب يتشمس في هدوء، مرتديا فانلة قطنية مشبكة وبنطلون صوف ناعم وسلسلة ذهبية حول رسغه الأيسر.

- يا كوبرْدا! - نادى عليه الطرفان - إنضمّ إلينا يا كوبرْدا! - بدا أنه كان مثار حَسَد الجميع، أراد كلٌّ من المعسكرين المتصارعين أن يفوز به ولكنَّهُ لم ينتبه إلى أي طرف منهما. ومدَّ إحدى ساقيه وبدأ في أرجحتها.

- نحن نحتقر أراء البوّابين والعمّال وأوباش الشوارع بكل أنواعهم! -.صاح بيزو، صديق سيفون - هم كلهم أغبياء.

- وتلميذات المدارس؟ - سأل ميزو بقلق - هل تحتقرون كذلك أراء تلميذات المدارس؟ تصوَّروا ماذا سيكون رأي تلميذات المدارس؟

تردَّدت هتافات:

- تلميذات المدارس يحببن الأنقياء!

- لا، لا، إنهن يفضلن الأوغاد!

- تلميذات المدارس؟! - نطقها سيفون بازدراء - نحن نهتم فقط برأي الفتيات المحترمات وهن في صفِّنا!

إقتربَ منه الكباس وقال بصوت متحشرج:

- سيفون! أنت لن تفعل هذا بنا! إسحب ما قلته وأنا سأسحب ما قلته أيضاً! لنسحب معاً، حسناً؟ وأنا مستعدٌّ أن... أعتذر لك، أنا مستعدٌّ أن أفعل أي شيء... لو فقط سحبت هذه الكلمات عن الفتيان... وتركت نفسك للتجريب. إسحب ما قلت عن الفتيان. فسوف أسحب ما قلته أنا عن الأولاد. هذه ليست مسألة شخصية.

ولكن قبل أن يجيب بيلاشكيفيتش (سيفون) ألقى نظرة مرحة ووديعة

عليه، ومع ذلك فهي مليئة بقوة داخلية. ومع مثل هذه النظرة يجب أن تأتي معها إجابة قوية. فأجاب وهو يتراجع خطوة إلى الوراء:

- أنا مستعد أن أضحي بحياتي لِمُثُلي العُليا!

ولكن الكباس إندفع إليه بقبضتين مضمومتين.

- هيا إلى الأمام! أمسكوه يا أولاد! اضربوا الفتى! اضربوا، اقتلوه، اضربوه، اقتلوا الفتى!

- هنا، يا فتيان، هنا! - صاح بيلاشكيفيتش (سيفون) - دافعوا عني، أنا غير مجرب، أنا فتاكم، دافعوا عني! - استمرّ يصيح بصوت ثاقب. وأثارت هذه النداءات مشاعر العديد منهم فشعروا داخلهم بالمواجهة بين الفتى ضد الولد. أحاطوا بسيفون بدائرة محكمة ووقفوا ضد أنصار الكباس. انهمر الضربات ووثب سيفون على صخرة وصاح بهم مُحَمِّسا على المقاومة - لكن الآن أنصار الكباس بدأوا يسيطرون على الوضع وتراجعت بطانة سيفون وفقدت رباطة جأشها. يبدو كأن الفتى إنتهى بالفعل. وفجأة وفي مواجهة هذه الكارثة بدأ سيفون ينشد بما تبقى له من قوة «مارش الصقور»(١)

أيها الإخوة الفتيان، أعطوه قوة،

كي ينهض من بين الموتى، أن يبعث ويعيش!

الأغنية التي تلقوها على الفور، نمت بطبيعة الحال وتضخمت وبلغت ذروتها وتوالت كالأمواج. وقفوا ثابتين بدون حراك، يغنون

---

(١) نشيد المؤسسة الرياضية البولندية «صقر» الذي تحولت لاحقاً إلى منظمة عسكرية إستقلالية.

twitter @baghdad_library

وبقيادة سيفون وعيونهم مثبتة على إحدى النجوم في الأفق البعيد وأيضاً مثبتة على أنوف المهاجمين. وبالتالي ارتخت قبضات المهاجمين المضمومة. لم يعد لديهم أدنى فكرة كيف سينالون منهم، كيف يمكن أن يغضبوهم ويستفزوهم وبأي طريقة - بينما كان الآخرون يغنون بأقصى قوة لديهم، بكل حماس يتجهون بغنائهم الملهم تجاه النجوم والأنوف. الواحد تلو الأخر من أنصار الكباس أخذ يهمس بشيء ما، بهدوء ثم تململ قليلاً وأدَّى حركاتٍ غير ذات معنى وانسحب من المكان، وأخيرا وجد الكباس نفسه مضطراً إلى أن يبتلعَ ريقه بارتباك ثم ينصرف.

أحياناً ينقلنا حلم مزعج إلى أرض حيث كل شيء يكبتنا ويشوشنا ويخنقنا لأنه متصل بـ«زمن فتوتنا» - وهو بالتالي فتي ومع هذا فقد صار قديماً جداً، بالياً وعتيقاً، ولا يوجد عذاب يساوي عذاب مثل هذا الحلم ولا مثل هذا المكان. ليس هناك شيء أكثر فظاعة من العودة إلى مسائل تم تجاوزها، تلك المسائل القديمة عن الفتوة وعدم النضج، التي تمت إزاحتها من زمن طويل إلى أحد الأركان وإستقرت فيه... كما، على سبيل المثال، مسألة البراءة. أوه، أولئك الذين ينشغلون بمسائل يومهم الآني فقط، بمسائل البالغين وهم في أوج قوتهم، ويتركون المسائل التي عفا عليها الزمن إلى العمَّات العجائز، هم يكونون أكثرَ حكمةً بثلاثة أضعاف. وعليه فاختيار المواضيع والقضايا هو أمر في غاية الأهمية للأفراد والشعوب بأكملها، وكثيراً ما نرى أن الشخص العاقل والناضج في معالجته لموضوع ناضج يصبح في غمضة عين غيرَ ناضج بطريقة مؤلمة حيث يواجه مواضيع صبيانية أو من زمن بعيد - وغير متوائمة مع روح العصر وإيقاع التاريخ. حقاً، لا يوجد طريقة أسهل ليبتلى العالم بالسذاجة والصبيانية من أن نعرضه لمشاكل

من هذا النوع، ويجب أن أعترف بأن بيمكو، بالإتقان الذي يميز أبرز الخوجات من الطراز الأول، ورطني وزملائي في مسائل جدلية ومجموعة من القضايا الصبيانية أكثر مما يمكن أن أتخيل.كأنني كنت في مركز حلم يقلل من شأني وقيمتي بلا كلل أو ملل.

طار سرب من الحمام في شمس ورياح الخريف وحلق فوق سقف المدرسة ثم حط على شجرة البلوط وطار في الجو مرة أخرى. الكباس وهو غير قادر على تحمل أغنية سيفون المنتصرة انصرف بحركة بطيئة إلى زاوية الفناء المقابلة مع ميزو و هوبا. بعد مرور بعض الوقت تعافى وعاد إلى حالته الطبيعية التى تمكنه من الكلام. كان يحدِّقُ في الأرض بوجهه الخالي من التعبير. ثم انفجر قائلاً:

- حسناً - وماذا الآن؟

- ماذا الآن؟ - رد ميزو - لا شيء سوى أن نضاعف جهودنا ونستمرَّ في استخدام أقذر كلمات نعرفها. كلمات بثلاثة أحرف - كلمات بثلاثة أحرف - هي سلاحنا الوحيد، هذا هو سلاح الولد!

- ماذا، مرة أخرى؟ - سأل الكباس - مرة أخرى؟ حتى يشعروا بالغثيان؟ نكررها بإستمرار، مراراً وتكراراً؟ مراراً وتكراراً علينا أن نغني هذه الأغنية لمجرد أن سيفون يغني أغنيته؟ شعر بإحباط وفتح كفيه وتراجع بعض الخطوات ونظر حوله. تدلَّت السماء من أعلى في خفة وشحوب وبرود واستهزاء، أدارت الشجرة، تلك شجرة البلوط القوية في وسط الفناء، ظهرها، أما البوَّاب العجوز بالقرب من البوَّابة فقد ابتسم من تحت شاربه ومشى.

- عامل المزرعة - همس الكباس - عامل المزرعة... فكِّروا في ذلك

twitter @baghdad_library

- ماذا إذا سمع عامل مزرعة هذا اللغو المثقف - وفجأة انطلق كالسهم مذعوراً، أراد أن ينجو بنفسه وهو يطلق العنان لساقيه في الهواء الشفاف - كفاية، كفاية، لا، لقد أخذت كفايتي من الفتى والولد، لقد اكتفيتُ من هذا...

أمسك به أصدقاؤه.

- كباسنا العزيز، ما لك؟ - قالوها مبللين بالهواء الصافي - أنت الزعيم! لا يمكن أن نتدبر أمورنا بدونك!

الكباس الممسوك من رسغيه المتجمدين أحنى رأسه وقال بمرارة.

- لا مفرّ.

ألجمت الصدمة لسان ميزو وهوبا. أمسك ميزو بقطعة سلك في حيرة ودفع بها، وهو شارد الذهن، إلى ثقب في السياج فأصاب عين إحدى الأمهات. ولكنه رمى السلك بعد ذلك. تأوهت الأم من وراء السياج. وأخيراً سأل هوبا على استحياء:

- وماذا الآن يا عزيزنا الكباس؟

نفض الكباس عن نفسه لحظة اكتئاب خاطفة:

- لا يوجد مفر - قال - علينا أن نقاتل! نقاتل حتى نسقط!

- هوراه! - هتفوا - هذا ما نريد سماعه منك! الآن أنت رجلنا، أنت الكباس الذي نعرفه!

ولكن الزعيم لوح بيده يائساً:

- أوه، يالهتافاتكم! هتافاتكم ليست أفضل من أغنية سيفون!ولكن سيحدث ما يجب أن يحدث. نقاتل؟ لكن القتال ليس هو الحل. فحتى

لو افترضنا أننا أشبعناه ضرباً، ثم ماذا؟ سيخدمه هذا بصورة غير مباشرة - سنجعل منه شهيداً، وآنذاك فقط سترون البراءة الصامدة المضطهدة التي سيسود بها علينا. وعلاوة على ذلك، حتى لو أردنا أن ننقض عليهم، فقد رأيتم بأنفسكم - سيظهرون بطولة هائلة حتى أن الأكثر شجاعة منكم سيلوذ بالفرار. لا، لن يجدي ذلك! وعموماً كل هذا - من لعنات وسباب وبذاءة لن يجدي، لن يجدي! أنا أقول لكم إن كل ذلك حطب لناره، هذا مجرد حليب لفتاه. وطبعاً أنه يعول على ذلك! لا، لا، ولكن لحسن الحظ - وهنا أصبح صوت الكباس شرسا - لحسن الحظ هناك طريقة أخرى... أكثر فعالية... سنحرمه نهائياً وعلى نحو حاسم من رغبته في الغناء.

- كيف؟ - سألوا ببصيص من الأمل.

- يا سادة - قالها بطريقة جافة وفي صميم الموضوع - إذا كان سيفون لا يريد بنفسه، فيجب علينا أن نجبره بالقوة. سيجب علينا أن نختطفه ونقيده. لحسن الحظ لا يزال هناك إمكانية أن نخترق داخله من خلال الأذنين.

سنقيده وسنجعله مُجَرِب إلى درجة أنه حتى أمه لن تميِّزَه! نهائياً وعلى نحو حاسم سنفسد هذا المدلل! ولكن أسكتوا! أعدوا الحبال الآن!

استمعت إلى هذه المؤامرة بفروغ صبر وخفق قلبي في صدري حينها ظهر بيمكو عند باب

المدرسة وأشار إلي أن آتي معه إلى المدير بيوركوفسكي. عاد الحمامُ مرة أخرى. رفرف بأجنحته ثم حطّ على السياج الذي تقف

twitter @baghdad_library

الأمهات وراءه. أثناء سيري في ممرّ المدرسة الطويل، بحثت بشكل محموم عن طريقة أشرح بها نفسي وأحتجّ، ولكنني لم أستطع، لأنَّ بيمكو بصق في كل مبصقة مررنا عليها طول الطريق وأمرني أن أفعل الشيء نفسه - لذلك لم أستطع أن أنطق بكلمة... وهكذا أكملنا طريقنا ونحن نبصق حتى وصلنا إلى مكتب المدير بيوركوفسكي. بيوركوفسكي، عملاق العماليق، استقبلنا وهو جالس بمنتهى التسلط ولكن بحفاوة، وفورا قرصني بطريقة أبوية في خدي وفي جو من المودة مد يده تحت ذقني، فإنحنيت بدلاً من أن أحتج، بينما خاطب المدير بيمكو بصوت رجالي عميق من فوق رأسي.

- بوبو، بوبو، بوبو! أشكرك على تذكرنا، عزيزي الأستاذ! بارك الله فيكم، زميلي العزيز، على هذا الطالب الجديد!لو كان الجميع بمثل كفاءتك في التصغير من الشأن، لكنا أكبر مما نحن عليه الآن بمرتين! بوبو، بوبو، بوبو! هل ستصدق بأنه حينما نصغر من شأن البالغين ونصيبهم بالصبيانية بطريقة صناعية تكون النتائج أفضل منها حينما يكون الأطفال في حالتهم الطبيعية؟ بوبو، بوبو، بدون الطلاب لن تكون هناك مدرسة، وبدون المدرسة لن تكون هناك حياة! أنا أعهد بأنفسنا لذاكرتك، لا تزال مؤسستي بلا شك تستحق دعماً، أساليبنا في إستخراج البوبو ليس لها مثيل وقد تم إختيار هيكل التدريس بعناية وفقاً لهذا الاعتبار. أتودُّ أن ترى الهيكل؟

- بكل سرور - رد بيمكو - لأننا نعلم جيداً بأنه لا شيء يؤثر على الروح كما الهيكل. فتح المدير باب غرفة المدرسين على النصف، ألقى كل من السيدين نظرة مختلسة، وأنا معهم. أرعبني المنظر! داخل الغرفة الكبيرة وعلى الطاولة جلس المدرسون يرتشفون الشاي ويمضغون

كسرات الخبز. لم أرَ من قبل، أبداً، هذا العدد من كبار السنّ فاقدي الأمل. كانت أنوف معظمهم تسيل، أصدر أحدهم أصواتاً وهو يأكل والثاني مصمص شفتيه والثالث إمتصَّ شايه والرابع غرغر وهو يشرب وكان الخامس حزيناً وأصلعاً بينما عينا مدرسة اللغة الفرنسية تدمعان فمسحتها بطرف المنديل.

- نعم يا أستاذ - قال المدير بفخر - تم اختيار الهيكل بعناية مع مراعاة اتصافهم بصفات إستثنائية كريهة ومزعجة، ليس هناك عضو واحد لطيف في الهيكل، فقط هياكل تربوية - كما ترون حضرتكم - وإذا كانت هناك حاجة إلى توظيف مدرس شاب، فأحرص دائماً بأن يكون لديه على الأقل صفة منفرة واحدة. مدرس التاريخ، على سبيل المثال، للأسف هو في مقتبل العمر ويبدو لأول وهلة أنه مقبول، ولكن لاحظ فقط أن لديه حَوَلاً في عينه.

- نعم، ولكن مدرسة اللغة الفرنسية تبدو لطيفة - قال بيمكو بنبرة حميمة.

- إنها تتأتئ وتدمع عيناها دائماً.

- آه، صحيح! معك حق، لم ألاحظ ذلك من النظرة الأولى. ولكن أليست بأي حال من الأحوال مشوقة ولو قليلاً؟

- أبداً، لا أستطيع أن أتحدث معها أكثر من دقيقة بدون أن أتثاءب مرتين على الأقل.

- آه، صحيح! ولكن هل لديهم البراعة والخبرة الكافية للتدريس وهل يدركون جسامة المهمة الملقاة على عاتقهم؟

- هؤلاء هم ألمع العقول في العاصمة - رد المدير - ولكن ليس

twitter @baghdad_library

لدى أي واحد منهم فكرة من ابتكاره؛ وإذا حدث مصادفة أن فكرة ولدت لدى أحدهم، سوف أعمل على أن أطرد الفكرة أو المفكر ذاته. إنهم مجموعة من الفاشلين غير المؤذين ويدرسون فقط ما في مناهج الدراسة، لا، لا يوجد ولا فكرة واحدة داخل عقولهم على الإطلاق.

بوبو، بوبو - قال بيمكو - أرى أني أضع جو في أيْدٍ أمينة. لأن ليس هناك شيء أسوأ من معلمين بشخصية جذابة وخصوصاً إذا كان لديهم آراء خاصة بهم. فقط مُربٍ سخيف بحق يكون قادراً على زرع عدم النضج اللطيف هذا عند التلاميذ، هذا الاحراج المحبوب وعدم البراعة وهذه عدم اللباقة الاجتماعية التي ينبغي أن تميز الشباب كي يكونوا هدفا لنا، نحن المربين المخلصين الملهمين. وفقط بمساعدة هيئة تدريس مختارة بعناية سنستطيع أن نصيب كل العالم بالصبيانية.

- ششش - رد المدير بيوركوفسكي جاذباً إياه من كمّه - طبعاً، بوبو، ولكن بهدوء، لا داعى لأن ترفع صوتك.

في ذلك الحين وجّهَ واحد من الهيكل سؤالاً إلى زميله في الهيكل قائلاً:

- هم، هم، حسناً، أيه الجديد؟ أيه الجديد، يا زميلي العزيز؟

- أيه الجديد؟ - ردّ عضو الهيكل - انخفضت الأسعار.

- انخفضت؟ - قال عضو الهيكل الأول - على العكس، لقد زادت.

- زادت؟ - سأل عضو الهيكل الثاني- على العكس، انخفضت نوعاً ما.

- أسعار رغيف الخبز لا تريد أن تنزل - تمتم عضو الهيكل الأول وهو يُخبيء باقي الخبز الذي لم يأكله في جيبه.

- أنا أضعُ لهم نظاماً غذائياً خاصاً - همس المدير بيوركوفسكي - هذا يجعلهم في حالة أنيميا. فقط في وسط تلك البيئة الأنيمية ستزدهر حبوب الشباب في ذلك الـ age ingrat[١] - السنّ الخالية من البهاء.

وفجأة رأت معلّمة الخط المدير واقفاً عند الباب برفقة السيد الغريب ذي الحضور الملفت، فشرقت بالشاي وصاحت بصوت أجش:

- مفتش!

عند هذه الإشارة ارتعد كل أعضاء الهيكل ووقفوا وتجمعوا معاً مثل أسراب طائر السمَّان والمدير الذي لم يُردْ أن يواصل إخافتهم أكثر، أغلق الباب بهدوء، ثم قبلني بيمكو في جبيني وقال بطريقة رسمية:

- حسناً، جو، إذهب إلى الفصل، سوف يبدأ الدرس قريباً بينما سأذهب أنا في خلال ذلك للبحث عن أية غرفة لإقامتك وبعد إنتهاء الدروس سآتي لمرافقتك لمنزلك. كنت أرغب في الاحتجاج ولكن الخوجة المستبد تخوج علي تخوّجاً حاسماً بسرعة مفاجئة لم تجعلني أستطيع أن أحتج فانحنيت فقط وذهبت إلى الفصل وأنا ممتلئ بالاحتجاجات غير المعلنة والضجة التي غرقت فيها الاحتجاجات. الفصل كان يضجُّ أيضاً. بإزعاج كبير كان الطلاب يأخذون أماكنهم على المكاتب ويصرخون كما لو كانوا سيضطرون بعد قليل أن يصمتوا إلى الأبد.

وبصورة فجائية ظهر معلم على المنصة التعليمية. كان نفس عضو الهيكل الشاحب الحزين الذي كان يعرب عن رأيه الخطير في غرفة

---

(١) مرحلة البلوغ (الفرنسية).

twitter @baghdad_library

المدرسين بأنَّ الأسعار نزلت. جلس على كرسي مريح وفتح دفتر الغياب، نفض بيده ذرة غبار من على سترته وشمَّرَ أكمامه حتى لا تبلى عند المرفقين ومط شفتيه، قمع شيئاً في داخله وتربع في جلسته. ثم تنهَّدَ وحاول أن يتكلَّمَ. فإندلعت أصواتٌ بقوَّة مضاعفة.

صاح الجميع ربما باستثناء سيفون الذي كان لثقته بنفسه يخرج دفاتره وكتبه. نظر المدرس إلى الفصل، عدل طرف كمه، زَمّ شفتيه ثم فتحهما وأغلقهما من جديد. صرخ الطلاب. قطّبَ المعلمُ جبينه وعبّس وراجع أطراف كمه ونقر بأصابعه وفكر في شيء بعيد - اخرج ساعة اليد، وضعها على سطح المكتب، تنهد، مرة أخرى قمع شيئاً في داخله أو إبتلع ريقه وربما تثاءب وبعد فترة طويلة من تركيز طاقته ضرب بقوة على المكتب وصاح:

- كفاية! رجاء الهدوء! سيبدأ الدرس.

في ذلك الحين وكرجل واحد عبر الفصل بأكمله (باستثناء سيفون وبعض أنصاره) عن حاجة ملحة للذهاب إلى دورة المياه.

المدرس الذي كان يدعى «شحبان» بسبب بشرته المريضة والشاحبة، ابتسم بتجهم.

- كفاية! - صاح بتلقائية - إذن تريدون أن أأذن لكم؟ - هل تتعشمون في الذهاب إلى الجنة؟ ولماذا لا أحد يأذن لي؟ لماذا يجب أن أجلس هنا؟ إجلسوا، لن أأذن لأحد والآن أنا أسجل منتالسكي، وبوبكوفسكي في دفتر الغياب، وإذا أصدر أيٌّ منكم أيَّ صوت، فسوف أستدعيه إلى السبورة! حينئذ ليس أقلّ من سبعة طلاب قدموا شهادات تفيد بأنهم نتيجة لتلك وتلك من الأمراض لم يستطيعوا أن يعملوا

الواجب المدرسي. بالإضافة إلى أربعة آخرين أعلنوا أنهم مصابون بالشقيقة وواحد مصاب بطفح جلدي وآخر بإرتجافات وتشنجات.

- نعم - قال «شحبان» بغيظ - ولماذا لا يعطيني أحد شهادة تفيد بأنني لأسباب خارجة عن إرادتي لم أجهز الدرس؟ لماذا لا يمكنني أن أصاب بتشنجات؟ لماذا، أسأل، بدلاً من أن أصاب بتشنجات، يجب علي أن أجلس هنا يوماً بعد يوم ما عدا أيّام الأحد؟ ابتعدوا، الشهادات مزورة والأمراض زائفة، اجلسوا، كل هذا معروف بالنسبة إلينا! ولكن ثلاثة طلاب، أكثر وقاحة وفصاحة، اقتربوا من المكتب وبدأوا يروون قصة مضحكة عن اليهود والطيور. سد «شَحْبان» أذنيه.

- لا، لا - وهو ينوح - لا أستطيع أن أتحمل أكثر، إرحموني، لا تستفزوني، المفترض أننا في الفصل، ماذا سيحدث إذا ضبطنا المدير فجأة.

ارتجف من هذه الفكرة، أدار رأسه تجاه الباب وزحف الخوف الشاحب على خديه.

- وإذا ضبطنا المفتش فجأة؟ يا سادة، أحذركم بأن المفتش في المدرسة! هذا صحيح!... أحذركم أيها السادة... لا وقت للهراء! - تأوه بخوف - من المفروض بأن نستعيد اتزاننا تجاه السلطة الأعلى. حسناً... همم... من منكم ذاكرَ الدرسَ جيداً؟ ولكن بدون مراوغة، لا وقت للتهريج! دعونا نتحدث بصراحة. ماذا؟ لا أحد يعرف أي شيء؟ سوف تتسببون في انهياري! هيّا، ربما واحد منكم على الأقل، هيّا، يا أصدقائي، شدوا الهمة، هيّا... أوه، تقولون بيلاشكيفيتش (سيفون)؟ بارك الله فيك، يا بيلاشكيفيتش، طالما أعجبتُ ببيلاشكيفيتش. حسناً يا

twitter @baghdad_library

بيلاشكيفيتش، وماذا ذاكرت؟ «كونراد فالينرود» أم «ليلة الأجداد»[1]؟ أم ربما ملامح المرحلة الرومانسية العامة؟ قل لي يا بيلاشكيفيتش.

ولكن سيفون، المثبت في داخله الفتى بشكل كامل الآن، وقف وأجاب:

- أنا آسف يا أستاذ. إذا سألتني في حضور المفتش، فسوف أجيب وفقاً لأفضل معرفة عندي - ولكن حالياً لا أستطيع أن أكشف عمّا ذاكرت، لأني بهذا الكشف سأكون خائناً لنفسي.

- سيفون، ستتسبب في خرابنا - قال الآخرون برعب - اكشفْ ما تعرفه يا سيفون بصراحة!

- حسناً، حسناً، يا بيلاشكيفيتش - قال «شحبان» بنبرة تصالحية - لماذا يا بيلاشكيفيتش لا تريد أن تكشف ما تعرف؟ هذا سيكون بيننا فقط. اكشفْ ما تعرف أمامي يا بيلاشكيفيتش. أنت لا تنوي، يا بيلاشكيفيتش، أن تتسبب في انهيارنا، أليس كذلك؟ إذا لم تكن تريد، يا بيلاشكيفيتش، أن تتكلم بكل صراحة، فَلِتُلمح بطريقة ما.

- أنا آسف يا أستاذ - رد سيفون - ولكن لا يمكنني أن أقبل بتسوية مذلة، أنا غير قابل للتنازلات ولن أخون مبادئي ولا نفسي.

وجلس.

- ياللهول - تمتم المعلم - تلك مشاعر مشرفة يا ببيلاشكيفيتش. ولكن لا تأخذ ما قلت على محمل الجد يا بيلاشكيفيتش، هذا من مجرد باب المزاح الخاص بي. هذا صحيح، بطبيعة الحال، لا يجوز أن

---

(١) «ليلة الأجداد» («Dziady») - أهم عمل لآدم ميتسكيفيتش.

تكون قابلا للانحراف؟ إذن، ماذا لدينا اليوم؟ - قال بحزم ونظر إلى ملفاته - آها! أن أشرح وأوضح للطلاب لماذا يثير سلوفاتسكي[1] حبنا وإعجابنا؟ لذلك، أيها السادة، فأنا سأتلو عليكم الدرس، ثم ستتلونه أنتم بدوركم. اسكتوا - صاح واستلقى الجميع على مكاتبهم وأسندوا رؤوسهم على أيديهم أما «شحبان» الذي فتح الكتاب المدرسي ذا الصلة خلسة، فقد زَمّ شفتيه، تنهَّدَ، قمع شيئاً في داخله وبدأ في التلاوة.

- هم... هم... فلماذا إذن يثير سلوفاتسكي إعجابنا وحبنا؟ لماذا نبكي مع الشاعر عندما نستمع إلى القصيدة القيثارية الرائعة، «في سويسرا»؟ لماذا نتمايل عندما نستمع إلى أبيات من قصيدة «لملك - الروح»؟ ولماذا ليس في وسعنا أن نجذب أنفسنا بعيداً عن عجائب وسحر مسرحية «بللادينا» وأيضاً عندما يتردد صوت الشكوى في «ليلا فينيدا» تتمزق قلوبنا؟ ونكون مستعدين أن نسرع ونهرع لإنقاذ الملك سيء الطالع؟ همم... لماذا؟ لأن سلوفاتسكي، أيها السادة، كان من الشعراء العظماء! لماذا؟ كرر لماذا، يا فالكيفيتش؟ لماذا الإعجاب والحب والبكاء والطرب وتمزق القلب ونسرع ونهرع؟ لماذا، يا فالكيفيتش؟

تراءى لي أنني أسمع بيمكو مرة أخرى ولكن بيمكو براتب أكثر تواضعاً وأفق أكثر ضِيقاً.

- لأنه كان من الشعراء العظماء! - كرر فالكيفيتش بينما كان الطلاب ينحتون مكاتبهم بسكين الجيب أو يصنعون كرات ورقية صغيرة، أصغر

---

(١) يوليوش سلوفاتسكي (Juliusz Slowacki, 1809-1849) - شاعر وطني بولندي من الفترة الرومانسية.

twitter @baghdad_library

كرات ممكنة ويلقون بها في محبراتهم. تظاهروا بأنها أسماك في بركة تخيلية فكانوا أيضاً «يصطادونها» بقصبة الصيد المصنوعة من خصلة شَعر ولكن كانوا يحاولون صيدها بلا جدوى، لم تكن الكرات تمسك الشَعر. فكانوا يدغدغون أنوفهم بشعرة أو يوقعون في دفاترهم، مراراً وتكراراً، مرة بشخبطة ومرة بدون حتى أن أحدهم كان يتمرَّن على فن الخط بطول الصفحة:

«لماذا، ل - ما - ذ - ا، ل-ما-ذ-ا، سلوفاتسكي، سلوفاتسكي، سلوفاتسكي، فاتسكي، فاتسكي، فا-تسيك، فا-تسيك، سلو-فا-تسكي وذ- با- بة-برغوث. بدا البؤس على وجوهم. ماذا حدث للتوهج والنزاعات والمناقشات التي كانت منذ قليل - فقط عدد محدود من المحظوظين منهم بدوا كأنهم نسوا العالم من حولهم واستغرقوا في قراءة «والاس»»[١] حتى سيفون كان مضطرّاً لبذل أقصى جهد نفسي لكي يحافظ على مبادئه في التحسين الداخلي والانضباط الذاتي، ولكنه كان قادراً على ذلك فقط لأن المِحَن بالنسة له كانت مصدراً للمتعة ووسيلة لإختبار قوة شخصيته. بينما الآخرون جعلوا كفوفهم على شكل تلال وحفر وتنفَّسُوا عبرها: - إيه، إيه، الحفر والتلال، الحفر والتلال. تنهد المعلم ونَهَرَ ونظر إلى ساعته واستمرّ في قوله:

- كان من الشعراء العظماء! تذكروا هذا لأنه مهم! لماذا نحبه؟ لأنه كان من الشعراء العظماء.حقاً من الشعراء العظماء! يا كسالى، يا جهلة، أنا أقولها لكم بهدوء، أَدْخِلوها في أمخاخكم الغليظة - إذن، سأكرر مرة أخرى، أيها السادة: الشاعر العظيم، يوليوش سلوفاتسكي، الشاعر

---

(١) إدغار والاس – (Edgar Wallace) هو كاتب جرائم وصحفي إنكليزي.

العظيم، نحب يوليوش سلوفاتسكي ويعجبنا شعره لأنه كان من الشعراء العظماء. رجاء سجلوا عنوان موضوع التعبير المطلوب منكم: «ما هو الجمال الخالد الذي يعيش في قصائد الشاعر العظيم يوليوش سلوفاتكي ويثير إعجابنا»؟

عند هذه النقطة تململ أحد الطلاب بعصبية وهو يتأوه:

- ولكنه لا يثير إعجابي على الإطلاق! على الإطلاق! لا يشغلني ذلك! فما أن أقرأ بيتين حتى أصاب بالملل. ساعدني يا الله، كيف يفترض أن يعجبني إذا كان لا يعجبني؟ - جحظت عيناه وجلس غارقاً في هاوية لا قرار لها. اختنق المعلم بهذا الاعتراف الساذج.

- أسكت، بالله عليك! - قال موبِّخاً - سترسب يا غاوكيفيتش. تريد أن تتسبَّب في انهياري! على الأرجح أنت لا تدرك ماذا قلت؟

غاوكيفيتش:

ولكنني لا أستطيع أن أفهم! لا أفهم كيف يفترض أن يعجنيى إذا كان لا يعجبني.

المعلم:

كيف لا يعجبك، يا غاوكيفيتش، إذا كنت أنا قد كررت عليك ألف مرة، يا غالكيفيتش، بإنه يعجبك.

غاوكيفيتش:

ولكنه لا يعجبني

المعلم:

هذا شأنك الخاص يا غاوكيفيتش. من الواضح، يا غاوكيفيتش، أنك تفتقر إلى الذكاء. إنه يعجب الآخرين.

twitter @baghdad_library

غاوكيفيتش:

بِشَرفي لا يُعجبُ أحداً. كيف يمكن أن يعجب أيّ أحد إذا كان لا أحد يقرأه غيرنا، نحن طلاب المدارس وهذا فقط لأننا مجبرون على ذلك...

المعلم:

أسكت بالله عليك! ذلك لأنه ليس هناك كثير من الناس المثقفين وبمستوى رفيع...

غالكيفيتش:

ولكنّ المثقفين لا يقرأونه أيضاً. لا أحد. لا أحد يقرأه. لا أحد على الأطلاق.

المعلم:

يا غاوكيفيتش، أنا لدي زوجة وطفل! ارحمِ الطفل على الأقل! يا غاوكيفيتش، بلا شك من المفروض أن يعجبنا الشعر العظيم وسلوفاتسكي كان في المحصلة شاعراً عظيماً... قد لا يثير سلوفاتسكي مشاعر غاوكيفيتش، ولكن لا يمكنك أن تقول، يا غاوكيفيتش، بأن روحك لا تخترق من خلال ميتسكيفيتش وبايرون وبوشكين وشيلي وغوته...

غاوكيفيتش:

لا يخترقون روح أي أحد. لا أحد يهتمّ بهم، يُسَبّبون مللاً للجميع. لا أحد يستطيع قراءة أكثر من بيتين أو ثلاثة. يا الله! لا أستطيع...

المعلم:

يا غاوكيفيتش، هذا أمر غير مقبول. الشعر عظيم لأنه عظيم ولأنه شعر، فهو يجب أن يثير إعجابنا ولذلك فهو يعجبنا.

غاوكيفيتش:

ولكنني لا أستطيع. ولا أحد يستطيع! يا الله!

تصبب العرق على جبين المعلم مثل الندى وأخرج صورة زوجته وطفله من محفظته وحاول أن يثير شفقة غاوكيفيتش، بهما ولكن الآخر كرر فقط مراراً وتكراراً: «لا أستطيع، لا أستطيع». وتكاثرت هذه أل «لا أستطيع» المؤثرة وتضخمَتْ وأصبحت مُعدية وجاءت من كل الزوايا الغمغمات التالية: «نحن لا نستطيع أيضاً» وعدم إستطاعة عام بدأت تُهدد الجميع. وجد المعلم نفسه في مأزق رهيب. كان الانفجار يمكن أن يحدث في أية ثانية - انفجار لماذا؟ - لعدم الاستطاعة، في أي وقت يمكن أن ينطلق الزئير الوحشي ويصل إلى الناظر والمفتش، في أية لحظة كان يمكن أن ينهار المبنى ويدفن طفله تحت أنقاضه وها هو غاوكيفيتش، مستمرٌ في «لا أستطيعُ» بلا توقف.

شعرَ «شحبان» - سيئ الحظّ بأنه أيضاً كان مهدَّداً بعدم الاستطاعة.

- بيلاشكيفيتش (سيفون)! - صرخ - أظهِرْ لي، يا بيلاشكيفيتش، على الفور غاوكيفيتش، وللجميع الجمال الموجود في إحدى تلك الفقرات الرائعة! بسرعة لأن periculum in mora[(١)]! لينتبه الجميع! إذا أطلق أحدٌ أيَّ صوت مهما كان صغيراً، فسوف أعطيكم جميعاً واجباً في الفصل! يجب علينا أن نكون مستطيعين، يجب علينا وإلا فالويل لطفلي!

نهض بيلاشكيفيتش (سيفون) وبدأ في تلاوة فقرة من القصيدة.

فكان يتلو. ولم يخضع ولا للحظة واحدة لعدم الاستطاعة العام

---

(١) خطر في التأخير (اللاتينية).

twitter @baghdad_library

والمفاجئ، على العكس من ذلك - استطاعَ بكل الاستطاعة لأنه اكتسب استطاعته من عدم استطاعة الآخرين. لذلك كان يتلو بمشاعر قوية وتجويد سليم وروحانية. وأكثر من ذلك، فإنه كان يتلو بروعة وكانت روعة تلاوته، تزيد بسبب روعة القصيدة وعظمة الشاعر وجلال الفن، ليتحول بصورة تدريجية إلى تمثال بكل ما هو ممكن من روعة وعظمة. علاوة على ذلك، كان يتلو بطريقة غامضة ووقورة؛، تلا بمنتهى الإخلاص والالهام؛ وكان يغني غناء الشاعر الملحمي كما ينبغي أن يُغنى غناء الشاعر الملحمي. أوه، ياللروعة! يا للعظمة! يا للعبقرية! ويا له من شِعْر! الذبابة، الحائط، الحبر، الأظافر، السقف، السبورة، النوافذ، أوه، تم تجنب خطر عدم الاستطاعة، تم انقاذ الطفل والزوجة كذلك، الآن الجميع مقتنعون، الجميع استطاعوا وناشدوه فقط أن يتوقف. وفي نفس الوقت لاحظت أن جاري يدهن يدي بالحبر - كان قد لطخ يديه وبدأ الآن في تلطيخ يدي (لصعوبة خلع حذائه وتلطيخ قدميه) ولكن يدا شخص آخر كانتا في الأساس بنفس البشاعة لأنهما في الحقيقة كانتا تُشبهانِ يديه نفسهما، فماذا في ذلك؟ - لا شيء. وماذا عن الساقين؟ يمرجهما؟ وماذا في ذلك؟ بعد ربع ساعة تأوه غاوكيفيتش نفسه قائلاً بأنه أخذ كفايته، بأنه اقتنعَ، وبأنه يسحب كلامه ويعتذر وهو يستطيع الآن.

- أرأيت يا غاوكيفيتش؟ ليس هناك شيء مثل المدرسة لغرس الإعجاب بالعباقرة العظماء!

ولكنّ شيئاً غريباً كان يحدث للمستمعين. اختفت جميع الخلافات والكل سواء من هم تحت راية سيفون أو تحت راية الكباس كانوا يتلوُّون بالتساوي تحت وطأة الشاعر الملحمي و«شحبان» وطفله

والغيبوبة. الجدران الخالية والمكاتب الخالية السوداء بمحابرهم امتنعتْ عن تقديم أي تشتيت للانتباه، يمكن للشخص أن يرى من خلال النافذة جزءاً من الجدار بآجرّةٍ بارزة وكلام منقوش عليها: «تم طرده». لذلك لم يبقَ هناك أي اختيار آخر إما الهيكل التعليمي وإما هيكل الشخص نفسه. وبالتالي أولئك الذين لم يشغلوا أنفسهم بعدّ الشعرات على جمجمة «شحبان» أو دراسة ربطة حذائه المعقدة، حاولوا أن يعدوا الشَعر الخاص بهم أو ان يطقطقوا رقبتهم. ميزو تململ وهوبا نقر أليّاً، والكباس كبس نفسه كأنه كان في منتهى التعب المؤلم، وبعضهم غرقوا في أحلامهم وآخرون أدمنوا العادة السيئة في الهمس لأنفسهم والبعض الآخر فككوا أزرارهم وأتلفوا ملابسهم وأزهرتْ في كل مكان غابات وصحارى بردود الأفعال المذهلة والإيماءات العجيبة. فقط سيفون المنحرف ازدهرَ وحده لأنه كلما كان البؤس العام أكبر، كان يشعر براحة أكبر فقد كان لديه آليته الداخلية الخاصة به التي تمكنه من إثراء نفسه حتى من خلال الفقر. أما المعلم فما زال مشغولاً بالتفكير في زوجته وطفله واستمر يتكلم قائلاً - توفيانيسكي(١)، توفيانسكي، توفيانسكي، وعقيدة الخلاص، ومسيح الدول والإلهام والمعاناة والفداء وأربعة وأربعين(٢) والبطل والرمز- دخلت الكلمات من خلال أذني وعذبت عقلي بينما التوتْ وجوههم بصورة رهيبة أكثر وأكثر وتباعدت عن مفهوم الوجه وهي مجعَّدة ومرهقة ومضغوطة بدت مستعدة لأن

---

(١) (Andrzej Towiański, 1799-1878) - فيلسوف ورئيس منظمة تؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية التي تقول بدور بولندا وفرنسا واليهود في إحلال الخلاص الإلهي على الأرض).

(٢) ورد العدد (٤٤) بإشارة إلى المخلص في الجزء الثالث من مسرحية (الأسلاف-١٨٣٢) لآدم ميتسكيفيتش الذي تاثر باديء الأمر بعقدية الخلاص التي طرحها توفيانسكي.

twitter @baghdad_library

تأخذ شكل أي وجه - يمكنك أن تشكل هذه الوجوه بأية طريقة تحلم بها - أوه، يا له من تمرين لخيالك! كان الواقع أيضاً مضغوطاً ومرهقاً ومجعَّداً وممزَّقاً وتحوَّل تدريجيا وببطء إلى عالم المثل العليا، دعني أحلم الآن، دعني(١)!

«شحبان»: - كان شاعراً ملحميًّاً! كان يغني! أيها السادة، أنا أناشدكم يا سادتي لنكرر مرة أخرى - هو يعجبنا لأنه كان شاعراً عظيماً ونبجله لأنه كان شاعراً ملحميًّا! تلك هي الكلمة الأساسية. يا تسيمكيفيتش، يرجى التكرار! فكرر تسيمكيفيتش: «كان شاعراً ملحمياً!». أدركت أنني يجب أن أهرب. بيمكو و«شَحْبَان» والشاعر الملحمي والمدرسة والزملاء، كل تجاربي من الصباح دارت فجأة في رأسي وكما في اليانصيب تم سحب الورقة الرابحة وكانت - «هروب». ولكن إلى أين؟ إلى أين؟ لم أكن أعرف ولكنني كنت أعرف أنه لا بد أن أهرب وإلا سأصبحُ فريسة للغرائب التي كانت تحتشد حولي من كل النواحي. ولكن بدلاً من الهروب بدأت أَهَزْهِزُ إصبع قدمي في حذائي وكانت هذه الهزهزة تتسبب في شللي وتحبط نواياي للهروب لأنه كيف يمكنني أن أهرب بينما أهزهز إصبع قدمي وأنا هنا في الدور الأرضي في المدرسة؟ هروب - هروب! الهروب من «شحبان» ومن اللاواقعية والملل - ولكن كان في رأسي الشاعر الملحمي الذي دسَّهُ هناك «شحبان»، بينما في «الأسفل» هزهزت إصبع قدمي، فلم أتمكن من الهروب وكانت عدم الاستطاعة التي أصابتني أكبر بكثير من عدم

---

(١) الإقتباس من العمل الشعري لزيغمونت كراشينسكي (Zygmunt Krasiński, 1812-1859) - أحد أهم ثلاثة شعراء بولنديين في العصر الرومانسي).

الاستطاعة التي شعر بها غاوكيفيتش سابقاً. بدا نظرياً أنه لا يوجد شيء أسهل من ذلك - أن أخرج من المدرسة ببساطة وأن لا أعود - لن يبحث بيمكو عني بمساعدة الشرطة، بالتأكيد لن تصل مخالبه لـ«تربية البوبو» إلى هذا الحد. كنت أحتاج فقط إلى - الرغبة في الهروب. ولكنني لم أستطعْ أن أرغب. لأننا عند الهروب نحتاج إلى رغبة في الهروب ومن أين نجدها بينما نهزهز إصبع قدمنا ووجوهنا كلها غارقة في تعبيرات الملل. والآن فهمت لماذا لا أحد منهم تمكن من الهروب من هذه المدرسة - كان السبب وجوههم وجميع أشكال جسدهم التي قتلت فيهم القدرة على الهروب، كانوا كلهم أسرى للتكشيرة التي على وجوههم وبالرغم من أنه كان ينبغي عليهم أن يهربوا، فهم لم يفعلوا، لأنهم لم يكونوا ما كان يجب عليهم أن يكونوا. أن يهرب لم يكن يعني فقط أن يهرب من المدرسة ولكن قبل كل شيء - أن يهرب من ذاته، أوه، أن أهرب من ذاتي، من أبو المخاط الذي جعلني عليه بيمكو، أن أتخلى عنه، أن أعود وأصبح الرجل الذي كنته قبل ذلك! ولكن كيف يمكن أن يهرب الشخص من الشيء الذي هو عليه، أين نقطة المرجع، أساس المقاومة؟ يخترقنا شكلنا، يسجننا من داخلنا كما من خارجنا. كنت مقتنعا بأن لو استردّ الواقع حقه ولو للحظة، فإن الموقف البالغ الغرابة الذي وجدت نفسي فيه كان سيتجلى بطريقة واضحة إلى درجة أن يجعل الجميع يصيحون: «ماذا يفعل هذا الرجل الناضج هنا؟». لكن تلاشت غرابة موقفي الخاص على خلفية غرابة الموقف العامة. أوه، أعطوني على الأقل وجهاً واحداً غير مشوّه والذي يمكنني أن أشعر بجانبه بتشوه وجهي - ولكن كانت في جميع الأنحاء وجوه مخلوعة ومشوهة ومقلوبة من الداخل إلى الخارج، حيث انعكس وجهي فيها

twitter @baghdad_library

كأنها مرآة مشوهة - والواقع المنعكس في هذه المرآة كان يبقيني ثابتاً! هل هذا حلم؟ يقظة؟ في تلك اللحظة كوبريدا - المحمرة بشرته من الشمس، بالبنطلون الصوفي الناعم ابتسم في الفناء باستهزاء عند ذكر كلمة «تلميذة المدرسة» - ظهر في مجال نظري. غير مبال على حد سواء لـ«شحبان» ولا لنزاع الكباس مع سيفون، جلس منحنياً بلا اكتراث وبدا أنه كان في حالة جيدة - بدا طبيعياً - واضعاً يديه في جيبيه، أنيقاً ونشيطاً وهادئاً وملائماً ومقبولاً - جلس بلا مبالاة إلى حد ما، واضعاً ساقا على ساق وناظراً إلى ساقه. كأنه يتجنب المدرسة بساقيه. هل هذا حلم؟ يقظة؟ هل هذا صبي عادي أخيراً؟ لا فتى ولا ولد ولكن مجرد صبي عادي؟ ربما معه ستعود الاستطاعة المفقودة...

الفصل الثالث

ضَبْطُه متلبسا ومزيدٌ من التدليك

كثرت نظرات المعلم إلى ساعته والطلابُ أيضاً أخرجوا ساعاتهم ونظروا إليها. أخيرا دقّ جرس النجاة، قطع «شحبان» كلامه واختفى وانتفضَ الطلاب في صخب رهيب - فقط سيفون ظل صامتاً ومستغرقاً في تفكيره. ولكن ما إن انصرفَ «شحبان»، حتى التهبتْ قضية البراءة من جديد، التي كانت مكبوتةً سابقاً أثناء الدرس من خلال الملل الذي سببه الشاعر الملحمي. وبعد أن ترك الطلاب تأملاتهم خلفهم، انفجروا بوجوههم مباشرة في الفتى والولد، أما الواقع فتغير ببطء في عالم الْمُثُل العُليا، دعني أحلم الآن، دعني! سيفون لم يكن يشارك في الجدل ولكنه جلس فقط ودلَّلَ نفسه - بيزو كان يقود أنصار سيفون وهوبا كان يشجع الكباس. ومرة أخرى احمرّت الوجوه في الهواء الخانق والكثيف ونما النزاع - أسماء كثيرة لمُنَظرين ونظرياتهم المختلفة أُطلقت كما لو من مقلاعٍ ووُجهت إلى المعركة واشتبكت معتقدات فوق الرؤوس الملتهبة وهجمت كتيبة الآنسات المجربات والداعيات إلى التجريب بحماسة المبتدئات جنسياً على ظلامية الصحافة المحافظة.

«حركتنا القومية! - البلشفية! - الفاشية! الشبيبة الكاثوليكية! - فرسان

twitter @baghdad_library

السيف! القبائل البولندية القديمة! - الصقور! - الكشافة! - نشيد الكشافة التوديعي!- مرحبا!- استعذ!» - طرحت كلمات عجيبة أكثر وأكثر. يبدو أن كل حزب سياسي قد حشا الطلاب بأفكاره المثالية عن الفتى، بالإضافة إلى المفكرين المستقلين الذين شحنوهم بأذواقهم ومبادئهم الخاصة، وأيضاً أثرت فيهم السينما والروايات الرومانسية والجرائد. من ثم أمطرت فوق ساحة المعركة أنواع مختلفة من الفتى، والولد، والكومسومولي،[١] والرياضي، والصبي، واليافع، والوغد، ومحب الجمال، والفيلسوف، والمتشكك، وبصقوها على بعضهم بعض وهي ملتهبة من شدة الغضب، بينما جاءت من أسفل الآهات والهتافات: «أنت ساذج!» لا، «أنت الساذج». لأن كل مثلهم العليا بلا استثناء كانت ضيقة جداً ومنكمشة وخرقاء وحمقاء؛ قذفوا بها في غمرة النزاع ثم ارتدّوا مثل المنجنيق، مرعوبين مما قذفوه وهم غير قادرين على سحب كلماتهم اليافعة التي اطلقت. بعد أن فقدوا أية صلة بالحياة وبالواقع - مضغوطين بكل تلك الفصائل والاتجاهات والتيارات ودوماً معالجين تربوياً ومحاطين بالزيف - استعرضوا زيفهم الخاص! وأيا ما كانوا يفعلون كان محض هراء. تعاطفهم كان مزيفاً، غنائيتهم كريهة، مشاعرهم مفزعة، تهكمهم غير بارع كما نكتهم وظرفهم، مدّعين في شطحاتهم ومنفرين في فشلهم. وهكذا دار عالمهم واتسع. بعد أن عولجوا باصطناعية هل كان بإمكانهم أن لا يكونوا مصطنعين؟ وبعد أن أصبحوا مصطنعين هل كان بإمكانهم التحدث إلا بشكل مشين؟ هكذا حلّق عدم استطاعة رهيب في الهواء الخانق وتحول الواقع ببطء إلى

(١) عضو منظمة الشباب الشيوعية في الإتحاد السوفيتي.

عالم من المثُل العُليا بينما كان كوبريدا الوحيد الذي قاوم الانزلاق في ذلك وهو يرمي مبرد الأظافر ونظر إلى قدميه بلا مبالاة...

في الوقت نفسه وقف الكباس جنبَ ميزو - الذي خلع حمالات بنطلونه - يجهزون بعض الحبال. فشعرت بقشعريرة في ظهري. لو نفذ الكباس خطته في «تجريب سيفون» من خلال أذنيه، فبالتأكيد - فإن الواقع... الواقع سيتحول إلى كابوس، وسيزداد بشاعة إلى درجة أن يصبح الهروب مستحيلاً. كان لا بد أن أفعل شيئاً في مواجهة ذلك، مهما كلَّف الأمر. ولكن كيف يمكن أن أفعل أي شيء وأنا وحيد في مواجهتهم كلهم وإصبعي ما تزال في حذائي؟ لا، لم أستطع. أوه، أعطني على الأقل وجهاً واحداً لم يتشوَّه! اقتربتُ من كوبريدا. كان واقفاً على النافذة وهو ينظر إلى الفناء ويصفر من خلال أسنانه، ببنطلونه الصوفي الناعم وبدا على الأقل أنه الوحيد الذي لا يؤوي داخله أيّ مُثُل عُليا. ولكن كيف أبدأ؟

- انهم يريدون اغتصاب سيفون - قلتها ببساطة - قد يكون من الأفضل أن ننصحهم بالعدول عن ذلك. إذا اغتصب الكباس سيفون، فسيصبح المناخ في المدرسة لايطاق.

وانتظرتُ بخوف رنين الصوت الذي سيطلقه كوبريدا... ولكن كوبريدا لم يرد بأية كلمة، فقط قفز من خلال النافذة إلى الفناء بساقين مستقيمتين كما كان يقف. وواصلَ الصفير من خلال أسنانه.

وقفت مكاني مذهولاً. ماذا كان ذلك؟ لقد تفادى الرد على سؤالي. لماذا فضل أن يقفز؟ هذا لم يكن طبيعياً. ولماذا ساقاه - لماذا برزت ساقاه إلى الصدارة، إلى المقدمة؟ ساقاه كانتا في مقدمة جبهته. مسحت

twitter @baghdad_library

جبهتي بيدي. حلم؟ يقظة؟ ولكن لم يكن هناك وقت للتفكير. وثب الكباس ناحيتي. لم ألاحظ إلا الآن أن الكباس كان يقف قريباً ويسترق السمع إلى كل ما قلته لكوبريدا.

- لماذا تحشر نفسك؟ - صاح - من الذي سمح لك أن تتحدث عن قضايانا مع هذا الكوبريدا؟ هذا لا يعنيه! إياك أن تتكلم معه عني!

تراجعتُ خطوة إلى الوراء. فانفجر بأسوأ الشتائم.

همست بتوسل:

- يا الكباس، لا تفعل ذلك لسيفون.

ما إن قلتها، حتى انفجرَ:

- هل تعرف أين هو بالنسية لي وأنت معه أيضاً؟ أنتما الإثنان في طيزي!

- لا تفعلها - توسَّلتُ إليه - لا تتورط في ذلك! أترى نفسك وأنت تفعل ذلك؟ إسمع، تصور فقط؟ أنظر! سيفون هنا واقع على الأرض، مقيد وأنت تقوم بتجريبه - بالقوة، من خلال آذنيه! أترى نفسك وأنت تفعل ذلك؟

لوى وجهه بشكل أكثر قبحاً.

- أرى فقط أنك أنت نفسك فتى وفتى جيد أيضاً! وأنت كذلك تم اجتذابك عن طريق سيفون إلى معسكره! أما أنا، تعرف أين يوجد فتاكما أيضاً؟ هو في طيزي!

ثم ركلني في كاحل قدمي.

بحثتُ عن كلمات - هي كالعادة - لم تكن موجودة.

- يا الكباس - همست - أترك الموضوع... لا تجعل من نفسك... هل لأن سيفون بريء تتحول أنت إلى فاسد؟ أترك الموضوع.

نظر إلي قائلاً.

- ماذا تريد مني؟

- توقفْ عن العبث!

- أتوقف عن العبث؟ - تمتم مغمضاً عينيه - أتوقف عن العبث - أضاف مكتئباً - بالتأكيد هناك أولاد لا يعبثون. هؤلاء الأولاد - أبناء البوّابين والعمال وعمال المزارع - هؤلاء ينقلون المياه أو يكنسون الشارع... لا بد أنهم الآن يضحكون من سيفون ومني ومن كلامنا الفارغ! - وأصيب بواحدة من تأملاته الفكرية المؤلمة وللحظة ترك الكلام التافه وسلوكياته الفظة، استرخى وجهه.

ولكن فجأة قفز كأنه على صفيح ساخن.

- بوبو! بوبو! - صاح - لا، لن أسمح بأنْ يعتبر الطلاب أبرياء. يجب أن أغتصب سيفون من خلال أذنيه! ط...ط...ط...!

ولوى وجهه مرة أخرى إلى أقبح شكل ممكن وانطلق يرش شتائمه القذرة في كل الاتجاهات حتى أُضطررت أن أتراجع خطوة إلى وراء..

- يا الكباس - همست أليّا برعب - لنهرب! لنهرب من هنا!

- نهرب؟

انتصبتْ أذناه. توقف عن رش الشتائم ونظر إلي بتساؤل. وبدا الآن سوياً أكثر... تمسكت بذلك مثل الغريق الذي يتعلق بقشة.

twitter @baghdad_library

- لنهرب، لنهرب، يا الكباس - إستمررت في الهمس - أترك ذلك ولنهرب!

تردَّدَ. بدا كأن وجهه يتهدل من الحيرة. لاحظت أن فكرة الهروب تؤثر فيه بشكل إيجابي

وأرتعدت خشية أن يعود مرة أخرى إلى غرابته، كنت أبحث بشدَّة عن وسيلة لكي أشجعه.

- الهروب! إلى الحرية! يا الكباس، إلى عمال المزارع!

فكرت أنني سأستطيع أن أغريه بعامل المزرعة لإدراك حنينه إلى حياة العمال الحقيقية. آه، لم أكن مهتماً بما أقول، فقط كنت أريد أن أحتفظ به بعيداً عن الغرابة وأن لا يلوي وجهه فجأة. وبالفعل، لمعت عيناه ولكزني بلكزة أخوية في ضلعي.

- هل تود ذلك؟ - سأل بهدوء ورفق. وضحك بهدوء ونقاء. أنا أيضاً ضحكت ضحكة

هادئة.

- أن أهرب - تمتم - أهرب... إلى عمال المزارع... إلى الأولاد الحقيقيين الذين يرعون خيولهم بجانب النهر ويستحمون...

وحينئذ رأيت شيئاً رهيباً - شيئاً جديداً ظهر على وجهه - شوق ما، نوع ما من جمال فريد لصبي مدرسة وهو يهرب إلى عمال المزارع. انتقل من الوحشية إلى الموسيقية. توقف عن تَقَنُّعِه بعد أن أعتبرني من رفاقه وأطلق العنان للهفته وللغنائية.

- هاي، هاي - غنى بهدوء - هاي، لنتناول الخبز البني مع عمال المزارع ولنتنزه بالخيول غير المسرجة عبر المرج...

انفرجت شفتاه بابتسامة مريرة وغريبة، أصبح جسمه ليِّناً وأكثر رشاقة وبدا كأن نوعاً من الخيانة الذاتية ألقيت على ظهره وأكتافه. وتحول الآن إلى صبي المدرسة المشتاق إلى حرية عمال المزارع - والآن بانفتاح وبدون أي حرص لمعت أسنانه أمامي. تراجعتُ خطوة إلى وراء. لقد وجدت نفسي في وضع رهيب. هل يجب علي أن أُلَمِّع أسناني أيضاً؟ إذا لم ألمع أسناني، فغالباً سينفجر من جديد بالشتائم، ولكن إذا لمعت أسناني... ألن تجعل اللمعة الأمور أسوأ، أليس الجمال الخفي الذي كان يعرضه علي أكثر غرابة من بشاعته؟ اللعنة، اللعنة، لماذا جعلته يحلم بعامل المزرعة هذا؟ قررت أخيراً في ألا أُلمِّعَ أسناني فضممت شفتي وصفرت بهدوء، وها نحن نقف متواجهين نلمع ونصفر أو نضحك بهدوء، بينما العالم بدا كأنه انهارَ وأعاد ترتيب نفسه تبعاً لقواعد الصبي الملمع والهارب، عندما دوَّى فجأةً هدير ساخر على بعد خطوتين منَّا وأحاط بنا من كل النواحي! تراجعتُ خطوة إلى وراء. إنه سيفون وبيزو بالإضافة إلى نصف دستة من الـ«سيفونيين» الآخرين كانوا يمسكون ببطونهم البريئة وهم يقهقهون ويضحكون بأعلى أصواتهم، بتعبير متسامح وخبيث مرسوم على وجوههم.

- ماذا؟ - صاح الكباس الذي ضبط متلبساً. لكن قد فات الأوان.

صرخ بيزو: - ها، ها، ها!

وصرخ سيفون: - مبروك يا الكباس، الآن نعرف ما في داخلك! لقد ضبطناك متلبسا يا زميلي! إذن أنت تحلم يا زميلنا بعامل المزرعة!

twitter @baghdad_library

كنت تريد أن تتنزه عبر المرج مع عامل المزرعة! تَدَعي أنك واقعي متوحش وتحارب المثل العليا للآخرين بينما أنت عاطفي في أعماقك. عامل المزرعة العاطفي!

صاح ميزو بأعلى ما استطاع.

- أسكت! اللعنة! تبا! - ولكن قد فات الأوان. حتى أسوأ الإهانات لم تتمكن من إنقاذ الكباس الذي تم ضبطه in flagranti[١] بأحلامه السرية. احمرَّ وجهه خجلا بينما أضاف سيفون بلهجة انتصار وبسخرية:

- إنه يحارب مثالية الآخرين وهو يتودد إلى عمال المزارع. الآن على الأقل نعرف لماذا يشكل النقاء عائقاً له!

بدا أن الكباس سينقض على سيفون - ولكنه لم ينقض. بدا أنه سيسحقه بإهانات مفرطة البذاءة ولكنه لم يسحقه. لم يكن قادراً وهو الذي تم ضبطه in flagranti – وتصلب في هدوئه الفاتر والسام.

- أوه، يا سيفون - قالها بطريقة لا مبالية على ما بدا ولكنه في الحقيقة كان يهدف إلى كسب الوقت - اذن تعتقد أنني أعطي وجوهاً؟ وأنت لا تعطي وجوهاً؟

- أنا؟ - رد سيفون وقد أُخذ على حين غرة - أنا لا أعطي وجها لعمَّال المزراع.

- فقط للمُثل، ها؟ إذن لا يجوز لي مع عمَّال المزارع ولكن يجوز لك، لأنك تعطي وجوها للمُثُل العُليا؟ من فضلك أنظر إليَّ. أود أن

(١) متلبس بالجريمة (اللاتنية).

أرى وجهك من أمام إذا لم أكن أضايقك بذلك - لماذا؟ - سأل سيفون بقلق وأخرج منديله ولكن الكباس إنتزعه منه ورماه على الأرض:

- لماذا؟ لأنني لا أستطيع تحمُّل منظر وجهك! توقف عن ادعاء النبل والنقاء! أوه، إذن يجوز ذلك لك؟... توقَّف، أقول لك وإلا سألوي وجهي بطريقة فظيعة حتى تأخذ كفايتك - حتى تكتفي. انتظرْ حتى أريك... سأريك - ماذا ستريني؟ - ردَّ سيفون. ولكن الكباس كان يصرخ بحماسة نارية:

- سأريك! سأريك! أرِنِي وأنا سأريك! انتهى الكلام، هيَّا، فلترينا الفتى الخاص بك بدلاً من الكلام عنه وأنا سأريك شيئاً أيضاً وسوف نرى من سيهرب! أرِنِي! أرِنِي!كفى كلاماً فارغاً، يكفي تلك الوجوه النصفية، والخجولة والرقيقة، وجوه العذارى وتلك الوجوه التي نخفيها حتى عن أنفسنا - إلى الجحيم، إلى الجحيم - أتحداك للمبارزة في إعطاء الوجوه الخشنة والحقيقية، في إعطاء الوجوه بلا حدود للدمامة، وسوف ترى، سوف أعطيك وجوها ستجعل فتاك يهرب كسير النفس! يكفي الكلام! أريني، أريني وسوف أريك!

فكرة مجنونة! تحدى الكباس سيفون لمبارزة إعطاء الوجوه. سكتوا جميعهم ونظروا إليه كأنه فقد عقله، وكان سيفون يفكر في جميع أنواع الإهانات الساخرة. ولكن التعبير الشرير الذي ارتسمَ على وجه الكباس كان من النوع الشيطاني إلى درجة أنهم لاحظوا كلهم بوضوح جديته الرهيبة في إقتراحه. الوجوه! الوجوه - هذا السلاح والتعذيب في نفس الوقت! هذه المرة ستكون المعركة بلا قواعد! ارتعدَ بعضهم حين أدركوا بأن الكباس أخرج إلى الضوء هذه الأداة المروعة التي كان الكل

twitter @baghdad_library

حتى هذه اللحظة يستخدمها بمنتهى الحذر، وربما فقط خلف الأبواب المغلقة وأمام المرآة. أما أنا فتراجعتُ خطوة إلى الوراء لأني أدركت أن الكباس الذي وصل إلى آخر مراحل الجنون أراد أن يشوه بإعطاء الوجوه ليس فقط للفتى وسيفون ولكن أيضاً لعامل المزرعة والولد ولنفسه وأنا ولكلّ شيء حوله!

- أجبنت؟ - سأل الكباس سيفون.

- لماذا أخجل من الْمُثُل العُليا الخاصة بي؟ - رد سيفون ولكنه لم يستطع أن يخفي حيرته - لماذا يجب علي أن أخاف؟ - وارتعد صوته قليلاً.

- جيد جداً، يا سيفون! الزمان - اليوم بعد المدرسة! المكان - هنا في الفصل! اخْتَرْ شهودك، أنا سأختار ميزو وهوبا وللتحكيم أقترح... (وتضخم الشيطان في صوت الكباس) للتحكيم أقترح... هذا المستجد الذي جاء إلى المدرسة اليوم. سيكون محايداً - ماذا؟ أنا؟ اقترحني كحكم رئيسي؟ حلم؟ يقظة؟ ولكني لا أستطيع! بالتأكيد لا أستطيع! أنا حتى لا أريد أن أشاهد المبارزة! حاولت أن أحتج ولكن الخوف العام أفسح مكانا لإثارة كبيرة جعلتهم جميعاً يصرخون: «جيد جداً! هيا بنا! بسرعة!» بينما في نفس الوقت ضرب الجرس ودخل الغرفة رجل صغير بلحية قصيرة وجلس على مكتب المدرسين.

كان هذا نفس عضو الهيكل الذي أعرب سابقاً عن رأيه في غرفة الأساتذة بأن الأسعار ارتفعتْ - الرجل العجوز ودود للغاية مثل حمامة صغيرة رمادية بشامة مثل عشّ الغراب على أنفه. خيم الصمت القاتل في الفصل حين فتح دفتر الدرجات - ألقى ابتسامة مبهجة ونظر إلى أعلى

قائمة الأسماء، فارتعد جميعُ منْ تبدأ أسماؤهم بحرف الألف - نزل بنظره إلى الأسفل فارتعدَ جميعُ منْ تبدأ أسماؤهم بحرف الياء. لأن لا أحد كان يعرف أي شيء، نسوا أن ينقلوا الترجمة اللاتينية بسبب نقاشاتهم ما عدا سيفون الذي كان قد أعد الدرس في بيته وكان في استطاعته أن ينجز أي طلب بينما الآخرون لا يستطيعون. لكن العجوز غير المدرك لكل هذا الخوف الذي أثاره، استمرّ يجول بنظره بطول «سبحة الأسماء» وتردد وفكر قليلاً ومزح مع نفسه وقال أخيراً بثقة:

- ميدلاكوفسكي.

ولكن سرعان ما ظهر واضحاً أن ميدلاكوفسكي ليس قادراً على ترجمة «قيصر»، الواجب الذي كان مطلوبا منهم اليوم والأسوأ من ذلك، لم يكن يعرف أن animis oblatis هو ablativus absolutus.

- أوه، يا سيد ميدلاكوفسكي - قال العجوز اللطيف بعتاب صادق - ألا تعرف ما يعنيه animis oblatis وما هو تركيبه النحوي؟ لماذا لا تعرف ذلك؟

وأعطاه درجة الرسوب وهو بالفعل قلق ثم ابتسمَ ببهجة مرة أخرى وبنوبة ثقة متجددة نادى على «ك» - كوبيرسكي وهو يعتقد أنه يمنحه السعادة بهذا التمييز، بينما كان يشجعه بنظراته وإيماءاته الممتلئة بثقة عميقة في التنافس النبيل. ولكنْ، لا كوبرسكي، ولا كوتَسْكي، ولا حتى كولَك كانوا يعرفون ماذا تعني animis oblatis، جاءوا أمام السبورة، ساكتين على مضض، مكتئبين بصمت، حيث أعرب العجوز عن خيبة أمله الوجيزة بإعطاء درجة رسوب ومرة أخرى، كأنه جاء أمس من القمر وكأنه لم يكن من نفس العالم، في نوبة الثقة المتجددة كان ينادي أحد

twitter @baghdad_library

الطلبة وهو يتوقع في كل مرة بأن الطالب المتميز والسعيد سيأخذ التحدي بترحاب. ولكن لا أحد أخذ أي شيء. كان قد سجل حوالى عشر درجات رسوب في دفتره ولم يدرك طوال الوقت أن الكل تفادى ثقته برعب مميت بارد وأن لا أحد أراد هذه الثقة - يا له من عجوز مفعم بالثقة! لم يكن هناك علاج لكل هذه الثقة!

عبثا حاولوا وسائل مختلفة من الإقناع، عبثاً قدَّموا شهادات وأعذاراً وأمراض- بلا فائدة، كان المعلم مستمراً في مخاطبتهم بالتفاهم والشفقة.

- ماذا، يا سيد بوبكوفسكي! لأسباب خارجة عن إرادتك لم تتمكن من إعداد الدرس؟ لا تقلق، سوف أسألك سؤالاً من درس سابق. ماذا؟ عندك صداع؟ ممتاز، لدي شيء لك، حكمة طريفة de malis captis[١]، كما لو أنها وجدت للسيد. والآن - أتشعرُ بالحاجة الملحة للذهاب إلى الحمَّام؟ أوه، يا سيد بوبكوفسكي! ما قصدك؟ إن ذلك أيضاً مذكور عند القدماء! سوف أقدم لك المقطع الشهير من الكتاب الخامس حيث أصيب جيش القيصر بأكمله بنفس مصيرك بعد أن أكل جزراً فاسداً. الجيش بأكمله! الجيش بأكمله يا بوبكوفسكي! ولماذا تضيع وقتك في هذه المحاولات الفاشلة، إذا كان لديك وفي متناول يدك وصف رائع وكلاسيكي مثل هذا؟ هذه الكتب هي الحياة، أيها السادة، هي الحياة!

تم نسيان سيفون والكباس، توقفت النزاعات - كلهم حاولوا أن ينتهوا من الوجود، أن لا يكونوا، انكمش الطلاب، شحبوا وتلاشوا، سحبوا بداخلهم بطونهم وأذرعهم وسيقانهم ولكن لا أحد كان يشعر

(١) دُوار الرأس أو سوء الرأس (...) باللاتينية.

بالملل، كان الملل غير وارد على الإطلاق لأنهم كلهم كانوا خائفين وينتظرون بكآبة وخوف مؤلم دورهم ليكونوا مدعوين بدعوة الثقة الطفولية التي ترعى من خلال النصوص. ووجوههم - كما هي الوجوه عادة - تحت ضغط الذعر كانت تتحول إلى ظلال، إلى سراب وجوه، وكان من مستحيل أن تحكم ماذا كان أكثر جنوناً وغير واقعي وخيالي - هل هي وجوههم أم accusativ cum infinito غير المفهومة أم ثقة العجوز المضلَّل بأوهامه الجهنمية، وتحول تغير الواقع ببطء إلى عالم الْمُثُل العُليا، دعني أحلم الآن، دعني!

ولكن المعلم بعد أن أعطى درجة رسوب لبوبكوفسكي واستنفد أخيراً animis oblatis، تخيل لنفسه معضلة جديدة - كيف سيكون passivum futurum conditionalis صيغة الجمع للشخص الثالث من الفعل الانعكاسي colleo colleavi colleare colleatum، وأعجبته هذه الفكرة.

- شيء مثير للغاية! - هتف وهو يفرك يديه - مثير ومفيد أيضاً! حسناً، أيها السادة! ها هي مشكلة مليئة بالرقة! ها هو حقل مثمر لاظهار البراعة الفكرية! لأن إذا كان olleare هو ollandus sim، إذن... إذن... أيها السادة - السادة اختفوا من الخوف - صحيح، نعم! إذن، إذن؟ Collan... collan

لا أحد قال شيئاً. كرر العجوز وهو ما زال لا يفقد الأمل: «إذن، إذن» و«collan collan» ابتهج وتودد إليهم بألغازه وشجع وحث و - بأفضل طريقة - نادى إلى المعرفة، إلى الاستجابة، إلى السعادة وإلى الإنجاز. فجأة أدرك بأن لا أحد أراد أي شيء من ذلك، لقد كان يرقص في مواجهة الفراغ. انطفأت حماسته وقال بخفوت:

twitter @baghdad_library

- Collandus sim! Collandus sim! - كرر بحزن ومهانة بسبب الصمت العام وأضاف:

- كيف ذلك، أيها السادة؟ ألا تُقَدِرون أي شيء من ذلك؟! ألا ترون أن collandus sim تطور الفهم وتحسن العقل وتعزز الخلق وتهذبنا بأكملنا وتربطنا بفكر القدماء؟ إذن، انتبهوا، لو كان olleare من ollandus، فيجب أن يكون collandus من colleare لأن passivum futurum للتصريف الثالث ينتهي في dus, dus, us باستثناء فقط الاستثناءات - Us, us, us . أيها السادة! ليس هناك شيء أكثر منطقي من لغة يكون كل ما هو غير منطقي فيها استثنائياً! Us, us, us، أيها السادة - أنهى كلامه بإحباط - يا له من عامل مهم للتطور!

وفي تلك اللحظة وثب غاوكيفيتش وتأوّه قائلاً.

- بلا بلا بلا، الأم، العمة! كيف يتحسن إذا كان لا يتحسن؟ كيف يُعَزز إذا كان لا يُعَزِز؟ كيف يُهَذِّب إذا كان لا يُهَذِب؟ يا الله، يا الله - يا الله، يا الله!

المعلم:

- ما هذا، يا سيد غاوكيفيتش؟ لا تُحسّنُ اللاحقة us؟ هل تريد أن تقول لنا أن هذه اللاحقة لا تُحسّنُ؟ إن تلك اللاحقة passivi futuri للتصريف الثالث لا تُثري؟ ماذا تعني بذلك، يا غاوكيفيتش؟

غاوكيفيتش:

هذا الذيل الصغير في نهاية الكلمة لا يثريني! هذا الذيل الصغير لا يحسنني. لا على الإطلاق! ترَلْ لي لي يا الله! يا ماما!

المعلم:

كيف لا يثريك؟ يا سيد غاوكيفيتش، إذا قلت أنا إنه يثريك، فإنه

يثريك بالتأكيد! وأنا أقول لك إنه يثريك. ثقْ فيّ يا غاوكيفيتش! وطبعاً العقل العادي لن يستوعب تلك الفوائد العظيمة! لكي يمتلك ناصيتها على الشخص أن يكون أولاً وبعد سنوات عديدة من الدراسة، هو نفسه عقلاً رائعاً! بالله عليك، ألمْ نغطِّ في السنة الماضية ثلاثة وسبعين بيتاً من «قيصر» التي يصف فيها كيف كان ينظم كتائبه على التل. هل تلك الثلاث وسبعون بيتاً أو حتى الكلمات فقط لم تكشف أمامك، يا غاوكيفيتش، بطريقة غامضة عن جميع ثروات العالم القديم؟ ألمْ تُعلّمك الأسلوبَ ووضوح التفكير ودقة التعبير وفنون الحرب؟

غاوكيفيتش:

لا شيء! لا شيء! لا فن على إطلاق. أنا أخاف فقط من الرسوب! أوه، لا أستطيع، لا أستطيع!

وعدم الاستطاعة العام بدأ في تهديد الجميع. أدرك المعلم بأنه مهدَّدٌ أيضاً وما هو أسوأ من ذلك، لو لم يضاعف ثقته ليتغلب على عدم الثقة المفاجئ الذي لحق به فسوف يفنى هو أيضاً.

- يا بيلاشكيفيتش! (سيفون) - صاح الناسك الذي تخلى عنه الجميع في يأس - أعدْ علينا فوراً وباختصار، يا بيلاشكيفيتش، إنجازاتنا في الثلاثة أشهر الماضية حتى تُبين لنا عمق الأفكار بأكملها ولذة الأسلوب، وأنا عندي ثقة، نعم، أنا عندي ثقة، يا يسوع، يا مريم، أنا عندي ثقة!

سيفون المستعد دائماً - كما ذكرنا سابقاً - المتمكّن دائماً عند أي طلب، نهض!

وبدأ يتكلم بطلاقة وسهولة كبيرة:

في اليوم التالي، وبعد أن جمع - قيصر - جنوده وبَّخهم على

twitter @baghdad_library

تهوُّرهم وجشعهم، إذ بدا له أنهم قرَّروا، وفقاً لتقديرهم الخاص، إلى أين يتوجب عليهم الذهاب وما الذي يجب أن يفعلوه، فبعد أن صدرت لهم الأوامر بالانسحاب قرروا بأن لا أحد يمكن منعهم، لا من التريبونيين العسكريين ولا من المندوبين - أوضح لهم أهمية الموقع المناسب، على عكس الحالة فى «أفاركوم» فعلى الرغم من محاصرة الأعداء بدون قائدهم وبدون الخيالة فقد فاتهم انتصار أكيد وتحملوا أضراراً عظيمة بسبب الموقع غير المناسب. ياللعجب من عظمة الروح لأولئك الذين لا تردعهم تحصينات المخيم ولا الجبال الشاهقة أو أسوار المدينة، وعلى نحو مماثل يجب أن يجري توبيخ العناد المفرط والجرأة لأولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون عن حسابات النصر ونتائج الأمور أكثر من القائد، وبالنسبة لجندي فإن الحاجة للتواضع والاعتدال فيه ليست أقل من حاجته إلى الشجاعة والكرم. وعند تقدمه، قرَّر الأمر وأوعز بنفخ الأبواق معلناً الانسحاب لتتوقف عشرة فيالق على الفور عن مواصلة المعركة، وتمَّ ما أمر به، لكن الجنود من الفيلقين الآخرين لم يسمعوا صوت الأبواق لأنهم كانوا منفصلين عن الباقين بوادٍ كبير. حاول التريبونون العسكريون والمندوبون إيقافهم، بناءً على أوامر قيصر، لكنهم كانوا مثارين بأمل النصر والتغلب على أعدائهم وهروبهم إبان معركة ناجحة إلى حد أنه لم يبدُ من الصعب عليهم ذلك حيث كان بإمكانهم أن ينجزوه من خلال الشجاعة بدون الحاجة إلى الهروب، ولم يتوقفوا حتى وصلوا إلى أسوار المدينة وأبوابها، عندئذ سُمع ضجيج في جميع أنحاء المدينة حتى أن أولئك الذين كانوا مروّعين بالصخب المفاجئ، ظنوا أن العدو كان عند البوابة بالفعل وبدأوا يهربون من المدينة...

- Collandus sim، أيها السادة! Collandus sim! يا له من وضوح، يا لها من لغة! يا له من عمق ويا له من فكر! Collandus sim، يا له من كنز للحكمة! آه، أتنفس من جديد، أتنفس! Collandus sim من جديد ودائماً وحتى النهاية collandus sim، collandus sim، collandus sim، collandus sim، collandus sim - وفجأة ضرب الجرس وأطلق الطلاب صرخة وحشية واندهش الرجل العجوز ومشى.

وفي نفس اللحظة بعد أن تخلوا عن تأملاتهم التي كانوا مجبرين عليها، ارتطموا جميعاً بوجوهم في تأملاتهم الخاصة بهم حول الفتى والولد والتهبت المناقشات من جديد وتغير الواقع ببطء إلى عالم المثل العليا، دعني أحلم الآن، دعني! إن الكباس عيَّنني حَكَماً رئيسياً عن عمد! فعل ذلك عن عمد! حتى أضطر أن أشاهد، حتى أرى ذلك كله. لقد عزم على ذلك - أراد أن يلوثني أيضاً من خلال تلوثه، لم يستطع أن يتحمل أنني أسهمت في كشف لحظة ضعفه الخاطفة تجاه عامل المزرعة. هل كان يمكن لي أن أُعَرِض وجهي لهذا المشهد؟ كنت أعرف أنه إذا أصبحت جزءاً من هذه المهزلة، فلن يصبح وجهي طبيعياً مرة أخرى وستضيع فرصة الهروب إلى أبد، لا، لا، دعهم يفعلون ما يحلو لهم ولكن ليس في وجهي، ليس في وجهي! هززت أصبع قدمي بعصبية داخل حذائي وجذبته من كمه ونظرت إليه بتوسل وهمست قائلاً:

- يا الكباس...

دفعني بعيداً عنه.

- أوه، لا، يا «أمَوّر»! لا تحاول! أنت حكمٌ عظيم وانتهى الأمر!

twitter @baghdad_library

سمّاني«أمّور»! يا لها من كلمة مقرفة! كان ذلك في منتهى القسوة من ناحيته، أدركت أن كل شيء ضاع وأننا نتجه بكل سرعة إلى ما كنت أخشاه، إلى الغرابة المطلقة.

وفي الوقت نفسه استحوذ الفضول المتوحش وغير الصحي على أولئك الذين استمروا في التكرار بلا مبالاة:

- هل هناك مصادفة أن سيفونوس - انتفخت الأنوف وتوهجت الخدود احمراراً وأصبح واضحاً أن مبارزة الوجوه سوف تكون مبارزة حرة بلا قواعد، حتى الموت، وليست مبارزة بالكلام الفارغ! أحاطوا كليهما بدائرة وصاحوا في الهواء الثقيل.

- هيا! اقضِ عليه! هيا! هيا!

فقط كوبريدا تمطّى بهدوء وحيداً، التقط دفتره ومشى على أقدامه...

كان سيفون يجلس على فتاه وهو مكتئب ومنفوش مثل دجاجة جالسة على بيضها - كان واضحاً أنه بالفعل خائف قليلاً وكان يفضل أن ينسحب! ولكن بيزو أدرك بسرعة الفرص الهائلة التي سنحت لسيفون بسبب معتقداته الرفيعة ومبادئه.

- لقد نلنا منه! - همس له في أذنه مشجعاً - لا تجبن الآن! لديك المبادئ ومن أجل هذه المبادئ سيكون في إمكانك أن تعطي بسهولة كل أنواع الوجوه وبأية كمية، أما هو فليست لديه أية مبادئ وسيكون عليه أن يعطيها من أجله وليس من أجل المبادئ. بتأثير هذه الهمسات بدأ وجه بيلاشكيفيتش (سيفون) بالارتخاء وسرعان ما أشرق براحة كاملة، إذ منحته مبادئه السلطة بالفعل، إلى حد أنه كان في استطاعته أن يعطي

أيَّ عدد من الوجوه دائماً وبإية كمية. عندما رأى هوبا وميزو ما يحدث، سحبا الكباس جانبا وتوسلا إليه بألا يُعَرِض نفسه لهزيمة مؤكدة.

- لا تتسبب في خرابك وخرابنا، من الأفضل أن تستسلم الآن - فإنه أحسن منك بكثير في إعطاء الوجوه - يا الكباس لتدّعي المرض، بأنه أغمى عليك وبعد ذلك سيخمد كل شيء بطريقة أو بأخرى، سنختلق أعذارا لك!

فأجاب:

- لا أستطيع، لقد سبق السيفُ العذل! ابتعدوا! ابتعدوا! تطلبون منّي أن أجبُن؟ أبعدوا هؤلاء الفضوليين بعيداً عني! إنهم يثيرون أعصابي! لن أسمح لأحد بأن يشاهدني من جانبي إلا الشاهدين والحكم الرئيسي - ولكن تغير وجهه واختلط بوضوح العناد برهبة وقوفه على المسرح، على النقيض من هدوء سيفون وثقته بنفسه مما دفع ميزو أن يهمس: - «لقد انتهى أمره» - فأحس الجميع بالرهبة وغادروا الفصل خلسة، صامتين وأغلقوا الباب خلفهم بعناية. فجأة وجدنا أنفسنا في الفصل المهجور والمغلق، سبعة منّا - إضافة إلى الكباس وبشيلاشكيفيتش (سيفون) - ثمة ميزو وهوبا وبيزو وواحد اسمه غوزيك، الشاهد الثاني لسيفون، وطبعا أنا في الوسط، كحكم رئيسي، حكم الحكام المذهول. ودوّى صوت بيزو المتهكّم والمحفوف بالترويع الذي بدا شاحباً قليلاً وهو يقرأ قواعد الاشتباك من ورقة:

- سوف يواجه المتنافسان بعضهما البعض، وسوف يعطون سلسلة من الوجوه المتلاحقة حيث أن لكل منهما وجهاً مثيراً وجميلاً يعطيه بيلاشكيفيتش (سيفون) سيرد عليه الكباس بوجه مضاد قبيح ومدمر. الوجوه التي ستكون شخصية وطبيعية وفطرية إلى أقصى حد كما أنها

twitter @baghdad_library

ستكون مؤذية وساحقة أيضاً - يجب أن يتم إطلاقها دون استخدام كاتم للصوت إلى النهاية.

وسكت - اتخذ سيفون والكباس مكانيهما المحددين، فرك سيفون خديه، حرك الكباس فكيه من جانب إلى جانب - وقال ميزو وقد اصطكتْ أسنانه.

- يمكنكما أن تبدآ!

وحين قال إن بإمكانهما أن يبدآ، في هذه اللحظة بالضبط بعد أن قال «ابدآ»، تخطى الواقع حدوده أخيرا وبلغت التفاهة ذروة الكابوس وتحول كل حدث غريب إلى محض حلم - بينما أنا كنت عالقاً في وسط كل ذلك مثل ذبابة في شبكة وهي غير قادرة على الحراك. بدا الأمر كأننا وصلنا أخيراً إلى المرحلة التي سيمكن أن يفقد الشخص وجهه من خلال تمرين طويل. تحولت الكلمات المبتذلة إلى تكشيرة في الوجه - فارغ وعقيم ومهمل وتافه - تكشيرة أمسكت بهم ولم يطلقهم. لن يكون غريباً على الإطلاق إذا أخذ الكباس وسيفون وجهيهما في أيديهما وألقياهما على بعضهما البعض - لا، لا شيء يمكن أن يكون غريباً بعد الآن. تمتمت:

- ارحما وجهيكما وارحما وجهي على الأقل، الوجه ليس مفعولاً به، الوجه هو الفاعل، هو الفاعل، الفاعل! - ولكن سيفون كان قد بدأ بالفعل في إطلاق أول وجه بفجائية إلى درجة أن التوى وجهي كالطبرخي[1] أعني أنه غمز بعينيه وهما نصف مفتوحتين كأنه خارج من

(١) نوع من النباتات الاستوائية التي يصنع من نسغها مستحضر لثة طبيعية غير مرنة.

الظلام إلى النور، نظر إلى اليمين واليسار بذهول ورع، بدأ يقلِّبُ مقلتي عينيه ثم أطلقهما إلى الأعلى وحدَّق وفتح فمه وصرخ بهدوء كأنه لاحظ شيئاً على السقف وتظاهر بأنه في حالة نشوة وظل على تلك الحالة من الطرب والإلهام؛ ثم وضع يده على قلبه وتنهد.

تقلص منتالسكي (الكباس)، انكمش وضربه من أسفل بوجه مضاد ساحق قلَّدهُ فيه بتهكم وهو كالتالي: هو أيضاً قلب مقلتي عينيه وأطلقهما إلى أعلى وحدق وفغر فمه في نشوة الطرب كما العجل الصغير وحرك وجهه وهو على هذه الحالة في دوائر حتى سقطت ذبابة داخل فمه؛ فأكلها.

لم يُبْدِ سيفون أي اهتمام كما لو أن إيماءات الكباس لم تحدث (لإنه كانت لديه ميزة أنه كان يعطي وجوها من أجل مبادئه وليس من أجل نفسه) لكنه أجهش في بكاء حار وعاطفي وبكى حتى وصل إلى ذروة الندم والوحى والعاطفة. وكذلك الكباس أجهش بالبكاء وبكى طويلاً وغزيراً حتى ظهرت قطرة مخاط على طرف أنفه - فنفضها في المبصقة ليبلغ بذلك قمة الفظاظة. لقد فقد سيفون أعصابه بسبب هذا الكفر الماجن ضد أقدس المشاعر - لم يتمكن من التحمل أكثر من ذلك والتفت بغير قصد إلى الكباس على هامش بكائه، كان غاضباً مما رأى ونظر إليه شزراً! يا لعدم حرصه! كان الكباس في انتظار هذه الفرصة! عندما شعر بأنه نجح في اجتذاب نظر سيفون بعيداً عن السموات العالية، كشف على الفور عن أسنانه وأظهر دمامة كريهة للغاية إلى درجة أن الآخر أصدر صوتا كالفحيح وهو مجروح حتى الرمق الأخير. بدا كأن الكباس أصبحت له اليد العليا! ميزو وهوبا تنهدا بهدوء! قبل الأوان تنهدا! قبل الأوان!

twitter @baghdad_library

لأن سيفون - الذي أدرك في الوقت المناسب أن انتباهه قد تشتت في وجه الكباس بلا داع وبأنه وبسبب غضبه كان على وشك فقدان السيطرة على وجهه - انسحب بسرعة، وأعاد تنظيم ملامحه وأطلق نظرته إلى الأعلى من جديد وأكثر من ذلك، تقدم بإحدى ساقيه إلى الأمام، شعّثَ شعره قليلاً وأرسل خصلة على جبينه وظل هكذا، مكتفياً ذاتياً، بمبادئه ومثله؛ ثم رفع يده وبشكل غير متوقع أشار بإصبعه إلى أعلى! كانت الضربة مفاجئة!

سرعان ما أشار الكباس بنفس الإصبع وبصق عليه وأدخله في أنفه وهرش جلده به وأهان سيفون على قدر استطاعته وبأكثر ما في وسعه ودافع عن نفسه من خلال هجوم ولكن لا تزال إصبع سيفون تشير إلى السموات العالية بشجاعة. وبلا أي فائدة قضم الكباس إصبعه وحفر بها في أسنانه وحك بها كعبه وفعل كل ما في قدرة البشر لكي يدنسه - يا للحسرة! - إصبع بيلاشكيفيتش القاسي والشجاع ظلت مشيرة إلى الأعلى ولا تتراجع. أصبح وضع منتالسكي (الكباس) يائساً لأنه قد استنفد جميع أشكال البشاعة بينما لا تزال إصبع سيفون تشير إلى الأعلى باستمرار. تجمد الدم في عروق الشاهدين والحكم الرئيسي! وفي محاولة أخيرة متشنجة غطّس الكباس إصبعه في المبصقة ولوح بها أمام سيفون بيأس، وهي قبيحة متعرقة ومحمرة بشدة، ولكن سيفون لم يُوله أي اهتمام وبقيت إصبعه ثابتة والأسوأ من ذلك أن وجهه أضاء مثل قوس قزح بعد عاصفة وظهرت عليه في الألوان السبعة «نسر- صقر» رائع كما الـ«فتى» النقي والبريء وغير المجرب!

- النصر- صاح بيزو.

بدا شكل الكباس مريعاً. تراجع حتى الحائط لاهثاً، أطلق حشرجات

من حنجرته ورَغاوى من فمه وأمسك إصبعه وسحبها محاولاً اقتلاعها، اقتلاعها من جذورها، ليرفض ويقضي على أية صلة تربطه بسيفون، ليستعيد استقلاله! ولكنه لم يستطع ذلك، على الرغم من كل مجهوداته، بغض النظر عن الألم! عدم الاستطاعة ظهرت بوادرها مرة أخرى! فسيفون كان يستطيع دائماً وبلا أية معوقات، هادئ مثل الـ«سماء»، بإصبعه المرفوعة إلى الأعلى لا من أجل الكباس طبعاً ولا من أجله ولكن من أجل المبادئ! أوه يا للبشاعة! من ناحية كان الكباس المشوه الكاشف عن أسنانه وفي الناحية المقابلة سيفون. وأنا فيما بينهم، الحكم الرئيسي، المأسور وربما إلى الأبد، أسير تكشيرة شخص آخر، وجه آخر. ووجهي مثل مرآة تعكس وجوههم قد تحول إلى البشاعة أيضاً ونحت فيه الرعب والبغض والهول وصمة لا تمحى. مهرج بين مهرجين، كيف يمكن لي أن أحاول أي شيء ما لم يكنْ به تكشيرة؟ إصبع قدمي كانتْ تناصرُ أصابعهم بتراجيدية وأنا كنت أكشر وأكشر وكنت أعرف أنني أفقد نفسي في تلك التكشيرة. ربما لن أهرب من بيمكو أبداً. لن أكون نفسي أبداً. أوه، يا للبشاعة! ويا له من صمت فظيع. لأن الصمت كان في بعض الأحيان مطلقاً، لا قعقعة للأسلحة، فقط إعطاء وجوه وحركات بلا صوت.

سرعان ما مزق الصمت صرخة الكباس الحادة:

- أمسكْ به! اقبض عليه! اضربْه! إقتله!

ما هذا؟ هل حدث شيء جديد؟ هل هناك أي شيء آخر؟ ألم يحدث الكفاية؟ أنزل الكباس إصبعه وانقضَّ على سيفون وضربه على وجهه - هجم ميزو وهوبا على بيزو وغوزيك وضرباهما على وجهيهما!

twitter @baghdad_library

اندلعَ الشغب! كتلة من الأجساد متشابكة على الأرض وأنا كنت واقفاً فوقها بلا حراك مثل حكم رئيسي. وفي أقل من دقيقة كان بيزو وجوزيك على الأرض ممدَّدين مثل جذعي شجر، مقيدين بحمالات البنطلون، بينما الكباس كان جالساً على صدر سيفون منفرج الساقين وبدأ يتشفى به إلى أقصى حدً قائلاً:

- ما لك، يا دودة، أيها الـ«فتى» البريء، هل ظننت بأنك تغلبت علي؟ ما إنْ ترتفع إصبعك الصغيرةُ إلى أعلى حتى تُصبحَ منتشياً للغاية، أليس كذلك؟ هل كنت تتوهم أن الكباس لن يتمكن من التعامل مع الموقف، أيها الفتى المدلل (وأتبع ذلك بأقذر التعابير)؟ وسوف يسمح لك أن تجعله كالخاتم في إصبعك؟ وأنا أقول لك إنه إذا لم يكن هناك حل آخر فإن هذه الإصبع ستنزل إلى الأسفل بالقوة!

- أتركني - قال سيفون وهو يئنُّ.

- أتركك؟ سوف أتركك قريباً! ولكني لستُ متأكداً فيما إذا كنت سأتركك بعد ذلك كما أنت على حالك الآن. سنتحدث أولا! افتحْ أذنك الصغيرة! لحسن الحظ لا يزال بإمكاني أن أدخل فيك... بالقوة... من خلال أذنيك... سوف أدخل فيك! افتحْ أذنك الصغيرة، أقول! انتظرْ أيها البريء، سوف أقول لك شيئاً...

إنحنى فوقه وهمس له - اخضرّ لون سيفون اخضراراً، صاح بأعلى صوته مثل صوت خنزير يذبح وتلوى بقوة مثل سمكة تخرج من الماء. ضغطه الكباس إلى الأرض. وبدأت مطاردة على الأرض، طارد الكباس بفمه أذن سيفون الأولى، ثم الثانية، بينما كان سيفون يدير رأسه يمينا ويساراً حتى يفر بأذنيه وحين أدرك بأنه لم يستطع الفرار، بدأ بالصراخ

بغضب لكي يغطِّي على الكلمات القاتلة التي كانت تجعله مُجَرِباً بينما كانت صرخته قاتمة وفظيعة، وبعد ذلك تصلب واندمج في صرخة يائسة وبدائية حتى أنني لم أكن أصدق المثُل العُليا كان يمكنها أن تصدر صرخة شبيهةً بهدير ثور بري في البرية. بينما كان جلاده يصرخ أيضاً:

- الكمَّامة! الكمَّامة! كمّموه! أنت يا فضولي هناك! إلى ماذا «تبحلق»؟ الكمَّامة! استخدم المنديل!

إنه كان يصرخ في وجهي. أنا كنت الشخص المفترض أن أكمِّمَه بالمنديل! لأن ميزو وهوبا كانا جالسين منفرجي الساقين على أقرانهما من الشهود فلم يتمكنا من الحراك. لم أكن أريد! لم أكن أستطيع! كنت واقفاً ساكناً ولكي أتحرك أو أتكلم أو أعبر بأي شيء، كانت تملأني الكراهية. أوه، يا لي من حكم رئيسي! أين الرجل الثلاثيني، الثلاثيني، أين كان رجلي الثلاثيني؟ الثلاثيني غير موجود! وفجأة يظهر عند باب الفصل بيمكو وهو يقف هناك في حذائه من جلد الشموة الأصفر، يرتدي معطفاً بنياً وبيده عصا - واقفاً... واقفاً. وبطريقة مطلقة بدا كما لو أنه جالس.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

مقدمة لفيليدور المبطن بالطفل

قبل أن أستكمل سرد بقية هذه الذكريات الحقيقية، أود أن أضيف كاستطراد في الفصل القادم قصة قصيرة بعنوان «فيليدور المبطن بالطفل». لقد رأيتم كيف ركب لي بيمكو، بخبثٍ، ذلك العالم التربوي البوبو؛ رأيتم الجوانب المثالية لشبابنا المثقف والعجز عن الحياة واليأس الناتج عن التفاوت حولهم، وكآبة التصنع والضجر المؤدي إلى الغم، وسخف الخيال والمعاناة من المفارقات التاريخية وحماقة البوبوهات والوجوه وأجزاء الجسم الأخرى. قد سمعتم كلمات، كلمات وكلمات سوقية تتقاتل مع كلمات نبيلة وكلمات أخرى غير ذات صلة، يتلفظها المعلمون أثناء الدروس - وكنتم شهوداً صامتين لنهاية هزيلة على شكل تكشيرة غريبة لخليط مركب من الكلمات التافهة. إنه هنا وفي بزوغ فتوته، يجد الإنسان نفسه غارقاً في تعبيرات مبتذلة وتكشيرات. لقد تمت صياغة نضوجنا عند ذلك الحداد. بعد لحظات سترون واقعاً آخر، مبارزة أخرى - قتالاً حتى الموت للأستاذين ج.ل.فيليدور من ليدن، وممسين من كولومبو (الملقب بذلك اللقب النبيل - «المضاد لفيليدور»). وهناك أيضاً ستلعب الكلمات أو أجزاء الجسم المختلفة دورها ولكن لا ينبغي أن يبحث الشخص عن ارتباط واضح بين الجزءين في الإجمال؛

twitter @baghdad_library

ومن يظن أن هدفي من إضافة هذه القصة القصيرة «فيليدور المبطن بالطفل» لعملي هو مجرد ملء الفراغ على الورق ولتقليل طفيف من عدد ضخم من الصفحات البيض أمامي، فهو مخطئ جداً.

ولكنْ إذا كان الخبراءُ المتخصصون والباحثون، تلك المجموعات من «بيمكوهات» المتمكنين من تصنيع البوبو عن طريق الإشارة إلى أوجه القصور في بناء العمل الفني، يلومونني لأنّ رغبتي - حسب رأيهم - في ملء الفراغ هو شأن شخصي وغير كاف، ولا يجوز إدخال كلّ ما كتبَ في وقت ما في صلب عمل فني، فسأرد عليهم، في رأيي المتواضع، أرى أن أجزاء الجسد الفردية تشكل مع الكلمات صلة بنائية، جمالية وفنية كافية. وسوف أثبت أن بنائي من حيث الدقة والمنطق مساو لأية بناءات أخرى في ما يخص الدقة والمنطقية. أنظروا - الجزء الرئيسي من الجسد، البوبو اللطيف والأليف هو الأساس، ومن ثم يبدأ سرد العمل من البوبو. من البوبو كما جذع الشجرة الرئيس تتفرع فروع الأجزاء الفردية: إصبع القدم والأيدي والعيون والأسنان والأذنان، حيث يتداخل الجزء الواحد بالآخر بتحويلات رقيقة وبارعة. ووجه الإنسان المعروف أيضاً في منطقة ماووبولسكا البولندية باسم - الدميم هو تاج الشجرة، أوراق الشجرة التي تنمو من جذع البوبو من خلال الأجزاء الفردية؛ لذا فالدميم يُغلق الدورة التي نشأت من البوبو. بعد أن وصلت إلى الدميم فلا يتبقى لي إلا - أنْ أقتفي أثر خطوتي على الأجزاء الفردية لأعود من خلالها مرة أخرى إلى البوبو؟ - وهذا هو هدف القصة القصيرة «فيليدور». «فيليدور» هو بناء عكسي، ممرٌّ أو على نحو دقيق - هو كودا[1]، بل هو التسجيع والانعطافة أو على الأصح إلتواء، إلتواء

(١) المقطع الختامي أو الانتقالي لقطعة او حركة موسيقية.

للأمعاء بدونه لم أكن لأصل إلى سمانة ساقي اليسرى. أليس هذا هيكلاً بنائياً مدرّعاً؟ ألا يكفي هذا لتلبية مطالب الثقافة الرفيعة؟ وناهيك عن اختراق أعمق في صلات الأجزاء الفردية، في مجموعة متنوعة من المسارات من الإصبع إلى الأسنان، في داخل معنى باطني لبعض أجزائكم المفضلة، بالتالي - في أهمية المفاصل الفردية، في مجمل الأجزاء كما في جميع أجزاء الأجزاء؟

أود أن أؤكد لكم - أن هذا البناء لا يقدر بثمن من حيث ملئه للفراغ ويمكن أن يملأ الشخص ثلاثمائة مجلد بالبحوث النقدية في هذا الموضوع وبالتالي يملأ مساحة أوسع ويصل إلى مكانة أعلى ويجلس في مكان أكثر راحة ورحابة. وهل يعجبكم أن تنفخوا فقاعات الصابون عند البحيرة في غروب الشمس بينما تتقافز أسماك الشبوط في الماء ويجلس الصياد في صمت ناظراً إلى صورته منعكسة على صفحة الماء كما المرآة؟

وأقترح لكم طريقتي للتقوية باستخدام التكرار لأنه بتكرار بعض الكلمات والتعبيرات والأحوال والأجزاء فأنني أقويهم وبذلك أضاعف انطباع اتساق الأسلوب لحدود الهوس تقريباً. من خلال التكرار، من خلال التكرار يتم خلق كل الأساطير بنجاعة! ولاحظوا مع ذلك، أن مثل هذا البناء الجزيئي ليس مجرد بناء، بل هو في الواقع فلسفة تامة سأقدّمها هنا في شكل مقالة خفيفة عابثة وهشة. أخبروني، ما رأيكم - ألا تعتقدون بأن القارئ يستوعب فقط الأجزاء وذلك بطريقة جزئية فقط؟ يقرأ جزءاً أو قطعة من الجزء، ثم يتوقف لكي يقرأ قطعة أخرى فيما بعد، وما يحدث في بعض الأحيان إنه يبدأ من الوسط أو من النهاية ويتقدم رجوعاً إلى البداية. ليس نادراً ما يحدث إنه يقرأ بضع القطع ثم

twitter @baghdad_library

يلقي بالكتاب جانباً وليس لأنه فقد الاهتمام فيه ولكن لمجرَّد أن شيئاً آخر خطر بباله. وإن أخيراً قرأه بإكمله - فهل تظنُّون أنه سيتصوره بكليته وسيقدر النسبة والتناسق بين الأجزاء الفردية، ما لم يسمعها من متخصص؟ ولهذا الهدف يكدح المؤلف لسنوات، يقطع نسيجه ويلويه ويمزقه ويرقعه ويعرق ويتعب حتى يقول المتخصص للقارئ أن بناءه جيد؟ ولكن دعونا نذهب إلى أبعد من ذلك، إلى عالم تجربة القارئ الشخصية اليومية! أليس من الممكن أن يقطع قراءته أي إتصال هاتفي أو أية ذبابة بالضبط في اللحظة التي تتخذ فيها كل الأجزاء الفردية لتشكل الذروة الدرامية؟ وماذا إذا كان شقيقه في تلك اللحظة (لنفترض) يدخل الغرفة ويقول له شيئاً؟ تعب الكاتب النبيل سيتبدَّد عبثاً أمام الأخ أو الذبابة أو الهاتف - خسئتِ، أيتها الذبابة الصغيرة الشريرة، لماذا تقرصين الناس الذين فقدوا ذيولهم منذ زمن طويل وليس لديهم أي شيء ليهشُّوك به؟ وعلاوة على ذلك لنأخذ في الاعتبار هل عملكم، ذلك هو العمل الفريد والرائع والمتقن، ليس إلا جزءاً صغيراً من ثلاثين ألف عمل آخر، مساوٍ له في التفرد ويصدر كل عام نبي. يا لتلك الأجزاء الفظيعة! إذن ألهذا الغرض نبنى العمل بمجمله حتى تستوعب جزئية من جزء من القارئ جزئية من جزء من العمل وذلك فقط جزئياً؟

من الصعب ألا نلهو بنكتة حول هذا الموضوع. لإنَّ النكتة تطرح نفسها. حيث أننا من فترة طويلة تعلمنا أن نتخلص من السخرية المريرة علينا بالسخرية. هل سيظهر أبداً العبقري الجاد الذي سيواجه توافه الحياة الحقيقية دون أن ينفجر في قهقة غبية؟ عظمةُ مَنْ تستطيع في النهاية أن تكون نداً قوياً للتفاهة؟ هاي، يا للهجتي، لهجة المقالة الخفيفة! ولكن لنلاحظ أيضاً (حتى نأخذ آخرَ رشفة من كأس الجزئيات) أن قوانين

ومبادئ البناء تلك التي نخضع لها بطريقة فيها عبودية، هي كذلك نتيجة للجزء المجرد، والمتناهي الصغر. إنه جزء ضئيل من العالم، عدد هزيل من المتخصصين ومحبي الجمال، عالم صغير لا يزيد عن خنصر اليد ويمكن أن يسعه مقهى واحد، مستمر في القولبة وهو يعتصر من نفسه فرضيات مصقولة أكثر وأكثر. ولكن، ما هو أسوأ من ذلك، أن تلك الأذواق ليست أذواقاً في الواقع - لا، إن ولعهم ببنية عملكم مجرد جزء منه، الجزء الأكبر هو ولعهم بخبرتهم الواسعة في مجال البناء. ألهذا الغرض يحاول المبدع أن يظهر قدرته على البناء حتى يستطيع الخبير أن يظهر خبرته حول هذا الموضوع؟ أسكت، صه، شيء غامض يحدث، ها هو المبدع في الخمسين من عمره يبدع وهو راكع أمام مذبح الفن ويفكر في تحفته الفنية وتناسقها ودقتها وجمالها وروحها، وكيف يتغلب على صعوبتها، وها هو ذا الخبير المطلع وهو يعمق إنتاج المبدع فى دراسة شاملة لينطلق العمل إلى عالم القارئ - وما تم خلقه بعد معاناة كبيرة وتامة، يتلقاه القارئ بطريقة جزئية، في ما بين اتصال هاتفي ووجبة غذاء. هنا كاتب يغذينا بروحه وبقلبه وبفنّه وتعبه وكدِّه - وهنا قارئ لا يريد أي شيء من ذلك كله وإذا أراد فسيكون ذلك عرضياً، ارتجالاً إلى اللحظة التي يرنّ فيها الهاتف. تَتيهون في توافه الحياة الواقعية. إنكم مثل الرجل الذي تحدى تنيناً للقتال ولكن كلباً أليفاً صغيراً حصره في الزاوية.

وبعدئذ، أريد أن أسأل (حتى أرشف مرة أخرى رشفة من كأس الجزئيات) هل - في رأيكم - العمل الذي يتبع جميع القوانين يعرب عن الإجمال أم عن الجزء فقط؟ حقاً! ألا يستند أي شكل إلى عملية إقصاء وليس البناء إلا تجريد، وهل تستطيع أن تعبر الكلمة إلا عن جزء من

twitter @baghdad_library

الواقع؟ والباقي هو الصمت. وأخيراً، هل نحن الذين نخلق الشكل أم الشكل هو الذي يخلقنا؟ يبدو لنا بأننا الذين نقوم بالبناء - وذلك وهم لأننا على حد سواء يتم بناؤنا من قبل البناء. أي شيء كتبته على الورق يملي عليك ما سيجيء لاحقاً، لأن عملك لم يولد منك، أردت أن تكتب شيئاً، فوجدت نفسك كتبت شيئاً مختلفاً تماماً. تميل الأجزاء إلى الإجمال، يتجه كل جزء خلسة إلى الإجمال، يسعى إلى الضخامة، يبحث عن التكامل، يطلب من الباقي أن يتشكل على صورته وشبهه. وسط بحر مضطرب من الصور يلتقط عقلنا جزءاً معينا، لنَقُلْ - أذناً أو ساقاً، إذاً في بداية عملنا تجري الأذن أو الساق تحت قلمنا وبعدها لا نستطيع أن نحرر أنفسنا من ذلك الجزء فنستمر في الإضافة إليه وفرض بقية أجزاء الجسد الأخرى علينا. نلتف حول ذلك الجزء مثل اللبلاب حول شجرة البلوط، تحدد البداية النهاية والنهاية تحدد البداية، فيتم خلق الوسط ما بين البداية والنهاية. استحالة الإجمال المطلقة تميز النفسَ البشرية. إذن ماذا علينا أن نفعل بجزء ولد وهو ليس على شكلنا، كما لو أن ألف فحل بشهوة نارية زاروا سرير أم طفلنا - ها، ربما لمجرد حفظ مظاهر الأبوة عندنا، يجب علينا وبكل قوة أخلاقية لدينا أن نحاول أن نتشابه مع عملنا عندما لا يريد عملنا أن يشبهنا. حقا، أتذكر كاتباً كنت أعرفه منذ سنوات، وكان في بدء حياته المهنية يكتب كتاباً ملحمياً. بالصدفة تماماً وفي كلماته الأولى ضرب على وتر نبرة ملحمية، مع أنه كان من الممكن أنْ يضربَ على حدٍّ سواء على وتر نبرة تشككية أو غنائية - ولكن حدث أن الجمل الأولى خلّفتْ انطباعاً ملحمياً ومن ثم لم يستطع، وذلك مراعاةً لتناسق البناء، بدون أن يضاعف الملحمية تدريجياً وحتى النهاية. استمرّ يدور ويصقل ويتقن ويصحح ويجعل

البداية تنسجم مع النهاية والنهاية مع البداية حتى ينبثق عن ذلك عملٌ حيّ وغنيّ بالإيمان الراسخ. ولكن ماذا عليه أن يعمل بذلك الإيمان الراسخ؟ هل يمكنه أن ينكر إيمانه الراسخ؟ هل يمكن للمبدع المسؤول عن كل كلمة له أن يعترف بأنه كتب عملاً ملحمياً بالصدفة وبدون أن يقصد وأن ذلك الإيمان الراسخ ليس إيمانه هو على الإطلاق ولكنه زحف من خارجه ودب وغاصَ وتسرب إلى داخل الكتاب؟ قطعا لا! - لأن هذه الوسائل التافهة مثل: «زحف وكُتب بالصدفة وبدون أن يقصد وغاص» لا تندرج تحت أسلوب الثقافة الرفيعة وعلى الأكثر يمكنها أن تكون بديلاً مؤقتاً لأسلوب مقالة عرضية هزلية وهشة.

عبثاً كان كاتبنا الملحمي سيء الحظ يخجل ويختبئ ويحاول أن يتملص من الجزء، الجزء بعد أن أمسك بتلابيبه مرة، لم يعد يريد أن يتركه وكان مضطراً إلى التكيف مع جزئه الذي تمكن منه في البداية. واجتهد في محاولة أن يتشابه مع ذلك الجزء، حتى عند نهاية حياته الأدبية أصبح بالفعل متطابقاً معه تماماً وملحمياً مثله - ضحية ضعيفة لملحميته. وفر فقط من الزملاء والرفاق من وقت البلوغ فراره من الطاعون، لأنهم كانوا مندهشين ومستمرين في تساؤلاتهم حول الإجمال الذي تواءمَ مع الجزء بمثل هذا الإحكام. ونادوا عليه: - «يا بوليك! هل تتذكر هذا الظفر... هذا الظُّفْرَ... بوليك، بوليك، بوليك الصغير، هل تتذكر هذا الظُفرَ على المرج الأخضر؟ الظُفرَ؟ ذلك الظُّفر، يا بولو، أين هو؟».

تلك هي الأسباب الأساسية والرئيسية والفلسفية التي قادتني لبناء عمل على أساس الأجزاء الفردية - بحيث يعتبر العمل نفسه جزءاً من

twitter @baghdad_library

العمل والإنسان اتحاد للأجزاء بينما الجنس البشري مزيج من الأجزاء والقطع. واذا اشتكى شخص ما: منْ أنّ هذا المفهوم «الجزيئي» هو ليس - بحق الله - مفهوماً على الإطلاق وهو محض هراء وسخرية واستفزاز وبأنني بدلاً من الاستسلام لقواعد وقوانين الفن الصارمة، أحاول أن أتهرب منها عن طريق هذه السخرية - فسأجيبُ على هذا: نعم، حقاً، هذا هو ما أقصده وليس أي شيء غير ذلك. والله يشهد على ما أقول - لا أتردد أن أعترف - بأنني أود أن أهرب من «فنكم»، أيها السادة، الذي لا أستطيع أن أتحمله، كما من أنفسكم... لأنني لا أستطيع كذلك أن أتحملكم بمفاهيمكم ومواقفكم الفنية، وكل عالمكم الفني الصغير.

يا سادة، هناك على الأرض مجتمعات هي أقل أو أكثر سخافة، أقل أو أكثر امتهاناً وعاراً وذلة - وكذلك كمية الغباء تكون متغيرة في كل مكان. لذلك، على سبيل المثال، مجتمع الحلاقين قد يبدو للوهلة الأولى أكثر قابلية للغباء من مجتمع صانعي الأحذية. ولكن ما يحدث داخل العالم الفني يفوق كافة مقاييس الغباء والعار - وإلى درجة أن أي شخص لديه أي نصيب من الاحترام والاتزان لا يمكنه إلا أن يقطب جبينه مُلتهماً بنار الخجل في مواجهة هذه العربدة الصبيانية المدعية. أوه، تلك الأغاني الملهمة التي لا أحد يصغي إليها! أوه، تلك السفسطة المتحذلقة للخبراء والحماس أثناء الحفلات الموسيقية والأمسيات الشعرية، وتلك الاحتفاليات لقبول أشخاص جدد في المجال وجلسات التقييم والمناقشات ووجوه الناس أثناء تلاوتهم أو استماعهم للشعر في احتفالهم الجمعي بغموض الجمال! بأي تناقض مؤلم يتحول كل ما يفعلون أو يقولون في تلك المجالات إلى السخافة؟ لو وقعَ مجتمعٌ ما عبر العصور أسيراً لتلك النوبات من تشنجات الغباء، فبالتأكيد يمكننا أن

نستنتج أن مفاهيمه لا تتماشى مع الواقع، إنه ببساطة يحشو نفسه حشواً بمفاهيم كاذبة. ولا شك أن مفاهيمكم الفنية قد بلغت ذروة السذاجة المفاهيمية؛ وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا كيف وبأي معنى كان ينبغى مراجعتها، أنا أستطيع أن أعرفكم ذلك قريبا - ولكن يجب أولاً أن تعيروني آذانكم.

إذن، ماذا يرغبُ في أيامنا حقا الشخصُ الذي يشعر بنداء داخلي للإمساك بالقلم أو الفرشاة أو الكلارينيت؟ هو قبل كل شيء يرغب في أن يكون فنانا. إنه يرغب في أن يخلق الـ«فن». يحلم بأن يتشبع هو وزملائه المواطنين بالـ«جمال» والـ«خير» والـ«حقيقة»، يريد أن يكون كاهنهم الأعلى وشاعرهم الملحمي وهو يقدم كنوز موهبته إلى الجنس البشري المتعطش إليها. وربما يرغب أيضاً في أن يقدم موهبته لخدمة المثل العليا والشعب. يا لها من أهداف رفيعة! يا لها من مساعٍ عظيمة! ألم يكن هذا دور كل الـ«شكسبيرات» والـ«شوبانات»؟ ولكنّ انتبهوا، وهذه هي الخدعة الخفية، إنكم لم تصبحوا بعد «شوبانات» ولا «شكسبيرات»، لم تصبحوا بكليتكم بعد فنانين وكهنة للفن - أنكم على أقصى تقدير في مرحلة تطوركم الحالية مجرد «نصف شكسبيرات» وأرباع «شوبانات» (أوه، الأجزاء الملعونة مرة أخرى!) - وبالتالي موقفكم الفضفاض هذا يكشف فقط عن نواقصكم البائسة - وكأنكم تريدون أن تقفزوا على قاعدة التمثال بأي ثمن، مُعَرّضينَ أجزاء جسدكم القيمة والحساسة للخطر.

صدقوني، هناك فرق كبير بين الفنان الذي اكتمل تطوره وبين حفنة من «أشباه الفنانين» و«أرباع الشعراء الملحميين» الذين يحلمون فقط بالوصول إلى ذلك. وهذا ما يليق بالفنان المكتمل من جميع النواحي،

twitter @baghdad_library

أما في حالتكم فالقضية تبدو مختلفة. ولكنكم بدلاً من ابتكار مفهوم يناسب ظروفكم وواقعكم الخاص، فإنكم تزينون أنفسكم بريش طائر آخر - وهذا هو السبب في أنكم تصبحون مجرد طامحين ودائماً غير أكفاء ودرجتكم لن تكون أفضل من درجة مقبول أبداً، أيها الخدم والمقلِّدون، أيها المتذللون ومحبو الـ«فن» الذي سيبقيكم دائماً في حجرة الانتظار. بصراحة إنه أمر كريه عندما أرى كيف تبذلون جهوداً ولا تنجحون وكيف في كل مرة يقولون لكم أنه «ليس تماماً ذلك المطلوب» حين تقدمون عملكم الجديد أمام الآخرين وتحاولون أن تدسوه إليهم دسّاً وكيف تنقذون أنفسكم مقابل نجاحات صغيرة ورديئة وتجاملون بعضكم البعض وتنظمون أمسيات فنية وتقنعون أنفسكم والآخرين بالتمثيل أكثر وأكثر لإخفاء عدم كفائتكم. وليست لديكم الأريحية لإدراك أن ما تكتبون وتخترعون ليس له أي معنى ولا حتى لأنفسكم. لأن كل هذا، وأنا أكرّرُ، كل شيء مجرد تقليد، إنه منقول من الأساتذة - إنه ليس إلا وهماً سابقاً لأوانه أنكم أصبحتم مميزين وأصبحتم ذوي قيمة حقيقية. حالكم زائف ولأنه زائف فيجب أن يحمل ثماراً مريرة ولذلك يزيد العداء والازدراء والحقد في الدائرة المحيطة بكم، تحتقرون بعضكم البعض وأنفسكم بالخصوص، أنتم «أخوية الازدراء» - لتصلوا في النهاية إلى أنكم تزدرون بعضكم البعض حتى الموت. لأنه على أي شيء تعتمد حقاً حالة الكاتب الثانوي، إن لم يكن على الرفض الواحد الكبير؟ الرفض الأول القاسي يسدده القارئ العادي، الذي لا يريد أن يستسيغ أعماله مطلقاً. الرفض الثاني المخجل يسدده الواقعُ الخاص به الذي فشل في نقله. والرفض الثالث وهو بالفعل ركلة له والأكثر عاراً من الرفضين السابقين، يتلقاه من جهة الفن نفسه، الفن الذي لجأ إليه

والذي يحتقره لعدم كفاءته وعدم ملاءمته. وبذلك يكتمل إمتلاء كأس العار. ومن هنا يبدأ التشرد الكامل الذي يجعل الثانوي مثاراً للسخرية من جميع الجهات وهو يتلقى الرفض من كافة الجهات كالنيران المتقاطعة. بصراحة، ماذا يمكن أن نتوقع من إنسان أصيب بالرفض ثلاث مرات، وفي كل بدا مرة أكثر عاراً من المرة السابقة؟ الإنسان الذي يتعرض لكل ذلك ألا ينبغي عليه أن يرحل ويختفي في مكان ما حتى لا يراه أحد؟ هل عدمُ الكفاية الذي يستعرضُ في وضح النهار التواق إلى التكريم، يمكنه أن يكون صحيّاً، ثم ألا ينبغي أنْ يُثيرَ رغبة المرء في الفَوَاق؟

ولكن أخبروني أولاً - هل في رأيكم، كُمَّثرى بيري هي الأفضل والأكثر عصيراً من الكمّثرى الأناناسية؟ أم أنتم متحيزون للثانية أكثر من الأولى؟ وهل تحبون أن تتناولوها وأنتم جالسون باسترخاء في مقاعدكم الخيزرانية على شرفتكم؟ العار، العار، أيها السادة، العار ثم العار! لست فيلسوفاً ولا منظراً، لا - أنا هنا أتحدث عنكم، أعني حياتكم، افهموني، تعذبني فقط حالتكم الشخصية. أنتم لا تستطيعون أن تتحرروا. أوه، يالعدم الاستطاعة الخاصة بكم على قطع الحبل السري الذي يربطكم بالرفض الإنساني! الروح أصيبت بالرفض - الزهرة التي لم يتنسَّم عبيرها أحد - الحلوى التي أرادت بشدة أن تكون حلوة المذاق ولكنها لم تكن كذلك - المرأة المنبوذة - كل تلك كانت أسباباً في ألمي الجسدي، لا أستطيع أن أتحمل عدم الاستيفاء هذا - وعندما ألتقي في الحي بأحد الفنانين وأدرك إلى أي مدى يعتمد وجوده على الرفض المجرد، كيف أن كل خطواته وكلماته ومعتقداته وحماسه وفاصلته وذاته المهانة وفخره وإثارته للشفقة وألمه، كل ذلك تفوح منه رائحة الرفض المجرد وغير المحبب، فأنا أشعر بخجل. وأشعر بخجل ليس لأنني

twitter @baghdad_library

أشفق عليه ولكن لأنني أتعايش جنباً إلى جنب معه، لأن طبيعته الغريبة المتوهمة تلمسني وتلمس الآخرين الذين اخترقت وعيهم. صدقوني، لقد حان الوقت لكي نرتب ونحدد موقف ذلك الكاتب الثانوي وإلا سيصاب كل الناس بالغثيان. أليس غريباً أن الأشخاص الذين يكرسون أنفسهم ex professo[1] للشكل وبالتالي يمكننا أن نعتقد أنهم حساسون للأسلوب، يوافقون بدون احتجاج على مثل هذه الحالة الكاذبة المدَّعاة؟ ألا تدركون بأن من وجهة نظر الشكل والأسلوب ليس هناك شيء أكثر كارثية في عواقبه - لأن من يجد نفسه في مثل هذه الحالة المصطنعة وفي ذلك الوضع المزيف والرديء كلية، فهو لا يقدر أن ينطق بكلمة واحدة غير زائفة وغير رديئة؟

ومن ثم - ستسألون - ماذا يجب أن يكون عليه توجهنا لكي نستطيع أن نعبر عن أنفسنا بطريقة تكون متطابقة مع واقعنا، وفي نفس الوقت تكون أكثر استقلالية؟ يا سادة، ليس في وسعكم التحول، هكذا، ما بين الثلاثاء والأربعاء، إلى أساتذة ناضجين - ولكن يمكنكم أن تحفظوا كرامتكم إلى حد ما من خلال ابتعادكم عن الـ«فن» الذي يركّب لكم بوبو يقلقكم جداً. بداية افترقوا إلى الأبد عن هذه الكلمة: الفن وكذلك كلمة: الفنان. توقفوا عن التمرغ في تلك الكلمات التي تكررونها برتابة لا نهاية لها. أليس كل واحد فناناً ولو قليلاً؟ أليس صحيحاً أن الإنسانية تخلق الفن ليس فقط على ورقة أو على قماشة، ولكن في كل لحظة من الحياة اليومية - عندما تضع فتاة زهرة في شعرها، عندما تخرج نكتة من أفواهكم أثناء حديث، عندما نذوب في عواطفنا من جمال الضوء والظل

---

(١) بخبرة وعلم بالموضوع، ضليع (الإيطالية).

في وقت الشفق، ما هذا كله، إن لم يكن ممارسة للفن؟ لماذا إذن هذا التقسيم الغريب والسخيف بين «الفنانين» وبقية البشر؟ ألن يكون صحيًّا أكثر، إذا قلتم ببساطة: «إنني منشغل بالفن أكثر قليلاً من الآخرين» بدلاً من أن تعلنوا بفخر أنكم فنانون؟ وبعدئذ، كيف ستفيدكم عبادة الفن من خلال ما يسمى «أعمالاً فنية» - هل أصابكم الهذيان وحلمتم بأنه ممكن أن تعجب الأعمال الفنية إنساناً بشدة وأننا قد يغمى علينا من النعيم السماويّ عندما نستمع إلى فوغا[1] باخ؟ ألم يخطر أبداً ببالكم، إلى أي مدى أن الجانب الفني من الثقافة بذيء وغامض وغير ناضج - الجانب الذي تريدون أن تحبسوه في داخل أسلوبكم اللغوي المبسط؟ الخطأ الذي ترتكبونه باستمرار وبشكل روتيني، هو أولاً وقبل كل شيء: أنكم تقصرون الصلة بين الإنسان والفن على العاطفة الفنية وحدها، وتحددونها في نفس الوقت بعبارات شديدة الأنانية، كأن كل واحد منا يختبر الفن على مقاس يده وقدمه وحده فقط، وهو في عزلة محكمة عن غيره من الناس. ولكن في الواقع نتعامل هنا مع مزيج يتألف من العديد من العواطف أو الكثير من الناس الذين يخلقون تجربة جماعية من خلال التفاعل بين بعضهم البعض.

وبالتالي، عندما يضرب عازف البيانو مقطوعة لشوبان على المسرح، تقولون إن سحر موسيقى شوبان المنقولة ببراعة شديدة عن طريق عازف البيانو الرائع قد أذهل الجمهور. ولكن، ربما في الواقع أن لا أحد من الجمهور قد أصابه الذهول. ودعونا لا نستبعد احتمال أنه إذا لم يكونوا

(١) صنف من التآليف الموسيقية الغربية. يعطي الانطباع للمستمع بمشهد هروب ومطاردة عن طريق الدخول المتتالي والمتعاقب للأصوات وتكرار نفس المقطع.

twitter @baghdad_library

يعرفون أن شوبان موسيقي عبقري عظيم، وكذلك عازف البيانو، فربما كانوا سيستمعون إلى هذه الموسيقى بحماسة أقل. ومن المحتمل أيضاً عندما يكون كل واحد فيهم شاحباً من الحماس وهو يصفق ويصرخ ويتمايل بطرب، فبالتأكيد قد يرجع ذلك إلى أن آخرين أيضاً يتمايلون طَرَباً وهم يصرخون، لأن كل جانب منهم يعتقد أن الآخرين يشعرون بنشوة غامرة وإثارة فائقة، وبالتالي تبدأ عاطفته بدورها في النمو على خميرة الآخرين؛ وعلى هذا النحو يمكن أن يحدث بسهولة أنه على الرغم من أن لا أحد في القاعة معجب بشكل مباشر، فالجميع يظهرون علامات الإعجاب - لأن الجميع يريدون أن يتكيفوا مع جيرانهم. وفقط عندما تثير كل مجموعة بعضها البعض بما يكفي، فقط حينئذ، أعتقد، أن تلك الأعراض تثير العاطفة في داخلهم - لأننا يجب أن نتكيف مع أعراضنا. ومن المؤكد أيضاً أننا من خلال المشاركة في ذلك الحفل، فإننا نقوم بممارسة نوع من العمل الديني (تماما كأننا نساعد في القداس) وحين نركع بتقوى أمام إلوهية الفن؛ في تلك الحالة لم يكن إعجابنا إلا إجلالا وأداء لشعيرة. ولكن مع ذلك من يمكن أن يحددَ كم من الجمال الحقيقي يوجد في هذا الجمال وكم منه هو جزء من العمليات التاريخية - السوسيولوجية؟ حقاً، معروف للجميع أن الإنسانية تحتاج إلى أساطير - تختار هذا أو ذاك من بين العديد من مبدعيها ولكنْ منْ بوسعه أنْ يبحث ويكشف اسس هذا الاختيار؟ وعندئذ ترفعه فوق الآخرين وتبدأ في إظهاره وتكشف أسرارها فيه وتسلم مشاعرها له - ولكن إذا كان لنا أن نرفع فناناً آخر بالإصرار نفسه، فسيصبح هو «هوميروس» بالنسبة لنا. إذن ألا ترون كم من العوامل المتنوعة، والتى غالباً ما تكون غير جمالية (والتي يمكنني أن أستمر في ذكرها إلى ما لا نهاية) تساهم في عظمة

الفنان وعمله؟ وتريدون أن تقتصروا صلتنا الغامضة والمعقدة والصعبة بالفن على هذا الكليشيه الساذج: «الشاعرُ الملهم يغني، والمستمعُ المعجبُ يُصغي»؟

فتوقفوا عن ذلك التدليل للفن، توقَّفوا - بالله عليكم! - عن منظومة النفخ له بالكامل والتضخيم فيه؛ وبدلاً من أن تثملوا بأساطيره، أتركوا الحقائق لتخلقكم. ومتى تعرضت عقولكم للواقع سيجلب لكم ذلك راحة شديدة - ولكن في نفس الوقت تخلصوا من القلق لأن ذلك من شأنه أن يفقر أرواحكم ويضعفها - لأن الواقع دائماً أكثر ثراء من الأوهام الساذجة والتصورات التافهة. وسرعان ما سوف أبين لكم ما هي الثروات التي تنتظركم من هذه الطريقة الجديدة.

فمن غير ريب أن الفن يستند إلى كمال الشكل. ولكنكم تتخيَّلون - وهنا يكمن خطأكم الرئيس الآخر - أن الفن يعتمد على خلق الأعمال المتكاملة في شكلها، تقصرون عملية خلق الشكل الضخمة والإنسانية كلية على إنتاج قصائد وسمفونيات؛ وحتى لم تكونوا قادرين أبداً على أن تدركوا بدقَّة ولا أن تشرحوا للآخرين الدور الهائل للشكل في حياتنا. حتى في مجال علم النفس لم تتمكنوا من أن توفروا للشكل مكانة مناسبة. حتى الآن ما زلتم تظنون أن المشاعر والغرائز والأفكار هي التي تحكم تصرّفنا، بينما كنتم تميلون إلى اعتبار أن الشكل جزء سطحي إضافي وحلية بسيطة. وعندما تمشي أرملة وراء نعش زوجها وتنتحب حدَّ الانهيار، تعتقدون أنها تنتحب لإحساسها الشديد بفقدان عزيز عليها. وعندما يقتل مهندس أو طبيب أو محام زوجته أو أطفاله أو صديقه، تعتقدون أنه ترك نفسه لتستولى عليه غرائزه الدموية. وعندما يقول سياسيٌّ غبيّ شيئاً غبياً، تعتقدون أنه غبي لأن ما يقوله مجرد هراء. لكنّ

twitter @baghdad_library

الحالة في الوقع تكون على النحو التالي: أن الإنسان لا يعبر عن نفسه بطريقة مباشرة وبما يتفق مع طبيعته، ولكن دائماً في إطار شكل معين وأن ذلك الشكل وذلك الأسلوب والسلوك الوجودي ليس من صنعنا فحسب، بل إنه مفروض علينا من الخارج - وهذا هو السبب في أن الشخص نفسه يمكن أن يظهر للخارج كحكيم أو سخيف وسفاح أو ملائكي وناضج أو غير ناضج، على حسب الأسلوب الذي ينجر إليه وإلى أيَّة درجة هو معتمد على الآخرين. وإذا كانت الديدانُ والحشراتُ تسعى خلف رزقها كلَّ اليوم، فنحن نطارد الشكل بلا كلل، نتشاحن مع الآخرين حول الشكل، حول سلوكنا الوجودي، وأثناء ركوبنا الترام ونحن نأكل أو نتسلى أو نستريحح أو حينما نؤدي أعمالنا - دائماً وباستمرار نبحث عن الشكل ونبتهج به أو نعاني منه ونتكيف معه أو ننتهكه وندمره، أو نسمح له بأن يخلقنا، آمين.

يا لقوة الشكل! تموت الأمم بسببه. إنه يثير الحروب. انه يخلق شيئاً ما بداخلنا ليس منا. إنكم ستفشلون دائماً في فهم الغباء والشرّ والجريمة إذا إستخففتم به. فإنه يحكم حتى أقل ردود أفعالنا. إنه أساس حياتنا الجماعية. بيد أن الشكل والأسلوب بالنسبة لكم مايزالان فكرتين تنتميان إلى المجال الجمالي الصرف - بالنسبة لكم الاسلوب هو مجرد الاسلوب على الورق، أسلوب قصصكم القصيرة. يا سادة، من سيصفع بوبوهاتكم بما فيه الكفاية وأنتم تعرضونها بجرأة على الناس أثناء ركوعكم أمام مذبح الفن؟ الشكل بالنسبة لكم ليس شيئاً حيَّاً وإنسانياً، شيئاً - قد أقول - عملياً ويومياً، بل مجرد شيء إضافي من أجل الاحتفالات. حين تميلون على قطعة الورق، تنسون أنفسكم - ولا تهتمون بإتقان أسلوبكم الشخصي والمميز، فإنكم تمارسون مجرد فرض

أسلوب تجريدي في الفراغ. بدلاً من أن يخدمكم الفن، فأنكم أنتم الذين تخدمون الفن - تنقادون له كانقياد الأغنام وتسمحون له بأن يعوق تطوركم ويدفعكم إلى جحيم الكسل.

أنظروا الآن، كم سيكون الموقف مختلفاً للشخص لو يُلقي نظرة جديدة للعالم بفهم أكبر للأهمية اللانهائية للشكل في حياتنا، بدلاً من أن يتغذى بكلمات صانعي المفاهيم المختلفين،. إذا أمسك بالقلم فذلك ليس من أجل أن يصبح «الفنان»، ولكن - لِنَقُلْ- ليعبر عن شخصيته بأفضل طريقة ويشرحها للآخرين؛ أو ليرتب شؤونه الداخلية، وربما أيضاً، ليتعمق ويتشدد في علاقاته مع الآخرين لأن أرواح الأخرين تؤثر في أرواحنا بشكل ضخم وإبدعي؛ أو، على سبيل المثال، ليناضل من أجل أن يجعل العالم كما يحب، من أجل عالم لا غنى عنه لحياته. بطبيعة الحال، لن يبذل أي جهد لجذب وكسب الأخرين من خلال المفاتن الفنية لعمله - ولكن في هذه الحالة هدفه الرئيسي لن يكون الفن فحسب، بل التعبير عن شخصه فقط. وأقول «عن شخصه» وليس «الأخرين» لأنه قد حان الوقت بأن تتوقفوا عن اعتبارِ أنفسكم كائنات عليا موجودة من أجل أن توعظوا وتنيروا الآخرين وترشدوهم وترتقوا بهم وتهذبوا أخلاقهم أيضاً. من ضمن لكم ذلك التفوق؟ أين هو مكتوب بأنكم أصبحتم تنتمون إلى طبقة أعلى؟ من الذي رقاكم إلى الأرستقراطية؟ من منحكم رخصة براءة في «نضوج»؟ أوه لا، هذا الكاتب الذي أتكلم عنه، لن يكرس نفسه للكتابة لأنه يعتبر نفسه ناضجاً، ولكن على وجه التحديد لأنه مدرك لعدم نضوجه ويعرف أنه لم يفهم كل شيء عن الشكل بالكامل وإنه لايزال يصعد ولكنه لم يتربع على القمة بعد، وإنه ما زال في عملية التكوين، ولكنه لم يتكون بعد.

twitter @baghdad_library

وإذا حدث أن كتب عملاً غير كفؤ وسخيف، فإنه يقول: - جيد! لقد كتبت شيئاً سخيفاً ولكني لم أوقع عقداً مع أيّ شخص لإنتاج أعمال ذكية وكاملة فقط. لقد عبّرتُ عن غبائي وأنا سعيد بذلك، لأنَّ الحقد والقسوة التي أثرتُ عند الناس ضدي، سوف تشكلني وتصوغني، كأنها تخلقني من جديد، وها أنا قد ولدت مرة أخرة - ويثبت ذلك بأن الشاعر الملحمي الذي عنده مثل تلك الفلسفة السليمة يكون راسخاً داخلياً إلى درجة أنه حتى الغباء وعدم النضوج لا يُفزعانه ولا يُمكنهما إيذاءه - فهذا الشاعر الملحمي يمكن أن يعبر عن نفسه ويعلن عن عدم كفاءته برأسه المرفوعة بينما أنتم لم تعودوا تستطيعون أن تعبروا عن أي شيء تقريباً لأن الخوف يحرمكم من الكلام.

إذن في هذه النواحي، الإصلاح الذي أوصي به لكم، قد يمنحكم ارتياحاً كبيراً. ولكن ينبغي فقط أن نضيف أن الكاتب المتمرس المدرك لتلك المسائل، يكون قادراً على معالجة القضية التي حتى الآن، ركبت لكم أسوأ البوبوهات - والقضية التي أطرحها هنا، ربما هي الأكثر أساسية وفظاعة وروعة (لا أتردد في استخدام هذه الكلمة) من جميع القضايا من حيث الأسلوب والثقافة. إليكم طريقة تصويرية لتقديم القضية وهي كما يلي: تخيلوا الشاعر الملحمي البالغ والناضج وهو منكفئ على قطعة ورق في خضم عملية إبداع... بينما استقر على كتفه شاب أو شبه مثقف من أشباه المستنيرين أو فتاة صغيرة أو شخص ما بروح مترهلة يصعب وصفها أو أي كائن صغير في السن وضئيل الثقافة أو منخفض المستوى الفكري - وها هو ذلك الكائن، ذلك الشاب أو الفتاة أو شبه المثقف أو أيا من كان من أبناء «ربع - الثقافة» المظلمة المشوشة أذهانهم، قد اندفعَ إلى روح الشاعر وسحبها إلى أسفل وقلصها وكبسها

بحوافره لكنه في نفس الوقت وباحتضانه الروح وغمْرها وامتصاصها، فإنه يجددها بشبابه ويُتَبّلُها بعدم نضوجه ويُجهّزها وفقا لذوقه الخاص من خلال جذبها إلى أسفل لمستواه - آه، بين ذراعيه! ولكن المبدع، بدلاً من أن يواجهَ الغازي، يتظاهر بأنه لا يراه و - يا للسخافة! - يظن أنه سيتفادى الانتهاك من خلال ارتداء وجه غير المنتَهَك من أي أحد. أليس هذا بالضبط ما يحدث لكم، بداية من العباقرة العظام وصولاً إلى الشعراء الملحميين الهامشيين في الجوقة المسرحية؟ أليس صحيحاً أن كل كائن متقدم في نضوجه وتطوره وعمره يكون معتمداً بآلاف الطرق المتنوعة على كائنات أقلّ تطوراً، ثم ألا يخترقنا في الصميم هذا الاعتماد إلى الحد الذي يمكننا أن نقول: إن الأكبر في السن يُخلق من الأصغر سنّاً؟ وحين نكتب ألا يجب علينا أن نتكيف مع القارئ؟ مثلما عندما نتكلم - ألا نعتمد على الشخص الذي نوجه إليه كلامنا؟ ألا نغرم بالشباب؟ ألا يجب علينا في أي وقت أن نتملَّقَ النعمة من الكائنات الأدنى منّا ونتناغم معها، ونخضع إما إلى قوتها أو إلى سحرها - وأليس هذا الإنهاك المؤلم المرتكب في حق ذاتنا من قبل الكائنات السفلى شبه المستنيرة، هو أكثر خصوبة من كل الإنهاكات؟ ولكنّكم - حتى الآن وعلى العكس من كل ما تبذلونه في بلاغتكم - اكتفيتم فقط بدفن رؤوسكم في الرمال وعقلياتكم العلمية والتربوية، المتشبعة بالغرور، جعلتكم غير قادرين على إدراك ذلك. في الحقيقة أنكم تتعرضون للإنهاك المستمر، بينما تتظاهرون بأن لا شيء يحدث - أوه، لأنكم، أيها الناضجون، ترافقون فقط زملاءكم الناضجين، ونضوجكم ناضج إلى درجة أنه لا يستطيع أن يتصادق إلا مع النضوج!

وأما إذا اهتممتم أقل بالفن أو بتهذيب الآخرين وتحسينهم واهتممتم

twitter @baghdad_library

أكثر بذاتكم البائسة، فلم تكونوا لتذعنوا أبدا لمثل هذا الانتهاك الفظيع للذات - والشاعر بدلاً من أن يخلق قصائد إلى شاعر آخر، فإنه سوف يشعرُ بأنه مخترقٌ ومخلوق من الأسفل من قبل قوى لم يلحظها من قبل حتى ذلك الوقت. كان يدرك بأنه فقط من خلال تقبلها، سيستطيع أن يتحرر منها؛ وسيبذل أكبر جهد لكي يظهر بوضوح في أسلوبه ومواقفه وشكله - سواء على الجانب الفني أو اليومي - تلك الصلة التي تربطه بما هو أسفل منه. لم يعد ليشعر فقط كأب، بل كإبنٍ وأبٍ في الوقت نفسه: وحينها لم يكن ليكتب كحكيم ومهذب وناضج، بل كحكيمٍ لا ينفي مشاركته في الغباء وكمهذب متعرض بلا كلل للوحشية وكبالغ خاضع لعملية استعادة شباب مستمرة. وإذا ما التقى مصادفة، وهو يبتعد عن مكتبه، بالشاب أو شبه المثقف، فإنه لم يكنْ ليربتَ على كتفيهما بلطف مظهراً شعوراً بالتفوق مثل تربوي وواعظ، وإنما سيبدأ بالزئير والهدير برعشة مقدسة، وربما قد يجثو أيضاً على ركبتيه! بدلاً من الفرار من عدم النضوج، وحبسِ نفسه داخل محيطه السامي، فإنه سيدرك بأن الأسلوب الشامل هو الأسلوب الذي يعرف كيف أن يشمل بحبه ذلك التخلف. وهذا كله كان سيؤدي بكم في نهاية المطاف إلى شكل مليء بالإبداع إلى حد اللهاث وطافح بالشعر إلى درجة أن مجموعة كاملة منكم ستحول نفسها إلى عباقرة عظماء.

انظروا إذن، أي آمال سيبعثها فيكم مفهومي الفردي والشخصي - وأية آفاق! ولكن، لكي تصبح هذه الفكرة مبدعةً مائة في المائة ونهائية، يجب عليكم أن تأخذوا خطوة إضافية إلى الأمام - وهذه الخطوة يجب أن تكون جريئة وحازمة جداً وغير محدودة في احتمالاتها ومدمرة في عواقبها إلى درجة، أن شفتي ستذكرها فقط همساً ومن على بعد. ها هي

- لقد حان الوقت ودقت ساعة التاريخ - اجتهدوا في التغلب على الشكل، التحرر من الشكل. توقفوا عن التطابق مع ما يحددكم. أنتم، يا فنانين، حاولوا أن تتجنبوا أي تعبير عن أنفسكم. لا تثقوا بكلماتكم. احترسوا من إيمانكم ولا تثقوا بمشاعركم. انسحبوا مما أنتم عليه في الخارج وارتعشوا خوفاً من أي إعلان ذاتي مثل الطائر الصغير الذي يرتعش خوفاً من ثعبان.

أنا لا أعرف، حقاً، إذا ما تمكنت شفتاي أن تتذكراه اليوم - ولكن الفرضية بأن الإنسان يتم تحديده، وهو غير قابل لتغيير أفكاره وقاطع في تصريحاته وملتزم بأيديولوجيته وحاسم في أذواقه ومسؤول عن أقواله وأفعاله وإنه تم تثبيته مرة وإلى الأبد في كل سلوكه الحياتي - هي خاطئة. تأملوا الطبيعة الغريبة لتلك الفرضية عن كثب. النضوج الدائم هو من عناصرنا. ما نعتقد ونشعر اليوم، فإنه حتماً سيكون سخيفاً لأحفادنا. لذا سيكون من الأفضل أننا نعترف اليوم بذلك النصيب من السخافة الذي سيكشفه الزمن... وهذه القوة التي تضطركم إلى التحدد قبل الأوان، ليست، على العكس مما تعتقدون، من القوى البشرية بالكامل. سوف ندرك قريباً بأن لم يعد الأكثر الأهمية: أن نموت للأفكار والأساليب والفرضيات والشعارات والمعتقدات؛ ولا أيضاً: أن نتجمد فيها ونحاط بها؛ ولكن شيئاً آخر وهو: أن ننسحب بخطوة إلى الوراء ونبقي على مسافة من كل ما يحدث لنا باستمرار.

انسحبَ. لدي حدس (ولكن لا أعرف إذا وجب على شفتيّ أن تعترفا بذلك الآن) بدنو وقت «الانسحاب العام». سوف يفهم ابن الأرض أنه لا يعبر عن نفسه بانسجام مع أعماق جوهره ولكن كلية

twitter @baghdad_library

ودائماً في إطار شكله المصطنع والمفروض عليه بطريقة مؤلمة من الخارج، إما من قبل الناس أو من خلال الظروف. لذا سوف يخشى من شكله ذلك وسيخجل منه، كما كان يعبده ويتباهى به حتى الآن. سوف نبدأ قريباً أن نخاف من ذواتنا وشخصياتنا لأنه سيصبح واضحاً بالنسبة لنا أنها ليست لنا بأي حال من الأحوال. وبدلاً من أن نزأر قائلين: «أنا أؤمن بذلك - أشعر بذلك - هذا ما أنا عليه - أدافع عن ذلك، فنقول بتواضع: يمكنني أن أؤمن بذلك - يمكنني أن أشعر بذلك - يمكن أنا قلت وفعلت وظننت». سيحتقر الشاعر الملحمي غناءه. سيرتبعد الزعيم أمام أوامره. سيفزع الكاهن من مذبحه وستغرس الأم في ابنها ليس فقط المبادئ ولكن أيضاً القدرة على التهرب منها لئلا تخنقه.

سوف يكون الطريق طويلاً وشاقاً. لأن الكلّ حالياً، سواء أكانوا أفراداً أو شعوباً، يبرعون في إدارة حياتهم النفسية وليس غريباً عنهم القدرة على تصنيع الأساليب والمعتقدات والمبادئ والمثل العليا والمشاعر وفقا لرغباتهم وكذلك طبقاً لما تمليه عليهم مصالحهم قصيرة الأجل؛ ولكن بدون الأسلوب لا يستطيعون أن يعيشوا؛ وما زلنا لا نعرف كيف ندافع عن أعماق نضارتنا أمام شيطان النظام. الاكتشافات العظيمة ضرورية - ضرباتٌ قويةٌ موجهة باليد البشرية اللينة إلى درع الشكل الحديدية - ومكرٌ فذّ ونبل أفكارٍ عظيمة، وأقصى شحد للعقل - لكي يطلق الإنسان سراح نفسه من جموده ويتمكن من التوفيق بين الشكل واللاشكل في داخله، وبين الحق والفوضى، والنضوج وعدم النضوج الأبدي المقدس. ولكن قبل أن يحدث ذلك، قولوا لي: هل في رأيكم، كُمَّثرى بيري هي أفضل من الكمَّثرى الأناناسية؟ وهل تحبون أن تتناولوها وأنتم جالسين مستريحين في مقاعدكم الخيزرانية

على شرفتكم أم تفضلون أن تنغمسوا في ذلك في ظل شجرة، في حين يتم تبريد أجزاء جسمكم بنسيم معتدل ومنعش؟ وأنا أسألكم عن ذلك بكل جدية ومسؤولية كاملة عن كلماتي ومع احترامي الكبير لجميع أجزائكم دون استثناء، لأنني أعرف أنكم تشكلون جزءاً من «الإنسانية» التي أنا أيضاً جزءٌ منها، وأنكم تشاركون جزئياً في جزء من الشيء الذي هو جزء أيضاً والذي أنا أيضاً جزءٌ في الجزء، مع كلّ الجزئيات وأجزاء الأجـزاء، الأجـزاء الأجـزاء الأجـزاء الأجـزاء الأجـزاء الأجـزاء الأجـزاء الأجزاء الأجزاء الأجزاء... النجدة! يا للأجزاء الفظيعة! أوه، يا للأجزاء المتعطشة للدماء والجهنمية وها قد أمسكت بي من جديد، أليس هناك مهرب منكم، ها، إلى أين سألجأ، ماذا سأفعل، أوه، كفاية، كفاية، كفاية، لننهي هذا الجزء من الكتاب، لنتحرك بكل سرعة إلى جزء آخر وأنا أقسم بأنه لن تكونَ هناك أي جُزيئات في الفصل القادم، لأني سوف أحرِّرُ نفسي منها وسوف أتخلص منها وسأرميها إلى الخارج بينما سأبقى في الداخل - على الأقل جزئياً - دون الأجزاء.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

فيليدور المبطن بالطفل

أمير التركيبيين الذائع الصيت والأكثر شهرة على مر الزمان كان بلا شك الدكتور أستاذ العلوم التركيبية في جامعة ليدن، فيليدور المُركِب العالي المقام، ومن مواليد جنوب منطقة أنام. كان يعمل بالروح العليا للتركيب عن طريق الزيادة + اللانهائية وفي الطوارئ أيضاً بمساعدة الضرب + اللانهائية. كان رجلاً كبيراً وبديناً، بلحية تعصف بها الريح وتقذف أطرافها إلى الجانبين بوجه نبي يرتدي النظارات. ولكن ظاهرة روحية بمثل تلك الأهمية لم يكن بإمكانها إلا أن تُحَفَز في الطبيعة بظاهرة مضادة لها، وفقا لقانون نيوتن الفعل ورد الفعل، ومن ثم ولد في كولومبو شخص تحليلي بامتياز على حد سواء وبعد أن حصل على الدكتوراه في جامعة كولومبيا وتوظف كأستاذ للدراسات التحليلية العليا، بلغ بسرعةٍ أعلى مستويات المهنة العلمية. كان رجلا هزيلا وقصير القامة، بلحية حليقة ووجه رجل متشكك، يرتدي نظارات وعنده مهمة وحيدة فقط وهي مطاردة وقهر فيليدور الرائع.

منهجية المحلل هي التفكيك وتخصصه هو تحليل الشخص إلى أجزاء من خلال الحسابات و- على وجه الخصوص - من خلال النقرات

twitter @baghdad_library

على الأنوف. كان ينقر الأنفَ وهكذا يحفزه إلى حياة مستقلة بذاتها، حيث يتحرك الأنف تلقائياً في جميع الإتجاهات مسبباً الرعب لصاحبه. غالباً ما كان يمارس هذا الفن في الترام، عندما كان يشعر بالملل. متبعاً الصوتَ الذي دعاه من أعماقه، قام بمطاردة فيليدور، وحتى في بلدة صغيرة في إسبانيا تمكن من الحصول على لقب «مناهض فيليدور» النبيل، الذي كان فخورا به للغاية. عندما علم فيليدور أن هذا يطارده انطلق بطبيعة الحال بمطاردته أيضاً وظل كلا العالمين يلاحقان بعضهما البعض ولكن دون جدوى، لأن التفاخر لم يسمح لأي منهما بأن يعترف بأنه ليس مُطَارِداً فحسب، ولكنه مُطَارَد أيضاً. وبالتالي، على سبيل المثال، عندما كان فيليدور في بريمن، أسرع «مناهض فيليدور» بالانتقال من لاهاي إلى بريمن، غير راغب أو غير قادر على أن يصدق الحقيقة أن فيليدور، وفي الوقت نفسه والغرض نفسه، يغادر بالقطار من بريمن إلى لاهاي. صدام العالِمَينِ المتسارعين - أكبر كارثة من بين كوارث السكك الحديدية - حدثتْ بالصدفة تماماً في مطعم راق في فندق «بريستول» في وارسو. فيليدور برفقة حرم الأستاذ فيليدور بجدول المواعيد في يده، كان في هذه اللحظة تماماً يفكر في أنسب موعد للقطار، عندما جاء يلهث «مناهض فيليدور» مباشرة من القطار مع رفيقة سفره التحليلية، فلورا جنتى من ميسينا، متشبثة بذراعه. نحن، أعني المساعدين الحاضرين هنا، الدكتور تيوفيل بوكليفسكي والدكتور تيودور روكليفسكي وأنا، بعد أن أدركنا خطورة الوضع، بدأنا بتدوين الملاحظات.

اقترب «مناهض فيليدور» إلى طاولتنا وبصمت طعن، بنظرة غاضبة، الأستاذ فيليدور الذي قام من مكانه. أولاً حاولا أن يضغطا على بعضهما

البعض بطريقة روحانية. ضغط المحلِل ببرود من أسفل. رد التركيبي من أعلى، بنظرة مليئة بالكرامة المتحدية. حين بدا أن مبارزة النظرات لم تُعطِ النتائج الحاسمة، قام العدوّانِ الروحانيان بالمبارزة بالكلمات. بدأ الدكتور وسيد دراسات التحليل كلامه:

- المعكرونة!

أجاب باحث علم التركيب:

- معكرونة وحيدة!

زأر «مناهض فيليدور»:

- المعكرونة، المعكرونة أي مزيج من الدقيق والبيض والماء!

أجابه فيليدور لاذعا على الفور:

- معكرونة وحيدة أي جوهر المعكرونة الأعلى، المعكرونة الوحيدة نفسها الأعلى!

ومضتْ عيناه ببريق واهتزتْ لحيته... كان واضحاً أنه انتصر. تراجع أستاذ الدراسات التحليلية العليا بضع خطوات في غضب عاجز ولكنه بعد ذلك حالاً خطرت بباله الفكرة العقلية المروعة التالية: الضعيف السقيم مقارنةً بفيليدور، قام هو شخصياً بملاحقة زوجته التي أحبها الأستاذ الكبير في السن والموقر أكثر من أي شيء. وها هي بقية الأحداث كما هي في التقرير:

١ - حرمُ الأستاذ فيليدور عامرة الصدر وبدينة جداً ومهيبة إلى حد ما، تجلس ولا تنبس بشيء، هي تُركز.

٢ - وقف الأستاذ الدكتور «مناهض فيليدور» أمام حرم الأستاذ

twitter @baghdad_library

بعدسته الدماغية وبدأ يحدق فيها بنظرة تعريها حتى أخر ورقة توت. اهتزت السيدة فيليدور من الخجل والبرد. غطاها الأستاذ الدكتور فيليدور في صمت بسجادة السفر وألقى على الرجل المتغطرس نظرة مدمرة وممتلئة بازدراء لا حدود له.

٣ - عندئذ قال «مناهض فيليدور» بهدوء: الأذنُ، الأذن! - وانفجر في ضحك ساخر. تحت تأثير تلك الكلمات برزت الأذن على الفور إلى الخارج وأصبحت شيئاً مشيناً. أمر فيليدور زوجته بشد القبعة على أذنيها ولكن لم يُجْدِ ذلك كثيراً لأنه آنذاك تمتم «مناهضُ فيليدور» كأنه يكلم نفسه: فتحتان في الأنف - معَرّياً بذلك فتحتي حرم الأستاذ الجليلة بطريقة وقحة وتحليلية على حد سواء. صار الوضع خطيراً، خصوصاً أنه لم تكن هناك طريقة لتغطية الفتحتين.

٤ - هدد الأستاذ من ليدن باستدعاء الشرطة. بدأ ميزان النصر يميل إلى جانب كولومبو بوضوح.

فقال سيد التحليل عقلياً:

- أصابع، أصابع اليد، خمس أصابع.

للأسف، لم تكن شحوم حرم الأستاذ كافية لكي تتستر على الحقيقة التي ظهرت فجأة أمام الجموع في جميع الأنحاء وبسطوع لا نظير له، وهي وجود الأصابع على اليد. كانت هناك، خمسٌ منها على الجانبين. حاولت السيدة فيليدور، المدنسة بأكملها، أن تشد قفازيها بما تبقى لها من قوة، ولكنّ - شيئاً لا يصدق - إذ قام الدكتور من كولومبو بعمل تحليل فوري لبولها وهتف بانتصار كأنه يزأر:

- H2OC4 وTPS وبعض خلايا الدم البيضاء والبروتين!

قام الجميع من أماكنهم. ابتعدَ الدكتور الأستاذ «مناهضُ فيليدور» مع رفيقته التي انفجرت في ضحكات خليعة، بينما الأستاذ فيليدور وبمساعدة الموقعين أدناه انطلق على الفور بزوجته إلى المستشفى.

الموقعون: ت.بوكلفسْكي، وت.روكلفسْكي، وأنطوني شْفِيسْتَك، - المساعدين.

في صباح اليوم التالي اجتمعنا روكلفسْكي وبوكلفسْكي وأنا مع الأستاذ عند فراش مرض السيدة فيليدور. استمرّ تحللها المتواصل بإفراط. هذه المجروحة بسنّ «مناهضِ فيليدور» التحليلية، بدأت تفقد شيئاً فشيئاً تماسكها الداخلي. كانت تئن فقط من حين لآخر بلا صوت - «أنا الساق، أنا الأذن، الساق، أذني، الإصبع، الرأس، الساق» - كأنها تودع أجزاء جسمها التي بدأت تتحرك بشكل مستقل بالفعل. كانت شخصيتها في النزع الأخير. ركزنا جميعاً في البحث عن تدابير مباشرة لإنقاذها. ولكن لم تكن هناك تلك التدابير. بعد التشاور مع المحاضر س.ووباتكن الذي وصل من موسكو بطائرة الساعة ٧,٤٠ صباحا، اتفقنا مرة أخرى على ضرورة تطبيق مناهج علمية تخليقية صارمة لا غنى عنها. ولكم لم تكن هناك تلك المناهج. حينها ركز فيليدور كل ملكاته العقلية إلى درجةِ أننا تراجعنا خطوة إلى الوراء، وقال:

- صفعة! صفعة وصفعة مروعة هي فقط من بين جميع أجزاء الجسم القادرة على استعادة شرف زوجتي وتركيب العناصر المتناثرة من جديد في وحدة معنى شريف أعلى للتصفيق والصفع. وإذن إلى العمل!

twitter @baghdad_library

لكن لم يكن أمراً سهلاً أن نجد ذلك المحلل ذا الشهرة العالمية في المدينة. فقط في المساء تمكنّا من اصطياده في حانة رفيعة المستوى. في حالة سكر صَحْو كان يعبّ زجاجة بعد زجاجة، وكلما شرب أكثر، كلما أصبح أكثر صَحْوا، وعشيقته التحليلية نفس الشيء. في واقع الحال ثملوا من الصحوِ أكثرَ من الكحول. عندما دخلنا، اختبأ النادلانِ الشاحبانِ مثل الملاءة، كالجبناء وراء البار، وكلاهما انغمس في صمت، في إحدى العربدات غير المحددة ببرود. وضعنا خطة. كان من المفترض على الأستاذ أولاً أن يتظاهر بالهجوم بيده اليمنى على الخد الأيسر للمحلل، ثم بيده اليسرى كان من المفترض عليه أن يصفع الخد الأيمن للمحلل، بينما نحن - أي الدكتورين والمساعدين من جامعة وارسو، بوكلفْسكي وروكلفْسكي وأنا، وكذلك المحاضر س.ووباتكن - كان من المفروض علينا أن نقوم بتدوين تقريرنا. كانت الخطة بسيطة، والعملية غير معقدة. ولكن انخفضت يد الأستاذ المرفوعة. وصعقنا نحن، الشهود. لم يكن هناك خد! لم يكن، وأنا أكرر، لم يكن هناك خد، كانت هناك فقط وردتان صغيرتان وشيءٌ مشابه لإكليل حمامتين صغيرتين!

بمهارة وذكاء شيطاني تنبأ «مناهضُ فيليدور» بخطط فيليدور واحتاط لها. وشم ذلك الباخوس الصاحي على خديه وردتين ونقشا بشكل حمامتين! نتيجة لذلك فإنّ الخدين، وبالتالي الصفعة المقصودة من قبل فيليدور فقدوا كل معنى، ناهيك عن المعاني العليا. لأن الصفعة الموجهة إلى الوردتين والحمامتين الصغيرتين لم تكن صفعة في واقع الأمر - بل كانت نوعاً من ضربة على ورق الحائط. بما أننا عموماً لم يكنْ بوسعنا أن نسمح للتربوي ومعلم الشباب المحترم أن يصبح مثاراً

للسخرية من خلال ضربه لورق الحائط لأن زوجته مريضة، نصحناه بقوة بعدم القيام بأفعال من الممكن أن يندم عليها فيما بعد.

- أنت يا كلب! - هتف الرجل العجوز بوحشية - أنت يا حقير، آه، يا حقير، أيها الكلب الحقير!

- أنت يا كومة الأشياء! - رد المحلل بغطرسة تحليلية مفزعة - أنا أيضاً كومة. لو أحببت - اركلني في بطني. ستركل بطني فقط ولن تركلني. أردتَ أن تبلغَ خدي من خلال الصفعة؟ يمكنك أن تبلغ خدي، ولكن لن تبلغني. لست هنا على الإطلاق. لستُ هنا!!

- سأبلغك في النهاية! إن شاء الله، سأبلغك!

- في الوقت الحالي ما زال خداي ضد الصفعات! - أطلق «مناهضُ فيليدور» ضحكة. انفجرتْ فلورا جنتى، الجالسة إلى جانبه، بالضحك، وألقى دكتور التحليل الكوني نظرة فاسقة عليها وغادر المكان. ولكن فلورا جنتى بَقِيَتْ في مكانها. جلست على كرسي عال ونظرت إلينا بعيني الببغاء والبقرة المرهقتين التي تم تحللهما تماما. ومباشرة، في الساعة ٨,٤٠ صباحا، انطلقنا نحن - أستاذ فيليدور والطبيبين والمحاضر ووباتكن وأنا - إلى المؤتمر المشترك؛ أمسك بالقلم المحاضرُ ووباتكن كعادته.

سار المؤتمر على النحو التالي.

جميع دكاترة الحقوق الثلاثة

بناءً على ذلك، فإننا لا نرى إمكانية لتسوية الخلاف بشرف وننصح السيد الأستاذ المحترم جدا أن يتجاهل الإهانة لأنها موجهة من شخص غير قادر على منحِ تعويض شرفي.

twitter @baghdad_library

أستاذ دكتور فيليدور

كيف لي أن أتجاهل، بينما تموت زوجتي؟

المحاضر ووباتكن

زوجتك لا يمكن إنقاذها.

دكتور فيليدور

لا تقولوا ذلك، لا تقولوا ذلك! أوه، الصفعة، العلاج الوحيد. ولكن لن توجه الصفعة. ليس هناك خذّان. لا توجد وسيلة للتركيب الإلهي. ليس هناك شرف! لا يوجد الله! نعم، ولكن هناك الخدّانِ! هناك صفعة على الوجه! هناك الله! شرف! تركيب!

أنا

أرى، يا أستاذ، أن التفكير المنطقي عندك بدأ يفشل. سواء أكان هناك خذّان أم لا.

فيليدور

إنكم تتناسون، يا سادة، أنه لا زال هناك خدّاي. خدّاهُ غير موجودين بينما خدّايَ موجودانِ حتى الآن. ما زال بإمكاننا أن نراهن على كارت خدّيّ غير الممسوسين. يا سادة، حاولوا فقط فهم تفكيري - لا أستطيع أن أصفعه ولكنه يستطيع ذلك - وسواء كانت مني له أو منه لي، فلا يوجد فرق، وسيكون هناك دائماً الصفعة وسيكون هناك التركيب!

- طيب! ولكن كيف لنا أن نجبره على أن يصفعك، يا أستاذ! كيف نجعله يصفعك، يا أستاذ؟! كيف نجعله يصفعك، يا أستاذ؟!

- يا سادة - رد المفكر العظيم بتركيز. لديه خذّانِ ولكنْ لدي خذّانِ أيضاً. المبدأ هنا هو القياس ولذلك سأتخذ أفعالاً ليستْ هي منطقية بقدر ما هي قياسية. Per analogiam[١] وهي أكثر موثوقية، وذلك لأن القياس يحكم الطبيعة إلى حد ما. إذا كان هو ملك التحليل، فأنا في النهاية وبعد كل شيء ملك التركيب. فإذا كان لديه خذّانِ، فلدي خذّانِ أيضاً. إذا كان لدي زوجة، فإنّ لديه عشيقة. إذا حلل زوجتي، فأنا سوف أركب عشيقته وبهذه الطريقة سأنتزع منه الصفعة التي يكره أن يوجهها لي! وبهذه الطريقة سأجبره وسأستفزه على أن يصفعني - إذا لم أتمكن من أن أصفعه. وبلا مزيد من التأخير أومأ لفلورا جنتى.

خيم علينا الصمت. اقتربتْ منّا بينما اهتزت جميع أجزاء جسدها؛ نظرَتْ إليّ شَزْرا بعين واحدة في وجهي، إلى الأستاذ، وهي تجز على أسنانها نحو ستيفان ووباتكن وتبرز صدرها أمام روكليفسكي، في حين تهزهز مؤخرتها في إتجاه بوكلفْسْكي. خلف ذلك انطباعاً جعل المحاضر يقول بهدوء:

- هل تحاول حقاً الهجوم بتركيبك الأعلى على خمسين قطعة منفصلة؟ على هذه المجموعة عديمة الروح والمأجورة المؤلفة من عناصر (dp + pd) بمضاعفتها؟

ولكن كانت من صفات التركيبي العالمي أنه لا يفقد الأمل أبداً. دعا فلورا إلى الطاولة، وقدم لها كأسَ«سينزانو» ولكي يختبرها بدأ بالكلام بطريقةٍ تركيبية:

---

(١) عن طريق القياس (اللاتينية).

twitter @baghdad_library

- الروح، والروح.

فردت بطريقة مشابهة ولكن بمزاج مختلف، ردت بشيء هو جزء من الكل.

- أنا! - قال الأستاذ بنبرة متفحصة وإصرار على أمل أن يثير نفسها المشتتة - أنا!

فأجابت:

- آه أنت، جيد جداً، خمسة زلوتي[1].

- الوحدة! - هتف فيليدور بحماس - الوحدة العليا، الوحدة!

- بالنسبة لي كله نفس الشيء - قالت بلامبالاه - شيخاً كان أو طفلاً.

نظرنا حابسين أنفاسَنا إلى تلك محللة الليل الجهنمية التي درّبها «مناهضُ فيليدور» تدريباً جيداً على طريقته الخاصة، وربما حتى ربّاها لنفسه منذ طفولتها.

مع ذلك استمرّ خالقُ العلوم التركيبية في نهجه. جاءت فترة مليئة بالنضال العظيم والجهود الكبيرة. قرأ لها أول جزءين من قصيدة «الملك- الروح» فطلبتْ منه عشرة زلوتي مقابل ذلك. أجرى معها محادثة طويلة وملهمة عن الحبّ الأعلى - الحب الذي يحتضن ويوحد كل شيء والذي أخذت نظيره أحدَ عشرَ زلوتيا. قرأ لها روايتين مبهمتين لمؤلفات مشهورات تتناول موضوع الإحياء عن طريق الحبّ، وقد كلفه ذلك مائة وخمسين زلوتي ولم تقتنع بتخفيض أي قرش. وعندما أراد أن يوقظ كرامتها، طالبت باثنين وخمسين زلوتياً لا أكثر ولا أقل.

---

(١) العملة البولندية.

- إن الشذوذ له سعر مرتفع، يا عجوز يا مخرف - قالت - ولكن لا يوجد ضريبة عليه.

وبعد أن حركت عينيها مثل البومة الغبية، بقيت جامدة وارتفعت التكاليف وضحك «مناهضُ فيليدور» في المدينة حتى الثمالة على عدم جدوى تلك الجهود والإجراءات...

في المؤتمر، بمشاركة الدكتور ووباتكين والمحاضرين الثلاثة، اعترف الباحث العظيم بهزيمته من خلال الكلمات التالية:

- كلفني ذلك في المجمل بضع مئات من الزلوتيات، بصراحة لا أرى أية إمكانية لتركيبها، عبثاً جربت الوحدات العليا مثل - الإنسانية، لكنها تحول كلّ شيء إلى المال وترد الفكّة. الإنسانية التي تم تقديرها بإثنين وأربعين تمتنع عن أن تكون وَحْدَةً. حقا، لا أعرف ماذا علي أن أقوم به. بينما زوجتي تفقد ما تبقى لها من تماسكها الداخلي في المستشفى. الساق بالفعل تنطلق إلى التمشّي داخل الغرفة وبعد القيلولة يجب عليها - أقصد زوجتي بالطبع وليس الساق - أن تمسكها بيديها، ولكن يديها لا تريدان ذلك أيضاً، يا لها من فوضى مخيفة، يا لها من وحشية.

دكتور الطب ت. بوكلفسْكي

في هذه الأثناء يبثّ «مناهضُ فيليدور» إشاعاتٍ بأنك يا أستاذ مهووسٌ وكريه.

محاضر ووباتكن

أليس بوسعكَ أن تتمكن منها عن طريق المال؟ بما أنها تحول كل شيء إلى نقود، ألا يمكنك أن تقترب منها من ناحية المال؟ أنا آسف،

twitter @baghdad_library

لست متأكداً مما أعنيه، ولكن هناك شيء في الطبيعة من هذا القبيل - على سبيل المثال، كانت لدي مريضة تعاني من الخجل ولم أتمكن من علاجها بالجرأة لأنها لم تستوعبها، ولكنني أعطيتها جرعة كبيرةً من الخجل إلى درجة أنها لم تستطع أن تتحملها ولأنها لم تستطع، فكان عليها أن تتجرأ وأصبحت جريئة جداً على الفور. أفضل طريقة هي، per se، أنْ نقلبَ بطانةَ الكُم من الداخل إلى الخارج، هذا في الصميم. في الصميم. المفروض أن تُرَكّبَهَا من خلال المال ولكنني أعترف بأني لا أعرف كيف...

فيليدور

المال، المال... ولكنّ المالَ دائماً رقم... مبلغ، إنه لا علاقة له بالوحدة، في الواقع فقط القرش هو غير القابل للتجزئة ولكن القرش وحده لا يثير أي انطباع لديها. إلا إذا... إلا إذا... أيها السادة، إذا أعطيتها مبلغاً كبيراً إلى درجة أن يجعلها تفقد صوابها؟ - تفقد صوابها؟ يا سادة... لكي تفقد صوابها؟

سكتنا وقفزَ فيليدور من مكانه على الفور، بينما اهتَزّتْ لحيته السوداء. أصيب بإحدى حالات الهوس الخفيف، التي يصاب بها العباقرة باطرادٍ كل سبع سنوات. تخلص من عمارتين وفيلاّ في الضواحي وحوّل مبلغ الـ ٨٥٠٠٠٠ زلوتي الناتج عن ذلك إلى عملات معدنية. راقبه بوكلفْسكي بذهول، لم يتمكن طبيب المقاطعة الساذج أن يفهم العبقري ومن ثم لم يفهمه في بالفعل. وفي الوقت ذاته قدم الفيلسوف الواثق من نفسه دعوة ساخرة لـ«مناهض فيليدور» الذي أجاب على السخرية بسخرية مضادة، فوصل في الموعد المحدد وهو الساعة

٩:٣٠ إلى صالة مطعم «الكازار»، حيث كان المفروض أن يجري الاختبار الحاسم. لم يتصافح الباحثان، أما سيد التحليل فضحك ضحكة جافة وخبيثة:

- حسناً، انطلقْ، انطلقْ! صاحبتي ليست تواقة إلى أن تتركب مثلما زوجتك تواقة إلى أن تتحلل. أنا واثق تماماً في هذا الصدد.

وكذلك هو بدوره وقع تدريجياً في حالة من الهوس الخفيف. أمسك دكتور بوكلفسْكي بقلم. أما ووباتْكنْ فامسك بورقة.

بدأ أستاذ فيليدور في مباشرة الأمور بوضع زلوتي واحد فقط على الطاولة. لم ترد جينتى على ذلك. فوضع زلوتي ثاني، لا شيء، وأضاف ثالثاً، أيضاً لا شيء، ولكن عندما وضع أربعة زلوتي، قالت:

- أوه، أربعة زلوتيات.

تثاءبتْ عند خمسة وعند ستة قالت بلا اكتراث:

- ماذا، أيها العجوز الصغير، تصعد إلى السماء مرة أخرى؟

ولكن ليس إلا عند سبعة وتسعين عندما لاحظنا أعراض التعجب الأولى، وعند مائة وخمسة عشر بصرها الموزع حتى الآن بين الدكتور بوكلفسكي والمحاضر وأنا بدأ يتركبُ قليلاً على المال.

عند مائة ألف لهث فيليدور بعمق، أما «مناهضُ فيليدور» فبدأ يقلق قليلاً، بينما المومس غير المتجانسة حتى الآن، اكتسبتْ بعض علامات التركيز إلى درجة ما. تسمَّرت بنظرتها على الكومة المتزايدة التي لم تعد في الواقع مجرد الكومة، وبرغم إنها حاولت أن تحسب، فقد فشلت حساباتها إلى حد بعيد. لم يعد المبلغ مجرد مبلغ، لقد أصبح شيئاً غير محدد به وخارج عن المفهوم، شيئاً أعلى من المبلغ، ويفجر الدماغ

twitter @baghdad_library

لضخامته التي تساوي ضخامة السماوات. تأوهت فلورا بصوت مكتوم. هرع المحلل لنجدتها، ولكن كلا الطبيبين أمسكا به بكل قوتهما - عبثاً نصحها هامساً بأن تفك الإجمال لمئات أو لخمسمئات - لم يترك الإجمال نفسه للتفكك. عندما أظهر كاهن العلوم التكاملية المنتصر كل ما كان لديه وختم الكومة نهائياً أو لنقلْ بعبارة أفضل، الشيء المتضخم، الجبل، جبل سيناء المالي بالقرش الوحيد فقط الذي لا يتجزأ، كما لو أن الله قد دخل في داخل المومس، فانها قامت من مكانها وأظهرت جميع الأعراض التركيبية - البكاء واللهاث والابتسامة والتأمل - وقالت:

- هذا أنا، أيها السادة. أنا. الكيان العالي.

أطلق فيليدور صرخة انتصار وحينئذ تخلص «مناهضُ فيليدور» من يدي الطبيبينِ بصرخةِ رعبٍ وضرب فيليدور على وجهه.

كانت الضربة مثل الصاعقة - كانت مثل برق التركيب المنتزع من أحشاء التحليل الممزقة، فتلاشى سواد الظلام. هنأ المحاضر والأطباء بحرارة الأستاذ المدنّس السمعة جداً، بينما تلوى عدوّه اللدود عند الجدار وهو يتأوه من العذاب. ولكن أيّ تأوه يكنْ بوسعه أن يوقف مسارَ الشرف الذي تمّ رَسْمه، لأن الأمر لم يكن يختص بالشرف حتى هذه اللحظة، أما الآن فقد تدخرج خارج مسارات الشرف.

رشّح الأستاذ الدكتور ج. ل. فيليدور من ليدن مُحَكّمينِ مُمَثّلينِ بشخص المحاضر ووباتكن وشخصي ورشّح الأستاذ الدكتور ب. ت. مومسنْ المكَنّى بكنية نبيلة هي «مناهض فيليدور» مُحَكّمَيْنِ ممثلين بشخصي المساعدينِ - تحدّى محكّما فيليدور مُحَكّمَيْ «مناهض

فيليدور» بشرف، وتحدى الآخران من الطرف المقابل مُحَكّميْ فيليدور. ومع كل خطوة من تلك الخطوات الشريفة زاد التركيب. تلوى الكولومبي كما لو كان جالساً على الجمر. أما الليدني فابتسمَ بدوره في صمت وهو يربت على لحيته الطويلة. بينما في مستشفى المدينة بدأت حرم الأستاذ المريضة في توحيد أجزائها، وطلبت الحليب بصوت مسموع بالكاد، فملأ الارتياحُ قلوبَ الأطباء. أطل الشرف من وراء الغيوم وابتسمَ للناس بعذوبة. كان المفروض أن تكون المعركة النهائية يوم الثلاثاء، في الساعة السابعة صباحاً بالضبط.

كان على الدكتور روكلفْسْكي أن يمسك بالقلم، أما المحاضر ووباتكن فعليه أن يحمل المسدَّسين وأنا أمسك بالمعطفين. لم يخامر المقاتل الذي لا يقهر حامل لواء التركيب أي شك. أتذكر ماذا قال لي في صباح اليوم السابق.

- يا بني - قال - من الممكن أن يسقط كما من الممكن أن أسقط أنا. ولكنّ أيا كان منا سيسقط، فستفوز روحي في كل الأحوال، لأن المهم ليس الموت بذاته، ولكن الأهم نوعية الموت، فنوعية الموت ستكون تركيبية. إذا سقط، فسوف يكون موته تقديراً للتركيب - إذا قتلني، فإنه سيقتلني بالطريقة التركيبية. وهكذا سيتم انتصاري حتى من داخل القبر.

وفي نشوة الانتصار ورغبة منه في الاحتفال بلحظة مجده بطريقة أكثر جدارة، دعا كلتا السيدتينِ زوجته وفلورا، للمشاهدة من على بُعْد بصفتهن مرافقتين عاديتين. ولكن هواجسَ بشرية سيئة ضايقتني. خفت من شيء - ما الذي أخافني؟ لم أعرف ماذا، فعذبني خوف عدم المعرفة

twitter @baghdad_library

طوال الليل وفقط في الحقل أدركت ماذا يخيفني. كان صباحاً مشمساً وصافياً ومثالياً. وقف الخصمان اللدودانِ روحا مقابلَ بعضهما البعض، انحنى فيليدور لـ«مناهض فيليدور»، بينما انحنى «مناهضُ فيليدور» أمام فيليدور. عندئذ أدركت ما الذي أخشاه. لقد كان هذا التماثل - كان الوضعُ متماثلا وكان هذا سر قوته وسر ضعفه أيضاً.

إن كان الوضع أن كل حركة لفيليدور تقابلها حركة مماثلة لـ«مناهض فيليدور»، لكنّ المبادرة كانت لفيليدور. إذا انحنى فيليدور كان يجب على «مناهض فيليدور» أن ينحني أيضاً. إذا أطلق فيليدور النار، كان يجب أيضاً على «مناهض فيليدور» أن يطلق النار. وكان كل شيء، وأشدد، يجب أن يتم على طول المحور القائم بين كلا المقاتلين، وكان ذلك هو محور الوضع بأكمله.

طيب! ولكن ماذا سيحدث لو غطس فيليدور جانباً؟ لو قفز بعيداً؟ لو فلتَ عن طريق الحيلة من قوانين التماثل والقياس الحديدية؟ حقاً، ما هي العواطف والخيانات التي يمكن أنْ يُخبّئها الرأسُ الدماغي لـ«مناهض فيليدور»؟ بينما كنتُ أصارع أفكاري رفع الأستاذ فيليدور يده فجأةً، وصوب المسدس بتركيز، مباشرة إلى قلب خصمه وأطلق النار. أطلق وأخطأ رميته. أخطأ. حينئذٍ رفع المحلل يده بدوره وصوب المسدس إلى قلب خصمه. كنَّا على وشك أن نصدر صرخة النصر. بدا بأنه إذا أطلق الأول النار بطريقة تركيبية إلى قلب خصمه، فالأخر أيضاً كان يتحتم عليه أن يطلق النار إلى القلب. وبدا أنه لا يوجد فعلاً أية إمكانية أخرى، لا يوجد هناك مخرج عقلي جانبي من المأزق. ولكن فجأة، في غمضة عين، وبأقصى جهد، أطلق المحللُ صوتاً حاداً بهدوء، عوى وانحرفَ

قليلاً وخفض ماسورة مسدسه عن المحور وأطلق النار جانباً، ولكن على ماذا؟ - على خنصر حرم الأستاذ فيليدور التي وقفت على مقربة من فلورا جنتى. لقد كانت طلقة قمة في البراعة! انفصلَ الخنصر. رفعت السيدة فيليدور يدها بدهشة إلى شفتيها. بينما نحن المحَكّمَيْنِ، فقدنا رباطة جأشنا للحظةٍ وأصدرنا صرخة إعجاب.

وحينئذ حدث شيء فظيع. لم يستطع أستاذ التركيب الأعلى أن يكبت عواطفه. هذا المفتون بالدقة والإتقان والتماثل والمذهول من صرخة إعجابنا، انحرفَ وأيضاً أطلق النار على خنصر فلورا جنتى ثم أطلق ضحكة قصيرة وغليطة بجفاف. رفعت جنتى يدها إلى شفتيها وأصدرنا صرخة الإعجاب.

آنذاك أطلق المحلل النار مرة أخرى وتسبب في انفصال الخنصر الثاني لحرم الأستاذ التي رفعت يدها الثانية إلى شفتيها - أصدرنا صرخةَ إعجابٍ وبعد ذلك بربع ثانية تسببت طلقة التركيبي المصوبة بثقة، من مسافة سبعة عشر متراً، على نحو لا يخطئ في انفصال إصبع فلورا جنتى المقابل. رفعت جنتى يدها إلى شفتيها وأصدرنا صرخةَ إعجاب. وهلم جرا. استمر التصويبُ بلا توقف، شرساً وعنيفاً ومجيداً مثل المجد نفسه، فتساقطت الأصابع والآذانُ والأنوف والأسنان مثل أوراق شجر تتقادفها الرياح، بينما نحن المحَكّمينِ، لاحقنا بصعوبة إصدار الصرخات التي أنتزعت منا بسبب براعة الرماية الخاطفة. تم تجريد كلتا السيدتين من جميع أعضائهنّ وأطرافهنّ الطبيعية ولم تسقطا قتلى لأنهما ببساطة لم تستطيعا أيضاً أن تتابعا، وعلى فكرة، أعتقد بأنهما شعرتا أيضاً ببهجة من خلال تعرضهما لرماية بارعة مثل هذه. ولكن نفذ

twitter @baghdad_library

الرصاص في النهاية. بيد أن السيد من كولومبو خرقَ بطلقة أخيرة قمة رئة حرم أستاذ فيليدور اليمنى بذاتها وخرقَ السيد من ليدن على الفور قمة رئة فلورا جنتى اليمنى، بينما أصدرنا نحن صرخة إعجاب مرة أخرى وساد الصمت. ماتَ جِسْما كلتيها وانزلقتا إلى الأرض - فنظر المبارزان إلى بعضهما البعض.

وماذا الآن؟ نظر كلاهما إلى بعضهم البعض ولم يعرف كلاهما - ماذا الآن؟ ماذا بالضبط؟ لم يكن هناك رصاص. وعلاوة على ذلك، سقطتْ جثتانِ على الأرض. لم يكن هناك في الواقع أي شيء يمكن أن القيام به. قاربت الساعة على العاشرةَ. انتصرَ التحليلُ فعلا، ولكن ماذا في ذلك؟ لا شيء على الإطلاق. كان من الممكن أيضاً أن ينتصر التركيب وأيضاً لن يكون هناك أي شيء في ذلك. التقط فيليدور حجرا ورماه على عصفور ولكنه أخطأه وطار العصفور بعيداً. بدأت الشمس تلفحنا، أخذ «مناهضُ فيليدور» كتلة تراب ورماها على جذع شجرة - فأصابه. بينما صادفت فيليدور دجاجة، فرمى عليها وأصابها وهربت الدجاجة واختبأت في الغابة. غادر الباحثان أماكنهما ومشيا - كل في طريقه.

بحلول المساء وصل «مناهضُ فيليدور» إلى منطقة «يزيورنى» وفيليدور إلى «فافر». أحدهما كان يصطاد غربانا بجانب كومة تبن، والثاني اختار لنفسه عمود نور منعزلاً وصوَب عليه من على بعد خمسين خطوة سير.

وهكذا تجولا في أنحاء العالم وهما يستهدفان كل ما يكون في متناولهما وبكل ما يكون في وسعهما. غنّيا الأغاني ولكنهما كانا يفضلان

كسر النوافذ وأعجبهما كذلك الوقوف على شرفة والبصق على قبعات المارة، وخصوصاً إذا تمكّنا من بلوغ بعض الأغنياء راكبي الحنطور. حتى أن فيليدور قد برع لدرجة أنه كان يستطيع أن يبصق على شخص واقف في الشرفة وهو يمشي في الشارع. و«مناهضُ فيليدور» كان يطفئ الشمعة برميها بعلبة الكبريت. وأكثر ما كانا يحبان أن يصطادا الضفادع ببندقية خرطوش أو العصافير بالقوس والسهم أو يرميا من الجسر على سطح الماء قطع الأوراق والأعشاب. أما أعظم سرورهما فكان شراء بالون أطفال والهرولة به عبر الحقول والغابات - هِيْ هَا! - ويشاهدان متى يفرقع كأنه أصيبَ برصاصة خفية.

وعندما يذكر شخص ما من العالم العلمي ماضيهما المشرق ومعاركهما الروحية والتحليل والتركيب ومجدهما المفقود الذي لا رجعة له، كان يجيبان فقط على نحو حالم:

- نعم، نعم، أتذكر هذه المبارزة... لقد كانت الطلقات جيدة!

- ولكن، يا أستاذ - صرخت أنا وروكلفْسكي الذي كان في غضون ذلك قد تزوج وأسس أسرة في شارع الغراب - يا أستاذ، أنت تتحدث كأنك طفل!

فرد العجوز الصبياني قائلاً:

- كل شيء مُبَطَن بالطفل.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

إغواء

ومزيداً من الاندفاع إلى الشباب

أثناء ذروة الاغتصاب النفسي والبدني الرهيب الذي مارسه الكباس على سيفون، فتح الباب ودخل القاعة [1]«Deus ex machina» - بيمكو، الذي دائماً يُعتمَد عليه في كل شبر منه.

- جيد جداً، إنكم تلعبون بالكرة الصغيرة، يا أطفال! - صاح على الرغم من أننا لم نكن نلعب بالكرة الصغيرة وحتى لم تكن هناك أي كرة - الكرة الصغيرة، تلعبون بالكرة الصغيرة، آه، يا لها من طريقة لطيفة تلك التي ترمون بها الكرة من واحد لآخر وكيف تلتقطونها! - وأضاف بعد رؤية بقع حمراء على وجهي الشاحب والمنكمش من الرعب قائلاً:

- أوه، يا لهما من وجنتين متوردتين! يبدو أن المدرسة مناسبة لصحتك، يا جوي، والكرة الصغيرة أيضاً. تعال - قال - سآخذك إلى غرفتك المشتركة عند السيدة الغُلامي التي قد ناقشت معها الأمر كله عبر

(١) ما يطرأ على سير القصة فتنقلب به أحوالها من ضراء إلى سراء.

twitter @baghdad_library

الهاتف. وجدتُ غرفة لك عند عائلة الغُلامي لا يجوز أن يكون لديك شقة منفصلة في المدينة وأنت في عمرك هذا. من اليوم - مكانك عند السيدة الغلامي.

وقادني بينما كان يحكي لي في الطريق، لكي يثير اهتمامي، عن السيد الغلامي، الذي كان مهندسَ بناء، وعن السيدة الغلامية، التي كانت حرم المهندس.

- إنه بيت حديث - أشار - حديث وطبيعي وهو يفضل التيارات الجديدة الغريبة عن أيديولوجيتي. لقد أدركت فيك تظاهراً ما، تكلفاً، لا تزال تتظاهر بأنك بالغٌ - وبالتالي سيشفي السيد والسيدة الغلامي هذا العيب الكريه عندك وسيعلماك السلوك الطبيعي. ولكنني نسيت أن أقول لك أنه هناك أيضاً بنت صغيرة، آنسة زوتة الغلامي، تلميذة مدرسة - أضاف بصوت منخفض بينما كان يضغط يدي بقوة وينظر إلي بشذر تربوي من وراء نظاراته - تلميذة مدرسة - قال - وهي مودرن كذلك. حسناً، ليست تلك أحسن صحبة وهناك مخاطر عسيرة... ولكن من ناحية أخرى لا يوجد شيء يدفع إلى الشباب أفضل من تلميذة المدرسة المودرن... انها ستلهمك بوطنية شبابية بالتأكيد.

سارت الترامات في طريقها. كانت هناك أواني الزهور المثبتة على نوافذ المنازل. ألقى رجل ما من الطابق العلوى على بيمكو بنواة خوخ، ولكنه أخطأ مرماه.

ماذا؟ ماذا؟ تلميذة مدرسة؟ أدركت للتو خطة بيمكو - أراد أن يسجنني أخيراً في الشباب من خلال تلميذة المدرسة. تصور أنه عندما أقع في الحب مع تلميذة المدرسة الشابة، فلن أرغب في أن أكون بالغاً.

في البيت كما في المدرسة ولا حتى لحظة استراحة يجب أن تتاح لي الفرصة وأهرب صدفة من خلال أي شق من الشقوق. لم يكن هناك وقت لأضيعه. عضضت إصبعه سريعاً ولذتُ بالفرار. رأيت امرأة في زاوية الشارع - فهرولت إليها بوجهي المذعور والمذهول والمكشر - كلما ابتعدت عن بيمكو وتلميذة المدرسة الرهيبة، كلما كان أفضل. ولكن «المصغر العظيم» بلغني من خلال بضع وثبات خاطفة وأمسك بياقتي.

- إلى تلميذة المدرسة! - هتف - إلى تلميذة المدرسة! إلى الشباب! إلى السيد والسيدة الغلامي.

وضعني في عربة الحنطور وحملني إلى تلميذة المدرسة عبر شوارع مكتظة بالناس والمركبات وغناء الطيور.

- لنذهب، لنذهب، لماذا تلتفت إلى الوراء، لا يوجد أحد وراءك، أنا الوحيد بجانبك.

وتمتم بينما كان يمسك بيدي بقوة وهو مبهور:

- إلى تلميذة المدرسة، إلى تلميذة المدرسة المودرن! إن تلميذة المدرسة ستستطيع أن تفتنه بالشباب! إن السيد والسيدة الغلامي سيستطيعان أن يُصَغّراه. إنهم سيركبون بوبو له! شي، شي! - هتف حتى بدأ الحصان في الركل وجلس سائق الحنطور بارتياح في مقعده مديرا ظهره لبيمكو وباحتقارٍ لعامة الشعب لا حدود له. بينما جلس بيمكو على نحو مطلق للغاية.

ولكن عند عتبة بيت صغير ورخيص في حي ستاشيتس أو

twitter @baghdad_library

لوبتسكي[1] المأهول بالمثقفين، بدا أنه تذبذب وارتخى قليلاً و- ياللعجب! - فقد جزءاً من مطلقه.

- جوي - همس وهو يهز رأسه - إنني أضحي تضحية كبيرة من أجلك. فأنا لا أعمل ذلك من أجل أي شيء إلا شبابك. فقط من أجله أخاطر بنفسي بمواجهة مع تلميذة مدرسة. أوه، تلميذة المدرسة المودرن!

وطبع قبلة على خدي كما لو كان يسعى أن يفوز بمودتي من خوفه - وكأنها كانت قبلة الوداع في نفس الوقت. وبعد ذلك بقليل، بينما كان ينقر بعصاه، في حالة من الاهتياج الكبير، بدأ يتلو ويقتبس ويلقى بأفكاره وحكمه وأحكامه ومفاهيمه، وجميعها ذات قيمة عظيمة و«خوجية» بأكثر الطرق كلاسيكية ولكنه مثل الخوجة المريض المهدد في ذاته. ذكر أسماء غير مألوفة بالنسبة لي لبعض أصدقائه المتفرغين للأدب وسمعته يقول آراءهم الإطرائية عنه بهدوء بينما أبدى آراءه الإطرائية عنهم.

ووقَعَ أيضاً ثلاثَ مرات بقلم رصاصي على الجدار «ت.بيمكو» كأنه كان أنتايوس[2] يستمد قوته من التوقيع الخاص به. نظرت إلى المعلم مندهشاً. ما هذا؟ هل يمكن أن يكون خائفاً من تلميذة المدرسة المودرن؟ أم أنه كان يتظاهر فقط؟ كيف يكون ذلك أن خوجة خبير مثله يخاف من تلميذة المدرسة المودرن؟ ولكن في تلك اللحظة فتحت

---

(١) الأحياء في وارسو التي هي أمثلة العمارة الحديثة غير الإنسانية بالنسبة لغومبروفيتش.

(٢) أنتايوس - بطل لا يقهر في الميثولوجيا الأمازيغية، حارس أرضهم كان يستمد قوته بمجرد ملامسته أمّه الأرض.

الخادمة الباب أمامنا ودخلنا: الأستاذ متواضعاً قليلاً، بدون سطوته المعتادة، وأنا بوجهي المكرمش مثل خرقة الأطباق الباهت المشدوه والمغفل. نقر بيمكو بعصاه وسأل:

- هل السيد والسيدة الغلامي موجودان؟ في الوقت نفسه فتح الباب الداخلي وخرجت تجاهنا تلميذة المدرسة، والمودرن بالفعل.

عمرها ستة عشر عاماً، ارتدتْ كنزة وتنورة وحذاء رياضياً وبدت رياضية وبسيطة وناعمة ورشيقة ولينة ووقحة! تجمدت ملامحي وروحي هلعاً عندما رأيتها. للوهلة الأولى فهمت أنه ها هنا - وجود قوي، ربما أقوى من بيمكو نفسه ومطلق على حد سواء في نوعيته، والذي حتى لا يمكن مقارنته بسيفون. ذكّرَتْني بشخص ما - مَن، مَن؟ - آه، ذكّرتْني بكوبريدا! هل تتذكرون كوبريدا؟ كانت مثلها تماماً، ولكنها كانت أقوى، أقرب منها في نوعها ولكنها أكثر تركيزاً، تلميذة المدرسة المثالية في إطار تلمذتها المدرسية والحديثة للغاية في حداثتها. وشبابها مضاعف - مرة من خلال عمرها ومرة أخرى من خلال حداثتها - لقد كان شباباً مضروب في شباب. لذلك هلعت مثل الشخص الذي عثر على وجود أقوى منه ولقد ازدادَ خوفي أكثر عندما رأيت أنه على العكس كان المدرس في الواقع خائفاً منها بينما هي لم تكن خائفة منه وانحنى الأستاذ أمام تلميذة المدرسة المودرن بدون أي ثقة في نفسه.

- أقبل يديك يا آنسة - صرخ على نحو شبه مريح بأناقة مصطنعة - ألست، يا آنسة زوتة، على شاطئ البحر؟ لست على الفيستولا[١]؟ هل

---

(١) أطول نهر في بولندا.

twitter @baghdad_library

الوالدة العزيزة موجودة في البيت؟ كيف حال الماء في حوض السباحة، كيف؟ بارد؟ البارد أفضل! أنا نفسي في الماضي كنتُ أسبحُ في الماء البارد!

ما هذا؟ سمعت في صوت بيمكو شيخوخةً تتزلف إلى الشباب من خلال الرياضة، شيخوخة متذللة - فتراجعتُ خطوة إلى الوراء. لم تُجبْ تلميذة المدرسة على بيمكو - نظرتْ فقط - وبعد أن وضعت بين أسنانها المفك الصغير الذي كانت تمسكه بيدها اليمنى، مدت نحوه بيدها اليسرى بلامبالة جافة إلى درجة كما لو أنه لم يكن بيمكو... ارتبك الأستاذ، لم يكن يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل بتلك اليد اليسرى الشابة الممدودة إليه، فصافحها أخيرا بكلتا يديه. أما أنا فقد انحنيتُ. أخرجت هي المفك من بين أسنانها وقالت برصانة:

- أمي ليست موجودة ولكنها ستعود قريباً. تفضّلا...

وقادتنا إلى حجرة الجلوس الحديثة، حيث وقفت عند النافذة بينما جلسنا نحن على الأريكة.

- والدتك العزيزة ربما في اجتماع اللجنة؟ - فتح الأستاذ الحوار؟

قالت المودرن:

- لا أعرف.

كانت الجدران مطلية بلون أزرق فاتح وكانت الستائر قشدية اللون وعلى رفّ صغير كان يوجد راديو والأثاث كان معاصراً ومتماشياً مع المكان ونظيفاً وناعماً وبسيطاً بخزانتين مثبتتين في الحائط وطاولة صغيرة. وقفت تلميذة المدرسة عند النافذة كما لو أنه لم يكن هناك أحد في الغرفة وهي تنتزع القشرة من ذراعيها التي ظهرت نتيجة لفحة

الشمس. لم تهتم بحضورنا - لم تهتم ببيمكو على الاطلاق - وبدأت الدقائق تمر. جلس بيمكو واضعا ساقاً على ساق، عاقداً يديه على صدره، وفتل إبهامي يديه مثل ضيف مهمل. تحرك وتنحنح بضع مرات وسعل راغباً في إبقاء الحوار مستمراً ولكنّ المودرن أدارتْ ظهرها نحو النافذة وما زالت تقشر جلدها. لذلك لم ينطق بكلمة، جلس فقط - ولكن جلوسه بلا حديث كان يبدو مفتقراً إلى شيء ما، كان غير تام. فركت عيني. ماذا كان يحدث؟ إذ كان شيء ما يحدث بالتأكيد - ولكن ماذا بالضبط؟ جلوس بيمكو المتعجرف وغير الكامل؟ خوجة متروك وحيداً؟ خوجة؟ النقص كان يتذمر طلباً للتكملة - هل تعرفون تلك الفجوات المزعجة حينما ينتهي شيء ولم يبدأ شيء آخر بعد؟ يُفتح فراغ في رأس الشخص. لاحظت فجأة الشيخوخة التى تزحف من المعلم. لم ألاحظ من قبل أن الأستاذ تجاوز الخمسين من عمره بالفعل، لم يخطر ذلك ببالي أبدا كما لو كان الأستاذ كائناً أبدياً ولانهائياً. هل كان عجوزاً أم أستاذاً؟ كيف ذلك - عجوز أم أستاذ؟ لماذا لا يمكنه أن يكون أستاذاً عجوزاً؟ لا، إنه ليس ذلك ولكن شيئاً ما يدبر هنا فإنهما بلا شك كانا يتواطئان ضدي. يا إلهي، لماذا هو جالس؟ لماذا جاء هنا لكي يجلس بجانبي مع تلميذة المدرسة؟ كان جلوسه أكثر ازعاجاً بالنسبة لي لأنني كنت جالساً معه. إذا كنت واقفاً، فإن الأمر ما كان ليصبحَ سيئاً للغاية. ولكن النهوض كان صعباً جداً وبدقة، ولم يكن هناك سبب للنهوض. لا، هذا ليس هو الشيء المهم - ولكن لماذا يجلس مع تلميذة المدرسة، لماذا يجلس بشيخوخته مع تلميذة المدرسة الشابة؟ الشفقة! لكن لا توجد شفقة. لماذا يجلس مع تلميذة المدرسة؟ لماذا شيخوخته ليست مجرد شيخوخة بل هي شيخوخة تلمذة المدارس. كيف ذلك -

twitter @baghdad_library

الشيخوخة مع تلمذة المدارس؟ ماذا يعني ذلك - شيخوخة تلمذة المدارس؟ وفجأة صار الأمر رهيباً ولكني لم أتمكن من الهروب. شيخوخة تلمذة المدارس - شيخوخة شبابية عجوزة - هذه كانت مصطلحات غير كاملة وناقصة وشنيعة تسارعت في دماغي. وعلى الفور تردد غناء في الغرفة. لم أصدق أذني. غنى الخوجة نغمة لتلميذة المدرسة. استعدتُ وعيي من الذهول. لا، لم يكن يغني، بل همهم - بيمكو الذي تأذى من لامبالاة تلميذة المدرسة، همهم بضع قطع من أوبريت ليؤكد على تصرفها غير الملائم بأكمله وسلوكها السيئ وعدم اللباقة عند الآنسة الغلامي. هل كان يغني فعلاً؟ دفعت الجد إلى الغناء! هل كان هذا الجد المتروك وحيداً على الأريكة وهو يغني لتلميذة المدرسة، هو نفس بيمكو الخطير والمطلق والماهر؟

شعرت بضعف كبير. بعد كل تلك المصائب منذ الصباح، من اللحظة التي زارني فيها الشبح، لم تُتَحْ لعضلات وجهي الفرصة أن ترتخي ولا حتى لمرة، احترق خدي كأني قضيت ليلة بلا نوم وأنا مسافر في القطار. ولكن بدا الآن بأن القطار يتوقف. كان بيمكو يغني. أحسست بالخجل بأني خضعت طوال فترة طويلة لذلك العجوز الصغير غير المؤذي الذي لم تهتم به حتى تلميذة المدرسة العادية تلك. بدأ وجهي يعود إلى شكله الطبيعي قليلاً، عدّلتُ جلستي على مقعدي وبعدَ لحظةٍ استعدتُ توازني الكامل و- أوه، يا لها من سعادة! - استعدتُ ثلاثيني المفقودة. قررت أن أخرج هادئاً وغير مبال، بلا أية احتجاجات، عندما أمسك الأستاذ بيدي - بدا الآن مختلفا تماماً. أصبح مسنّاً وعاطفياً وبدا مسكيناً وكئيباً ومثيراً للشفقة.

- جوي - همس في أذني - لا تحذو حذو هذه الفتاة المودرن، هذه

النوعية الجديدة من عصر ما بعد الحرب، من عصر الرياضة وفرق موسيقى الجاز! توحش العادات والتقاليد ما بعد الحرب! لا ثقافة! لا احترام للكبار! تعطش الجيل الجديد إلى المتعة! بدأت أخشى أن الجو هنا لن يكون مناسباً لك. عدني بأنك لن تستسلم لنفوذ تلك الفتاة الجامحة. تشبهون بعضكما البعض - استمرّ كأنه مصاب بالحمى - لديكم تشابهات كثيرة، أعرف، أعرف، وأنت أيضاً صبي مودرن في الواقع، لم يكن ضرورياً أن أتي بك لهذه الفتاة المودرن!

نظرت إليه كأنما أصابه الجنون. ماذا، أنا مع أعوامي الثلاثين أشبه تلميذة مدرسة مودرن؟ بدا لي بيمكو غبياً فعلاً. لكنه استمرّ يحذرني من تلميذة المدرسة.

- ها هنا زمن جديد! - تابع - أنتم الشباب، جيل هذه الأيام. تهملون كبار السن وتعاملون بعضكم البعض مباشرة، بدون ألقاب. عدم احترام، عدم توقير للماضي ولا شيء إلا المراقص والكياك وأمريكا والعفوية و Carpe diem[١]، أوه، أنتم الشباب!

وما زال يتملق بفظاعة شبابي وحداثتي المزعومة، إما نحن الشباب العصريين فكل شيء بالنسبة لنا هو سيقانٌ أو شيء آخر، بينما وقفت الآنسة الغلامي طوال هذا الوقت على نحو لا مبالٍ وقشرت جلدها وهي لا تعرف ماذا يتم تدبيره من وراء ظهرها.

فهمت أخيراً ما كان يعنيه - لقد أراد بهذه الطريقة أن أقع في حب تلميذة المدرسة. كانت حساباته أن يأتي بي مباشرة إلى التلميذة، أن

---

(١) «انتهز الفرصة» أو اغتنم اليومَ (اللاتينية).

twitter @baghdad_library

يسلمني لها بضربة واحدة، حتى لا أتمكن من الهروب. كان يغرس مفهوماً في ذهني وهو متأكد تقريباً بأني عندما سأكتسب نموذج الشباب على غرار سيفون والكباس، سأبقى محبوسا فيه إلى الأبد. في الواقع لم يكن يهم الأستاذ أي نوع من الصبية سأكون، طالما أنني لن أخرجَ من الصبيانية مرة أخرى. لو نجح أن يوقعني في الحب وأن يلهمني بنموذج الصبي المودرن، حينها سيمكنه أن ينصرف بهدوء ويكرس نفسه إلى العديد من أعماله الثانوية التي لم تكن تسمح له بأن يأسرني شخصياً في التصاغر. والمفارقة أن بيمكو الذي - على ما بدا - كان يقدر تفوقه قبل أي شيء آخر، وافق على لعب دور العجوز الطيب المتذلل المصدوم بجيل الآنسات المودرن لكي يغريني بتلميذة المدرسة. وقد جعل منا حلفاء ضدَّه باستخدامه أسلوب الجدود والأعمام المصدومين، وبطرقه الشائخة والعتيقة أراد أن يوقعني في الحب مع الشباب والحداثة. ولكنّ استهدف بيمكو هنا هدف آخر لا يقل أهمية. فهو لم يكتفِ بمجرد وقوعي في الحب - إنما علاوة على ذلك أراد أن يربطني بها بأكثر الطرق غير الناضجة، وفيما لو أحببتها حبّا عادياً فقط فلن يتلاءم ذلك مع مخططاته، لا، إنه كان يرغب بأن أفتتن بهذا الشِّعرِ الشاب - العجوز والتافه للغاية والمثير للاشمئزاز بوضوح، الحديث - القديم الطراز والذي يتولد عن طريق المزج بين العجوز لفترة ما قبل الحرب وبين تلميذة المدرسة في عصر ما بعد الحرب. أراد الخوجة بشكل ظاهر أن يشارك بطريقة غير مباشرة في إفتتاني.كان كل شيء مدبرا ببراعة، على الرغم من سخافته الشديدة ومن ثم أصغيت إلى الإطراءات الخرقاء لذلك العم العجوز ظنّاً مني بأنني كنتُ حرّاً تماماً. كم أنا غبي! لم أكن أعرف أن الشعر السخيف فقط هو الذي يجعلك مشدوداً إليه حقّاً!

وخرج تشكيلٌ رهيب من لا شيء، لشخصيات شعرية فظيعة - هناك بجانب النافذة تلميذة المدرسة المودرن، غير المبالية، وهنا على الأريكة الأستاذ العجوز ينوح على وحشية عصر ما بعد الحرب، وأنا بينهما محاصر بالشِّعْرِ الشابِ - العجوز. يا الله! ولكن ماذا عن أعوامي الثلاثين؟! يجب أن أخرج، أن أخرج، في أسرع وقت ممكن! ولكن بدا العالم كأنه انهارَ وأعاد تنظيم نفسه تبعا لقواعد جديدة وصارت أعوامي الثلاثين شاحبة مرة أخرى ولا معنى لها، بينما المودرن هناك، عند النافذة، أصبحت أكثر وأكثر إغراء.

أما بيمكو الملعون فلم يتوقف.

- السيقان - حثّني على الحداثة - السيقان، أعرفكم، أعرف رياضاتِكم، وعادة الجيل الجديد المتأمرك، إنكم تُفَضّلون السيقان على الأيدي، السيقان أهم بالنسبة لكم، سمانات سيقانكم! المسائل الروحية لا تهمكم، ليس هناك شيء إلا سمانات السيقان. الرياضة! سمانات السيقان، سمانات السيقان - تملقني- سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان!

وكما اقترح سابقا على طلبة العلم أثناء الاستراحة مسألةَ البراءة التي هيّجتهم وزادت عدم نضوجهم بمئة ضعف، ها هو الآن يقدم لي سمانتا ساقي المودرن. وها أنا أستمع بلذة كيف يربط سمانتا ساقيَّ بسمانات سيقان الجيل وأبدأ في الشعور بقسوة الشبابِ إزاء سمانات السيقان العجوزة! وكان فيه أيضاً نوع من الرِّفْقَةِ بين سمانات السيقان وتلميذة المدرسة، بالإضافة إلى التفاهم السري اللذيذ بين سمانات السيقان، وبالإضافة إلى وطنية الساق، وبالإضافة إلى وقاحة سمانة الساق الشابة،

twitter @baghdad_library

وبالإضافة إلى شِغرِ الساق، وبالإضافة إلى كبرياء الساق الشابة وعبادة سمانة الساق. يا له من جزء شيطاني في الجسم! لا أحتاج أن أضيف بأن كل شيء قد حدث بهدوء وراء ظهر تلميذة المدرسة التي وقفت عند النافذة على سمانتي ساقيها الصَنوَبْرِ، وقشرت جلدها بينما لم تشتبه في أي شيء.

ومع ذلك كدتُ أنجو أخيراً من سمانات السيقان وأغادر لولا أن الباب قد فتح فجأة وظهر شخص جديد في الغرفة؛ أفقدني ظهور شخص جديد وغير مألوف ما تبقى من تماسكي. كان هذا الشخص هي السيدة الغلامي، إمرأة بدينة إلى حد ما ولكن ذكية وذات اهتمام بالمجتمع، بتعبيرات وجه حريص ويقظ وهي عضوة لجنة لإنقاذ الأطفال الرُضّع أو لمكافحة آفة تسول الأطفال في العاصمة. قام بيمكو فوراً من الأريكة بتهذيب ومودة وكأنّ شيئاً لم يكنْ - الأستاذ القديم من نفس طراز غاليسيا[1] ما قبل الحرب.

- أوه، عزيزتي حرم المهندس! حضرتك دائماً مشغولة بشدة ودائماً نشيطة وربما أتيتِ الآن مباشرة من جلسة في اللجنة. وها أنذا جئت بجوي الذي وافقتِ، يا سيدتي الكريمة، على رعايته، هذا هو جوي، هذا الشاب، يا جوي، انحَنِ أمام السيدة، يا بني.

ما هذا؟ مرةً أخرى غيّرَ بيمكو لهجته إلى لهجة متسامحة ومتنازلة. أنحني أمام السيدة الكبيرة في السن، أنا، الشاب؟ أنحني باحترام؟ كان

---

(١) أُقيمت على الأراضي التي أُخذت من الكومنولث البولندي اللتواني خلال تقسيم بولندا وظلت موجودة حتى تفكك الإمبراطورية النمساوية المجرية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

واجباً عليّ - ومدت السيدة الغلامي يدها الصغيرة الممتلئة ناحيتي وبدهشة عابرة نظرت إلى وجهي الذي كان يتأرجح ذهاباً وإياباً بين عمر الثلاثين والسبعة عشر.

- كم عمر هذا الصبي؟ - سمعتها تسأل بيمكو بينما كانت تأخذه جانباً ورد الأستاذ بطيبة:

- سبعة عشر، سبعة عشر، يا سيدتى العزيزة، قد أتم السبعة عشر في أبريل، ويبدو أنه أكبر من عمره، قد يتظاهر قليلاً بأنه شخصٌ بالغٌ ولكن قلبه من ذهب، مممم!

- آه، إنه يتظاهر - قالت السيدة الغلامي.

بدلا من الاحتجاج، جلست على الأريكة كأنني مثبت عليها. غباءُ التلميحِ غير المسبوق أعاق أيَّ شرح. فبدأت أعاني بشكل فظيع. لأن بيمكو سحب السيدة الغلامي إلى النافذة، حيث كانت تقف تلميذة المدرسة، وشرعا في محادثة سرية ومن وقت لأخر كانا ينظران إلي. ولكن في بعض الأحيان كان الخوجه التافهُ يرفعُ صوته بتعمد كما لو كانت مصادفة. يا له من عذاب! لأنني سمعت أنه يربطني بنفسه في مواجهة السيدة الغلامي - كما كان يربطني سابقاً مع تلميذة المدرسة ضدّ نفسه - الآن يربطني بنفسه. كما لو أنه لم يكن كافياً بأنْ قدّمني على أنني مُتظاهرٌ، يتظاهرُ بالبلوغ والتراخي ولكن الأكثر من ذلك، تحدث بمودة عن تعلقي به وعدَّد مزايا عقلي وقلبي (هناك عيب واحد فقط إنه يتظاهر قليلاً - ولكنه سيذهب) حيث تحدث بنوع من الحنان الشائخ وبصوت خوجة من الطراز النموذجي القديم، فنشأ عن ذلك بأنني أصبحت من الطراز القديم وغير المودرن أيضاً! واستنبطَ مثل هذه الحالة الشيطانية -

twitter @baghdad_library

أنا هنا جالس على الأريكة ويجب علي أن أتظاهر بأنني لا أسمع شيئاً وهناك تقف تلميذة المدرسة عند النافذة ولا أعرف فيما إذا كانت تسمع أم لا، بينما بيمكو يهز رأسه في الزاوية ويسعل من حين إلى آخر ويطلق العنان لحنانه تجاهي من خلال دغدغته لذوق وميول حرم المهندس المتقدمة. أوه، فقط من يستطيع بشكل كامل أن يتواصل مع شخص التقى به منذ لحظات، يا لها من عملية محفوفة بالمخاطر بطريقة لا تصدق ومليئة بالخيانات والفخاخ، هو من يمكنه أن يدرك عجزي أمام بيمكو والسيدة غلامية. قادني إلى بيت السيد والسيدة الغلامي تحت ادعاءات كاذبة وكأنه لم يكتفِ بذلك - عمدا رفع صوته لكي أسمع كيف قادني إلى هناك على نحو غادر - بالخيانته في كيفية قيادتي إلى داخل الغلام وقيادة الغلام إلى داخلي!

فبالتالي نظرت السيدة الغلامي في اتجاهي بشفقة ونفاذ صبر. بالتأكيد ثرثرة بيمكو اللزجة كانت بالطبع تزعجها، بالإضافة إلى أن جميع زوجات المهندسين في العصر الحاضر مغامرات ومتحمسات للنشاط الجماعي والتحرر، إنهن يكرهنَ كل ما هو متصنع وغير طبيعي لدى الشباب وعلى وجه الخصوص لا يمكنهن أن يتحملن التظاهر بالبلوغ. نظراً لتقديمتهنَّ وطاقتهن المبذولة تجاه المستقبل، يُؤْمِنّ بعبادة الشباب بحماس أكبر من أي أحد فيما مضى، ولا شيء يمكن أن يهيجهن أكثر من الصبي الذي يلوث سنواته غير الناضجة بالتظاهر. ما هو أسوأ، إنهن لا يكرَهنَهم فقط ولكن علاوة على ذلك يحببن أنْ يكرهنَ، لأنه يعطيهن إحساساً بتقدُّميتهنَّ الخاصة بهن وحداثتهن - وهن دائماً مستعدات للانغماس في ذلك. لا تحتاج حرم المهندس أن يقال لها مرتين، كان يمكن لهذه المرأة البدينة بعض الشيء أن تُقيم علاقتها بي على أي

أساس آخر، لم يكن ضرورياً أن تبنيها على أساس تركيبة الحداثة مقابل العراقة، فإن كل شيء يتوقف على لحن الوتر الأول ولأننا نختار لحن الوتر الأول بأنفسنا والباقي هو مجرد نتيجة له. ولكن بيمكو عزف بقوس المعلم العجوز على وترها المودرن والتقطت هي اللحن بطرفة عين.

- أوه، لا يعجبني ذلك - قالت بتكشيرة - لا يعجنبي! الشاب العجوز والمتراخي كذلك وبالتأكيد ليس رياضي! أكره التصنع. قارنه، يا أستاذ، بِزوتَتِي - هي صادقة وطبيعية وسهلة المراس - وهذا هو ما تنتجه مناهجكم العتيقة.

عندما سمعت ذلك، فقدت ما تبقى لي من ثقتي في نفسي للقدرة على الاحتجاج الفعال، لم تكن لتصدق بأنني بالغٌ على أي حال لأنها أحبَّتْ نفسها وابنتها مقارنة بي - أنا الصبي من الطراز القديم الذي تربى وفقا للمبادئ القديمة. وحين تحب الأم ابنتها بالمقارنة بك، فإنك تنتهي، يجب عليك أن تكونَ هكذا وفقاً لما تحتاج ابنتُها. كان يمكنني أن أحتج بطبيعة الحال، من الذي يقول إنني لم أتمكنْ - كان يمكنني أن أقوم من مكاني في أي لحظة وأقترب منهما و - دون إعتبار للصعوبات - أوضح لهما بالإجبار بأن عمري ليس سبعة عشر عاماً ولكنْ ثلاثون. كان يمكنني - ولكنني لم أتمكن من ذلك، لأنني لم أكن أريد أي شيء إلا إثبات أنني لست صبياً من الطراز القديم! هذا هو فقط ما أردت! غضبت بأن تلميذة المدرسة تسمع ثرثرة بيمكو وهي مستعدة لكي تكوّن رأياً سلبياً عني. حجب هذا الأمر قضية أعوامي الثلاثين. تلك انطفأت! وهذه توهجت وأحرقتني وآلمتني! جلست على الأريكة ولم أستطع أن أصرخ بأنه يكذب متعمداً - لذلك أعدل جلستي وأمد ساقي وأحاول أن

twitter @baghdad_library

يبدو مظهري مستريحاً وجريئاً، أن أجلس بشكل مودرن وأصرخ صامتاً بأن هذا ليس صحيحاً، لأنني لست كذلك بل أنا مختلفٌ، سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان! أميل إلى الأمام وتبدو عيني أكثر انتعاشاً وأجلس على نحو طبيعي وأطلق صرخة مكتومة بجسدي أن كل هذا غير صحيح - إذا التفتتْ تلميذة المدرسة، فدعها ترى - وفجأة أسمع السيدة الغلامي تقول بهدوء لبيمكو.

- في الواقع، إنه متكلف على نحو غير سوي، أنظر إليه فقط، يا أستاذ - لا يزال يفتعل أوضاعاً. لم أستطع أن أتزحزح. لو غيرت وضعي فسيصبح واضحاً بأني سمعت وستعتبرها تكلفاً آخر مني - بالفعل الآن كل شيء سأفعله سيصبح متكلفاً. عندئذ تستدير تلميذة المدرسة من النافذة وتلتفت إلي وأنا جالس غير قادر على أن أنسحب من تظاهري بالطبيعية وأرى تعبيراً غير ودود على وجهها. جعلت الأمور أصعب بالنسبة لي لأن أغير وضعي. وأرى أيضاً كيف تنمو في الفتاة العدوانية الحادة والشابة ضدي، العدونية المحضة كالسوط. حتى أن السيدة الغلامي توقفت عن حديثها وسألت ابنتها en camarade برفق.

- لما تنظرين إليه، يا زُوتة؟

تلميذة المدرسة بدون أن ترفع نظرها عني وقد أصبحت أكثر موالاةً - موالية لأمها - موالية وصريحة وصادقة - ومن خلال شفتيها المزمومتين العذبتين تقول:

- إنه يسترق السمع طول الوقت. لقد سمع كل شيء.

أوه! لقد كان قولها حادا مثل الموسى!... أردت أن أحتج لكنني لم

أستطع. أما السيدة الغلامي فقالت بصوت خافت للأستاذ وهي تتذوق انفجار الفتاة بلذة.

- إنهنَّ حالياً حساسات للغاية بالنسبة للولاء والطبيعية - مجنونات تماماً في هذه النقطة. الجيل الجديد. هذه أخلاق الحرب العظمى - نحن كلنا أطفال الحرب العظمى، نحن وأطفالنا أبناء الحرب العظمى - استمتعتْ حرم المهندس بكلامها بدا ذلك واضحاً - الجيل الجديد - كررت.

- أنظري كيف أظلمتْ عيناها الحلوتان الصغيرتان - قال الرجل الطيب النفس العجوز.

- عيناها الحلوتان الصغيرتان؟ ليست لدى ابنتي عينان حلوتان صغيرتان، يا أستاذ، بل عينان. نحن لنا عيون. يا زوتة، أتركي عينيك في حالهما.

لكن الفتاة جهَمَتْ ملامحَها وهزّتْ كتفيها تجاهلا لأمها. صعق بيمكو فوراً وأشار إلى السيدة الغلامي جانباً.

- إذا كنت تعتبرين هذا تصرفاً مناسباً فحسناً... ولكن في أيامي لم يكن يجرؤ الشخص الشاب على أن يهز كتفيه... وخصوصاً لأمّه!

ولكن السيدة الغلامي كانت مستعدة له وانطلقتْ في الكلام برضى:

- إنه العصر، يا أستاذ، العصر! لا تعرف الجيل المعاصر. حدثت تغييرات عميقة. ثورة عظيمة في العادات والتقاليد، هذه هي الرياح المدمرة، اهتزازات تحت الأرض ونحن فوقها. هذا هو العصر! المفروض علينا إعادة بناء كل شيء من جديد! تدمير كل ما هو قديم في بلدنا والإبقاء على الأماكن الجديدة فقط، تدمير كراكوف!

twitter @baghdad_library

- كراكوف! - صاح بيمكو.

أما تلميذة المدرسة التي استمعت إلى جدالِ كبارِ السن بنوع من الإزدراء، فقد اختارت اللحظة المناسبة وركلتني من جانبى، ركلةً سريعة وخاطفة، في ساقي وخلسة وبكراهية وشرٍّ ودون أن تغير وضعية جسمها أو ملامحها. بعد أن ركلتني، سحبت ساقها واستمرت تقف بلا مبالاة ولم تهتم بالحديث الدائر بين بيمكو والسيدة الغلامي. وكلما فرضتِ الأمُ نفسَها على ابنتها، كانت الابنة تتجنب أمها كما لو أنها كانت فخورة لأنها أصغر منها.

- لقد ركلته! - هتف الأستاذ - أرأيت ذلك، يا سيدتي؟ ركلته. نحن نثرثر هنا، بينما هي تركله. يا لها من وحشية وجرأة ووقاحة لجيل ما بعد الحرب الجامح. ركلته بقدمها!

- يا زوتة، أتركي ساقيك في حالهما! وأنت، يا أستاذ، لا تقلق، إنه ليس شيئاً مهماً - انفجرت ضاحكةً - لن يحدث ضرر لجوي الخاص بك. حدثت أشياء أسوأ من ذلك في الجبهة أثناء الحرب العظمى. حتى أنا نفسي، كممرضة، كنت في بعض الأحيان في الخنادق أتعرض للركل من قبل الجنود العاديين.

أشعلت سيجارة.

- على أيامي - قال بيمكو - آنسات صغيرات... وماذا يا تُرى كان نورفيد[١] سيقول عن ذلك؟

---

(١) تسيبريان كميل نورفيد (Cyprian Kamil Norwid, 1821-1883) شاعر ورسام بولندي رومانسي مشهور.

- من هو نورفيد؟ - سألت تلميذة المدرسة.

سألتْ بجهل الجيل الشاب الرياضي بمثالية وبدهشة العصر، بواقعية وبدون أن تندمج في السؤال بجدية، فقط بطريقة تكفي لإعطائه طعم جهلها الرياضي. أمسك الأستاذ برأسه.

- لم تسمغ عن نورفيد! - هتف.

ابتسمت السيدة الغلامي.

- إنه العصر، يا أستاذ، العصر!

ساد جو لطيف للغاية. عرضت تلميذة المدرسة جهلها عن نورفيد إلى بيمكو. أما بيمكو فعرض صدمته بجهلها عن نورفيد إلى تلميذة المدرسة. بينما ضحكت الأم من خلال العصر. وأنا جلست وحيداً منبوذاً من الجلسة ولم أستطع - لم أستطع أن أتكلم أو أدرك كيف جرَتْ مبادلة الأدوار إلى درجة أن ذلك الأنتيكة ذا الساقين الأسوأ ألف مرة من ساقيّ قد اتحد مع المودرن ضدي، وكيف أنني أصبحت نشازاً في لحنهم. أوه بيمكو، مبعوث الجحيم! عندما جلست صامتاً بعد أن ركلتني، بدا الأمر كأنني غاضبٌ وعابسٌ، حتى فاتحني بيمكو بسؤال.

- لماذا أنت صامت، يا جوي؟ حين تكون في مجموعة من اللائق أن تتكلم... أم ربما ثمة نزاع بينك وبين الآنسة زوتة؟

- إنه مستاء! - هتفت الرياضية بسخرية.

- يا زوتة، أعتذري للسيد - قالت حرم المهندس بحزم. لقد أسأتِ إليه ولكن لا تكنْ غاضباً من ابنتي، يا حضرت، لا تكنْ حساساً هكذا. ستعتذر زوتة بالطبع ولكن من الناحية الأخرى، فإننا نتكلف قليلاً، أليس كذلك، تلك هي الحقيقة. كن على طبيعتك أكثر، أكثر حيوية،

twitter @baghdad_library

أنظر إليّ وإلى زوتة - حسناً، لكن اطمأنْ، يا أستاذ، سوف نطوع هذا الشاب. سنعطيه درساً.

- في هذا الصدد أعتقد أن بقاءه عند سيادتكم سيفيده. هيّا، جوي، افرجْ عن أسارير وجهك.

وكل هذه الإفادات رتبت الأمور وحددتها بحسم و - على ما يبدو - بشكل نهائي. ناقش بيمكو والسيدة الغلامي النقاط المالية بإيجاز، ثم قبّلني على جبيني.

- كن على ما يرام، يا صبي، مع السلامة، جوي. اسلكْ سلوكاً حسناً، لا تبْكِ، لا تبْكِ، سأزورك كلّ يوم أحد وكذلك في المدرسة لن أتركك تبتعد عن أنظاري. تحياتي، يا سيدتي العزيزة، وداعاً، وداعاً، يا آنسة زوتة، إخص عليك، وأتمنى أن تكوني جيدة مع جوي!

خرج ولكن كان يمكننا أن نسمع سعاله وتنحنحه حتى على السلالم:

- أغح، أغح، أغح، همم، همم، أغح! إيه إيه إيه! - اندفعتُ إلى الاحتجاجات والشرح. ولكن قادتني السيدة الغلامي إلى حجيرة صغيرة ومودرن وغير مريحة، بجانب غرفة الجلوس التي (كما أصبح واضحا فيما بعد) كانت أيضاً غرفة الآنسة الغلامي.

- تفضل - قالت - غرفتك. الحمام بجوارها. الإفطار الساعة السابعة. أمتعتك هنا - جاءت بها الخادمة.

وقبل أن تتاح لي فرصة لكي أُتَأْتِئ «شكرا»، انصرفتُ إلى جلسة لجنة لمكافحة آفة تسول الأطفال غير الأوروبيين في العاصمة. بقيت

وحدي. جلست على كرسي. ساد صمت. كان هناك طنين في رأسي. جلست في هذه الظروف الجديدة، في مسكني الجديد. لقد وجدت نفسي فجأة في عزلة تامة بعد أن كنت مع كل هؤلاء الناس في الصباح وفقط كانت تلميذة المدرسة تتحرك وتتجول بجانبي في غرفة الجلوس. لا، لا، لم تكن هذه عزلةً - بل كانت «عزلة مع تلميذة المدرسة».

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

الحُبّ

ومرة أخرى اندفعتُ إلى الاحتجاجات والشرح. كان يجب أن أفعل شيئاً. لم يكن بمقدوري أن أسمح لهذه الحالة التي أوقعوني فيها أن تستمر إلى الأبد. أي تأخير كان ينذر ببقاء هذه الحالة إلى ما لا نهاية. جلست على كرسي متخشباً، بدلا من أن أبدأ في وضع وترتيب أمتعتي التي جاءت بها الخادمة حسب أوامر بيمكو.

- الآن - قلت لنفسي - الآن فرصتي الوحيدة للتواصل وتصحيح وشرح موقفي. بيمكو غير موجود. وغادرت السيدة الغلامي. وتلميذة المدرسة وحدها. لا تضيع الوقت لأن الوقت يتثاقل على أي شيء ويجعله صلباً، تذهب الآن، مباشرة وتشرح وتوضح شخصيتك الحقيقية إلى زوتة، غدا سيكون الوقت قد تأخر. أريها نفسي، أريها نفسي - كم أردت أن أريها نفسي بشدة، يا لها من رغبة استولتْ عليّ لكي أريها نفسي. نعم، ولكن أريها - ماذا؟ بأنني بالغٌ وعمري ثلاثون عاماً؟ لا، لا، لا، أبداً، لم يكن لدي في ذلك الحين أية نية لكي أخرج من الشباب وأعترف بأن عمري ثلاثون عاماً، انهارَ عالمي ولم أعد أرى العالم إلا من خلال عالمها الرائع، عالم تلميذة المدرسة المودرن -

twitter @baghdad_library

الرياضة والرشاقة والغطرسة وسمانات السيقان والسيقان والوحشية والمراقص والزورق والكياك - كانت تلك أعمدة واقعي الجديدة! لا، لا - أردت أن أظهر بشكل مودرن! الشبح وسيفون والكباس وبيمكو والمبارزة - دفعت إلى الهامش كل ما حدث لي حتى الآن وكنت مشغولاً فقط بما تفكر فيه تلميذة المدرسة تجاهي، هل صدقت كلام بيمكو بأنني متكلف وغير مودرن - كل ما كان علي أن أفعله أن أذهب إليها مباشرة وأظهر نفسي أمامها بشكل مودرن وطبيعي، حتى أجعلها تدرك أن بيمكو قد شوهَنِي وأنني في الواقع مختلف تماماً، وأنني مثلها، ندٌّ لها من خلال العمر والعصر وبأن سمانة الساق جعلتنا رفاقاً...

أن أظهر أمامها - نعم ولكن بأية حجة؟ كيف أشرح لها في حين أنني لم أكن أعرفها على الإطلاق تقريباً وكانت غريبة بالنسبة لي من الناحيه الاجتماعية، على الرغم أنني وحسب ما كانت تظن،كنت تحت أمرها. أما بالنسبة لي فكان الوصولُ إليها على المستوى الواقعي بالغ الصعوبة.- كان يمكنني أن أصل إليها فقط من خلال تفاصيل تافهة، كان يمكنني على الأكثر أن أدق على بابها وأسألها عن موعد العشاء. الركلة التي سددتها لي لم تجعل المهمة سهلة - لقد كانت ركلة عرضية مسددة من ساقها بدون مشاركة وجهها وفي الواقع افتقدتُ أنا إلى الوجه الملائم. جلست على كرسي مثل حيوان في قفص، مثل حصان مربوط بحبل، مع الاحتفاظ بالمسافة المناسبة بواسطة السوط، ثم فركت يديّ - كيف وبأي حجة يمكنني أن أسوّى الأمور بين الآنسة الغلامي وبيني؟

فجأة رنّ صوتُ الهاتف وسمعت خطوات تلميذة المدرسة.

قمت من مكاني وفتحت باب غرفة الجلوس قليلاً بعناية وتطلّعتُ

حولي - لم يكن هناك أحدٌ، بدت الشقة فارغة واقترب الشفق بينما كانت هي تتفق مع صديقتها على موعد في الساعة السابعة في محل حلويات، معها ومع بولك وبيبي (كانت لديهن ألقابهن وأسماؤهنّ وتعبيراتهن). «سوف تكونين هناك، الساعة السابعة بالضبط، بالتأكيد، نعم، لا، حسناً، تؤلمني ساقي، مزقت الرباط، هو أحمق، الصورة، تعالي، هل ستأتين، سآتي، مزاح، مؤكد» - لقد مستني كثيراً تلك الكلمات التي تصدر بصوت مكتوم من قبل إحدى الفتيات المودرن إلى فتاة مودرن أخرى في سماعة التليفون بينما لا أحد موجود بجانبها. «إنها لغة خاصة بهن - فكرت - لغة خاصة بهن ومودرن جداً». وفي ذلك الحين بدا لي بأن الفتاة المشغول فمها بالحديث بعينيها المتحركتين، الثابتة على حالها بفعل مسكها للسماعة، تصبح أسهل في الوصول إليها وأكثر تقبلاً لنواياي. كان يمكنني أن أظهر أمامها بدون أي شرح مسبق، أن أتجلى أمامها - بدون أي تعليق.

سرعان ما عدلت ربطة عنقي وياقتي وملَسْتُ شعري حتى يظهر الفرق في رأسي بوضوح لأني كنت أعرف أن هذا الخط المستقيم على جانب الرأس لا يفتقر إلى معنى ما في تلك الظروف. كان الخط، والله أعلم، مودرن. حين مررت بغرفة الطعام، أخذت عودَ أسنان من على الطاولة وظهرت أمامها (كان الهاتف في الردهة) حيث ظهرت فجأة عند عتبة الباب بلامبالاة ووقفت متكئاً بكتفي على المدخل. انحنيتُ إلى الأمام بكل كياني بهدوء، بينما كنت أمضغ العودَ بأسناني. كان عودَ أسنان مودرن. لا تعتقدوا أنه كان سهلاً علي أن أقف هناك وأتظاهر بأنني أشعر براحة، بينما كان كل شيء في داخلي لا يزال مشلولاً، أن أكون عدوانياً، بينما في داخلي كل شيء ما زال ميّتاً بسلبية إلى أقصى حد.

twitter @baghdad_library

أما الآنسة الغلامي فكانت في نفس الوقت تكلمُ صديقَتَها.

- لا، ليس بالضرورة، اللعنة، حسناً، اذهبي معها، لا، ليس معه، الصورة، مزاح، آسفة، انتظري لحظة.

وضعت السماعة جانباً وسألت:

- هل يريد السيد أن يُجري اتصالاً؟

وسألتْ بصوت ودود، وببرود، كما لو لم أكنْ أنا الذي ركلته. هززت رأسي بالنفي. كنت أريد أن أجعلها تدرك بأنني كنت واقفاً هناك دون أي سبب آخر إلا: «أنا وأنت» و«لدي الحقّ في أن أقف عند الباب حين تُجْرين اتصالاً، كشريكك في الحداثة وند لك، وافهمي يا آنسة الغلامي، أنه لا داعي للشرح بيننا وإنني يمكنني بكل بساطة وبلا رسميات أن أنضمّ إليك». لقد خاطرت كثيراً، لأنها فيما لو طلبتْ مني أي توضيح، فلن أستطيع أن أشرح أي شيء وستجبرني هذه الحالة المصطنعة على التراجع مباشرة. لكن ماذا لو استقبلتني بترحاب، ماذا لو وافقت عليّ بصمت - الطبيعية التي بالكاد أجرؤ أن أحلم بها! وفي ذلك الحين كان يمكنني أن أكون معها، أكون مودرن بالفعل. «الكباس، الكباس» - فكرت بلهفة وتذكرت وجه الكباس المشوه بفظاعة عقِبَ ابتساماته الأولى. ولكن حقاً، كان الأمر أسهل مع إمرأة حيث منح اختلافنا الجسدي إمكانية أفضل.

لكن الآنسة الغلامي لا تزال تتكلم - وسماعةُ الهاتف على أذنها، وهي لا تنظر إلي - لقد تكلمت لمدة طويلة (وبدأ الوقت يهددني مرة أخرى ويتثاقل علي) فقالت أخيراً:

- حسناً، الساعة السابعة بالضبط، بالتأكيد، سينما، إلى اللقاء - وانتهت المكالمة الهاتفية.

قامت من مكانها ومشت إلى غرفتها. أخرجتُ العودَ من فمي وذهبت إلى غرفتي. وكان هناك كرسي عند الجدار، بالقرب من الخزانة، على الجانب، ليس للجلوس ولكن يستخدم لوضع الأشياء عليه خلال الليل - فجلست على هذا الكرسي ثابتاً وفركت يدي. تجاهلتني - إنها حتى لم تسخر مني. حسناً ولكن بما أنني قد بدأت شيئاً، لم يكن يمكنني أن أتركه عند هذا الحد، كان يجب علي أن أقرر شيئاً ما دامت السيدة الغلامي غير موجودة في البيت، «حاول من جديد، لأنها الآن، بعد أدائك المؤسف، ستعتبرك متكلفاً حقاً وإلى الأبد، وعلى أي حال يبدو أن تكلفك يتصلب ويقوي نفسه، لماذا جلست هنا على الجانب، عند الجدار، لماذا تفرك يديك؟ إن فرك يديك في غرفتك، على الكرسي، يناقض الحداثة بأكملها، إنه موضة قديمة». يا الله!

هدأت وبدأت أستمع إلى ما يجري وراء الجدار. كانت الآنسة الغلامي تتحرك مثل كل الفتيات اللاتي يقمنَ بحركاتٍ وهن يشعرن بارتياحٍ في غرفهن. وبينما هي تتحرك فبالتأكيد في نفس الوقت ثبتت في نفسها أكثر وأكثر آراءها عني، بأنني متكلف مثلما يدعون. إنه إحساس سيئ أن تطرد من الغرفة وأن تضطر للجلوس بينما هي تنتج أفكاراً عنك لا يمكن تخيلها - ولكن كيف يمكن أبادرها بالكلام، أن أبادرها بالكلام مرة أخرى، ماذا كان يجب علي أن أفعل؟ لم يكن هناك لدي أي حجج - وحتى لو كانت لدي حجة، لم يكن بإمكاني أن أستخدمها - لأن القضية أصبحت أكثر عاطفية من مجرد استخدام حجج.

twitter @baghdad_library

في خلال ذلك الوقت زحف الغسق ومعه الوحدة - تلك الوحدة الزائفة عندما يجد الشخص نفسه وحيدا ولكنه ليس وحيداً، بل في علاقة روحية مؤلمة مع شخص آخر وراء الجدار - مع ذلك هو وحيدٌ إلى درجة أن أشياء مثل فرك يديه وتشنجات الأصابع وأعراض أخرى تبدو غير معقولة - فبالتالي الغسق وتلك الوحدة الزائفة أصابتني بدوار وأعمتني وحرمتني من بقايا الإحساس باليقظة وقذفتني في الليل. أوه، كم يقتحم الليل النهار! وحيداً، في غرفتي، على كرسي، كنت تائهاً في الأحداث ولم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك. الحالات التي نعيش فيها ونتقاسمها مع شخص آخر بوضوح لا تهددنا، إنما هي لا تطاق بدون شريك. الوحدة تدفعنا إلى الخارج. إذنْ بعد معاناة طويلة، فتحت الباب مرة أخرى وظهرت في المدخل، أعمى قليلاً مثل الخفاش بسبب عزلتي. عندما وقفت هناك، أدركت من جديد بأنني لا أعرف كيف أبادرها بالكلام وكيف يمكنني أن - أحصل عليها - فإنها لا تزال منعزلة تماماً ومنغلقة - يا لها من ظاهرة جهنمية، هذا الخط الخارجي الواضح والدقيق لشكل الإنسان، هذا الخط الفاصل البارد - الشكل!

أما هي فكانت تنظف حذاءها بنسيج الشمواه الناعم بينما انحنتْ رافعة ساقها على الكرسي.

كان في ذلك شيء كلاسيكي وبدا لي أن الفتاة لم تكن مهتمة كثيراً بلمعان حذائها، بل كانت مهتمة أكثر بتحسين نوعيتها في سرية وأن تحافظ على طرازها المودرن الرفيع من خلال سمانة ساقها وساقها. ذلك شجعنى. لأني فكرت أن الـ«مودرن» حين أضبطها في فعلها مع ساقها، فإنها ستكون أكثر كرماً وأقلّ رسمية. اقتربتُ ووقفت على مقربة منها،

على بعد خطوة أو خطوتين، وبدون أن أنظر إليها وأنا أسحب نظراتي بعيداً، وضعت نفسي تحت أمرها بصمت - حتى هذا اليوم ما زلت أتذكر جيداً - وأنا أدنو منها وأقف على بعد خطوة، بالضبط على حدود حيزها حيث تبدأ وأحيد جميع حواسي لأكون قادراً على أن أقترب أكثر ما يمكن، وأنتظر... لماذا؟ - حتى أتفادى مفاجأتها. هذه المرة بدون عود أسنان ودون أي تكلف استثنائي. دعها تقبلني أو ترفضني، حاولت أن أكون سلبياً ومحايداً تماماً.

أزاحت ساقها من على الكرسي واستقامتْ في وقفتها...

- هل لديك... أية مصلحة معي؟ - سألت بتردد وهي تنظر بطرف عينها، مثل شخص يقترب من شخص آخر بلا سبب محدد؛ وعندما استقامتْ، ازداد التوتر بيننا أكثر. أحسست أنها تفضل أن تبتعد. ولكن لم تستطع لأنني كنت واقفاً قريباً جداً.

هل كانت لي أية مصلحة معها؟

- لا - رددت بهدوء.

نزلت يديها على جانبيها. نظرت إلي بارتياب.

- هل تتكلف إذن؟ - قالت على نحو دفاعي، على سبيل الاحتياط.

- لا - همست بإصرار - لا.

كانت هناك طاولة صغيرة بجواري. وبعدها - مدفأة. كان يوجد على الطاولة الصغيرة فرشاة ومُدية جيب. ازدادَ الشفق - طمس الضوء ما بين الليل والنهار وتخطى الحدودَ وخط التماس الخطر تدريجياً، وبالتالي كنت صادقاً من وراء حجاب الظلام، صادقاً إلى الحد الأقصى وحريصاً ومستعداً لتلميذة المدرسة.

twitter @baghdad_library

لم أتظاهر. لو هي أدركتْ بأني لم أتظاهر الآن، فسيصبح تصنعي السابق في حضور بيمكو تظاهراً. لماذا أعتقدت أن الفتاة مفروض عليها ألا ترفض الرجل الذي يلح على موافقتها؟ هل ظننت أن تلميذة المدرسة وتحت ستار الظلام، ستستسلم لإغراء جعلي شخصاً نافعاً؟ لماذا لم تجدني شخصاً ودوداً وملائماً لها؟ لأنها في النهاية كانت ستفضل استضافة زميل أمريكي الأسلوب في بيتها على شخص متكلف من الطراز القديم، مُتخمّر وساخط؟ ألن تعزف عليّ لحنها الآن، عند ساعة الشفق، حيث جئت أقدم نفسي - اعْزِفي، اعْزفي لحنك عليّ، ذلك اللحن المودرن الذي يهمهم به كل الناس في المقاهي وعلى شواطئ البحر وفي المراقص، اللحن النقي للشباب العالمي الذي يرتدي بنطلونات التنس. همهمي علي بحداثة بنطلونات التنس. ألا تريدين؟

جلست الآنسة الغلامي على الطاولة وهي مندهشة من قربي منها، واتكأتْ بيديها على الحافة بنوعٍ من النزوة الجسدية - ظهر من الظلام وجهها المتأرجح بين الدهشة والتسلية - وبدا لي كأنها تجلس ورغبة العزف فيها... تلك هي طريقة النساء الأميركيات في الجلوس على جانب القارب. وإنه مجرد حقيقة جلوسها جعلتني أستشعر حرارة الوخز، على الأقل كان فيها قبول صامت لاستمرار الوضع. بدا الأمر وكأنها هيأت نفسها لفترة طويلة، مهما حدث. وبقلبي النابض لاحظت أنها تحرك بعضَ مفاتنها. هزَّت ساقها الصغيرة بتسرع، بينما مالت رأسها الوسيمة قليلاً ومطَّت شفتيها في استياء، أما عينا المودرن الواسعتان فتحَوّلتا بعناية إلى الجانب، نحو غرفة الطعام، حتى تتفحص وجود الخادمة هناك. لأنه ماذا ستقول الخادمة إذا رأتنا، نحن الغرباء عن بعضنا

البعض تقريباً، هنا، في هذه الوضعية الغريبة؟ هل ستعتبرنا مصطنعين بإفراط؟ أم ربما طبيعيين أكثر مما يجب؟

ولكن هذا هو نوع المخاطرة الذي يعجب الفتيات، فتيات الظلام اللاتي يمكنهنّ في الظلام فقط أنْ يظهرن ما يستطعنَ أن يفعلنَ. شعرت أني أخضعت تلميذة المدرسة من خلال الأسلوب الطبيعي المتوحش للتصنع. وضعت يديّ في جيبي سترتي. شددت نفسي أمامها وبينما كنت أصطاد كل نفس تصدره، رافقتها بهدوء ولكن بحماس أيضاً، بكل قوتي - وأنا، أصبحت لطيفاً، لطيفاً من جديد... وهذه المرة كان الوقت في صفي. كل ثانية، كلما زاد التصنع، زادت الطبيعية على حد سواء. توقعت أنها ستقول لي شيئاً فوراً، كأننا نعرف بعضنا البعض من زمان، شيئاً حول ساقها، إنها تؤلمها لأنها مزقت الرباط.

- تؤلمني ساقي لأنني مزقت الرباط. إنك تشرب الويسكي، أليس كذلك، Annabelle.

كانت على وشك أن تقول ذلك، وبدأت شفتاها تتحركان - حين فجأة قالت شيئاً مختلفاً تماماً، على الرغم من إراداتها - وسألت بطريقة رسمية:

- ماذا يمكنني أن أفعل لك؟

تراجعتُ خطوة إلى الوراء، بينما هي، المسرورة كثيراً بما قالته، دون أن تفقد شيئاً من حيوية وطراز الشابة المودرن وهي تجلس على الطاولة بساقيها المتدليتين - نعم، نتيجة لذلك كان منظرها أكثر حيوية - كررت بشدة وباهتمام رسمي بارد:

- ماذا يمكنني أن أفعل لك؟

twitter @baghdad_library

وبما أنها شعرت أن هذه الكلمات لا تنقص أي شيء من نفسها، بل على العكس تمنحها حدة ورصانة غير عاطفية، وتحسن من نوعيتها عموماً، فسألت مرة أخرى، بينما نظرت إلي كأنني مجنون.

- ماذا يمكنني أن أفعل لك؟

استدرتُ ومشيت بعيداً، ولكن يبدو أن ظهري خلال ابتعاده، قد أزعجها أكثر، لأني سمعتها تقول من وراء الباب:

- يا له من مهرج!

مرفوضاً ومنبوذاً، جلست على كرْسِيّ الصغير عند الجدار، مرهقاً.

- لقد انتهى الأمر - همست - لقد دمرت هي كل شيء. ولكن لماذا؟ ثمة شيءٌ أثارَ حفيظتها بالتأكيد - انها فضلت بدلا من أن تمشي معي أن تمشي علي. يا كرسيّ الصغير، هنا، عند الجدار، مرحبا بك، ولكن حان الوقت لكي أفرغ أمتعتي من الحقيبة المتواجدة في وسط الغرفة، لا يوجد مناشف.

جلست متواضعاً على الكرسي وفي الظلام تقريباً وبدأت وضع ملابسي الداخلية في الأدراج - يجب أن أضعها الآن، عندي مدرسة غداً - لكن لم أشعل الضوء، حقاً، لم أجد داعي لذلك. شعرت أنني بائسٌ ومسكين، ولكن لا بأس في ذلك، فقط لو أمكنني ألا أتحرك ثانية، فقط أن أجلسَ وأستمر في جلوسي وألا أرغب في أي شيء، لا شيء أبداً.

ولكن بعد بضع دقائق من الجلوس أصبح واضحاً إنني على الرغم من إرهاقي وبؤسي، يتوجب علي أن أكون نشيطاً من جديد. أليس هناك

راحة؟ الآن كان لابد لي أن أذهب للمرة الثالثة إلى غرفتها وأن أظهر نفسي أمامها كمهرج، حتى تعرفَ أن كل ما قمتُ به كان من البداية تهريجاً مقصوداً، وأنني أنا الذي كنت أسخر منها وليس العكس. -Tout est perdu sauf l'honneur[(١)]- كما قال فرانسوا الأول. إذن على الرغم من بؤسي وتعبي نهضت ومرة أخرى بدأت أستعد للدخول اليها. استمرَ استعدادي وقتاً طويلاً إلى حد ما. أخيراً فتحت الباب جزئياً وأدخلت رأسي أولاً إلى غرفتها. يا له من ضوء ساطع يعمي البصر. لقد أضاءت مصباحاً. أغمضتُ عيني. بلغتني ملاحظتها وهي تقول بقلة صبر.

- رجاء لا تدخل دون أن تطرق الباب.

أجبت بعينين مغلقتين، بينما حركت رأسي في فجوة الباب.

- خادمك المطيع وتحت قدميك.

فتحت الباب ودخلت الآن كلية، بكامل طاقتي وتهريجي، أوه، طاقة البائس! قررت أن أغضبها تطبيقاً للحكمة القديمة التي تقول أن الغضب يقلل الجمال. افترضتُ أنها حين ستغضب، بينما أنا، محتفظٌ بهدوئي من تحت قناع المهرج، سأمتلك اليد العُليا. صرخت هي قائلة:

- سلوكك غير مهذب!

فوجئت بتلك الكلمات تصدر من فمها المودرن وخصوصاً إنها بدت صادقة للغاية كأن السلوك المهذب كان محكمة الإستئناف لتلميذات المدارس الجامحات لما بعد الحرب. تعرف تلك الفتيات المودرن كيف

---

(١) فُقد كل شيء، باستثناء الشرف - مقولة الملك فرانسيس الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) ولكن تنسبُ أيضاً إلى الكاتب فرانسوا رابليه.

twitter @baghdad_library

يتلاعبنَ ببراعة في التناوب بين السلوك السيئ والجيد. شعرت كأني فظٌ. فات أوان التراجع - يستمر العالم في الوجود فقط من خلال حقيقة أن أوان التراجع دائماً يفوت. أنحنيت ورددت:

- تحت قدمي السيدة المحترمة.

وقفت وتوجهت للباب. يا للكارثة! إذا خرجت وتركتني مع سلوكي الفَظّ - فسيضيع كل شيء! إندفعت إلى الأمام وأغلقت طريقها. توقفت.

- ماذا تريد حضرتك؟

بدت قلقة.

أما أنا، فأسِيرٌ نتيجة فعلتي ولأنني لم أتمكن من التراجع، فقد بدأت أتقدم نحوها. بينما أنا أتقدم نحوها - مثل المجنون والمهرج والمتكلف، مثل قرد نحو الآنسة، أنا طالب العلم الباروكي والمهرج، بالغطرسة المغفلة - انها تتراجع وراء الطاولة - وأنا نحوها، بكامل طاقتي، مثل القرد وأشير بإصبعي بالاتجاه الذى أريدها أن تسلكه، منزلقاً نحوها كأنني سكير، فَظٌّ شرير، مثل قطاع الطرق - هي عند الجدار وأنا ألاحقها. ولكن، اللعنة! - بينما أنا في أثرها ببشاعة وكأنني وحش، عيناي جاحظتان، أرى أيضاً إنها - *في مواجهتها لذلك المجنون لا تفقد أي شيء من جمالها* - بينما أتحول أنا إلى غير بشري، هي - بجسمها الضئيل عند الجدار ومنحنية وشاحبة، بيديها المثنيتين على جانبيها قليلاً عند مرفقيها، تلهث كأنني رميتها عن الجدار وتحدق فيّ بعينين متسعتين وهادئة للغاية ومتوترة من الخطر ومتحفزة - إنها جميلة بشكل لا يصدق، مثل نجمات السينما - مودرن وشاعرية وفنية، والخوف - بدلاً من أن يشوه جمالها، فإنه يزيده أكثر! لحظة أخرى. اقتربتُ منها

وبالتأكيد كان من الضروري أن يتبع ذلك قرارات جديدة - مرّ على خاطري إنها النهاية، يجب علي أن أمسك بذلك الوجه الصغير بيدي - فتنت بها، وقعت في حبها!... وفجأة تردد صدى صراخ في ردهةِ المدْخل. كان الكباس يهجم على الخادمة. لم نسمع صوت جرس الباب جيداً. لقد جاء لزيارتي في منزلي الجديد، وبعد أن وجد نفسه وحيداً مع الخادمة في ردهة المدخل، أراد أن يتحرش بها.

بما أن الكباس بعد المباراة مع سيفون لم يستطع أن يتخلى عن إعطاء وجوهه الرهيبة، ووقع في حبالها الجهنمية إلى درجة أنه لم يستطع أن يتحكم في تصرفاته الوحشية. عندما رأى الخادمة، لم يستطع أن يتمالك نفسه من التصرف بأكثر الطرق الممكنة سوقية ووحشية. صرخت الخادمة بشدة. ركلها الكباس في معدتها ودخل الغرفة بنصف زجاجة فودكا محلية تحت ذراعه.

- آه، إذن أنت هنا! - هتف - . مرحباً يا جوي، يا زميلي! ها أنا أزورك. جئت ببعض الفودكا والنقانق! هو، هو، هو، وجهك الدميم مؤثر حقاً! ولكن لا تقلق، الذى عندي أكثر دمامة!

دع الدميمَ يضرب الدميم في الدمامة!

هذا هو مصيرنا! هذا هو مصيرنا!

سَدّدْ بدميمك ضربةَ وتفاخرْ

أو علّقْ نفسَك على شجرة البلوط

- هل سيفون جعلك تبدو بهذا الشكل؟ منْ هذه الخيزرانة عند الحائط؟ نهارك سعيد، يا آنسة!

- لقد وقعت في الحب، يا كباس، وقعت في الحب...

twitter @baghdad_library

رد الكباس على ذلك بحكمة سكير:

- إذن ذلك سبب دمامتك؟ تمام يا رفيقي، جوي! حسناً، ولكن دمامتك التي وضعتها لك حبيبتك صعبة بعض الشيء. لو كنت فقط تستطيع أن ترى نفسك الآن. غير مهم، غير مهم، دمامتي أيضاً مثيرة للسخرية. تمام يا رفيقي! هيا بنا، لنذهب، ولا تلتفت إليها، خذني إلى جناحك وأتنا ببعض الخبز لنأكله مع النقانق - أتيت بزجاجة لكي ندفن فيها أحزاننا! توقف عن التوتر! لنشرب يا جوي، يا رفيقي، سوف ندردش ونثرثر عن كل شيء دون تمييز، سنرقّهُ عن أنفسنا! هي زجاجتي الثالثة التي أبلعها اليوم. سنرفه عن أنفسنا. نهارك سعيد يا سيدتي... بونجور... أوريفوار... نهارك سعيد! Allons, allons!

التفتُّ إلى المودرن من جديد. أردت أن أقول شيئاً، أن أشرح - أن أقول الكلمة الوحيدة التي ستنقذني - ولكن لم أجد تلك الكلمة فأمسكني الكباس من تحت ذراعي وصحبني إلى غرفتي ونحن نترنح، سكرانين ليس من الخمر ولكن من دمامتينا. انفجرت في البكاء وقلت له كل شيء عن تلميذة المدرسة، دون أن أحذف أي شيء. استمعَ إلي بحنان مثل الأب الرؤوف وبدأ في الغناء:

يا دميم

على شجرة البلوط

مثل صياد البعوض!

- اشربْ، اعببْ، لماذا لا تشرب؟ تجرع قليلاً! أعطِ قبلة لتلك الزجاجة الصغيرة! إعرض دمامتك على الزجاجة! - كان وجهه رهيباً

وبذيئاً ومبتذلاً بفظاعة والتهمَ النقانق من ورقة مشحمة، كان يحشرها في فتحة فمه.

- يا كباس، أريد أن أحرر نفسي منها! أحرر نفسي منها! - صرختُ.

- أن تحرر نفسك من دمامتك؟ - سأل - اللعنة.

- لا، أن أحرر نفسي من تلميذة المدرسة! إن عمري، يا كباس، ثلاثون عاماً كأنه يومٌ واحد! ثلاثون عاماً!

نظر إلي باستغرابٍ، كان يبدو وكأن في كلماتي ألما حقيقيا. ولكنه بعد ذلك انفجرَ بالضحكِ.

- لا تتكلم بحماقة! ثلاثون عاماً! يا لك من أبله، طار صوابك فعلاً، أنت مخبول، يا معتوه (واستخدمَ تعبيرات أخرى لن أكررها). ثلاثون عاماً! أتعرف - شرب من الزجاجة وبصق - أعرف دمامتك من مكان ما. رأيتها قبل ذلك. كوبريدا مهتم بها.

- من يهتمُّ بها؟

- كوبريدا. من فصلنا. لقد أعجبته لأنه هو أيضاً - مودرن. بصراحة، لو هي مودرن، فلن تصل إلى شيء معها، اللعنة! لا تصاحبُ المودرن إلا المودرن مثلها، فقط مع مثيلها. بصراحة، إذا لصقت المودرن لك دمامةً، فلن تتخلص من هذه الورطة بسهولة. إن ذلك أسوأ من سيفون. غير مهم، يا أخي، لدينا كلنا مثال أعلى يلاحقنا، مثل قطعة الخشب في أربعاء الرماد[١] اشربْ اشربْ، خذْ جرعة! هل تعتقد بأنني تحررت؟

---

(١) عادة ريفي عندما في أول يوم من زمن الصوم المسيحي إلتصقوا أولاد بقطع الخشب كعلامة بإنهم لم تمكنوا من الزواج في وقت الكرنفال.

twitter @baghdad_library

لقد حولت دمامتي إلى ممسحة مطبخ ومع ذلك عامل المزرعة لا يزال يزعجني.

- ولكنك اغتصبتَ سيفون، أليسَ كذلك؟

- مـاذا في ذلـك؟ اغتصبـت، لكـن دمامتي ما زالـت باقيـة. أنظر - تعجب - حقاً، نحن زوجان اثنان. أنا وعامل المزرعة وأنت وتلميذة المدرسة. خذ جرعة أخرى من الفودكا! أوه، عامل المزرعة - أصبح عاطفياً على الفور - أوه، عامل المزرعة! يا جوي، كم أريد بشدة أن أهرب إلى عامل المزرعة. إلى المروج والحقول، أن أهرب، أفرّ - تمتم - . إلى عامل المزرعة... إلى عامل المزرعة...

لكنّ عاملَ مزرعته لم يهمّني على الإطلاق. يهمني فقط المودرن! استولتْ عليّ الغيرة من كوبريدا - آه، إذنْ كوبريد يهتم بها! لكن إذا كانت «بها» وليس «معها»، فإن ذلك يعني بأنهما لا يعرفان بعضهما البعض... لم أجرؤ أن أسأل. وهكذا جلسنا بدمامتينا، كلٌّ على طريقته، كل منا بأفكاره الخاصة به، بينما شربنا من الزجاجة من حين إلى آخر. قام الكباس من مكانه مترنحاً.

- يجب علي أن أذهب - قال بصوت ضعيف - يمكن السيدة أن تأتي في أية لحظة. سأخرج من المطبخ - تمتم - سوف أمر على الخادمة قبل ذلك. الخادمة هنا لا بأس بها، لا بأس بها على الإطلاق... إنها ليستْ عامل المزرعة، ولكن أصلها يبقى من الشعب. ربما لديها أخ عامل مزرعة. أوه، يا أخي - عامل المزرعة... عامل المزرعة...

غادرَ. أما أنا فبقيتُ مع تلميذة المدرسة. جعل ضوء القمر الغبار الصغير يلمع ويطير في الهواء ذهاباً وإياباً بكميات كبيرة.

الفصل الثامن

كومبوت فواكه

وفي صباح اليوم التالي ثمة المدرسة من جديد، وسيفون والكباس وهوبا وميزو وغاوكيفيتش وaccusative cum infinito[1] و«شحاب» والشاعر الملحمي وعدم الاستطاعة اليومية العامة وملل وملل وملل! ونفس القصة مرة أخرى! ومرة أخرى الشاعر الملحمي من الشعراء الملحميين وثرثرة المعلم عن الشاعر الملحمي ليتكسب معاشه والطلاب تحت مكاتبهم يعانون منتهى التعب وتتحرك الإصبعُ في الحذاء مثل الدوامة وطبق طبقنا يطبق في طبق طبقهم، وطبق طبقنا يطبق في طبق طبقهم، وطبق الشاعر الملحمي يطبق في طبق طبقهم، ملل، ملل! ومرة أخرى يقمعنا الملل وتحت قمع الملل والشاعر الملحمي والمعلم يتحول الواقع ببطء إلى عالم المثل العليا، دعني أحلم الآن، دعني - ولا أحد يعرف ما هو الواقعي وما هو غير الموجود على الإطلاق وأين الحقيقة وأين الوهم، ما نشعر به وما لا نشعر به، أين السلوك الطبيعي وأين السلوك المصطنع والتمثيل و«ما ينبغي أن يكون» يختلط بما هو «موجود» لا محالة ويجعل الأول الثاني غير مؤهلٍ ويحرمه من أي سبب

---

(١) تعني باللاتينية حالة النصب وصيغة المصدر.

twitter @baghdad_library

لوجوده، أوه، يا له من تعليم في عالم اللاواقعية! هكذا أنا أيضاً كنت أحلم خلال خمس ساعات متواصلة يومياً بمثلي الأعلى بينما تضخمت دمامتي في الفراغ مثل البالون، دون عوائق - لأنه في هذا العالم غير الحقيقي والوهمي لم يكن هناك شيء يمكنه أن يعيده إلى طبيعته. إذن فإنني كان لي مثلي العليا أيضاً - تلميذة المدرسة المودرن. فتنت بها. استغرقتُ في أحلامي كأني العاشق الحزين والطموح. بعد محاولاتي الفاشلة للحصول على حبيبتي - أي بعد محاولتي للسخرية منها - استولى علي حزن كبير، عرفت أن كل شيء ضاع.

تلاحقت حبات سبحة الأيام الرتيبة. كنت محبوساً. ماذا يمكنني أن أقول عن تلك الأيام المكررة؟ في الصباح كنت أذهب إلى المدرسة وكنت أعود من المدرسة لتناول العشاء عند السيد والسيدة الغلامي. لم أنوِ أن أهرب ولا أن أشرح ولا أنْ أحتج - على العكس، بكل سرور أصبحت طالباً، وأنا طالب كنت قريباً من تلميذة المدرسة أكثر من وأنا رجل مستقل. ياه! - نسيت أعوامي الثلاثين تقريباً. أصبح المعلمون يحبونني وربتني المدير بيوركوفسكي على بوبوهي، أما أثناء المجادلات الأيديولوجية، فإني صرخت، أيضاً، بخدي المحمرَّين: - «الحداثة! الصبي المودرن فقط! تلميذة المدرسة المودرن فقط!» - ما جعل كوبريدا يضحك. تتذكرون بالطبع كوبريدا، الصبي المودرن الوحيد في المدرسة كلها؟ حاولت أن أتحد معه، حاولت أن أصادقه وأن أنتزع منه سرَّ علاقته مع الآنسة غلامية - لكنه صدني وعاملني بإحتقار أكبر حتى من الذي كان يعامل به الآخرين، كما لو كان يشعر مسبقاً بأنني قد تم رفضي من قبل أخته في النوعية، تلميذة المدرسة المودرن. عموماً، القسوة التي طرد بها الطلاب أصناف الشباب المختلفة عنهم، كانت

مذهلة - كره متحذلقو النظافة الآخرين القذرين، ومقت الطلاب المودرن الطلاب قديمي الطراز، وإلخ إلخ!

ماذا يمكنني أن أقول أيضا؟ مات سيفون. المغتصب من خلال أذنيه لم يتمكن من الشفاء، لم يتمكن بأية وسيلة من أن يتخلص من العناصر العدائية التي تم فرضها عليه عن طريق أذنيه. عبثاً كافح خلال ساعات بأكملها في محاولة نسيان الكلمات التي فرضت على سمعه كرهاً. نما داخله إشمئزازٌ لروحه الملوثة وتجول باشمئزازه الداخلي بينما أصبح أكثر وأكثر شحوباً ولا يزال يتجشأ ويبصق ويختنق ويتنفس بجهد ويسعل، غير قادر على أن يفعل أي شيء من خلال شعوره بأنه عديم القيمة، حتى شنق نفسه في ظهيرة يوم من الأيام على شماعة المعاطف. لقد أثار ذلك ضجة ضخمة وحتى الصحف نشرت الخبر. غير أن الكباس لم يستفد كثيراً من هذا، لم يحسّنْ موت سيفون من دمامتة ولو قليلاً. ثم ماذا في ذلك إن لقي سيفون مصرعه؟ الوجوه التي أعطاها في المبارزة ما زالت ملتصقة به - ليس من السهل أن يتخلى عن التكشيرات، الوجه الذي تم تشويهه لا يرجع، أنه ليس مصنوعاً من المطاط. وبالتالي استمرّ في التجول بدمامته الكريهة للغاية حتى صديقاه هوبا وميزو تجنباه قدر المستطاع. وكلما كان أكثر قبحاً، كلما أصبح - بطبيعة الحال - يتحرق بشوق أكثر إلى عامل المزرعة؛ وكلما كان يتحرق أكثر، كلما أصبح بالطبع - أكثرَ دمامة. قرّبنا البؤس من بعضنا - إنه كان يتحرَّق شوقاً إلى عامل المزرعة، أما أنا فكنتُ أتحرّقُ شوقاً إلى المودرن، وهكذا مرّ الوقت في تحرقنا المشترك والواقع لا يزال كما هو غير ممكن بلوغه وتحقيقه، كأنه كان لدينا طفح جلدي على وجوهنا. قال لي: هناك احتمال لإغواء خادمة السيد والسيدة الغلامي- إنه قبلها

twitter @baghdad_library

بالقوة ذلك المساء عندما خرج من خلال المطبخ حينما كان سكران، ولكن ذلك لم يُرْضِهِ بطبيعة الحال.

- إنه ليس نفس الشيء - استمرّ في كلامه - ليس نفس الشيء. أن يسرق قبلة من عاهرة؟ صحيح بأن البنت العاهرة هي ريفية حافية وانها - كما اكتشفتُ - عندها أخ عامل مزرعة، ولكن ماذا في ذلك، اللعنة (واستخدم تعبيرات أخرى لن أكررها) الأخت ليست نفس الشيء مثل الأخ، الخادمة ليست عامل مزرعة. أزورها في الأمسيات عندما تكون سيدتك الغلامي في اجتماع اللجنة، أدردش وأهذر كما أستطيع، حتى أنني أتكلم بلهجة سوقية ولكنها ما زالت لا تريد أن تعترف بي واحداً منهم.

وهكذا صاغ عالَمُه نفسَه - الخادمة في الخلفية وعامل المزرعة في المقدمة. أما عالمي فانتقل بأكمله من المدرسة إلى بيت السيد والسيدة الغلامي.

أدركت السيدة الغلامي بفطنة الأم بأنني مفتون بابنتها. لا أحتاج إلى إضافة إن حرم المهندس التي أثار بيمكو حماستها على نحو واف في البداية، صارت أكثر حماساً بعد هذا الاكتشاف. الصبي من الطراز القديم والمتكلف الذي لم يستطع إخفاء إعجابه بسمات تلميذة المدرسة المودرن، كان مثل اللسان الذي تستطيع هي من خلاله أن تتلذذ وتتذوق مفاتن ابنتها كلها، وبشكل غير مباشر - مفاتنها أيضاً. ها أنا قد أصبحت لساناً لهذه المرأة البدينة - وكلما كنت أكثر من الطراز القديم وغير صادق وغير طبيعي، فإنهن شعرن أكثر بالحداثة والصدق والبساطة. وبالتالي هذان الواقعان الصبيانيانِ - المودرن وقديم الطراز - حفزا

بعضهما البعض واهتاجا وثارا من خلال ألاف الصدمات الكهربائية العجيبة، تراكما وتكدُساً ليشكل عالم أكثر وأكثر انقساماً وخُضرة. وكانت نتيجة لذلك أن السيدة الغلامي الكبيرة بدأت في الاختيال أمامي والتباهي وإظهار حداثتها التي كانت ببساطة بديلاً لشبابها. في ساعة الأكل وكلما وجدوا وقتا أجريتاً أحاديث حول حرية الأخلاق، والعصر، والاضطرابات الثورية ومرحلة ما بعد الحرب، وكانت الكبيرة سعيدة بال«عصر» يجعلها أصغر من الشاب الأصغر منها سناً. لقد حولت نفسها إلى مراهقة وحولتني رجلاً عجوزاً.

- كيف هي أخبار عجوزنا الشاب؟ - كانت ستقول - بيضتنا الفاسدة؟

وبتعقيدِ حرمِ المهندس الذكية المودرن التي كانت عليه، عذبتني من خلال حيويتها وخبرتها في الحياة، ومن خلال حقيقة إنها عرفت كيف كانت الحياة وتلقت ركلة أثناء الحرب العظمى حينما كانت ممرضة في الخنادق ونتيجة لحماسها وآفاقها وليبرالية المرأة التقدمية الناشطة والجريئة وأيضاً لطرقها المودرن والاستحمام اليومي وزياراتها العلنية إلى الحمام التي كانت تعتبر من الافعال التآمرية في الماضي. أشياء غريبة غريبة حقاً! زارني بيمكو من وقت لآخر. استمتع المعلم العجوز ببوبوهي - «يا له من بوبو - تمتم - لا يعلى عليه!» - وبقدر إمكانه تملق السيدة الغلامي من خلال المبالغة في نوعه التربوي ذي الطراز القديم وصدمته التامة بتلميذة المدرسة المودرن. لاحظت أن في مواقف أخرى، مع بيوركوفسكي على سبيل المثال، لم يظهر نفسه قديمَ الطراز بشكل بارز ولم يلتزم بمبادئ من الطراز القديم، فلم أستطع أن أدرك إذا

twitter @baghdad_library

كانوا هم السيد والسيدة الغلامي هما اللذان يحدثان فيه تلك الصفات القديمة أم على العكس من ذلك - إنه هو من يحدث الحداثة عند السيد والسيدة الغلامي، أم في النهاية، إنهم يعتمدون على بعضهم البعض من أجل الحصول على الإيقاع الأعلى. لا أعرف حتى اليوم إذا كان بيمكو، الخوجة المطلق في الأحوال الأخرى، مضطراً من خلال وقاحة ما بعد الحرب للآنسة الغلامي، أن يصبح من نوعية ذلك الخوجة لما قبل الحرب، أم ربما استفزّ وقاحتها عن طريق اتخاذه عمداً مظهر الجد العطوف البائس والسخيف. من خلق من؟ - أخلقتْ تلميذة المدرسة المودرن الجد، أم خلق الجد تلميذة المدرسة المودرن؟ سؤال عقيم وفارغ بالتأكيد. ولكن الغريب، كيف تتبلور كل العوالم في سمانتي ساقي شخصين.

على أي حال، شعرَ كلاهما براحة في ذلك، هو - كتربوي ذي مبادئ وآراء قديمة، وزوتة - كشابة وقحة، وطالت زياراته تدريجيا وكرس لي انتباهاً أقل بينما ركز كلية على المودرن. هل ينبغي لي أن أقول ذلك؟ كنت أغار من بيمكو. عانيت بشكل رهيب عندما رأيت كيف كان كلاهما يكملان بعضهما البعض ويتفقان في كل شيء ويسجعان كلمات الأغنية، وكيف يخلقان معا قصيدة صغيرة بذيئة قديمة - شابة، وكان ذلك مخزياً في أن أشاهد كيف أن ذلك الأنتيكة ذو سمانة ساق أسوأ بألف مرة من سمانتي، كان منسجماً بطريقة أفضل مني مع المودرن. لقد أصبح نورفيد على وجه الخصوص موضوعا لآلاف الغمزات، لم يتمكن بيمكو العطوف من تقبل جهلها في هذا الصدد، أهان ذلك أقدس مشاعره، بينما فضلت هي القفز بالزانة - وهكذا فإنه لا يزال يبدي سخطه، أما هي فتضحك، أوصى هو بشيء، ولم ترغب هي

في ذلك، توسل هو، وقفزت هي- وهلم جرا! أعجبت بالحكمة والنضوج لدى الخوجة الذي وبدون أن يتوقف للحظة واحدة أن يكون خوجة ويعمل دائماً بمبدأ الخوجة، كان يمكنه أن يستخرج المتعة من تلميذة المدرسة المودرن عن طريق الطباق والمقابلة، كيف كان يحفز تلمذتها من خلال خوجيته، وكانت هي تحفز خوجيته من خلال تلمذتها. شعرت بحسد رهيب، بالرغم من أنني كنت أحفزها أيضاً طباقيا وحُفزت بدوري من قِبَلِها - ولكني، والله، لم أكن أريد أن أكون من الطراز القديم معها، أردت أن أكون مودرن!

أوه، عذاب، عذاب، عذاب! لم أستطع ولم أستطع أن أحرر نفسي منها. ظهرت كل محاولاتي للتحرر تافهة. الاستهزاء الذي لم أبخل عليها منه في أفكاري، لم يعط نتائج - في الواقع ما هي أهمية الاستهزاء الرخيص من وراء ظهر الشخص؟ ومهما كان، الاستهزاء لم يكن إلا الإجلال ذاته. لأنه كمنت في أعماق الاستهزاء رغبة سامة لإرضائها - إذا كنت أستهزئ فذلك ربما فقط لأزين نفسي بالريش الطاووسي للاستهزاء - وذلك فقط لأنها لم تقبلني. ولكن هذا الاستهزاء انقلبَ ضدي وجعل دمامتي تبدو أقبح وأكثر فظاعة. ولم أتجرأ بمثل هذا الاستهزاء أن أريه لها - فهزت كتفيها. لأن الفتاة كما الآخرين، لن تخاف أبداً من الشخص الذي يستهزئ بها فقط لأنها رفضته... أما النتيجة الوحيدة لهجومي الأخرق عليها، حينئذ في غرفتها، فكانَ أنْ أصبحت منذ ذلك الوقت متوجسةً مني وتجاهلتني - تجاهلت كما تستطيع تلميذة المدرسة المودرن فقط أن تتجاهل وأدركت تماماً كم كنت أحب مفاتنها المودرن. لذا زودت تلك المفاتن بقسوة طائر العقعق المحنك ولكن تجنبت بعناية

twitter @baghdad_library

أي دلال الذي كان يمكنه أن يجعلها معتمدة علي. وهكذا أصبحتْ، مجرد إرضاء نفسها، أكثر وحشية ووقاحة وجرأة وقسوة ورشاقة ورياضية وطويلة السيقان إلى درجة أنها تركت نفسها تقاد بمفاتنها المودرن. وكانت تجلس للعشاء، آه، ناضجة في عدم نضوجها وواثقة بنفسها ولامبالية ومستقلة بذاتها، بينما كنت أجلس أنا، لها، لها، لها جلست ولم أستطع ولا لثانية واحدة أن أفوت جلوسي لها، وكنت في داخلها، استوعبتني فيها بكل استهزائي، وكانت أذواقها وميولها أساسية بالنسبة لي وكان رضايَ من رضاها. يا له من عذاب - أن ألتصق كلية بتلميذة المدرسة المودرن. لم أتمكن أبداً حتى ولو لمرة واحدة من ضبطها بأقل تغير في طرازها المودرن، ولا أقل شرخ أستطيع من خلاله أن أتحرر، أن أهرب!

كان هذا بالضبط ما فتنني فيها - ذلك النضوج والاستقلال في شبابها، تلك الثقة في أسلوبها. بينما كنا نحن في المدرسة برؤوس سود لحبوبنا، كما ظهرتْ لنا بقعٌ مختلفة، ومُثلٌ عُليا، وكانت لدينا حركات خرقاء وعند كل خطوة ثمة خطأ شنيع - فإن «الأكستريور»[١] عندها كان بالغ الكمال بطريقة آسرة. لم يكن الشباب بالنسبة لها سنّا انتقالية - بالنسبة للمودرن شكل الشباب المرحلة المناسبة الوحيدة في حياة الإنسان - *احتقرت النضوج أو على الأصح، كان عدم النضوج نضوجاً بالنسبة لها* - استخفت باللحى والشوارب، والمربيات والأمهات مع الأطفال - وكان ذلك مصدر قوتها السحرية. لم يحتجْ شبابها إلى أية مُثُل

(١) كلمة فرنسية وتعني المظهر الخارجي.

عُليا لأنه كان مِثالاً أعلى بذاته. لا عجب وأنا معذب بالشباب المثالية، كنت متطعشاً إليه مثل تعطش عشّ الغراب إلى المطر. لكنها لم تردني!! ركبت لي دمامتي! وبمرور الأيام كانت تثبتها أكثر وأكثر.

يا الله - كيف كانت تعذب وجهي الجميل! آهٍ، لا أعرف قسوة أكثرَ من قسوة إنسانٍ يركّبُ لإنسان آخر الدمامة. كل شيء مسموح، طالما يدفع الآخر إلى السخرية والغرابة والتنكر لأن بشاعة شخص تغذي جمال الشحص الآخر، أه، صدقوني، تركيب البوبو لا يعدُّ شيئاً بالمقارنة إلى تركيب الدمامة! في النهاية، لم أعد أدري ماذا أفعل وبدأت أستغرق في أحلام اليقظة حول خطط وحشية أدمر فيها تلميذة المدرسة بدنيا. أن أشوّهَ قليلاً وجهها الصغير. أن أؤذي أنفها، أن أقطعها. لكن الدرس المستفاد من تجربة الكباس وسيفون هو أن العنف البدني لا يفيد كثيراً، لا، لا تخدم الأنف الروح، لا تتحرر الروح إلا بالتفوق الروحي. وماذا كان يمكن لروحي أن تفعل، إذا كانت محبوسة فيها، إذا كنت في داخلها، إذا حاصرتني تماماً. هل يمكنك أن تخرج من شخص عن طريق قوتك الذاتية فقط حين يكون هذا الشخص هو ملاذك الوحيد ولا مساعدة ولا علاقة لك بأي شيء، إلا من خلاله وأسلوبه يسيطرُ عليك بالكامل؟ لا، هذا غير وارد، مستحيل من خلال قوتك الذاتية. إلا إذا ساعدك شخص ثالث من الخارج، قدم لك طرف إصبعه على الأقل. ولكن من كان هناك ليساعدني؟ الكباس الذي لم يزر السيد والسيدة الغلامي (ما عدا مطبخهم سرّاً) ولم يشاركني أبدا في مغامراتي مع تلميذة المدرسة؟ السيد الغلامي أم السيدة الغلامي أم بيمكو - كلهم متحالفون مع تلميذة المدرسة؟ أم أخيراً، الخادمة المأجورة، المحرومة من الكلام؟ بينما أصبحت دمامتي أكثر وأكثر قبحاً

twitter @baghdad_library

وكلما كانت أقبح، عززت السيدة والآنسة من أسلوبهما المودرن، وركّبتا بذلك دمامة أكثر قبحاً على وجهي. أوه الأسلوب - أداة الطغيان! الإدانة! ولكن المتوحشتين أخطأتا في حساباتهما! لأنه حانت اللحظة بالصدفة بفضل السيد الغلامي(نعم، السيد الغلامي) ارتخت أغلال الأسلوب واستعدت قدرتي قليلاً. وحينئذ - انطلقت أهاجم بأقصى سرعة. هيا، هجوم، هجوم تغلب على الأسلوب، تغلب على جمال تلميذة المدرسة المودرن! الشيء الغريب - أني أدين بتحرري للمهندس لأنه، لولا المهندس، لبقيت محاصراً إلى الأبد، لقد تسبب دون أن يقصد في تحول صغير، حيث فجأة وجدت تلميذة المدرسة نفسها في داخلي وليس أنا في داخلها، نعم، سحب المهندس ابنته إلى داخلي وسأكون ممتنًا له حتى موتي. أتذكر كيف بدأ الأمر. أتذكر ذلك اليوم - أعود إلى البيت من المدرسة لتناول طعام الغداء والسيد والسيدة الغلامي يجلسان على المائدة وتأتي الخادمة بالحساء وتجلس تلميذة المدرسة أيضاً - تجلس على نحو ممتاز وببعض التربية البدنية البلشفية وترتدي حذاء رياضياً. لم تأكل الكثير من الحساء - لكنها شربت كوب ماء بارد وأكلت شريحة من الخبز بعدها، تجنبت الحساء، تلك العجينة المخففة بالماء والدافئة والطرية للغاية، كانت أكيد غير مفيدة لنوعها وربما أرادت أن تكون جائعة لأطول فترة ممكنة وعلى الأقل حتى وجبة اللحم لأن فتاة مودرن جائعة تكون أكثر أناقة من فتاة مودرن شبعانة. أيضاً السيدة الغلامي أكلت قليلاً من الحساء ولم تسألني كيف كانت المدرسة على الإطلاق. لماذا لم تسألني؟ لأنها لم تحترم تلك الأسئلة الأمومية وعموما الأم أثارت اشمئزازها قليلاً، إنها كرهت الأم. فضلت الأخت.

- تفضل، فيكتور، خذ الملح - قالت بنبرة الرفيقة الحقيقية

والمخلصة وقارئة ه.ج. ويلز[1] بينما أعطت الملح لزوجها، وأضافت بنظرتها المتوجهة جزئياً إلى المستقبل وجزئياً إلى الفضاء، بلهجة مثلت تمرد الكيان الإنساني الذي يحارب عار الأمراض الاجتماعية والظلم والأذى.

- عقوبة الإعدام عفا عليها الزمن.

عندئذ السيد الغلامي- ذلك الإنسان الأوروبي والمهندس والمخطط العمراني المستنير الذي درس في باريس وأتى من هناك بتلك النزعة الأوروبية، بلون داكن، وبملابس غير رسمية وحذائه من الشمواة الأصفر الجديد لفت الأنظار إليه بشدة ويرتدي ياقة بطريقة سلوفاتسكي ونظارات عاجية والداعي للسلام بنشاط والخالي من الأحكام المسبقة والمعجب بالعمل المنظم بالعلم، والنكات العلمية والحكايات القصيرة الطريفة ودعابات الكاباريهات - أخذ الملح وقال.

- شكرا لك، يوأنا.

ثم أضاف بصوت الداعي للسلام المستنير لكن بمسحة من صوت طلاب العلوم التطبيقية.

- في البرازيل يغرقون براميل الملح بأكملها في حين أننا ندفع هنا ستة قروش للجرام. يالهؤلاء السياسيين! نحن الخبراء. إعادة تنظيم العالم. عصبة الأمم.

وحينئذ تنفست السيدة الغلامي بعمق وقالت بعقلانية، بينما كانت

---

(١) هربرت جورج ويلز (Herbert George Wells, 1866-1946) - كاتب إنجليزي من مؤسسي أدب الخيال العلمي.

twitter @baghdad_library

تتخيل غدا أفضل ومنازل جيرومسكي[1] زجاجية ومشيرة إلى تقاليد نضال بولندا الأمس والسعي إلى بولندا الغد.

- زوتة، من كان ذلك الصبي الذي عاد معكِ اليوم من المدرسة؟ إذا لم تريدي أن تجاوبي، فلست مضطرة. تعلمين أنني لا أضايقك بأية وسيلة.

أكلت الآنسة الغلامي قطعة من الخبز بلامبالاة.

- لا أعرف - أجابت.

- لا تعرفين؟ - قالت أمها بلطف.

- هو بادرني بالكلام - قالت تلميذة المدرسة.

- بادر؟ - سأل السيد الغلامي.

كان سؤاله آلياً في الواقع. ولكنّ الحقيقة أن مجرد السؤال قد ضخّم الموضوع وخلق انطباعاً باستهجانِ أبوي من الطراز القديم. لذلك تدخلت السيدة الغلامي.

- وما هو الغريب في ذلك؟ - هتفت ولكن بصفاقة تبدو مبالغاً فيها.
- بادرها بالكلام - وإن يكن! دعوه يبادر! زوتة، وربما رتّبْتِ موعداً معه؟ ممتاز! ربما تريدين أن تمارسي معه رياضة الكياك - ليوم كامل؟ أو ربما تريدين أن تسافري في نهاية الأسبوع ولا تعودي في الليل؟ لا تعودي إذن - قالت على نحو كريم - اذهبي ولا تعودي! أو ربما تريدين أن تذهبي بدون مال، قد ترغبين أن يدفع لك أم تفضلين أن تدفعي له

(١) عنوان الجزء الأول من رواية «أوائل الربيع» للكاتب ستيفان جيرومسكي (Stefan Zeromski "Przedwiośnie" 1925) وهو عبارة عن يوتوبيا أو كلمات من السماء.

حتى يكون على نفقتك - في هذه الحالة سأعطيك بعض المال. ولكن بالتأكيد ستتدبران الأمر أفضل بدون المال، أليس كذلك؟ - هتفت بقوة بينما تقدمت بجسمها بالكامل. الصحيح أن حرم المهندس تجاوزت حد الاعتدال قليلاً ولكن الإبنة تفادت برشاقة المحتوم من جهة أمها التي حاولت بأقصى وضوح أن تعيش حياتها من خلال ابنتها.

- حسناً، حسناً، أمي - ضربت بكلامها عرض الحائط، بينما رفضت الحصة الثانية من كرات اللحم لأن اللحم المفروم لا يصلح لها - كان رقيقاً وطرياً بإفراط بالنسبة لها. كانت المودرن حذرة جدا تجاه والديها ولم تسمح لهما أبدا بالاقتراب منها أكثر مما ينبغي.

ولكن المهندس فهم الآن قصد زوجته وتعلق بخيطها. بما أن زوجته لمحتْ إلى استهجانه مبادرة الشاب لابنتهما بالكلام، فرغب أن يظهر معدنه بدوره. وهكذا تعلقا بخيوط بعضهما البعض بالتناوب. فصرخ.

- بالطبع، ليس هناك ضرر في ذلك! زوتة، إذا تريدين أن يكون لديك طفل غير شرعي، تفضلي! ما هو الضرر في ذلك؟! لقد انتهى تقديس العذرية! نحن المهندسين المخططين للواقع الاجتماعي الجديد نتنصل من تقديس القدماء البسطاء للعذرية!

شرب جرعة كبيرة من الماء وقطعَ كلامه حيث أدرك بأنه ربما تخطى الحد قليلاً. لكن آنذاك تعلقت السيدة الغلامي بخيطه وبدأت تشجع ابنتها بطريقة غير مباشرة ومقتضبة ليكون عندها طفل غير شرعي وعبرت عن ليبراليتها وتحدثت عن الأوضاع في أمريكا واقتبستْ من ليندسي[1]

---

(١) بينيامن بار ليندسي (Benjamin Barr Lindsey, 1869-1943) - قاضي محاكمة القُصَّر الأمريكي وناقد النفاق الاجتماعي في مسائل الجنس.

twitter @baghdad_library

وأكدت على السهولة الاستثنائية للشباب المعاصر في هذا الصدد، الخ، الخ... تحول هذا الموضوع إلى هواية محببة لهما. حين تركه أحدهما عندما يشعر أنه تخطى الحد بكثير، تعلق به الثاني وانطلق. وكان كل ذلك أمراً غريباً لأنه في الواقع، كما قلت، جميعهم لم يحبوا (بما في ذلك السيد الغلامي) فكرة الأم ولا الطفل. ولكن المفروض أن يكون مفهوماً أنهما تعلقا بهذه الفكرة لا من جهة الأم بل من جهة تلميذة المدرسة، ولا من جهة الطفل، بل من جهة غير الشرعي. وخصوصاً أن السيدة الغلامي أرادت أن تتقدم إلى طليعة التاريخ من خلال طفل ابنتها غير الشرعي وأرادت لهذا الطفل أنْ تحمل به مصادفة، بسهولة وجسارة ووقاحة، بين الشجيرات، أو أثناء رحلة رياضية مع رفيقها، كما هو موصوف في قصص الغرام المودرن الخ. بالإضافة إلى ذلك، مجرد الحديث عن ذلك وتشجيع تلميذة المدرسة من قبل والديها، كان كافياً لأن ينتج النكهة المرغوب فيها. وتماديا في ذلك إلى أبعد حد لأنهما أحسَّا بعدم قدرتي نحوها - حقاً، لم أستطع الدفاع حتى الآن عن نفسي ضد مفاتن صاحبة السبعة عشر عاماً بين الشجيرات.

لكنهما غفلا أن في ذلك اليوم لم أكن قادراً حتى على الغيرة. إنهما ركبا لي الدمامة طوال أسبوعين دون إنقطاع فأخيراً أصبح قبيحاً لدرجة أنني لم يتبقَ لدي شيء يمكنني أن أحسد عليه. اشتبهتُ بأن الصبي الذي كانت السيدة الغلامي تذكره، هو على الأرجح كوبريدا ولكن ماذا في ذلك، لا شيء إلا الأسى والحزن - حزن وبؤس - بؤس وتعب كبير، واستسلام. إذن بدلاً من أنْ أصوغ أفكاري ضمن طيف ألوان ما بين الأخضر والأزرق وجرأة وتجدبد، فقد فضلت أن أصوغها بطريقة بائسة. «حسناً، الطفل هو طفل» - فكرت بينما كنت أتخيل المخاض والمربية

والمرض وأكزيما الرضع وفوضى الأطفال وتكاليف المعيشة وذلك إن الطفل كان يتلف الفتاة من خلال دفئه الطفولي والحليب ويحولها سريعاً إلى ماما صغيرة مغفلة وحميمة. من ثم انحنيتُ نحو الآنسة الغلامي وقلت بطريقة بائسة كأنني أتحدث إليها عقلياً:

- ماما...

وقلتها بأقصى حزن وحنان وحميمية، حيث صببت في تلك الكلمة حميمية الأم الغثة بأكملها، والذي بسبب رؤيتهما القاسية والمتجددة والبناتية والشبابية للعالم لم يتمكنوا من أن يدركوا، لماذا قلت ذلك؟ هكذا، دون سبب. كانت الفتاة مثل أي فتاة، متذوقة للجمال في المقام الأول، كانت مهمتها الرئيسية الجمال وعندما ربطت نوعها بعبارة «ماما» الحميمة والعاطفية والعارية بعض الشيء، خلقت شيئاً قذرا بطريقة مقرفة وغير لائقة. وظننت أنها قد تفقد تماسكها نتيجة لذلك. نعم، كنت أعرف بأنها ستتفادى ذلك وستبقى القذارة من نصيبي مرة أخرى - لأن ذلك كان طريقة سير الأمور بيننا - إن أي شيء كنت أوجهه ضدها، سرعان ما كان يلتصق بي كما لو كنت أبصق في عكس إتجاه الريح.

ولكن ما هذا، أنظر، السيد الغلامي يقهقه!

لقد قهقه بشكل غير متوقع حتى لنفسه، من أعماق حنجرته، أمسك بمنديل وشعر بإحراج - ظل يقهقه بعينين جاحظتين واختنق وزأر في المنديل، بفظاعة وآلياً وعلى الرغم من إرادته. حتى اندهشت! ما الذي دغدغه في جهازه العصبي؟ ربما عبارة: «ماما»؟ ربما ضحك بسبب التناقض بين «فتاته» وكلمة «ماما»، ربط ذلك بين أشياء في ذهنه وربما بالكباريه أو ربما قاده صوتي الحزين والكئيب إلى الفناء الداخلي للجنس

twitter @baghdad_library

البشري. كان لديه هذه الصفة المشتركة لجميع المهندسين أنه كان قابلاً للغاية أن يتدغدغ من szmonces[١]، وبالتأكيد كان لمقولتي نكهة الـ szmonces الملحوظة. وقهقه أكثر كما استمتع من قبل بالحديث عن الطفل غير الشرعي. سقطت نظاراته من على أنفه.

- فيكتور - قالت السيدة الغلامي.

أما أنا فضغطتُ أكثر على البنزين:

- ماما، ماما...

- أنا آسف، أنا آسف - قهقه - أنا آسف، آسف... ولكن مجرد تصور ذلك! لا أستطيع! أنا آسف...

انكفأت الفتاة على طبقها وفجأة رأيت على نحو بدني تقريباً إن عبارتي قد لمستها من خلال قهقهة أبيها - إذن لمستُها، كانت ملموسة الآن - نعم، نعم، لم أكن مخطئاً، لقد غير الضحك الجانبي لأبيها الوضع وأخرجني من تلميذة المدرسة. استطعتُ أخيراً أن ألمسها! جلست ساكتة تماماً.

لاحظ والداها ذلك أيضاً وأسرعا لإنقاذها.

- أنا مندهشة يا فيكتور - قالت السيدة الغلامي باستياء - تعليقات عجوزنا الشاب ليست ظريفة بتاتاً. إنها ليست أكثر من تكلف!

كبح المهندس ضحكه أخيراً.

- هل تعتقدين أنني ضحكت من ذلك؟ أبداً، إنني حتى لم أسمع - لقد تذكرت شيئاً...

---

(١) نكتة من النكات اليهودية (بلغة الإيديش).

ولكن جهودهما دفعت تلميذة المدرسة إلى داخل الموقف أكثر. على الرغم من أنني لم أفهم جيداً ما يجري، كررت عدة مرات: «ماما، ماما» بنفس الطريقة الواهنة والبائسة ويبدو أن العبارة قد اكتسبت قوة جديدة من خلال التكرار لأن المهندس أطلق قهقة قصيرة من جديد، على نحو متقطع وبضحك متحشرج مكتوم. وبالتأكيد كان ضحكه يجعله يضحك أكثر - لأنه انفجر فجأة في الضحك بأعلى صوت، بينما كتم فمه بمنديل.

- رجاء لا تتدخل! - صاحت في وجهي السيدة الغلامي بغضب ولكن غضبها دفع إبنتها داخل الموقف أكثر، فهزت كتفيها في نهاية.

- دعيني في شأني، يا أمي - علقت بلا مبالاة على ما يبدو ولكن دفعها ذلك أيضاً. إنه أمر مدهش - الوضع تغير بينما بشكل راديكالي إلى درجة أن كل كلمة دفعتهم أكثر وأكثر. في الواقع كان كل ذلك لطيفاً. شعرت بأنني استعدتُ قدرتي تجاه تلميذة المدرسة. ولكن ذلك لم يعد يشكل فارقا بالنسبة لي. وشعرت بأنني استعدت قدرتي لأنني لم أعد أبالي، وحتى لو بطرفة عين استبدلت شعوري بالحزن والبؤس والكآبه واليأس بشعور الانتصار فسوف تزول قدرتي فوراً لأنها كانت هي في الواقع المقدرة الخارقة المنسوجة بإحكام في شباك عدم استطاعة صاحبة ناتجة عن صبر على الألم. وهكذا لكي أُثبت نفسي في بؤسي وأؤكد على لامبالاتي وكم كنت غير جدير بأي شيء، بدأت أعبث في الكومبوت ورميت داخله الفتات والبقايا وكرات من الخبز ومزجت ذلك بملعقتي. لا تزال دمامتي موجودة وماذا في ذلك، بالنسبة لي كان هذا شيئاً جيداً - أوه، اللعنة، لماذا يهمني ذلك - فكرت بوهن، بينما

twitter @baghdad_library

أضفت قليلاً من الملح والفلفل وخلات أسنان - آه، ليكن، سآكل كل شيء، طلما أنه في جميع الأحوال سيملأني، ليس هناك فرق... وبدا الأمر كما لو كنت مستلقياً في خندق، بينما ترفرف حولي الطيور... وشعرت بالدفء والراحة من خلال العبث بالكمبوت.

- حسناً يا حضرة... حسناً ياحضرة... لماذا تعبث، يا حضرة، في الكومبوت؟

سألت السيدة الغلامي برفق ولكن بعصبية. رفعت نظرتي الزائغة عن الكومبوت.

- أنا فقط... لا يهمني - همست بطريقة مقرفة ولزجة. وبدأت آكل العجينة؛ أما في الواقع فلم تؤثر العجينة في روحي على الإطلاق. من الصعب وصف الانطباع الذي أحدثه ذلك عند السيد والسيدة الغلامي، إنني لم أتوقع مثل هذا الانطباع القوي. قهقه المهندس عفوياً للمرة الثالثة، بضحكة كباريهاتية من طراز الفناء الداخلي وضحكة من الخلف. انكفأت الفتاة على طبقها وأكلت كومبوتها بصمت، بطريقة صحيحة ومتحفظة وحتى - ببطولةٍ. أما حرم المهندس فأصبحت شاحبة - وحدقتْ فيّ كما لو كانتْ مُنَوِّمةً مغناطيسياً، بعينين مشدوهتين وكان من الواضح أنها خائفة مني. كانت خائفة!

- إنه مجرد تكلف! تكلف! - تمتمت - رجاءً لا تأكلْ... أنا أمنعك! يا زوتة! يا فيكتور - يا زوتة! يا فيكتور! يا زوتة! يا زوتة! يا فيكتور - أوقفه، امْنَعهُ! أوه...

ما زلت آكل لأنه لماذا كان يجب علي ألا أفعل ذلك؟ - سوف آكل

كلَّ شيء، سآكل فأراً ميتاً، ليس هناك فرق - «أوه، يا كباس - فكرت - هذا جيد، جيد... هذا جيد... كان كله جيدا، غير مهم، أي شيء أملأ به دمامتي، كان كله جيداً، غير مهم...»

- يا زوتة! - صرخت السيدة الغلامي بصوت حاد. بالنسبة للأم كانت مشاهدة المعجب بابنتها يستهلك كل شيء أمامه، أمراً لا يطاق. ولكن عندئذ تلميذة المدرسة التي انتهتْ لتوها من كومبوتها، قامت من مكانها على المائدة وغادرت. لاحقتها السيدة الغلامي. غادر السيد الغلامي أيضاً، الغارق بقهقهات متشنجة وفم مكتوم بمنديل للأنف. ولم يكن معروفاً فيما إذا كانوا انتهوا من العشاء أو لاذوا بالفرار. لكنني عرفت بأنهم هربوا! أسرعت وراءهم! عا! هيا، إلى الأمام، هاجم، امسكْ، اضربْ، اتبعْ، طاردْ، تقدمْ اعتقلْ، إسحق، اخنقْ، اخنقْ، أزعجْ ولا تلِنْ! هل خافوا؟ خوفهم أكثر! هل هربوا؟ طاردهم إذن! كن هادئاً، برفق، برفق، برفق، مثل خاسر بائس، لا تتحول من خاسر إلى منتصر، لا تنسَ إن الخاسر هو الذي نصرك. انهما خشيا أن أملأ عقل فتاتهما كما ملأت الكومبوت. ها، الآن عرفت كيف أتعامل مع أسلوبها! واستطعت أن أملأ دماغها وعقلها بأي شيء أجده أمامي وأن أعبث به وأفرمه وأخلطه بكل ما في وسعي! ولكن هدّئ روعك...

من كان يمكن أن يصدق أن قهقهة السيد الغلامي السفلية ستعيد لي قدرتي على المقاومة؟ امتلكتْ أفعالي وأفكاري مخالب جديدة. لا، لم أفز بالمبارة بعد. ولكن كان يمكنني أن أعمل شيئاً على الأقل. عرفت أي خط عليّ أن أتبعه. أوضح لي الكومبوت كل شيء. تماماً كما

twitter @baghdad_library

أفسدت الكومبوت وحولته إلى عجينة مبللة، كان يمكنني أيضاً أن أدمر حداثة تلميذة المدرسة من خلال أن أدخل فيها عناصر غريبة عنها، غير متجانسة ومزج كل ما أجده. هيا هجوم، هجوم على الأسلوب المودرن، على جمال تلميذة المدرسة المودرن! لكن بهدوء، بهدوء..

الفصل التاسع

تلصص ومزيد من المغامرة في الحداثة

ذهبت هادئاً إلى غرفتي واستلقيتُ على الأريكة. كان يجب أن أجهز خطة عمل. ارتجفتُ وتصببتُ عَرَقاً عندما أدركت بأنني خلال تجوالي أنزلق من خلال سلسلة من الكوارث إلى أسفل الجحيم. لأن أي شيء لذيذ، لا يمكن أن يكون شنيعاً (كما تشير كلمة «لذيذ») فقط ما هو سيء الطعم يكون غير صالح للأكل حقاً. تذكرت بحسد تلك الجرائم الجميلة الرومانسية أو الكلاسيكية والاغتصابات وسمل العيون في الشعر والنثر - أعرف أن الزبدة بالمربى شنيعة، في مقابل الجرائم العظيمة والجميلة عند شكسبير. لا، لا تخبروني عن معاناتكم المقفاة التي نبتلعها بسلاسة كما نبتلع المحار، لا تخبروني عن حلوى العار وكريمة شوكولاته الرعب وكعكة البؤس الصغيرة ومصاصات المعاناة وحلويات اليأس. ولماذا سيدة مجتمع مثلها التي بأصابعها الشجاعة تخدش الأمراض الاجتماعية الدموية وموت أسرة من ستة أشخاص من الطبقة العاملة جوعاً، لماذا؟ أسأل، لن تجرؤ بنفس الإصبع أن تلعب في أذنها علانية. لأن ذلك سيكون أكثر فظاعة. الموت جوعاً أو في الحرب ووفاة مليون شخص، يمكن أن نأكل ذلك وحتى بتلذذ - ولكن لا تزال هناك في العالم تركيبات غير صالحة للأكل تجعلنا نتقيأ، تكون سيئة وغير

twitter @baghdad_library

منسجمة ومثيرة للاشمئزاز وبغيضة، آه، شيطانية بالفعل، يرفضها جسم الكائن الحي. وإن التذوق هو مهمتنا الأولى والرئيسية، ينبغي أن نتذوق، نتذوق، ولنترك الزوج والزوجة والأطفال يموتون وقلبك يتمزق إلى أشلاء، طالما الطعم لذيذ، نعم، لذيذ! حقاً، ما كنت على وشك أن أفعله بإسم النضوج وحتى أحرر نفسي من سحر تلميذة المدرسة، كان عملاً ضد الطهو وضد اللهاة بحيث يجعل المعدة تنفر منه.

مع ذلك لم أخدع نفسي - كان نجاحي على العشاء في الواقع وهمياً، لقد أثر في الأساس على الوالدين، هربت الفتاة بسلام وظلت بعيدة عن متناول يدي. كيف يمكن أن أشوه أسلوبها المودرن من على بعد؟ كيف أدفعها أخيراً إلى نطاق أنشطتي؟ ولكن بالإضافة إلى الابتعاد النفسي، كان هناك الابتعاد الجسدي أيضاً - كانت تلتقي بي فقط في أوقات الغداء والعشاء. كيف لي أن أشوهها، كيف أخترقها عقلياً من على بعد، أي عندما لم أكن معها، عندما تكون وحدها؟ «ربما - فكرت بائساً - من خلال التلصص والتنصت». وقد سهل السيد والسيدة الغلامي مهمتي قليلاً منذ اللحظة الأولى في مواجهتنا، فقد اعتبروني متنصتاً ومتلصصاً. «ومن يدري - فكرت بوهن وأمل - لو الصقت عيني إلى ثقب الباب، ربما أرى فوراً شيئاً بغيضاً فيها لأن الكثير من الجميلات يتصرفن وهن وحدهن في المنزل بطريقة منفرة للغاية». ولكن هناك مخاطرة أخرى أن بعض تلميذات المدارس، المتأثرات بمفاتنهن والخاضعات للأسلوب بانضباط، يحرصن على تصرفاتهن في السر كما في العلانية. لذلك، بدلا من القبح، كانت لدي فرصة مساوية أن أرى الجمال، الجمال الذي نراه في الوحدة يكون أكثر تدميرا. تذكرت كيف بعد أن دخلت الغرفة فجأة، ووجدت تلميذة المدرسة بقماشة التنظيف

عند ساقها، في وضعية أنيقة جداً - نعم، ولكن من ناحية أخرى، فإن مجرد حقيقة التلصص شوهتها واخترقتها، لأنه عندما نقوم بعمل شنيع مثل التلصص على الجمال، فإن جزءاً من نظراتنا يلقى بثقله على الجمال.

كنت أفكر بهذه الطريقة، كأنني محموم - وأخيراً نهضت متثاقلاً من الأريكة واتجهت إلى ثقب الباب. ولكن قبل أن ألصق نظرتي إلى الثقب، نظرت من النافذة - كان النهار جميلاً وصافياً وخريفياً - في الشارع المتألق بالخريف تسلل الكباس إلى مدخل المطبخ. كان على ما يبدو متجها إلى الخادمة. فوق سطح الفيلا المجاورة طار حمام في ضوء الشمس الساطع وتجمع في السرب وتردد دوي بوق سيارة من على بعد وداعبت مربيةُ أطفالٍ طفلاً على الرصيف وسبحت ألواح الزجاج في غروب الشمس. وقف أمام المنزل متسول عجوز وهزيل، رجل قوي البنية من هؤلاء الشيوخ الملتحين وكثيفي الشعر الذين يتسكعون عند أبواب الكنيسة. أعطاني الرجل الملتحي فكرة ما - خرجت بفتور وببطء إلى الشارع، حيث قطعت غصناً أخضرَ من ميدان قريب.

- يا جدو - قلت - هاك خمسون قرشاً، تفضل. سأعطيك زلوتياً واحداً في المساء، ولكن عليك أن تضع هذا الغصن في فمك وتبقى به هنا حتى حلول الليل.

وضع الرجل الملتحي الخُضرة في فكه. عدت إلى الشقة بينما سبحت بجمد المال الذي يكسب لنا الحلفاء. ألصقت عيني في الثقب. تحركت تلميذة المدرسة كما تتحرك أي فتاة كالمعتاد في غرفتها. تعدلت الأشياء في الأدراج، أخرجت دفتر - وضعته على الطاولة - رأيت

twitter @baghdad_library

وجهها من الجانب - وجه تلميذة المدرسة النموذجية التي تنظر من فوق دفتر.

تلصصت طويلاً ببؤس من الرابعة إلى السادسة (بينما ظلِ المتسول ممسكاً الغصن بفمه) وانتظرت بلا طائل أن تظهر أية أعراض للتوتر تكون قد نتجت من هزيمتها على الغداء، على سبيل المثال ان تعض شفتيها أو تقطب جبهتها. ولكن لا. كما لو أن شيئاً لم يتغيرّ. كما لو لم أكنْ موجوداً. كما لو أن لا شيء يزعج تلمذتها المدرسية أبدا. وبمرور الوقت أصبحت تلمذتها المدرسية هذه أكثر وأكثر برودة وقسوة، وغير مبالية ومنعزلة، وبدا الاحتمال بعيدا من أن أتمكن من تلويث تلميذة المدرسة التي تصرفت وهي وحدها بنفس الطريقة كما أمام الناس. كما لو أنه لم يحدث أي شيء على الغداء. في الساعة السادسة تقريباً فتح الباب فجأة وبخفَّة - وقفت حرم المهندس عند العتبة.

- هل تعملين؟ - سألت بارتياح وتأملت ابنتها بتفحص - هل تعملين؟

- أعملَ الواجب المنزلي للغة الألمانية - أجابت تلميذة المدرسة.

تنهدت الأم مرات عدَّة.

- تعملين - هذا أمر جيد. اعملي، اعملي.

ربتت على رأسها باطمئنان. هل توقعت هي أيضاً أن ابنتها قد تنهار؟ أعادت زوتة رأسها إلى الوراء بفارغ الصبر. أرادت الأم أن تقول شيئاً، فتحت فمها وأغلقته - منعت نفسها. ألقت حولها نظرة مفعمة بالشك.

- العمل! العمل! العمل! - استمرتْ تقول بعصبية - ابقي مشغولة - نشيطة. في المساء تسللي إلى المرقص - تسللي إلى المرقص - تسللي إلى المرقص. عودي في وقت متأخر ونامي نوماً عميقاً...

- لا تزعجيني يا ماما! - هتفت زوتة بصوت جاف - ليس لدي وقت!

نظرت الأم إليها بإعجاب مكتوم. طمأنتها صلابة تلميذة المدرسة تماماً. لقد أدركت بأن ابنتها لم تتداعَ أثناء الغداء. ولكن الحدة الوحشية لتلميذة المدرسة خنقت رقبتي. كانت حدتها الموجهة ضد نفسها بشكل مباشر، ولا شيء يؤلمنا أكثرَ من أن نرى محبوبتنا وهي حادة بطريقة لا ترحم ليس فقط في وجودنا، ولكن في غيابنا أيضاً، وكما لو، تعطي، مقدماً، درساً قاسياً لنفسها. علاوة على ذلك انطبعَ تفردها على وحشيتها البناتية بطريقة مؤلمة. بعد مغادرة السيدة الغلامي أحنتْ جانب وجهها على دفترها واستأنفتْ دروسها باكتفاءٍ ذاتي وبانعزالٍ وقسوة.

شعرت بأنه إذا سمحت للفتاة أن تكون متفردة وحدها، وإذا لم أستطع أن أؤسس علاقة بينها وبين تلصصي، فستأخذ الأمور اتجاهاً مأساوياً. بدلا من أن أشوهها بنفسي، كنت أستمتع بشخصها، بدلا من أن أخنقها من رقبتها، كانت تخنقني هي. ابتلعتُ لعابي بصوت عال من وراء الباب حتى تشعر بأنني أتلصص عليها. تفاجأت ولكنها لم تُدِرْ رأسها - كان ذلك دليلاً واضحاً على أنها سمعتني - فدفنت رأسها عميقا بين ذراعيها، كما لو كانت مصابة. ولكن مباشرة تلاشيت صورتها الجانبية من ذاتها، ثم فجأة وبشكل بارز فارق تفردها الحياة. قاتلت الفتاة ضدي لمدة طويلة بصورتها الجانبية المتلصص عليها بشدة وصمتٍ، وكان قتالها يعتمد على ألاّ يرمش لها جفن. استمرتْ بتحريك قلمها على الورق وتصرفت كما لو لم يكن هناك أحد يتلصص عليها.

ولكن، عجباً، بعد بضع دقائق بدأ ثقب المفتاح في الباب يحدق إليها من خلال نظرتي، يزعجها - لكي تعلن استقلاليتها وتؤكد على

twitter @baghdad_library

عدم اهتمامها، تنشقت بأنفها بصوت عال، تنشقت بطريقة منفرة وخشنة وكأنها أرادت أن تقول: «أنظر، لا يهمني ذلك بتاتا، يمكنني أن أتنشق». بهذه الطريقة تظهر الفتيات أقصى احتقارهنّ. وكان هذا بالضبط ما كنت أنتظر. حين ارتكبت خطأ تكتيكياً وتنشقت - فأنا تنشقت بأنفي أيضاً من وراء الباب بوضوح، ولكن ليس بصوت عال جداً، كما لو كنت لم أتمكن من التحكم فيها مصاباً بالعدوى من تنشقها. سكتت تماماً - دويتو فتحتى الأنف كان غير مقبول بالنسبة لها - لكن أنفها بعد أن أخذت وضع الحركة، بدأ يزعجها، وبعد صراع قصير اضطرتْ أن تُخرج منديلاً وتمخَّطت من أنفها، وشرعتْ على فترات متباعدة بالتنشق من أنفها بعصبية وبصورة غير ملحوظة، وقد حاكيتها أنا من وراء الباب المرة تلو الأخرى. هنأت نفسي على أنني نجحت في استخراجِ الأنف منها بتلك السهولة، كان أنف الفتاة أقل مودرن إلى أبعد الحدود من ساقيها، وأسهل في التغلب عليها. باستخراج أنفها والتأكيد عليه، تقدمت خطوة كبيرة إلى الأمام. لو استطعتُ فقط أن أصيب الآنسة الغلامي بزكام عصبي، لو تمكنتُ أن أزكم حداثتها.

لكنها لم تستطع بعد كل تلك التنشقات أن تقوم من مكانها وتغطي فتحة الباب بقطعة قماش - لأن ذلك سيكون بمثابة اعترافٍ بأنها تتنشق بسبب عصبيتها. أسكتْ، لنتنشق ببؤس ويأس، لنخفي أملنا! ولكني استخففتُ بمهاراتها وذكائها البنّاتي. فجأة، حركتْ يدها بحركة واسعة من الأذن إلى الأذن، ومسحت أنفها - بكامل ذراعها - وغيرت هذه الحركة الجريئة والرياضية والسريعة والمسلية الوضع لصالحها، وتَزَين التنشق بالجمال. خنقتني من رقبتي. في الوقت نفسه - تمكنت بشق

الأنفس من القفز بعيداً عن الثقب - بدهاء وبشكل غير متوقع دخلت غرفتي السيدة الغلامية.

- ماذا تفعل يا حضرة؟ - سألتْ بتشكك، عندما رأتني أتأرجح في وسط الغرفة - لماذا تقف هنا، يا حضرة؟ لماذا أنت واقف؟ لماذا لا تعمل، يا حضرة، واجباتك المدرسية؟ ألا تمارس، ياحضرة، أية رياضة؟ ينبغي أن تنشغل بشيء - صرخت بشدة. كانت خائفة على ابنتها. تشممتُ رائحة مكيدة غامضة ضد ابنتها بسبب وقوفي المتأرجح في وسط الغرفة. لم أقم بأي حركة لأوضح الموقف وظللت واقفا في الوسط بلامبالة وببلادة، وكأنه تم شد فراملي، حتى استدارتْ السيدة الغلامي جانباً.

وقع نظرها على متسول أمام البيت.

- ماذا... لديه؟ لماذا عنده غصن... في فمه؟

- مَنْ؟

- المتسول. ما معنى ذلك؟

- لا أعرف. لقد حشره هكذا وأمسك به.

- إنك تحدثت معه يا حضرة. رأيتك من خلال النافذة.

- نعم، تحدثت إليه.

فتشت بعينها على وجهي بتفحص. تأرجحت بتشكك مثل البندول. اشتبهت بأن الغصن يحمل معنى خفياً وعدائياً وخبيثاً لابنتها. ولكنها لم تكن عندها فكرة عن التوليفات التي في عقلي ولم يكن بإمكانها أن تعرف أن الغصن في الفم أصبح بالنسبة لي صفة مميزة للحداثة. اشتباهها بأنني أمرت الرجل الملتحي أن يمسك الخضرة في فمه كان

twitter @baghdad_library

غير معقول إلى درجة لا توصف بالكلمات. نظرت إلى عقلي بتشكك بينما ظننت أنها سقطت ضحية نزوة وخرجت. هيا هاجمْ! اضربْ! إمسك! تقدمْ وطاردْ! أسيرة خيالي! ضحية نزوتي! اسْكتْ، اسْكتْ! قفزت إلى ثقب الباب من جديد. مع تقدم الأحداث كان أصعب وأصعب بالنسبة لي أن أحتفظ بوضعيتي الأصلية، البائسة واليائسة - حمّسَني القتال وبدأ خبث القرود يتغلب على التعب الشديد والاستسلام. اختفتْ تلميذة المدرسة. بعد أن سمعت أصوات من وراء الجدار، أدركت بأنني لم أعد أنظر، وكان هذا ما مكنها من الخروج من الفخ. ذهبت إلى وسط المدينة. هل ستلاحظ الغصنَ في وجه المتسول وستخمن لحساب من يحمل الرجل الملتحي الغصن؟ حتى إذا لم تخمن - الغصين في فم الرجل الملتحي - المرارة اللاذعة، والخضار في فمه - فإنه سيضعفها، لأن ذلك كان يتعارض بقوة مع مفهومها عن العالم المودرن. خيم الظلام. أغرقت الفوانيس المدينة في لون بنفسجي. عاد ابنُ البواب من الدكان. فقدت الأشجار أوراقها في الهواء النقي الشفاف. أزت طائرة صغيرة فوق البيوت. ضرب الباب الأمامي معلنا خروج السيدة الغلامي. ذهبت حرم المهندس، القلقة والمضطربة وهي تشعر بأن شيئاً مريباً في الأجواء، إلى جلسة اللجنة حتى تنهل من شيء ناضج وعالمي ومتمدن على سبيل الحماية.

رئيسة الجلسة

السيدات العزيزات، على جدول الأعمال لدينا اليوم آفة الرُضّع اللقطاء.

حرم المهندس

من أين نحصل على التمويل اللازم؟

خيم الظلام وبقي المتسول أمام النافذة بالغصن الأخضر، مثل نغمة النشاز. بقيت وحدي في المنزل.

بدأ ينشأ وضع من طراز شيرلوك هولمز في الغرف الفارغة وتطور إلى شيء من النوع البوليسي، حيث كنتُ واقفاً في شبه العتمة أبحث عن استمرارية لهذه المغامرة السعيدة. وحيث أنهن هربن، فقد قررت أن أفتش في غرفهن، ربما سأنجح في الوصول إليهن من خلال نسماتهن المتبقية في المكان. غرفة النوم للسيد والسيدة الغلامي- مشمسة وضيقة ونظيفة واقتصادية - سادت رائحة الصابون وروب الحمام، حميمية المثقفين، المودرن والمنظمة، وفي نفس الوقت تفوح برائحة مِبْرَدِ الأظافر ودفّاية الغاز والبيجامة.

وقفت في وسط الغرفة وقتاً طويلاً وأنا أستنشق الروائح في الجو وأفحص عناصرها، بحثاً عن شيء مثير للاشمئزاز يمكنني أن ألوث به كل شيء؟

ظاهرياً، كلّ شيء كان على ما يرام. النظافة والنظام والشمس والتوفير والبساطة - أما عبير مستحضرات التجميل فكان حتى أفضل مما كان في غرف النوم من الطراز القديم. ولم أعرف إلى ماذا تنسب حقيقة أن روب الحمام للمثقفين المودرن وبيجامته واسفنجته وكريم الحلاقة ونعله وعلب فيشي الخاصة بزوجته وجهازها الرياضي المطاطي والستارة الصفراء الزاهية الصغيرة عند النافذة المودرن، أوحت بشيء مقرف. أهو التوحيد المعياري؟ أم التمسك بالتقاليد البالية؟ أم رجعية برجوازية؟ لا، إنه ليس هذا - ماذا إذن؟ وقفت هناك غير قادرٍ على أن أكتشف تركيبة الاشمئزاز، لم تكن هناك كلمة ولا إيماءة أو فعل يمكنني من خلالها أن ألتقط الاشمئزاز غير الملموس وآخذه لنفسي - حينئذ وقع نظري على

twitter @baghdad_library

كتاب مفتوح على الطاولة الصغيرة بجانب السرير. كانت مذكرات شابلن مفتوحة على الصفحة التي يروي فيها كيف رقص ويلز أمامه رقصة منفردةً من تصميمه. «ثم ه.ج. ويلز يرقص بروعة رقصة ممتازة». ساعدني رقص الكاتب الإنجليزي المنفرد على أن ألتقط الاشمئزاز كما لو كان على صنارة الصيد. ها هو التعليق المناسب! كانت هذه الغرفة هي ويلز نفسه يرقص منفردا أمام شابلن. لأنه ماذا كان ويلز في رقصته؟ - طوباويا. اعتقدَ ذلك الرجل العجوز المودرن أنّ من حقه أن يعبر عن فرحه ويرقص، وأصر على حقه في البهجة والتناغم... كان يتبختر برؤيته للعالم كما سيكون بعد آلاف السنين، تبختر منفرداً، متجاوزاً زمانه وكان يرقص بطريقة نظرية، لأنه كان يعتقد أن لديه الحق في ذلك... وماذا كانت غرفة النوم هذه؟ - يوتوبيا. أين المكان فيها، لكل تلك التنهدات والتأوهات التي يصدرها الإنسان في نومه؟ أين المكان لبدانة نصفه الحلو؟ أين المكان للحيةِ السيد الغلامي المحلوقة في الواقع ولكن الموجودة in potentia[1] على أية حال كان المهندس ملتحياً، على الرغم من أنه كان يتخلص من لحيته كل يوم في الحوض باستخدام كريم الحلاقة، وكانت الغرفة «حليقة». قديماً، كانت الغابة بأنينها غرفةً نومٍ للبشر، ولكن أين كان المكان للأنين والظلام وسواد الغابة في هذه الغرفة المشمسة بين تلك المناشف؟ كم كانت بخيلة هذه النظافة - وضيقة - فاتحة الزرقة وغير متفاوقة مع لون الأرض والإنسان. وبدا لي السيد المهندس وحرمه مُرعبين في هذه الغرفة، كما ويلز في رقصته التي صممها أمام شابلن.

ولكن لم يكن إلا حين تركت نفسي إلى الرقص المنفرد - فقط في

(١) بالقوة القادرة أو الإمكانيات (اللاتينية).

ذلك الحين اكتستْ أفكاري لحماً وأصبحت فعلاً، تسخر بقوة من كل شيء حولي وتستخرج منه طعماً مرّاً. رقصتُ - وتَبَخْتُري بدون شريك في الفراغ والصمت انتفخَ بجنون حتى أفقدني الشجاعة. عندما انتهيتُ من الرقص حول مناشف السيد والسيدة الغلامي وبيجاماتهم والكريم والأسرة وأجهزة الرياضة، انسحبتُ بسرعة وأغلقت الباب خلفي. ملأت جوانب منزلهم المودرن بالرقص! ولكن تقدم، إلى أمام، الآن غرفة تلميذة المدرسة، والآن سأرقص وسأفسد كل شيء فيها!

لكن غرفة الآنسة الغلامي، وعلى الأصح، الصالة حيث نامت واستذكرتْ دروسها، كانت أصعب بكثير لكي أحوّلها إلى شيء اشمئزازي. مجرد حقيقةُ أن الفتاة لم تمتلك غرفتها الخاصة بها بحيث نامت في زاوية الصالة فحسب، أعطت معاني مذهلة ومُسكِرة. كان في ذلك سرعة زوال قرننا العظيم وحياة الترحال لتلميذة المدرسة وشيء مثل - carpe diem (اغتنمِ اليومَ)، والذي ارتبطَ من خلال الممرات السرية بطبيعة الشباب المعاصر الأنيق، على غرار السيارات. كان من المفترض أنها تنام مباشرة بعد أن تضع رأسها الصغيرة (ليست رأس - كان لديهن عيون - ولكن ما يزال لديهن رؤوس صغيرة) على وسادتها، وذلك بدوره انعكسَ على فكرة سرعة وتيرة حياة المعاصرة. وعلاوة على ذلك عدم وجود غرفة نوم بالمعنى الدقيق منعني من إجراء نفس العمل كما في غرفة نوم السيد الغلامي وحرمه. في واقع الأمر نامت تلميذة المدرسة ليس على انفراد بل في العلن، لم تكن لها حياة ليلية خاصة وربطتها تلك الحياة العلنية القاسية بأوروبا وأمريكا وهتلر وموسّوليني وستالين، ومعسكرات العمل وبالراية والفندق ومحطة القطارات ليعطيها كل ذلك إطاراً واسعاً للغاية ألغى احتياجها إلى مكان

twitter @baghdad_library

خاص بها. غطاء السرير المخبأ في الأريكة السريرية، كان لديه دور مساعد وكان يمكنه أن يكون على أقصى تقدير شيئاً ثانوياً للنوم. لم يكن هناك ما يسمى منضدة للزينة. رأت تلميذة المدرسة وجهها في مرآة الجدار. لم يكن لديها مرآة يد. على جانب الأريكة كانت هناك طاولة صغيرة، سوداء، على طراز تلميذات المدارس وعليها كتب ودفاتر. على الدفاتر مبرد أظافر وعلى النافذة - مدية جيب وقلم رخيص بستة زلوتي وتفاحة وبرنامج رياضة وصورة لِفْريد أستير، وجنجر روجرز، وعلبة سجائر بنكهة الأفيون وفرشاة أسنان وفردة حذاءِ تنسٍ فيها زهرة قرنفل، متروكة بإهمال. وكان هذا كل شيء. كم كان هذا متواضعاً وفي نفس الوقت قوياً!

توقفت في صمت عند القرنفلة - لم يسعني إلا أن أعجب بتلميذة المدرسة! يا للمهارة! ضربت عصفورين بحجر واحد من خلال ترك الزهرة في الحذاء - لقد تَبَلَت الحب بالرياضة وبَهّرَت الرياضة بالحب! تركت الزهرة في حذاء التنس المعْرَقّ وليس في الحذاء العادي لأنها عرفت أن الزهور لا يضرها إلا العرق الرياضي. من خلال الربط بين العرق الرياضي والزهرة، فَرَضَت موقفاً نفسياً إيجابياً تجاه عرقها عموماً، أضافت إليه شيئاً زهرياً ورياضياً. أوه، يا لها من فتاة بارعة! بينما الفتيات من الطراز القديم، الساذجات والعاديات، كن يزرعن الورود في القصاري، فإنها تترك الزهرة في الحذاء، الحذاء الرياضي! و - أوه، يا لها من وغدة - بالتأكيد فعلت ذلك بلاوعي، سهوا!

وكنت أتساءل في نفسي ماذا يجب علي أن أقوم به مع هذا اللغز! هل يجب علي أن أرمي الزهرة في الحوض؟ أم أن أدسها بين فكي المتسول الملتحي؟ ولكن لم تكن تلك العلاجات الميكانيكية والصناعية

إلا لتجنب الصعوبات، لا، كان ينبغي علي أن أتلف الزهرة في مكانها حيث كانت موجودة، وليس باستخدام العنف البدني بل الذهني. استمرّ الرجل الملتحي بالغصن الأخضر بين كثافة لحيته تحت النافذة واقفاً بإخلاص وتفانٍ، وطنّتْ ذبابة على زجاج النافذة ووصلتْ من المطبخ همهماتُ الخادمة الرتيبة عندما كان الكباس يحاول أن يقْنعها بأن تكون عاملة مزرعة وكان الترام يصدر من بعيد أصواتاً متواصلة وحادة عند منعطف في الخط - كنت واقفاً بين هذه التوترات بإبتسامة المتشككة - طنّتِ الذبابة بأعلى صوت. قبضت على الذبابة ونزعت ساقيها وجناحيها وحولتها إلى كرة معذبة ومتألمة ومخيفة وميتافيزيقية، غير مستديرة تماماً، ولكن غائرة بالتأكيد وأضفتها إلى جانب الزهرة ووضعت الإثنين داخل الحذاء بهدوء. العرق الذي ظهر بهذه المناسبة على جبهتي، بدا إنه في هذه اللحظة أقوى من عرق حذاء التنس ذي الزهرة! كما لو كنت أطلقت عنان الشيطان ضد الفتاة المودرن! الذبابة من خلال معاناتها اللامبالية والصامتة، أبطلت الحذاء والزهرة، والتفاحة والسجائر وجميع ممتلكات تلميذة المدرسة بأكملها، بينما أنا كنت واقفاً بابتسامتي الشيطانية الصغيرة، أستمع إلى ما يحدث الآن في داخل الغرفة وفي داخلي وأدرس الأجواء، كرجل مجنون مثل حبة فول انقسمتْ إلى نصفين - وكنت أفكر أنه ليس فقط الصبية الصغار يغرقون القطط ويعذبون الطيور ولكن الصبية الكبار يعذبون، كذلك، في بعض الأحيان، لمجرد ألا يصبحوا صبية تلميذات المدارس ومن أجل أن يتغلبوا على تلميذة المدرسة الخاصة بكل منهم، نعم، تلميذة المدرسة! أليس لهذا السبب تعذب تروتسكي؟ أو توركيمادا؟ على أي شيء اعتمدتْ طبيعة تلميذة المدرسة لتوركيمادا؟ بهدوء، بهدوء.

twitter @baghdad_library

كان الرجل الملتحي المزين بالخضرة، واقفاً في موقعه المحدد - عانت الذبابة بصمت في الحذاء الصيني والبيزنطي حالياً - كانت رقصتي ما زالت مستمرة في غرفة النوم للسيد الغلامي وحرمه - لقد بدأت الآن أفتش في ممتلكات المودرن بدقة. وصلت إلى الخزانة المثبتة في الجدار، حيث وضعت ملابسها الداخلية، ولكنّ ملابسها الداخلية خيبتْ آمالي. سراويلها الداخلية المودرن كانت مجرد سراويل داخلية - لم تكن تفسد الفتاة، فقدوا صفاتهم الأليفة السابقة والآن أصبحوا أكثر شبهاً بسراويل بحارة الصاري. في حين أن في الدرج الذي تحايلت على فتحه بسكين توجدُ - أكوام من الرسائل، رسائل تلميذة المدرسة الغرامية! اندفعتُ فيها، بينما الرجل الملتحي والذبابة والرقص لا يزالون يعملون بشكل مستمر.

أوه، يا لِبانديمونيوم[1] تلميذةِ المدرسة المودرن! يا لها من محتويات في داخل هذا الدرج! فقط في تلك اللحظة أدركت أية أسرار مروعة تحكمت في تلميذات المدارس المعاصرات وماذا سيحدث إذا أرادت إحداهن أن تكشف تلك الأسرار الموكلة لها. ولكن كل شيء يغرق في أولئك الفتيات مثل حجرٍ يرمى في الماء، إنهن جذابات وجميلات إلى درجة أنهن لن يحكين... أما هؤلاء اللاتي لا يعيقهن الجمال، فلا يتلقين مثل هذه الرسائل... إنه لشيءٌ رائعٌ أنْ يكونَ فقط بإمكان أولئك المعاقات بالجمال الوصول إلى بعض مكنونات البشر النفسية. أوه، الفتاة، وعاء العار المقفل بالجمال! هنا، إلى ذلك المعبد، حمل الإنسانُ سواء أكان شاباً أو عجوزاً الأمور المهمة التي

(١) جهنّم، الفوضى.

يفضل أن يموت ثلاث مرات، وأن يتحمص على نار هادئة على أن تنشر علانية... وملامحُ القرن - ملامحُ القرن العشرين، قرن ارتباك القرون، نظر خلسة وعلى نحو مُلْتَوٍ مثل سيلنوس من داخل أجمة...

كانت هناك، من بين أمور أخرى، رسائل غرامية من تلاميذ في المدرسة، سخيفة وسيئة، ومزعجة ومُسخطة وخرقاء وصبيانية وبائسة ومخجلة ومربكة إلى درجة لم يسبق للتاريخ أن شهدها - ليست قديمة وليست من القرون الوسطى. وإذا قرأ ذلك شخص في نفس سنهم من آشور أو بابل أو اليونان أو من بولندا القرون الوسطى، أو حتى المسكين العادي من زمان زيغمونت أوغُسْت[١]، فسيستحي بالتأكيد وربما ضربهم بعنف. أوه، يا لها من نغمات متنافرة تلك التي أصدروها! الأكاذيب تنهش أغاني حبهم! كما لو أن الـ«طبيعة» نفسها في إزدرائها اللامحدود للحمقى المنتفخين البائسين قد أسكتتهم أمام الفتاة، ولم تسمح بتناسل هذا الجنس من طلبة العلم. فقط الرسائل التي تعبر عن أي شيء بسبب الخوف، كانت محتملة: «زوتة مع مريم وأوليك إلى ملعب التنس، غداً، كلّميني، إمضاء هانيك» - هؤلاء فقط لم يكونوا مهينين... لقد وجدت رسالتين لكلٍّ من ميزو وهوبا، محتواها سوقي وخشن الشكل وتتطلع إلى مظاهر النضوج من خلال عجرفة مفرطة. كانوا يتوافدون مثل الفراشات إلى اللهب، وهم مدركون أنهم سيحترقون...

ولكن رسائل طلاب الجامعات لم تكن أقل جبناً، ولكنها كانت تخفي الخوف فيها بطريقة أكثر براعة. كان واضحاً، كم كانوا يعانون ويخشون حينما يمسكون الورقة والقلم، كم كانوا متنبهين وهم يزنون

---

(١) (Zygmunt II August, 1520-1572) – الملك البولندي.

twitter @baghdad_library

كلماتهم حتى لا يتدحرجوا على لوح خشبي مباشرة إلى عدم نضوجهم، إلى سمانات سيقانهم. وبالتالي فلم أجد أي ذكر عن سمانات السيقان على الإطلاق، بدلا من ذلك كان يوجد عدد كبير منها عن العواطف والشؤون العامة والقضايا الاجتماعية وعن اكتساب المعاشات ولعبة البريدج وسباق الخيل، وحتى عن تغيير النظام السياسي للدولة. بالأخص السياسيين، هؤلاء الصاخبين في «الحياة الأكاديمية»، كانوا يخفون سمانات سيقانهم بأقصى مهارة وعناية، مع ذلك كانوا يرسلون لتلميذة المدرسة جميع برامجهم ودعاواهم وتصريحاتهم الإيديولوجية. «العزيزة زوتة، ربما أحببتِ أن تتعرفي على برنامجنا» - كتبوا ولكن برامجهم أيضاً لم تذكر بشكل واضح سمانات السيقان، إلا إذا حدث lapsus linguae(١) أحياناً، فعلى سبيل المثال، بدلاً من أن يكتبوا «خارج السياق» كتبوا «خارج السيقان.» وكذلك بعض مواطني مدينة «سيكان» في تصريحاتهم أخطأوا وكتبوا «نحن السيقانيين» بدلاً من: «نحن السيكانيين». ما عدا الحالات المذكورة أعلاه لم تظهر سمانات السيقان ولو مرة واحدة. وأيضاً في المجلات التي كانت تعتبر مبتذلة بعض الشيء، وبمساعدة العمات العجوزات حاولن كتابة مقالات للصحافة في موضوع «عصر فرق الجاز»، حاولنَ إقامة علاقة روحية مع تلميذة المدرسة وتقييدها في منحدر السقوط، السمانات كانت مموهة على نحو كامل. عند قراءتها كانت تترك الانطباع بأن سمانات السيقان لا دخل لها بالموضوع.

وبعدئذ - ثمة أكوام كاملة من المجموعات الشعرية الصغيرة الثانوية

---

(١) زلة اللسان (اللاتينية).

الشائعة اليوم، لا تقل عن ثلاثمائة أو أربعمائة مبعثرة في قاع الدرجِ، وفي الواقع - يجب أن نعترف - أنها غير مفتوحة ولم تُقرأ بعد من قبل تلميذة المدرسة. تحمل إهداءاتٍ بلهجة شخصية ومستقيمة وصادقة ومخلصة، التي نصحت الفتاة بإصرار أن تقرأ قصائدهم، أجبرتها على قراءتهم، استهجنتها من خلال تعبيرات في منتهى الإتقان والتهديد فى حالة عدم القراءة، بينما مجدت فيها وأطرتها عند قراءتها وهددتها بالاستبعاد من المجتمع الثقافي في حالة عدم القراءة وطالبت الفتاة بأن تقرأها من أجل وحدة الشاعر وعمل الشاعر ومهمة الشاعر ودور الشاعر ومعاناة الشاعر وأصالة الشاعر ودعوة الشاعر وروح الشاعر. الغريب في ذلك، لم يرِدْ هنا أيضاً ذكرُ سمانات السيقان بوضوح. والأغرب أنه لم يكنْ هناك أي أثر لسمانات السيقان في عناوين المجموعات. لا شيء إلا «فجر باهت»، و«فجر مشرق»، و«فجر جديد»، و«إشراق جديد»، و«عصر الصراع»، و«صراع في العصر»، و«العصر الصعب»، و«العصر الشاب»، و«الشباب الحارس»، و«حراسة الشباب»، و«الشباب المناضل»، و«الشباب المتقدم»، و«الشباب الثابت»، و«مرحباً يا شباب»، و«مرارة الشباب»، و«عيون الشباب»، و«أفواه الشباب»، و«الربيع الشاب»، و«ربيعي أنا»، و«الربيع وأنا»، و«إيقاعات الربيع»، و«إيقاع المدفع الرشاش»، و«نيران التحية العسكرية»، و«السيمافورات»، و«الهوائيات»، و«المراوح»، و«قبلتي»، و«أحضاني»، و«أشواقي»، و«عيوني»، و«فمي» (ولا ذرة عن سمانات السيقان) وكلها مكتوبة بطريقة شعرية بكلام مقفى بارع أو بغير كلام مقفى بارع وباستعارات جريئة أو لحن للكلمات غير ظاهري. ولكن لا توجد سمانات السيقان في أي مكان تقريباً، قليلة جداً، قليلة على نحو غير متناسب. المؤلفون

twitter @baghdad_library

بمهارة وبراعة شعرية عظيمة اختبأوا وراء الـ«جمال» والـ«حرفية» و«منطق العمل الداخلي» و«تناغم الإرتباطات الحديدي» أو وراء «الوعي الطبقي والكفاح» و«فجر التاريخ» ووراء الشؤون الموضوعية الأخرى المضادة لسمانة الساق. ولكن كان واضحاً وجلياً منذ البداية أن هذه القصائد الصغيرة في فنها الملتوي والمغتصب والعقيم لأي شخص، ليست سوى شفرة معقدة وينبغي أن يكون هناك سبب آخر فعلي وغير تافه، يجعل العديد من هؤلاء الحالمين شديدي الهزال والثانويين إلى تنظيم مثل هذه الفوازير الغريبة. من ثم وبعد فترة تأمل عميق، تمكنت من تحويل مضمون الفقرة التالية إلى لغة مفهومة:

القصيدة

تنفجر الآفاق مثل القوارير

تتضخم البقعة الخضراء في أعلى الغيوم

أنتقل من جديد إلى ظلال أشجار الصنوبر -

من هناك:

أشرب بجشع

من ربيعي اليومي

ترجمتي

سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان

سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان

سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان -

سمانة الساق:

سمانة الساق، سمانة الساق، سمانة الساق

سمانات السيقان، سمانات السيقان، سمانات السيقان.

وبعدئذ - وهنا بدأ بانديمونيوم تلميذة المدرسة الحقيقي - كانت وراء تلك الرسائل أكوام من الرسائل السرية من القضاة والمحامين ومدّعي العموم والصيادلة والتجار وأعيان المدن وأعيان الريف والأطباء، الخ - هؤلاء الرائعون والعظماء الذين أعجبت بهم دائما! اندهشتُ بينما الذبابة لا تزال تعاني في صمت. إذن، فإنهم أيضاً، على الرغم من المظاهر، اختلطوا بتلميذة المدرسة؟ - «شيء لا يصدق - كررت - شيء لا يصدق»! وإذن، هل كانوا مقموعين بنضوجهم حتى إنهم يرسلون رسائل طويلة بدون علم زوجاتهم وأطفالهم إلى تلميذة المدرسة المودرن من الفصل السادس؟ وهنا، بطبيعة الحال، كان ذكر السمانات أقلَّ وضوحاً، على العكس من ذلك، كل منهم شرح أسبابه تفصيلياً التي دعته لـ«تبادل الأفكار» وأنه شعر أن «الآنسة زوتة» ستفهمه ولن تسيء الفهم وإلخ. وبعد ذلك استمروا في إجلال المودرن من خلال كلمات حلزونية لائقة بالعبيد ويتوسلون إليها بين السطور، حتى تتكرم عليهم وتحلم بهم، سرّاً بالتأكيد. وجميعهم، بدون أن يذكروا ولو لمرة واحدة سمانات السيقان، كانوا يؤكدون ويبرزون بصبيانيتهم المودرن كلما كان في وسعهم.

المدعي العام:

على الرغم من أنني أرتدي عباءتي، ولكني فعلاً لست أكثر من غلام

twitter @baghdad_library

للمراسيل. أنا مطيع. أفعل ما يقال لي. ليس لي آراء خاصة. يجوز لرئيس المحكمة أن يوبخني. لقد ناداني بأخرق مؤخراً

أكد السياسي:

أنا صبي، صبي سياسي فحسب، صبي صانع للتاريخ

ضابط متطوع بروح استثنائية حساسة وغنائية كتب على النحو التالي:

أنا ملتزم بالطاعة العمياء. يجب أن أضحي بحياتي عندما أؤمر بذلك. أنا عبد. في الواقع - يُسَمّينا قادتنا دائماً - «أولاداً»، بغض النظر عن العمر. لا تصدقى شهادة ميلادي، هذه مجرد تفصيلة هامشية، زوجتي وأطفالي ملاحق فقط، لست فارس أحلام ولكني صبي عسكري بروح صبيانية مخلصة وعمياء، وفي الثكنات أنا مجرد كلب، كلب!

مالك أراضي:

لقد أفلست، تعمل زوجتي في تنظيف البيوت وأطفالي تشردوا وأنا - لم أعد مالكاً، ولكني صبي مطرود. أشعر بمنتهى السعادة السرية

مع ذلك لم تذكر سمانات السيقان en toutes lettres في أي مكان. توسلوا في حاشيات الرسائل لتلميذة المدرسة أن تكتم سرهم، مشيرين إلى أن مستقبلهم المهني سيدمر بالكامل وإلى الأبد، إذا تسربت ولو حتى كلمة واحدة إلى العلن.

هذا «لك» فقط. احتفظي به لنفسك. لا تخبري أي شخص!

غير معقول! لقد جعلتني الرسائل أدرك مدى قوة تلميذة المدرسة المودرن. في أي مكان لم تكنْ هي حاضرة؟ في داخل رأس أي منهم لم تكمن سماناتا ساقيها؟ تحت تأثير تلك الأفكار اهتزتْ ساقي بنفسها

ووددت أن أرقص تكريماً لهؤلاء الأولاد المتقدمين من القرن العشرين الذين خضعوا إلى التدريب والتدافع والتحريض والتمرين تحت تهديد السوط، حين ذلك لاحظت فجأة في الجزء السفلي من الدرج غلافاً كبيراً موجهاً من إدارة مفتشي التعليم بخط يد بيمكو بكل تأكيد! كانت رسالة جافة.

لن أستمر - كتب بيمكو - في تحمل الإهمال والجهل الفاضح تجاه الأمور الخاصة بالبرنامج الدراسي.

أدعوكى للحضور إلى مكتبي - في إدارة مفتشي التعليم، بعد الغد، يوم الجمعة، في الساعة ٤,٣٠ بهدف تفسير ومحاضرة وتعليم نورفيد لك وكذلك ملء الفجوة في تعليمك.

رجاء ملاحظة أنني أدعوك بصورة قانونية ورسمية وبكل الشكليات والآداب المطلوبة، كأستاذ ومربي، وفي حالة المقاومة من جانبك، سأكتب رسالة إلى مديرتك بطلب رفضك من المدرسة.

وأود أن أؤكد أنني لم أعد أتحمل الفجوة المذكورة، وبصفتي أستاذك لدي الحق لعدم تحملها. يرجى الالتزام.

ت. بيمكو، الدكتور والأستاذ، دكتوراه فخرية.

وارسو

إذن إلى هذا الحد تطورت الأمور بينهما؟ كان يهددها، أليس كذلك؟ بصراحة؟ استمرتْ طويلاً تتودد إليه بجهلها، حتى أظهر الخوجة مخالبه. بما أنه لم يستطع أن يرتب موعداً مع تلميذة المدرسة كبيمكو، فإنه استدعاها كأستاذ للتعليم الثانوي والجامعي. لم يعد يقنع بأن

twitter @baghdad_library

يمازحها فقط في البيت تحت إشراف والديها - إنه الآن استغل سلطته الوظيفية وأراد أن يفرض نورفيد على الفتاة عن طريق القانون. نظراً لأنه لم يتمكن من فعل ذلك بأية طريقة أخرى، فإنه أراد على الأقل أن يصبح مؤثراً في حياتها من خلال نورفيد. أمسكت برسالته في يدي بدهشة عميقة، كنت واقفاً فوق كومة من الأوراق ولم أعرف إذا كان ذلك سيئاً أم جيداً بالنسبة لي. ولكن تحت هذه الرسالة كانت هناك في الدرج ورقة ثانية - مقطوعة من دفتر، بضع جمل بقلم رصاص - وتعرفت على خط كوبريدا! نعم، كوبريدا، لم يكن هناك شك في ذلك، كان هو كوبريدا، ليس أحد آخر سواه! أمسكت بالورقة بتلهف. كانت موجزة ومجعدة وغير متقنة - بما يدل أنها ألقيت من النافذة.

لقد نسيت أن أعطيك عنواني (ذكر هنا عنوان كوبريدا). إذا كنت تريدين، فسأريد أنا أيضاً. أعلميني. ح.ك.

كوبريدا! هل تتذكرون كوبريدا؟ آه، فهمت كل شيء مباشرة! حدسي لم يكن مخطئاً. كان كوبريدا الصبي الغريب الذي بادر تلميذة المدرسة بالكلام، كما ذكر ذلك عند العشاء! كان كوبريدا قد ألقى الورقة من النافذة بينما كان مارا منذ قليل. بادر الفتاة بالكلام في الشارع والآن ها هو يسوغ مقترحه - وكم كان جريئاً ومودرن! «إذا كنت تريدين، فسأريد أنا أيضاً» - دخل في الموضوع مباشرة، بشكل عملي وبإيجاز... رآها في الشارع وشعر بالانجذاب الجنسي لها... وبدأ في الكلام - والآن ألقى الورقة بينما كان يمر أسفل النافذة، دون تمسك بأية شكليات غير ضرورية، وفقا للعادة الجديدة للشباب... كوبريدا! وهي - هي حتى لم تكن تعرف لقبه، لأنه لم يقدم نفسه لها...

خنقني ذلك من رقبتي.

وهنا كان بيمكو مرة أخرى، بيمكو العجوز الذي فرض عليها أستذته بطريقة مهذبة وقانونية ورسمية وبكل الشكليات المطلوبة. «يجب عليك أن ترضيني من خلال نورفيد، لأني سيدك، أستاذك وأنت عبدتي - تلميذة المدرسة!»... كان لدى الآخر الحق فيها كشقيقها - ندها المودرن، بينما هذا كان لديه الحق فيها كمدرس ثانوي وتربوي مُرَخَّص...

خنقني ذلك من رقبتي مرة أخرى. كل اعترافات الأعيان وشكاوى المحامين أو الفوازير الشعرية المضحكة لا يمكن مقارنتها بتَيْنِكَ الرسالتين؟ بشرتا بكارثة وهزيمة. الخطر الحقيقي أن الفتاة كانت على وشك أن تخضع لبيمكو وكوبريدا دون مشاعر، فقط بقوة العادة، لمجرد أنه كان لدى الأول والثاني الحق في ذلك، المودرن والسري في الحالة الأولى ومن الطراز القديم والعلني في الحالة الثانية. وحينئذٍ زاد ذلك من مفاتنها بشكل لا يصدق... ولن تنقذني رقصاتي ولا عملياتي مع الذبابة، فأنا اختنقتُ بمفاتنها. ماذا إذا سمحت لكوبريدا بمضاجعتها - بطريقة مباشرة وغير عاطفية وبدنية ومودرن... وإذا أطاعت الأمر التربوي وذهبت إلى بيمكو... الفتاة تذهب إلى العجوز، لمجرد أنها تلميذة مدرسة... الفتاة تعطي نفسها للشاب، لأنها مودرن...

أوه، هذه العبادة، هذه الطاعة، عبودية الفتاة إزاء تلميذة المدرسة، وإزاء المودرن! كلاهما كانا يعرفان ماذا يفعلان حينما كانا يواجهانها بمثل هذه الخشونة والإيجاز، كانا يعرفان أن الفتاة مستعدة للموافقة لمجرد هذا السبب... لم يظن بيمكو الخبير بالتأكيد أنها ستخاف من

twitter @baghdad_library

تهديداته - على العكس - لقد كان يحسب أنها ستعجب بفكرة الخضوع غصباً لرجل عجوز - تقريباً كما فكرة الخضوع لشاب ببساطة لأنه تحدث معها بلغة المودرن. أوه، يا للعبودية التي تصل إلى درجة محو الذات من أجل الأسلوب، أوه يا لطاعة الفتاة! كنت أعرف أن الأمر محتم... وحينئذ... ماذا سأفعل، إلى أين سآوي... كيف سأدافع عن نفسي... ضد هذا المد الجديد والفيض؟ لاحظوا فقط كم كان ذلك غريبا. كلاهما في الواقع دمّرا فتنةَ الآنسة الغلامي المودرن. لأن بيمكو أراد أن يسحق جهلها الرياضي بالشعر. وفي حالة كوبيردا حتى أسوأ من ذلك - كان من الممكن أن تكون نتيجتها النهائية- «ماما». ولكن مع ذلك لحظة تدميرها الافتراضي ضاعفت مفاتنها بمئة ضعف... لماذا نظرت إلى درجها؟ الجهل نعمة. لو فقط كنت بقيت جاهلاً - كان من الممكن أن أستمر في عمليتي ضد تلميذة المدرسة. لكنني عرفتُ - وأضعفني ذلك بشكل رهيب.

أسرار الحياة الشخصية المخترقة والثاقبة لصاحبة السبعة عشر عاماً، المحتويات الشيطانية لدرج تلميذة المدرسة. الشعر... كيف ألوثه؟ كيف أفسده لنفسي؟ عانت الذبابة بدون أي حركة وصوت. أمسك الرجل الملتحي بالغصن. تأملت ممسكاً بالرسائل في يدي ماذا علي أن أدبر، ماذا علي أن أفعل، كيف يمكنني أن أتوافق مع موجة المفاتن والحسن والسحر والأشواق الرهيبة التي لا مفر منها والمفزعة في الوقت نفسه...

أخيراً، في ارتباك حواسي الشديد، لمعَتْ أمام عيني فكرة مؤامرة - وكانت غريبة إلى درجة أنها بدت غير حقيقية حتى اللحظة التي بدأت في تنفيذها. انتزعتُ صفحة من دفتر الملاحظات. كتبت بقلم رصاص على نحو مشابه لخط الآنسة الغلامي المعروف والمتمدد بغير نظام:

غدا، في الخميس، الساعة ١٢ ليلاً، دقّ على النافذة من الشرفة، سأفتح. ز.

أدخلته في الظرف. وضعت عليه عنوان كوبريدا وكتبت رسالة ثانية ومتطابقة:

غدا، في الخميس، الساعة ١٢ ليلاً، دق على النافذة من الشرفة، سأفتح. ز.

وضعت عليها عنوان بيمكو. كانت الخطة كما يلي: بيمكو بعد حصوله على البطاقة الصغيرة غير الرسمية والموجزة رداً على رسالته الأستاذية سيفقد صوابه. بالنسبة للرجل العجوز سيكون ذلك مثل ضربة على رأسه. سيتصور أن تلميذة المدرسة تريد أن ترتب معه موعداً sensu stricto. الوقاحة والسخرية والفساد والشيطانية للمودرن - نظرا لعمرها وطبقتها الاجتماعية وتعليمها - ستسطله مثل الحشيش. لن يستطيع أن يحتفظ بدوره كأستاذ - وأن يحتفظ بشرعيته وشفافيته. سيسرع سرا وبشكل غير قانوني إلى أسفل النافذة وسيدق. حيث سيلتقي بكوبريدا.

ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لم أكن أعرف. لكنني كنت أعرف بأني سأصرخ وسأوقظُ الأسرة وسأسحب القضية كلها إلى العلن وسأسخر من بيمكو باستخدام كوبريدا ومن كوبريدا باستخدامِ بيمكو - وسنرى كيف ستكون غرامياتهما في العلن، ماذا سيتبقى حينئذ من المفاتن!

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

سيقان طليقة وحالة تلبس جديدة

في صباح اليوم التالي بعد ليلة صاخبة ومضطربة بالأحلام، قفزت من سريري عند بزوغ الفجر. ولكن ليس لكي أذهب إلى المدرسة. اختبأتُ وراء شماعة المعاطف في الردهة الصغيرة التي تفصل بين المطبخ والحمام. تلبية لنداء القتال المحتوم كان علي أن أهجم على السيد الغلامي وحرمه بطريقة نفسية في الحمام. مرحبا بك، يا بوبو! مرحبا بك، يا ملكة! كان علي أن أحرك نفسي وأعزز روحي لاشتباكي النهائي مع بيمكو وكوبريدا. كنت أرتجف وأتصبب عَرَقاً - ولكن في القتال حتى الموت تستخدم فيه كل الوسائل المتاحة ولم أكن أتحمل أن أفقد ميزتي الرئيسية. حاولْ أن تفاجئَ عدوَّك في الحمام. أنظر إليه كما هو في تلك اللحظة! تفحصه وتذكره! عندما يسقط ثوبه عنه مثل ورقة شجر في الخريف تسقط معه كل مظاهر أناقته وأسلوبه وتألقه، حينئذ يمكنك أن تندفع إليه بروحك مثلما يندفع الأسد نحو الحمل. ممنوع أن تغفل عن أي شيء يدعم استعدادك وتعزيزك ويجعلك تتغلب على العدو، والغاية تبرر الوسيلة، القتال فالقتال فوق كل شيء، القتال باستخدام أكثر الطرق المودرن المتاحة ولا شيء إلا القتال! هذا ما أعلنته حكمة الأمم. كان البيت كله لا يزال نائماً حينما كنت كامنا. لم

twitter @baghdad_library

تصل إلي أي أصوات من غرفة الفتاة، كانت تنام بهدوء، أما السيد الغلامي، المهندس، فكان يشخر في غرفة نومه الفاتحة الزرقة مثل موظف الأقاليم أو مثل حلاق الأرياف...

والآن ها هي الخادمة تبدأ في التحرك عبر المطبخ وتستيقظ أصوات ناعسة وتنهض الأسرة للاغتسال ولطقوس الصباح. شحذت حواسي. بروحي المتوحشة كنت مثل حيوان بري متحضر في فترة الـ kulturkampf[١]. صاح الديك. كانت السيدة الغلامي هي الأولى في الظهور، ترتدي روبا رمادياً فاتحاً وشبشباً وبشعرها الممشط بإهمال. كانت تمشي بهدوء ورأسها مرفوعة، وأشرق وجهها بحكمة استثنائية، يمكنني أسميها، حكمة «مرفق الصرف الصحي». كانت تمشي ببعض الوقار، باسم الطبيعية المقدسة والبساطة وباسم نظافة الصباح العقلانية. قبل دخولها الحمام، انحرفتْ للحظة إلى المرحاض وجبين مرفوع عاليا اختفتْ هناك على نحو عاقل وواعٍ وبكل ذكائها وثقافتها، مثل امرأة تعرف أنه لا ينبغي عليها أن تخجلَ من وظائفها الطبيعية. خرجت من هناك أكثر فخراً مما كانت عليه عندما دخلت، كما لو أنها أصبحت متجددة القوة وأكثر بريقاً وإنسانية، كما لو أنها خرجت من معبد يوناني! وعندئذ أدركت أنها دخلت أيضاً كما لو كانت داخلة إلى معبد. كانت زوجات المهندسين والمحامين المودرن ينهلن قوتهن من ذلك المعبد! كل يوم خرجت من هذا المكان وهي أفضل وأكثر ثقافة، رافعة لراية التقدم عالياً وكان هذا هو مصدر ذكائها وطبيعيتها التي عذبتني من خلالها. كفى كلاماً. دلفت إلى الحمام. صاح الديك.

---

(١) معركة الثقافات بغرض هيمنة ثقافة بروسيا في بولندا فترة التقسيم.

ثم ظهر السيد الغلامي وهو يهرول في ردائه القصير، بينما تنحنح بضجة وبصق، كل ذلك بسرعة، حتى لا يتأخر على المكتب، بجريدته لتوفير الوقت، واضعاً النظارات على أنفه ومنشفة حول عنقه وينظف أظافره بظفره ويصفق بنعله ويأرجح كعبيه العاريين بتقلب. عندما رأى باب الحمام، قهقه قهقهة خلفية من طراز الفناء الداخلي، تماماً مثل أمس، وتطفل هناك كمهندس مثقفٍ عامل، بطريقة لعوبٍ وهزلية، كان بارعاً للغاية. أمضى هناك وقتاً طويلاً، يدخن سيجارة ويغنى كاريوكا[1]، لكنه عند خروجه أصبح فاسداً أخلاقياً بالكامل، مثقفاً - ريفياً نموذجياً بدمامته الفكاهية مثل تلك التي لدى مخبول وبذيء بطريقة مقرفة، ومغفل بشكل مهين، حتى أنني كنت سأندفع إلى دمامته، إذا لم أوقف نفسي بالقوة من فعل ذلك. يا لغرابة - أثر الحمام في زوجته بطريقة بنائية، بينما يبدو أنه أثر فيه بطريقة هدامة، على الرغم من أنه كان مهندس بناء.

- بسرعة! - صاح بتهتك بزوجته التي كانت تغتسل في الحمام - بسرعة يا ولية! «فيكي» مستعجل للذهاب إلى المكتب!

لقد سمى نفسه «فيكي» تحت تأثير زيارته إلى الحمام وغادر وبيده المنشفة. من خلال شق في الزجاج المصنفر نظرت إلى داخل الحمام بحذر. مسحت حرم المهندس العارية فخذها بمنشفة الحمام بينما وجهها، ذو البشرة الغامقة، يبدو عليه الحدة والذكاء، تعلق فوق سمانة ساقها البدينة البيضاء والبريئة مثل عجل صغير، واليائسة،كتعلق نسر

---

(١) رقصة من نوع سامبا.

twitter @baghdad_library

فوق عجل صغير. كان التناقض الرهيب في ذلك، بدا كأن العقاب يحلق بلا حول ولا قوة، وغير قادر على الإمساك بالعجل الذي يخور من أعماقه، وكانت في الواقع حرم المهندس تحدق على نحو تنظيفي وبذكاء إلى كتلة كبيرة من ساقها الحريمية. قفزت. واتخذت وضع تمرين رياضي وبيديها على جانبيها عملت نصف دورة بجذعها من اليمين إلى اليسار، بشهيق وزفير! ومن اليسار إلى اليمين بزفير وشهيق! دفعت ساقها إلى الأعلى وكانت قدمها صغيرة ووردية. بعد ذلك دفعت ساقها الأخرى مع قدمها الثانية! انطلقتْ في تمرين الأرداف! نفذت اثنتي عشرة رَبْضةَ أمام المرآة، بينما تنفست من خلال الأنف - واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة - حتى صفّقَ ثدياها، وارتعشتْ ساقاي أنا أيضاً وكنتُ على وشك أن أبدأ طفرة جهنمية وثقافية. وعلى الرغم من ذلك هربت بوثبة وراء شماعة المعاطف. اقتربتْ تلميذة المدرسة من خلال خطواتها الخفيفة، أما أنا فكنت كامناً مثل الصياد في الغابة، مستعداً باندفاعٍ نفسي وبتوحش... توحش بربري وهمجي... الآن أو أبداً، أن أضبطها مباشرة بعد النوم، حينها ستكون ما زالت غير مهندمة ودافئة وبلا ملابس، سأدمر جمالها في نفسي، مفاتن تلميذة المدرسة الرخيصة! سنرى إذا كان بإمكان كوبيردا وبيمكو أن ينقذاها من الفناء!

كانت تصفر وهي تمشي، كان منظرها مضحكاً وهي مرتدية بيجامتها، ومنشفتها حول عنقها - كل ذلك في تحرك دقيق وسريع، كلها نشاط. في لحظة واحدة دخلت في الحمام وإندفعت عليها بنظرتي من مكمني. الآن، الآن أو فَلا، الآن وهي ضعيفة جدا وشعثاء! - ولكنها تحركت بسرعة إلى درجة أن أي إهمالٍ قد فشل في أن يلتصق

بها. قفزت داخل البانيو - فتحت الدش البارد. حركت خصلاتها وكان عريها المتناسق يرتجف وينكمش ويختنق تحت سيل من الماء. ها! لم أكن أنا الذي يمسكها من رقبتها بل كانت هي التي تمسكني من رقبتي! الفتاة ومن خلال إرادتها الحرة، في الصباح وبدون إفطار، سكبت على نفسها الماء البارد وخضع جسدها لتشنجات وارتعاشات حتى تستعيد حسنها النهاري بغصة شبابية!

على الرغم منّي كان يجب علي أن أعجب بانضباط جمال البنت! تمكنت بسرعة ودقة وبراعة من تفادي الفترة الانتقالية الأكثر صعوبة - بين الليل والنهار - وطارتْ مثل فراشة على أجنحةِ الحركةِ. وكما لو لم يكن يكفي ذلك - استسلمت بجسدها للماء البارد حتى تختنق بطريقة شبابية وحادة، حيث شعرت بغريزتها أنها بجرعة من الحدة ستقضي على أي إهمال فيها. في الحقيقة - ماذا يمكن أن يسئ إلى فتاة حادة تختنق تحت سيل من الماء البارد؟ عندما أقفلت الصنبور ووقفت عارية يقطر الماء منها، وهي لاهثة، كما لو أنها بدأت من جديد، كما لو لم تكن هي نفسها من قبل. هاي! - إذا كانت بدلاً من الماء البارد تستخدم الماء الدافئ والصابون، لم يكن ذلك يفيد كثيراً. فقط الماء البارد كان يمكنه أن يفرض النسيان من خلال جعلها تختنق.

زحفتُ من الردهة بطريقة حقيرة. جرجرتُ خطواتي رجوعاً إلى غرفتي على نحو خسيس مقتنعاً بأن مزيداً من التلصص لن يؤدي إلى أي شيء، على العكس، قد يؤدي إلى نتائج فاجعة. اللعنة - الفشل مرة أخرى، لقد عانيتُ من الفشل حتى في أسفل جحيم المثقفين. بينما عضضت أصابعي حتى سال الدم، كنت أقسم لنفسي بعدم الاستسلام

twitter @baghdad_library

للسيد والسيدة الغلامي، وأن أستمر في استعدادي وتعزيزي وكتبت بقلم رصاص على جدار الحمام تلك الكلمات: Veni, vidi, vici[1] دعهم يعرفون على الأقل أنني رأيتهم، دعهم يشعرون إنه تمتْ رؤويتهم! عدوهم لا ينام، العدو يكمن في الانتظار. تعزيز وديناميكية! ذهبت إلى المدرسة ولم يكن هناك شيءٌ جديدٌ، «شحاب»، والشاعر الملحمي، وميزو، وهوبا، وaccusatives cum infinito، وغاوكيفيتش، والوجوه والدمامات والبوباهات والإصبع في الحذاء وعدم الاستطاعة اليومية العامة وضجر وضجر وضحرا! كما توقعت لم تترك رسالتى أي أثر على كوبريدا، بدا مجرد أنه يركز على ساقيه أكثر من المعتاد، ولكني لم أكن متأكداً، ربما كنت أتخيل ذلك فقط. أما زملائي فنظروا إلي باشمئزاز، حتى سألني الكباس قائلاً.

- بحق الله، كيف وجدت نفسك في ذلك المأزق؟

صحيح إن دمامتي بعد استعدادي وتعبئتي أصبحت مشوشة إلى درجة أنني لم أكن أعرف ماذا ينتظرني، ولكن هذا غير مهم، المهم كان الليل، انتظرتُ الليل برعشة، في الليل ستترسخ الأمور، في الليل ستتقرر. قد يحدث في الليل التحول. أسيخضع بيمكو للإغراء؟ هل الخوجة المتمرس ذو الماسورتين يمكن أن يفقد رباطة جأشه برسالة الفتاة الملتهبة؟ لقد اعتمدَ كل شيء على ذلك - أتمنى أن يفقد بيمكو اتزانه - صليتُ - يفقد رأسه - وفجأة وأنا مرعوب من الدمامة والبوبو والرسالة وبيمكو وكل ما كان وكل ما سيكون، اندفعتُ إلى الهروب،

(١) عبارة لاتينية شهيرة معناها «أتيتُ، رأيتُ، أنتصرتُ» أطلقها الملك يوليوس قيصر في إحدى حروبه الشهيرة سنة ٤٦ ق. م.

مثل المجنون كنت أقف على أطرف أصابعي في الفصل - ثم جلست مرة أخرى - لأنه إلى أين كان يمكنني أن أهرب، إلى الخلف أم إلى الأمام، إلى اليمين أم إلى اليسار، من دماماتي وبوبوهي الخاص بي؟ أُخْرُسْ، أُخْرُسْ، ليس هناك مهرب! في الليل سيتقرر كل شيء.

أثناء الغداء لم يحدث أي شيء جدير بالملاحظ. كانت تلميذة المدرسة وحرم المهندس متحفظتين جدا في كلامهما ولم تَعودا تسرفان في أفكارهما عن الحداثة كما هي عادتهما. كانتا خائفتينِ بشكل واضح. بالتأكيد شعرتا باستعدادي وتعبئتي. لاحظت أن السيدة الغلامي تجلس ثابتة في مقعدها، بكرامة الشخص الذي تم التلصص على جلوسه، شيء مضحك، لكن ذلك أعطاها مظهر الأم الرئيسة، لم أتوقع مثل هذا التأثير. على أية حال، لم يكن هناك شك إنها قد قرأت ما كتبت على الحائط. حاولت أن أنظر إليها بطريقة أكثر اختراقاً وقلت بنبرة بائسة وحقيرة وعلى نحو غير متصل، أنني أتميز ببصر حاد وثاقب استثنائي يستطيع أن يدخل من خلال الوجه ويخرج من الناحية الأخرى... تظاهرت بإنها لم تسمع، أما المهندس فأصدر على الرغم من إرداته قهقهة تشنجية واستمرّ يقهقه بآلية. من تأثير الأحداث الأخيرة أظهر السيد الغلامي- إذا لم تخدعني عيني - ميلا إلى الفوضى، لقد دهن الزبدة على أقراص الخبز الكبيرة وغرز في فمه قطعٌ ضخمةٌ مضغها وهو يصدر أصواتاً.

بعد الغداء حاولت أن أتلصص على تلميذة المدرسة من الرابعة إلى السادسة، ولكن بدون جدوى، لأنها لم تدخل ولو لمرة واحدة في محيط نظري. بالتأكيد كانت تأخذ حذرها منى. كما أنني لاحظت أن السيدة الغلامي كانت تتجسس عليّ، لأنها دخلت غرفتي مرات عدَّة

twitter @baghdad_library

بأعذار تافهة، حتى أنها اقترحت عليّ مرةً بسذاجة بأن أذهب إلى السينما على حسابها. زاد قلقهم، شعروا بالتهديد وأحسوا بوجود عدو وخَطَرٍ، على الرغم من أنهم لم يعرفوا بالضبط ما يهدّدهم وماذا كنت أنتوي لهم - أحسوا بذلك وفترت عزيمتهم، أثار اللاتحديد القلق الذي بدوره لم يقدم لهم أي شيء محدد يلمسونه. ولم يستطيعوا حتى أن يتحدثوا مع بعضهم البعض عن الخطر، لأن كلماتهم غرقتْ في ظلام عديم الشكل وغير محدد. حاولت حرم المهندس بحاسة اللمس أن تنظِّم شيئاً ليكون بمثابة خط الدفاع ولذلك، كما عرفت، أمضت الوقت بعد الظهيرة كله في قراءة راسل[١] بينما أعطت لزوجها ويلز لقراءته. لكن السيد الغلامي أعلن بأنه يفضل سنوية «وارسو فيغارو»[٢] و«الكلمات» لبوي جلينسكي[٣] وبين حين وآخر كنت أسمعه ينفجر في الضحك. إنهما لم يستطيعا أن يستقرا في مكان واحد على الإطلاق. أخيرا شغلت السيدة الغلامي نفسها ببعض الفواتير المنزلية وسحبت نفسها إلى واقعية أرض الحسابات الصلبة، أما المهندس فظل يتسكع في أنحاء البيت ويجلس على قطعة من الأثاث، ثم ينتقل إلى الأخرى ويهمهم بالألحان العابثة. لقد أزعجتهم حقيقة أنني أجلس في غرفتي ولا أبين أيا من علامات الحياة. لذلك، بطبيعة الحال، حاولت أن أبقى هادئاً. هدوء، هدوء، هدوء، فغالباً ما بلغ الهدوء أشدّه، ما جعل فيه أزيز الذبابة يتردّد مثل

(١) برتراند أرثر ويليام راسل(Betrand A.W. Russel, 1872-1970) - فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني.

(٢) مجلة أسبوعية ساخرة كانت تصدر في وارسو في الفترة ما بين ١٩٢٦-١٩٣٤.

(٣) مجموعة قصائد ساخرة للأديب والمترجم البولندي المشهور تادئوش بوي جلينسكي (Tadeusz "Boj" Zeleński, 1874-1941).

صوت البوق، وتسرب اللاتحديد إلى الهدوء حيث شكل فيه مستنقعات غامضة. في السابعة تقريباً رأيت الكباس يمر خلسة وراء قضبان السياج إلى الخادمة وهو يشير بإشارات سرية نحو المطبخ.

بحلول المساء بدأت أيضاً حرم المهندس تتنقل بسرعة من مقعد إلى آخر، أما المهندس فشرب بضع كؤوس في حجرة المؤن. لم يستطيعا أن يستقرا في مكان ولا أن يجدا الشكل المناسب لهما، لم يتمكنا من الجلوس ثابتين، بل جلسا وقفزا من مكانهما كأنهما يحترقان بالنار على الموقد وتجولا ذهاباً وإياباً بهياج، كما لو كانا مطاردين من الخلف. بتأثير وتحفيز أفعالي القوية واقعيتهم خرجت عن إطارها وتدفقت وطرطشت وهتفت وتأوهت بصوت مكتوم بينما عناصر القبح والبشاعة والقذارة الشريرة والمضحكة أحاطت بهما بشكل ملموس أكثر وأكثر ونما قلقهما المتزايد كما لو كان ينمو على خميرة. على العشاء جلست حرم المهندس بصعوبة، جمعت كل تركيزها في وجهها والمناطق العليا من جسدها، لكن المهندس، على العكس من ذلك، جاء إلى المائدة مرتديا صدريةً وثبت منديلاً تحت ذقنه وبينما دهن أقراص الخبز السمينة بالزبدة التى قضمها، حكى نكات شبه فكرية وقهقه بعدها. إدراكه بأنه تم التلصص عليه من جانبي جعله يضمحل إلى صبيانية سوقية، لقد تناغم بأكمله مع ما رأيته فيه، وتحول إلى مهندس صغير ومغناج ومُسَلٍّ - رقيق ومدلل وعابث. حاول أن يغمز لي أيضاً ويرسل إشارات بارعة مفهومة لكلينا، التي - بطبيعة الحال - لم أتجاوبْ معها وأنا أجلس بوجهي الباهت والبائس. جلست الفتاة بلا مبالاة وهي تزمّ شفتيها، تجاهلت كل ما يحدث حولها ببطولة بناتية حقيقية، يمكنك أن تقسم أنها لا تعرف أي شيء عن أي شيء - أوه، تألمتُ برعب من تلك

twitter @baghdad_library

البطولة التي زادت جمالها! لكنّ الليلَ سيحسمُ الأمور، سيتقرر كل شيء في الليل، إذا لم يكن بيمكو وكوبريدا عند حسن الظن، ستفوز المودرن بالتأكيد ولن ينقذني أي شيء من العبودية.

اقترب الليل رويدا ومعه التسلية. كان من المستحيل التنبؤ بما سيحدث، لم يكن هناك أي برنامج وكنت أعرف فقط أن ما يجب عليّ فعله، هو أن أتعامل مع كل عنصر تشويهيّ ومضحكٍ وغامضٍ وكاريكاتوري ومتنافر، يمكن أنْ يتولد، ومع كل عنصر هدام - وكنت غارقاً في رعبٍ زنِخٍ وواهٍ، حيث أن الخوف الهائل للقاتل يعتبر بالمقارنة به خوفاً تافهاً. بعدَ الساعة الحادية عشرة ذهبت تلميذة المدرسة إلى السرير. بما أنني وسعت سابقا الشق المائل الذي كان بالباب باستخدام الإزميل، فالآن أصبح بإمكان نظري أن يشمل هذا الجزء من الغرفة الذي كان خارج مجال نظري من قبل. خلعت ملابسها بسرعة وأطفأت النور على الفور، ولكن بدلاً من أن تنام، تقلبت فقط من جانب إلى آخر على الفراش الصلب. أضاءت المصباح وأخذت من الطاولة بجانب السرير رواية بوليسية رومنسية إنكليزية ورأيتها تجبر نفسها على القراءة. حدقت المودرن بانتباه إلى الفضاء، كما لو كانت تحاول أن تحل شفرة الخطر عن طريق الرؤية وأن تخمن الشكل وأن ترى أخيرا تركيبة الرعب وأن تفهم على وجه التحديد ماذا يدبر ضدها. لم تكن تعرف أن الخطر ليس له شكل ولا معنى - لقد هددَ مظهَرَهَا المودرن عنصرٌ غامضٌ، رخوٌ وخالٍ من الأسلوب، شيء مخالف للقانون لا معنى ولا شكل له، وكان ذلك كل شيء.

تناهَتْ إليّ أصواتٌ عالية من غرفة نوم المهندس وحرمه. جريتُ

بسرعة إلى بابهما. المهندس في ملابسه الداخلية، بين قهقهاته وجو الكباريه، كان يحكي مرة أخرى نكاته بذوق فكري بارز.

- كفى! - فركت السيدة الغلامي بعصبية يديها بروبها - كفى، كفى! توقف عن ذلك!

- انتظري، انتظري، يا «يوني» - دعيني قليلاً... سأنتهي قريباً!

- لست أي «يوني». أنا يوانا. اخلعْ ذلك السروال الداخلي أو الْبَسْ سروالك.

- سريول!

- اسكتْ!

- سريول حبوب، هيه هيه، سريول حبوب!

- اسكتْ، أقول لك...

- سريول حبوب، سريول حبوب...

- أُخْرُسْ! - أطفأت المصباح على الفور.

- أضيئي المصباح، يا ولية!

- لست أية ولية... لا يمكنني أن أنظر إليك! لماذا وقعت في حبك؟ ماذا بك! ماذا يحدث بنا! تمالك نفسك. فنحن في طريقنا لأيام جديدة! نحن مقاتلو الزمان الجديد!

- حسناً، حسناً، عِجلتي السمينة - هيه هيه هيه - عِجلتي السمينة في فمي تقعين. سمينة لكن حالمة. لقد أصابه الارتخاء، لأنها أصبحت عجوزاً شمطاء...

- فيكتور! ماذا تقول؟ ماذا تقول!

twitter @baghdad_library

- «فيكي» فرحان! «فيكي» يمزح. «فيكي» يتبختر مرحى!

- فيكتور، ماذا تقول؟ عقوبة الإعدام! - صاحت - عقوبة الإعدام! العصر! الثقافة والتقدم! طموحاتنا! نشوتنا! فيكتور! على الأقل بدون هذا الدسم، بدون تلك البهارات، بدون التصغير... ماذا دهاك؟ زوتة؟ أوه، يا للصعوبة! هناك شيء خطأ! شيء مشؤوم في الأجواء؟ الخيانة...

- الخينونة - قال السيد الغلامي.

- فيكتور! لا تستخدم التصغيرات! لا تستخدم التصغيرات!

- الخينونة يقول «فيكي»...

- فيكتور!

بدآ في المناوشات!

- النور - لهثت السيدة الغلامي - فيكتور! النور! أضئ النور! اتركني!

- إنتظري! - لهث ما بين قهقهاته - إنتظري، حتى أصفعك، أصفعك على قفاك الحلو!

- أبدا! أتركني، وإلا سأعضّك!

- سأصفع، سأصفعك على قفاكِ الحلو، قفاكِ الصغير، قفاكِ الجميل...

وسرعان ما أطلق من داخله كل تصغيرات حب غرف النوم، بدءً من «فرختي الجميلة» وصولا إلى «قطتي المثيرة»... تراجعت من الخوف إلى الوراء. على الرغم من أنني لم أكن ينقصني القذارة، لم أستطع أن أتحمل كل ذلك. التصغير الجهنمي الذي كان قبل ذلك قد أثر في مصيري بقوة، الآن جعل حياتهما بائسة. كان ذلك تجاوزاً شيطانياً من

ناحية المهندس الصغير، أوه كم هو كريه، عندما يلتقط المهندس الهامشي الطعم بأسنانه ويفقد لجامه، ما هذا الزمان الذي نعيش فيه؟

لقد صُفِعَتْ. هل صفعَها على قفاها الحلو أم على خدها الصغير؟

كانت غرفة الفتاة مظلمة. هل كانت نائمة؟ خيم الهدوء وتصورت أنها تنام وذراعها حول رأسها، نصفها مغطى بالغطاء ومتعبة. تأوهت فجأة. لم يكن ذلك التأوه في منامها. تحركت على نحو مفاجئ وعصبي على الأريكة. أدركت أنها تقرفص وعيناها المتسعتان تتفحصان الظلام برعب. هل أصبحت تلميذة المدرسة المودرن حساسة إلى درجة أن نظرتي أصابتها في الظلام من خلال ثقب الباب؟ كان تأوهها جميلاً بشكل لايصدق، منتزعاً من أعماق الليل - كما لو أن مصير الفتاة هو الذي يتأوه طالباً النجدة عبثاً.

تأوهت مرة أخرى بصوت مكتوم ويائس. هل من الممكن أنها استشعرتْ أن في هذه اللحظة بالذات أبوها الذي أفسِدته يقوم بصفع أمها؟ هل أدركت القبح الذي أحاط بها من جميع الجهات؟ بدا لي أنني أرى في شبه الظلام المودرن تعبّر عن قلقها وهي تعض على ساعدها حتى تتألم. كما لو أنها أرادت أن تبلغ بأسنانها الجمال في داخلها. القبح الخارجي المتربص في كل الزوايا أثار مفاتنها. كم من كنوز ومفاتن كمنت فيها! الكنز الأول - إنها كانت فتاة. الكنز الثاني - تلميذة مدرسة. الكنز الثالث - مودرن. وكان كل شيء مغلقاً في داخلها مثل البندق داخل قشرته، لم تتمكن من الوصول إلى ترسانتها، على الرغم من أنها كانت تشعر بنظراتي المشينة إليها وعرفت أن مُعجَبها المرفوض يرغب في تلويث أو تدمير أو إفساد أو تشويه بطريقة نفسية جمالها البناتي.

twitter @baghdad_library

ولم يفاجئني على الإطلاق أن الفتاة شعرت بالتهديد من القبح الذي كنت أدبره لها سراً، أصابها هياج شديد. قفزت من السرير. ألقت قميصها بعيداً. وثبت في جميع أنحاء الغرفة. لم تعد تهتم بأنني أتلصص عليها، بل بدا أنها هي نفسها تحدتني للقتال. حمل ساقاها جسدها بشكل سريع وخفيف، رفرفت بيديها في الهواء. دفنت رأسها الصغير في أي مكان ممكن. طوقت رأسها بذراعيها. حركت خصلاتها. اسلقتْ على الأرض ونهضتْ من جديد. تنهدت وضحكت وغنت بهدوء. قفزت على الطاولة، ومن الطاولة إلى الأريكة. بدت أنها خائفة من أن تتوقف للحظة واحدة، كما لو أن جرذاناً وفئراناً طاردتها، إنها ترغب أن تعلو بخفة حركتها فوق القبح. لم تعد تعرف بالفعل ماذا يمكن أن تمسك به. أخيراً أمسكت حزاماً وبدأت تجلد ظهرها بأقصى قوتها، حتى تخضع نفسها إلى معاناة شبابية، مؤلمة... خنقني ذلك من رقبتي! أوه، كم عذبها جمالها، اضطرّها أن تفعل أشياء وقذف بها ورماها بعنف، كم جعلها تتدحرج! تجمدت عند ثقب الباب بدمامتي غير المنسجمة والكريهة، المنقسمة بين الإعجاب والإحتقار بالتساوي. تلميذة المدرسة حين قذف بها الجمال، أسرفت في حركاتها بحرارة أكثر وأكثر. وأنا طوال الوقت أعجبت بها وكرهتها، واهتزّ جسدي بارتعاشات، وتمددت دمامتي وانكمشتْ مثل الأستك المضغوط، الله، إلى أين يأخذنا حب الجمال!

دقت الساعة معلنة الثانية عشرة في غرفة الطعام. تردد صوت الدق الهادئ إلى النافذة. ثلاث مرات. تجمدت بالرعب. كان كل شيء على وشك أن يبدأ. كوبريدا، كوبريدا قادم! توقفت تلميذة المدرسة عن قفزها. تردد صوت الدق مرة أخرى، مُلِح وهادئ. اقتربت إلى النافذة وفتحت الستارة قليلاً. كانت تحدق...

- هل هذا أنت؟ - جاء الهمس من الشرفة في صمت الليل. جذبت حبل الستارة. غمرت الغرفة في ضوء القمر. رأيت إنها تقف في قميص النوم، متوترة ويقظة...

- ماذا تريد؟ - قالت.

أعجبت ببراعتها المشابهة لبراعة العقعق! لأن ظهور كوبريدا تحت النافذة كان غير متوقع بالنسبة لها.

أي فتاة أخرى في مكانها، فتاة من الطراز القديم، ستمضي إلى المداخلات والأسئلة الروتينية: «عفوا! ماذا يعني ذلك؟ ماذا تريد، يا حضرة، في هذه الساعة؟». ولكن المودرن استشعرتْ غريزياً أنها إن أظهرت دهشتها فبإمكان ذلك، على أكثر تقدير، أن يفسد الموقف... إنه سيكون أجمل بكثير بدون الدهشة... أوه، يا للفتاة البارعة! انحنتْ من النافذة بطريقة مؤنسة وودودة وبروح اجتماعية.

- ماذا؟ - كررت بنبرة هامسة بناتية، وهي تتكئ بذقنها على يديها.

بما أنه ناداها بدون ألقاب، فلم تقل له «حضرت». وأعجبت بتحول الأسلوب المفاجئ وبشكل لا يصدق - مباشرة من قفزات إلى مؤانسة! من كان يمكنه أن يخمن بأنها قبل لحظات تخبطت في كل مكان ووثبت؟ كوبريدا على الرغم من أنه مودرن، كان مرتبكا قليلاً من واقعية تلميذة المدرسة اللافتة للنظر. لكنه تكيف على الفور مع لهجتها وقال بطريقة صبيانية ولامبالية، بيديه في جيبيه.

- اسمحي لي أن أدخل.

- لماذا؟

صفر وقال بوحشية.

twitter @baghdad_library

- ألا تعرفين؟ أدخليني!

كان مُثاراً وارتعدَ صوته قليلاً، لكنه أخفى إثارته. طوال الوقت كنت أرتجف خوفاً من أن يبوح بكل شيء عن الرسالة. لحسن الحظ لم يكن الكثير من الحديث أو المقدمات مطابقاً للأسلوب المودرن وكان ينبغي عليهما أن يتظاهرا أن كل شيء مفهوم بلا كلام. اللامبالاة والوحشية والإيجاز والاستخفاف - تلك هي الأدوات التي يستخرجان من خلالها الشعر الذي استخرجه العشاق في الماضي بواسطة الآهات والتنهدات والمندولين. كان يعرف أن بالاستخفاف فقط سيتمكن من أن يمتلك الفتاة، وبدون الاستخفاف - لاشيء كان ممكناً. وبلمحةٍ من أثر العاطفية الحسية المودرن في صوته، أضاف بشكل متشوق وإيجابي ومكتوم، بوجهه المضغوط على الكرمة البرية التي تزحف على الجدار.

- أنتِ أردتِ ذلك!

قامت بحركة كما لو كانت تنوي إغلاق النافذة. ولكن فجأة - كما لو أن تلك الحركة كانت قد حثتها إلى فعل العكس - توقفتْ... مطتْ شفتيها. وقفت ثابتة للحظة، ما عدا عينيها تحركتا ببطء في كلا وظهر على وجهها تعبير... تعبير السخرية السوبر مودرن... وتلميذة المدرسة المثارة بتعبير السخرية وعيناها وفمها في ضوء القمر، في النافذة، انحنتْ بشكل غير متوقع جزئياً ونكشتْ شعرَه بيدها - وبدون ة فكاهة في إيمائتها.

- تعالَ! - همستْ.

لم يظهر كوبريدا دهشته. لم يكن مسموحاً له بأنْ يُظهر دهشته لها أو لنفسه. أقل تردد كان يمكنه أن يبدِّد كل شيء. كان يجب عليه أن

يتصرف كما لو أن الواقع الذي تكون بينهما، كان أمراً يومياً وعادياً. أوه، يا للصبي البارع! وكان يتصرف وفقاً لذلك. تسلق بجهد على النافذة وقفز على الأرض كما لو كان من أفعاله اليومية أن ينزلق كل ليلة إلى تلميذة المدرسة التي تعرّفَ عليها حديثاً. حين وجد نفسه في الغرفة، ضحك بهدوء، في نفسه الشعور بالأمن. لكنها أمسكته بشعره وسحبت رأسه إلى الوراءَ وقضمتْ فمها في فمه!

يا للجحيم، يا للشياطين! ماذا لو كانت عذراء؟! ماذا لو كانت الفتاة عذراء! إذا كانت عذراء وها هي كانت على وشك أن تعطي نفسها دون مزيد من اللغط للرجل الأول الذي يدق على النافذة. ياللجحيم، ياللشياطين! خنقني ذلك من رقبتي. لأنها لو كانت مجرد مومس وعاهرة، ففي نهاية المطاف لم يكن في ذلك شيء، ولكن إذا كانت عذراء، فإنه - يجب علي أن أعترف - استطاعت المودرن أنْ تستنبطَ الجمال الوحشي إلى أبعد من نفسها ومن كوبريدا. تمكنت من الإمساك بالصبي من شعره - بمثل هذه الوقاحة والهدوء والوحشية - وخنقي من رقبتي... ها! كانت تعرف أنني أتلصص من خلال ثقب الباب ومع ذلك لم تتراجع عن أي شيء حتى تفوز بجمالها. تمايلت. إذا كان على الأقل هو الذي أمسكها من شعرها - ولكنها كانت هي التي أمسكت به! أيتها الآنسات اللاتي تتزوجن في موكب عظيم وبعد احتفالات طويلة، أيتها التافهات، اللاتي تسمحن بسرقة قبلة منكن، أنظروا كيف تُباشرُ المودرن الحبّ ونفسها! دفعت كوبريدا على الأريكة. ترنحت أنا مرة أخرى. كل شيء كان مباحاً! على ما يبدو، كانت صاحبة السبعة عشر عاماً تلعب بأعظم ميزتها وهو الجمال كورقتها الرابحة. صليت من أجل أن يأتي بيمكو - إذا خذلني بيمكو سأضيع وأبداً أبداً لن أتحرر من سحر

twitter @baghdad_library

المودرن البري. خنقتني وكممتني - أنا الذي كنت رغم كل شيء أرغب في خنقها والتغلب عليها!

حينئذ كانت الفتاة وهي في ريعان أنوثتها البناتية، عانقت كوبريدا على الأريكة وبمساعدته كانت في طريقها للوصول إلى ذروة فتنتها. ببساطة وتلقائية وشهوانية، دون حب وإحساس وبلا احترام لنفسها على الإطلاق، وكل ذلك فقط لكي تخنقتي من رقبتي بأشعار تلميذة المدرسة المتوحشة. اللعنة، اللعنة، كانت تنتصر، تنتصر، تتنصر!

آخيرا تردد صوت دقات الانق على النافذة. توقفا عن عناقهما. في النهاية! جاء بيمكو إلى النجدة. وقائع حاسمة كانت على وشك أن تحدث. هل سيتمكن بيمكو من تدمير جمالها ومفاتنها - أم سيضيف المزيد إليها. هذا ما فكرت فيه، بينما كنتُ أجهز دمامتي من وراء الباب للتدخل. في الوقت الحالي أتى طرق بيمكو ببعض الراحة، لأنهما كانا مضطرين للتوقف عن عربدتهما وهياجهما، فهمس كوبريدا.

- يوجد أحد يطرق الباب.

قفزت تلميذة المدرسة من على الأريكة. كانا يستمعان بإنصات لمعرفة إذا كان يمكنهما أن يعاودا هياجهما من جديد. طرق مرة أخرى.

- من؟ - سألت الفتاة.

تردد صوت خارج النافذة بلهفة وحماس:

- عزيزتي زوتة!

رفعت ستائر النافذة قليلاً وأشارت إلى كوبريدا بأن يختبئ. ولكن بيمكو شديد الحماس تسلق إلى داخل الغرفة قبل أن تتمكن من أن تقول أي شيء. كان خائفاً من أن يراه أحد عند النافذة.

- عزيزتي زوتة! - همس بشغف وشهوانية - عزيزتي زوتة! يا تلميذتي! الصغيرة! ناديني باسمي! أنت رفيقتي! وأنا رفيقك! - أثملته رسالتي. كان فم الخوجة ذو الماسورتين التافه، يتلوى بشكل مؤلم بالأشعار - ناديني باسمي! ناديني باسمي عزيزتي زوتة! هل سيرانا أحدٌ؟ أين أمك؟ - ولكن الخطر قد أثمله أكثر - أنظروا إليها...كم هي صغيرة وشابة... ومع ذلك وقحة... بلا احترام للسن ولا للمنزلة... كيف استطاعتْ أن... كيف تجرأتْ... تجاهي؟ هل أثَّرت عليك فعلاً. ناديني باسم. باسمي، باسمي! أخبريني، ماذا أعجبك في؟ ها، ها، ها، ها، ها، ياللمربي الشهواني!

- ماذا تريد؟ ماذا بك يا أستاذ؟ -   تلعثمت الفتاة. ذلك الأمر مع كوبريدا قد انتهى، قد فشل.

- يوجد أحد هنا! - هتف بيمكو في الظلام.

جاوبه الصمت. كوبريدا كان ساكتا. كانت المودرن واقفة بينهما، في قميص نومها، بلا معنى، تلعب دور امرأة متأنقة.

عندئذ صرخت أنا من وراء الباب.

- لصوص! لصوص!

تلفت بيمكو بضع مرات في مكانه كأنه مشدود بحبل، ثم لجأ إلى الخزانة. أراد كوبريدا أن يقفز من النافذة، لكنه لم ينجح - فاختبأ في الخزانة المجاورة. اقتحمتُ الغرفة كما أنا، في سروالي الداخلي وقميصي. لقد تمكنت منهم! ضبطتهم متلبسين! وخلفي السيد الغلامي وحرمه - وهو ما زال يصفعها وهي ما زالت تُصفع.

twitter @baghdad_library

- لصوص! - صاح المهندس الصغير مثل بورجوازي رخيص في سرواله الداخلي وبقدميه الحافيتين. واستيقظتْ فيه غريزة التملّك.

- دخل أحد في من خلال النافذة! - صرخت أنا. أشعلت الضوء. استلقتْ تلميذة المدرسة تحت اللحاف وتظاهرت بأنها نائمة.

- ماذا حدث؟ - سألت وهي نعسانة، بأسلوب متقن ومخادع.

- دسيسة أخرى! - صاحت السيدة الغلامي وهي تنظر إلي بنظرة بازيلكية، مرتدية روبا وشعرها مشعث وببقع داكنة على خديها.

- دسيسة؟ - هتفتُ رافعاً من الأرض حمّالتي بنطلون كوبريدا - دسيسة؟

- حمّالتا البنطلون - قال المهندس الصغير وهو مخدر.

- إنها لي! - صاحت الآنسة الغلامي بوقاحة.

كان لوقاحة الفتاة تأثير ملطف، على الرغم من أنه لا أحد صدقها بطبيعة الحال!

فتحت أنا الخزانة بحركة مفاجئة وظهر أمام المجتمعين الجزء السفلي من جسم كوبريدا وخاصة ساقيه النحيلتين في السروال المكوي من القماش الناعم والحذاء الرياضي الخفيف. كان الجزء العلوي ملفوفاً بالفساتين المعلقة داخل الخزانة.

- آه... زوتة! - كانت السيدة الغلامي أول من تحدث.

اختبأت تلميذة المدرسة برأسها تحت اللحاف وأظهرت فقط ساقيها وخصلات من شعرها. يا لبراعتها التى كانت تلعب بها! فتاة أخرى في مكانها كانت ستبدأ بالتمتمة من تحت أنفها وتبحث عن أعذار. أما هى

فقد مدت ساقيها العاريتين وحركتهما ذهابا وإيابا، عزفت على الوضع - بساقيها وحركاتها ومفاتنها - مثل العزف على الفلوت. نظر والداها إلى بعضهما البعض.

- زوتة - نطق السيد الغلامي.

وضحك كلاهما. اختفتْ صفعاتهما وسوقيتهما وبدائيتهما - ساد فيهما جمال غريب. نظرَ الوالدانِ المستمتعانِ المنتعشانِ والمفتونانِ من بين ضحكاتهما المتساهلة والمرتاحة إلى جسم الفتاة التي لا تزال تخبئ رأسها الجميل الصغير بفتنة وعلى استحياء. عندما أدرك كوبريدا بأنه لا داعي لأن يكون خائفاً من المبادئ الصارمة للأيام الخوالى، خرج من الخزانة ووقف مبتسماً، أشقر، بسترته في يديه - الصبي المودرن اللطيف - تم ضبطه مع ابنة الوالدين. ألقت السيدة الغلامي نظرة شزرا نحوي بشكل خبيث. وقد أحرزت انتصارا. بالتأكيد كنت منحوسا. كنت أرغب في تشويه سمعة تلميذة المدرسة، لكن الفتى المودرن لم يشوه سمعتها بالمرة! ولكي تجعلهم يدركون حضوري الفائض عن الحاجة تماماً، سألتني.

- ولماذا حضرتك موجود هنا؟ لا ينبغي أن تهتم حضرتك بذلك!

امتنعتْ حتى الآن متعمدا عن أن أفتح الخزانة حيث اختبأ بيمكو. كانت نيتي أن أترك الوضع يستقر إلى طبيعته حتى يصل إلى اكتمال أسلوبه المودرن والشاب. الآن فتحت الخزانة بصمت. بيمكو المنكمش كان متحصنا بين الفساتين - ظهرت فقط ساقاه، الساقان الأستاذانِ في السروال المتجعد، ووقفتْ تلك الساقان داخل الخزانة، المندهشتان والمجنونتان والمركبتان...

twitter @baghdad_library

طرحهم تأثير ذلك أرضا وقلبهم. تجمد الضحك على شفاة السيد والسيدة الغلامي. اهتزّ الوضع كأنه تم طعنه من جانبه بسكين من قبل قاتل. شيء غبي.

- ما هذا؟ - همست السيدة الغلامي بوجه شاحب.

تردد من وراء الفساتين صوت سعال خفيف وضحكة حمقاء اعتيادية، والتي كان بيمكو يستعد من خلالها للظهور في الغرفة. بما أنه كان يدرك بأنه سيتوجب عليه أن يظهر بشكل أحمق بعد قليل، فإنه سبق حماقته بضحكه حمقاء. كانت تلك الضحكة الحمقاء من وراء الفساتين النسائية شبيهة بضحكات الكباريه إلى درجة أن السيد الغلامي أصدر قهقة واحدة وسكت فجأة... خرج بيمكو من الخزانة وانحنى وهو يشعر بالحماقة من الخارج، وبالاستياء من الداخل... شعرت داخليا بسادية انتقامية غاضبة، أما خارجيا فانفجرتُ في الضحك. لقد ذاب انتقامي في ضحكي.

ولكن السيد والسيدة الغلامي كانا في حالة ذهول. رجلان في خزانتين! والأسواء أن أحدهما عجوز. لو كانا شابين! أو لو كانا على الأقل عجوزين. ولكن واحد شاب والآخر عجوز. عجوز بالإضافة إلى أنه بيمكو في الوقت نفسه. لم يكن هناك تعليقٌ على الموقف. نظرا إلى الفتاة تلقائيا، لكن تلميذة المدسة تجمدت تحت اللحاف.

سرعان ما رغب بيمكو، بينما كان يتنحنح ويبتسم متضرعا، في توضيح الموقف وبدأ في أن يشرح شيئاً عن رسالة، إن الآنسة زوتة كتبتها... وإنه أراد فقط نورفيد... أما الآنسة زوتة فقد بدأت تناديه باسمِهِ... باسمِهِ... باسمِهِ المجرد... إنه أراد فقط باسمِهِ... باسمه... لا،

لم أسمع في حياتي أبشع ولا أغبى من ذلك في نفس الوقت، كان المحتوى السري والخاص لهذيان الرجل العجوز مستحيل الفهم في الموقف المضاء بضوء ساطع من المصباح في السقف، لا أحد أرأد أن يفهم، لذلك لم يفهم أحد. عرف بيمكو أنهم لم يريدوا، لكنه كان قد تمادى بالفعل - الخوجة الذي خرج من «خوجيته» أضاع نفسه تماماً ولم أستطع أن أصدق بأنه نفس الخوجة ذو الماسورتين المتمرس والمطلق الذي ركب لي البوبو قبل زمن. غارق الآن في كتلة لزجة من توضيحاته، أثار عجزه الشفقة وكنت على وشك أن أندفع إليه ولكنني تراجعت. الهذيان المظلم والعكر لبيمكو دفع المهندس إلى الرسميات - كان ذلك أقوى من الشك المبرر الذي كان يمكنه أن يشعر به تجاهي في هذا الوضع. قال صائحا.

- أود أن أسأل ماذا تفعل هنا في تلك الساعة؟

وهذا بدوره أملى على بيمكو النبرة. استعاد شكله للحظةٍ.

- أرجوك ألا ترفع صوتك.

سأل السيد الغلامي.

- ماذا؟ ماذا؟ هل تجرؤ أن تصححني في منزلي؟

لكن حرم المهندس صرخت بحدة ونظرت من النافذة. ظهر فوق حواجز السور الوجه الملتحي والغصن في فمه. لقد نسيت المتسول تماما! لقد أمرته اليوم أيضاً أن يقف بالغصن، ولكنني نسيت أن أدفع له زلوتيا واحدا. انتظر الرجلُ الملتحي بصمود حتى الليل وعندما رآنا في النافذة المضاءة، أظهر دمامته المستأجرة المجَمَلة بالخُضرة حتى يذكرني بنفسه! جاء أمامنا كأنما جاء على صينية الوليمة.

twitter @baghdad_library

- ماذا يريد هذا الرجل؟ - هتفت حرم المهندس الصغير. لو كانت رأت شبحا لما كانَ تأثيره أكبر من ذلك. سكت بيكمو والسيد الغلامي.

المسكين الذي تركز للحظةٍ اهتمامُ الجميع نحوه، حرك الغصن كأنه شاربه، لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول. من ثم قال.

- حسنةً لله.

- أعطوه شيئاً - خفضتْ حرم المهندس يديها وبسطت أصابعها باتساع - أعطوه شيئاً - صرخت بشكل هستيري - لكي يذهب...

بدأ المهندس يبحث عن فكةٍ في جيوب سرواله، ولكنه لم يجد. أخرج بيمكو فورا محفظته في محاولة منه كي يتشبث بإحكام بأي حركة متاحة وربما حسب أن السيد الغلامي سيقبل منه الفكة في وسط حالة الارتباك العام، وذلك بطبيعة الحال كان سيعرقل المزيد من العدوان - لكن السيد الغلامي لم يقبلها. اقتحمتْ حسابات فكة النافذة واهتاجتْ بين الجميع. أما بالنسبة لي، فكنت واقفا بدمامتي أراقبُ بعناية تطور الأحداث وكنت على استعداد للقفز، ولكن في الواقع نظرت إلى ذلك كما لو كنت على الجهة الأخرى من الزجاج. أين ذهب انتقامي وعبثي في نفوسهم وعواء الواقع المنتزع، وانكسار الأسلوب وجنوني على الأنقاض؟ بدأت المهزلة تنهكني ببطء. لقد أثارتني أفكار متنوعة غير مترابطة، على سبيل المثال - من أين يشتري كوبريدا ربطات عنقه وهل حرم المهندس تحب القطط وكم يدفعون على الشقة؟

كل هذا الوقت ولا يزال كوبريدا يقف ويداه في جيبه. لم يقترب مني الفتى المودرن وحتى لم يُعْطِ أي تعبير بوجهه يدل على معرفتنا ببعضنا البعض - لقد أزعجه إلى حد بعيد رفقته مع بيمكو بسبب الفتاة

عن أن يلتفت لتحية رفيق الصف شبه العاري - كلا الصحبتين لم يكونا ملائمين له بأي حال. عندما بدأ السيد والسيدة الغلامي وبيمكو يبحثون عن الفكة، اتجَهَ كوبريدا بتمهل نحو الباب - فتحت فمي حتى أصرخ، لكن بيمكو الذي لاحظ مناورة كوبريدا، وضع بسرعة محفظته جانبا وتبعه. سرعان ما رآهم المهندس يحاولون الفرار سرا، فأقبل عليهما مثل قط على فأر.

- عفوا! - هتف - لن تهربا بتلك البساطة!

توقف كوبريدا وبيمكو في مكانهما. كوبريدا غاضب للغاية الآن من رفقة بيمكو، ابتعدَ عنه؛

غير أن بيمكو بتأثير حركة كوبريدا اقتربَ منه بصورة تلقائية - وهكذا ظلا معا مثل شقيقين - واحد شاب... والآخرُ عجوز...

أمسكت حرم المهندس بذراع المهندس بعصبية قاتلة.

- لا تعمل فضيحة! لا تعمل فضيحة! - وذلك بالطبع دفعه إلى عمل فضيحة.

- لو سمحتما! - صاح بأعلى صوته - أنا أبوها، أليس كذلك! أسألكما كيف ولأي غرض وجدتما أنفسكما، يا سادة، في غرفة نوم بنتي؟ ماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني ذلك؟

فجأة نظر إلي وسكت، زحف رعبه على خديه، أدرك أن ذلك حطب لناري، لنار الفضيحة - وكان ليهرب، كان ليهرب - ولكن الكلمة خرجت... لذلك كرر من جديد.

twitter @baghdad_library

- ماذا يعني ذلك؟ - بهدوء، من أجل إنهاء كلامه وهو يرجو في أعماقه ألا تتطور المسألة...

خيم صمت، لأنه لا أحد أستطاع أن يجيب. كل منهما كان لديه سبب منطقي ولكن في المجمل لم يكن هناك سبب معقول. اختنقت اللاعقلانية بالصمتِ. وفجأة، تردد من تحت اللحاف نحيب الفتاة المكتوم واليائس. يا لها من بارعة! كانت تنتحب بسمانات ساقيها العاريتين اللتين برزتا أكثر وأكثر من تحت اللحاف أثناء البكاء، وقد وحد بكاء القاصر كلاّ من بيمكو وكوبريدا ووالديها وأدخلهم في حبال الشيطنة. الموقف كله وكأنما قُطع بسكين توقف عن أن يكون مضحكا ولا عقلانيا، أصبح منطقيا من جديد، وكان ذلك منطق مودرن على الرغم من أنه كان مظلما وأسودَ ودراماتيكيا ومأساويا. كوبريدا وبيمكو والسيد والسيدة الغلامي، جميعهم أحسّوا بشعور أفضل - وأنا أحسَسْتُ بشعور أسوأ، كأني خنقت من رقبتي.

- دنستموها - همست الأم - لا تبكي، لا تبكي، يا طفلة...

- مبروك يا أستاذ! - صاح المهندس بغضب. سيكون عليك أن تفسر لي ذلك يا سيد!

بدا أن بيمكو تنهد بارتياح. حتى ذلك كان أفضل بالنسبة له من الوقوع في اللامكان السابق. إذن دنّسوها. تحول الوضع لصالح الفتاة.

- الشرطة! - صرخت أنا - يجب علينا أن نتصل بالشرطة!

كانت الخطوة محفوفة بالمخاطر، لأن الشرطة مع الفتاة القاصرِ شكّلا من زمن طويل، كُلاّ متكاملا جميلا ومتجهّما - ومن ثم رفعَ

السيد والسيدة الغلامي رأسيهما بفخر - أما أنا فقد سعيت إلى تخويف بيمكو الذي شحب وتنحنح وبدأ في السعال.

- الشرطة - كررت الأم وهي تتلذذ بتصور الشرطة فوق ساقي الفتاة العاريتين - الشرطة، الشرطة...

- صدقوني - تأتأ الأستاذ - صدقوني يا حضرات... هذا سوء تفاهم، لقد تم اتهامي بدون دليل...

- نعم! - صرختُ - أنا شاهد. لقد رأيتُ من خلال النافذة! كيف دخل الأستاذ الحديقة من أجل قضاء حاجته. نظرت الآنسة زوتة من خلال النافذة، والأستاذ سلم عليها ودخل بطريقة عادية من الباب الذي فتحته له الآنسة زوتة.

انهارَ بيمكو خوفا من الشرطة وتشبث بهذا التفسير على نحو حقير وجبان، بغض النظر عن معناه المقرف والمخجل.

- نعم، هذا صحيح، لقد انحصرتُ فتمشيت إلى الحديقة، لقد نسيت أن حضراتكم تسكنون هنا - وحدث أن الآنسة زوتة تطلعتْ من النافذة، لذلك أنا تظاهرت، هي هي هي، تظاهرت بأنني أتيت لزيارتكم... أتفهمونني، حضراتكم... في مثل هذا الموقف المحرج qui pro quo, qui pro quo[1]- استمرّ في التكرار.

صعق ذلك المجتمعين بحقارته وسفالته. أخفت الفتاة ساقيها. تظاهر كوبريدا بأنه لا يسمع، أدارت السيدة الغلامي ظهرها إلى بيمكو، ولكن

(١) سوء الفهم (اللاتينية).

twitter @baghdad_library

عند إدراكها بأنها أدارت ظهرها نحوه، بسرعة استدارتْ بوجهها تجاهه. غمز السيدُ الغلامي - ها، وقعا من جديد في براثن الجزء القاتل، عادت البذاءة بكامل قوتها وشاهدت عودتها باهتمام، وكيف أسقطتهم؛ يا ترى هل هي نفسها التي كنتُ أتمرغ فيها مؤخرا، نعم ربما هي نفسها - ولكن الآن كانت بينهم فقط. لم تعط الآنسة الغلامي أي علامة للحياة من تحت اللحاف. وأصدر السيد الغلامي قهقهة - من غير المعروف ماذا كان يدغدغه - ربما qui pro quo لبيكمو أثارت فيه مرة أخرى ذكرى الكباريه الذي كان موجودا في وارسو بذلك الاسم سابقا - انفجرَ بقهقهةٍ نهائية لمهندسٍ صغير، قهقهة خلفية، مروعةٍ وإيمائيةٍ - انفجر - وغاضبا من بيمكو لأنه يقهقه - قفز نحوه وضربه بعنف على بوزه بصفعة دقيقة ومتعالية من المهندس الصغير. ضربه وظل ثابتا بيده الممدودة وهو يلهث. تحولى إلى جدية. تجمد. أتيت بسترتي وحذائي من غرفتي وبدأت ألبس ببطء، دون أن يتلاشى المشهد من أمام عيوني.

صدرت بقبقةٌ من حلق المصفوع وانكتمَ بسدادة - لكني أعتقد أنه في أعماقه كان ممتنا لتلقي هذه الصفعة التى حددته على نحو ما.

- سوف تدفع ثمن ذلك - قال ببرود وارتياحٍ ظاهر. انحنى للمهندس الصغير، والمهندس الصغير انحنى له. اتجهً بيمكو للخروج بلهفة مستفيدا من الانحناءة. انضمّ كوبيردا إلى انحناءاته فورا وتبعَ بيمكو، على أمل أن يهرب خلسة... قفز السيد الغلامي.

- ماذا؟ - هناك عواقب يجب أن تواجه، مبارزة، وذلك الوغد يريد الخروج كأن شيئاً لم يحدث، يريد أن يهرب من المسؤلية! إذن سأصعفه أيضاً على بوزه! وثب المهندس نحوه بيده الممدودة، ولكن

في لحظة سريعة أدرك بأنه لا يمكنه أن يضرب وجه فتى بِبَرابير، طالب وصبي يافع أخضر، ولوى ذراعه بغرابة وبدلا من أن يضربه، أمسك به - حيث لم يتمكن من إيقاف الاندفاع - أمسك به من طرف ذقنه. ذلك الإمساك غير القانوني أغضب كوبريدا أكثر مما لو كان تم صفعه على وجهه، وما هو أكثر من ذلك، أطلقت الحركة الخاطئة غير القانونية بعد ربع ساعة طويلة من اللامعنى سراح غرائزه الأكثر بدائية. الله وحده يعلم ماذا كان يفقس في رأسه - إذا مسكه المهندسُ عمدا، أو «إذا كنتَ أنت عليّ، فأنا عليك» - لا بدّ أن فكرة مثل تلك كانتْ مسيطرة عليه وبالتالي وطبقا للقانون الذي ينبغي ربما أن نطلق عليه «قانون الأقطار المتقابلة»، انحنى وأمسك بالمهندس من تحت ركبته. سقط السيد الغلامي محدثا ضجة - حيث عضه كوبريدا في جانبه الأيسر، قبض عليه بأسنانه ولم يتركه - ثم رفع وجهه وسرح بعينيه في جميع أنحاء الغرفة بجنون، بينما استمرّ في العض.

كنت أربط ربطة عنقي وألبس سترتي لكني توقفت، مفتون. لم أرى أبدا شيء من هذا القبيل. هرعت السيدة الغلامي لإنقاذ زوجها، أمسكت كوبريدا من ساقه وشددته بكل قوتها. تكوموا جميعا وانهاروا في كومة وحيدة. والأسوأ من ذلك أن بيمكو الذي كان يقف على بعد خطوةٍ من الكومة، قام فجأة بشيء غريب جدا، يكاد أن يكون غير مناسب لقوله. هل شك الخوجة في نفسه في نهاية المطاف؟ هل استسلم؟ هل افتقر إلى الإرادة لأن يقف في حين أن الآخرين واقعون؟ هل بدا له أن الوقوع ليس أسوأ من الوقوف؟ يكفي القول أنه أوقع نفسه في الزاوية على ظهره طوعا ورفع أطرافه إلى الأعلى في حركةٍ مستسلمة. ربطت ربطة عنقي. وحتى أنني لم أشعر بالإثارة عندما نزعت الفتاة اللحاف ورمته جانبا،

twitter @baghdad_library

وبدأت فجأة بالبكاء وقفزت حول السيد والسيدة الغلامي المتكومين مع كوبريدا كأنها حكم مباراة ملاكمة وهي تترجاهما من خلال نحيبها.

- ماما! بابا!

المهندس المعطل إحساسه من الدوران، باحثا عن مسند ليديه، أمسكها بساقها من فوق كاحلها. سقطت. الأربعة تدحرجوا بصمت على الأرض كما لو كانوا في كنيسة، لأن العار لم يسمح لهم بغير ذلك. في نفس اللحظة رأيت أن الأم تعض ابنتها وكوبيردا يجذب السيدة الغلامي، أما المهندس فكان يدفع كوبيردا، ثم لمحت أمام عيني سمانة ساق الآنسة الغلامي على رأس الأم.

في الوقت نفسه بدأ الأستاذ في الزاوية يبدي انحيازا أكثر وأكثر نحو الحشد - مستلقيا على ظهره، بأطرافه إلى الأعلى، انحرف بشكل واضح في هذا الإتجاه وتمايل مهتزا نحوهم بلا حراك، لأنه بلا شك أن الحشد والكومة أصبحت حله الوحيد. لم يتمكن من الوقوف على قدميه، لم يكن هناك أي مبرر للوقوف - إنما لم يتمكن أيضاً من الاستمرار مستلقيا على ظهره. التشبث بشيء كان كافيا بالنسبة إليه، وعندما تدحرجت العائلة مع كوبيردا بالقرب منه - أمسك بالسيد الغلامي من منطقة بجوار كبده وانجذب معهم في الدوامة. كنت على وشك الانتهاء من جمع متعلقاتي الضرورية في حقيبة صغيرة، لبستُ قبعتي. لقد تعبت من ذلك كله. وداعا للمودرن، وداعا للسيد والسيدة الغلامي ولكوبريدا، وداعا بيمكو - لا، ليس وداعا، لأنه كيف لي أن أقول وداعا لشيء لم يعد موجودا. غادرت وأنا تغمرني السعادة. يا للذة، يالها من لذة أن أنثر الغبار من على حذائي وأن أغادر وألا أترك أي شيء

ورائي، لا، لا أغادر ولكن أن أذهب... هل كان ذلك لأن بيمكو، الخوجة الكلاسيكي، ركب لي البوبو وأصبحت طالبا في المدرسة، صبي مودرن مع فتاة مودرن، وأنني كنت أرقص في غرفة النوم، وأقتلع أجنحة ذبابة وأتلصص على الحمام، ترا لا لا... أنا كان عندي البوبو والدمامة وسمانة الساق ترا لا لا... لا، اختفوا جميعهم، لم أكن شابا ولا عجوزا، لا مودرن ولا من طراز قديم، لا طالبا ولا صبيا، لا ناضجا ولا غير ناضجٍ، لم أكن هذا ولا ذاك، كنت لا شيء... أن أغادر وأذهب، أن أذهب وأغادر وألا أحمل أي ذكريات. أوه اللامبالاة السعيدة! بلا ذكريات! عندما يموت فيك كل شيء ولم ينجح أحد حتى الآن أن يبعثك من جديد. أوه، تستحق الحياة أن تعيشها من أجل الموت، حتى نعرف أن كل شيء قد مات فينا، وأنه لم يعد موجودا، كل شيء فارغ وخالٍ، كل شيء هادئ ونقي - وعندما غادرت، بدا لي أني لم أذهب وحدي، ولكن كنت مع نفسي - بجانبي مباشرة وربما في داخلي، أو من حولي كان يذهب شخص متطابق ومتجانس، لي - في داخلى، لي - معي ولم يكن بيننا الحب والكراهية والشهوة والاشمئزاز والقبح والجمال والضحك وأجزاء الجسد والمشاعر ولا أي آلية، لا شيء، لا شيء، لا شيء... ولكن ذلك كان فقط لجزء من المائة من الثانية. لأنه عندما مررت بالمطبخ وأنا أتلمس طريقي في شبه الظلام، نادى صوت بهدوء من غرفة الخدم.

- جوي، جوي...

كان الكباس الذي كان جالسا على الخادمة يلبس حذاءه على عجل.

- هذا أنا هنا. هل أنت خارج؟ انظرني، سوف أخرج معك.

twitter @baghdad_library

طعنني همسه من جانبي وتوقفت كما لو ضربتني رصاصة. لم أستطع أن أميز دمامته بشكل جيد في الظلام، ولكن بالحكم على صوته فلابد أنها كانت بشعة. كانت الخادمة تلهث بشدة.

- ششش... بهدوء. لنذهب - نزل من على الخادمة - من هنا، من هنا... حذار - سلة.

وجدنا أنفسنا في الشارع.

كان وقت الشروق. المنازل والأشجار وحواجز الأسوار امتدت بترتيب كأنها مشدودة على خيط - والهواء شفاف على الأرض، تكثف متصاعدا على شكل ضباب يائس. الأسفلت. الفضاء. الندى. الفراغ. بجانبي الكبّاس وهو يزرر سرواله. حاولت ألا أنظر إليه. من نوافذ الفيلا المفتوحة - يلوح ضوء كهربائي باهت وصوت أجساد تتدحرج متواصلة. برد قارس، برودةُ أرَقِ القطار؛ بدأت أرتعش وتصطك أسناني. عندما سمع الكباس صوت الأجساد المتدحرجة للسيد والسيدة الغلامي من خلال النافذة، قال:

- ما هذا؟ هل هناك جلسة مساج؟

لم أُجِبْ، وبعد أن رأى الحقيبة الصغيرة في يدي، سألني:

- هل ستهرب؟

طأطأتُ رأسي. كنت أعرف بأنه سيمسك بي، كان لا بد أنه سيمسك بي، لأننا كنا فقط نحن الاثنين وبجانب بعضنا البعض. لكني لم أستطع أن أبتعد عنه بدون إعطاء سبب. وبالتالي اقترب مني واختطف يدي بيده.

- هل ستهرب؟ سأهرب أنا أيضاً. سنذهب معا. اغتصبت الخادمة.

ولكنه ليس هذا، ليس هذا... عامل مزرعة، عامل مزرعة! لنهرب إلى الريف - لو أردت. سنذهب إلى الريف. يوجد هناك عمال المزرعة! في الريف! سنذهب معا، هل تريد؟ إلى عامل المزرعة، يا جوي، إلى عامل المزرعة، إلى عامل المزرعة! - استمَرَّ في كلامه بشكل مسعور. جعلتُ رأسي في وضع مستقيمٍ ومتصلبٍ، بدون أن أنظر إليه.

- يا كبّاس، ما شأني بعامل مزرعتك؟ - لكنني عندما شرعتُ بالذهاب، ذهب معي وأنا ذهبت معه - وذهبنا معا.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

مقدمة لِفِيلِيْبَرتْ المبطن بالطفل

ومرة أخرى مقدمة... أنا أسير المقدمة، ولا أستطيع أن أعمل بدون مقدمة ويجب أن تكون لدي مقدمة لأن قانون التماثل يفترض بأن قصة «فيليدور المبطن بالطفل» تقابلها قصة «فيليبَرتْ المبطن بالطفل»، والمقدمة لـ«فيليدور المبطن بالطفل» تقابلها مقدمة «فيلِيبَرتْ المبطن بالطفل». حتى لو أردت، فأنني لا أستطيع، لا أستطيع ولا أستطيع أن أتفادى القوانين الحديدية للتماثل والقياس. ولكن الوقت مناسب لكي أتدخل، أن أتوقف وأنبعث من الخضرة ولو للحظة وأن أستعيد وعيي وأنظر بدقة من تحت عبء مليار من البراعم والعُقَدُ الساقية والأوراق الصغيرة، حتى لا يقول أحد أنني أصبحت مجنونا تماماً بلا بلا. وقبل أن أتقدم في طريق الأهوال غير الإنسانية تماماً والثانوية والمتوسطة، ينبغي لي أن أوضح وأرشد وأبرر وأشرح وأنظم وأن أستخرج الفكرة الجوهرية التى تستنبط منها جميع الأفكار في هذا الكتاب، وأكشف التعذيب الأولي لكل العذابات المذكورة والمبينة هنا. ويجب علي أن أدخل التسلسل الهرمي للعذابات والتسلسل الهرمي للأفكار على حد سواء، أن أعلق على العمل بشكل تحليلي وتركيبي وفلسفي، حتى يعرف القارئ أين الرأس وأين الساقانِ وأين الأنف وأين الكعب، وحتى

twitter @baghdad_library

لا أتهم بأنني غير مدرك لأهدافي الخاصة وبأنني لا أمشي باستقامةٍ ونظام وحزم مثل أعظم الكتاب على مر الأزمان، لكني أهرول فاقدا صوابي. ولكن أي عذاب هو الرئيسي والأساسي؟ أين يكمن العذاب الأولي للكتاب؟ أين أنتِ، يا أمَّ العذابات الأولية؟ كلما أفحص أكثر وأبحث وأهضم، أرى بوضوح أكثر أن العذاب الأساسي والحادث هنا في اعتقادي، هو عذاب سوء الشكل، الـ exterieur السيئ، أو بكلمات أخرى عذاب الكليشيه والتكشير والتمثيل والدمامة - نعم، إنه المصدر والينبوع والنواة، ومن هنا تتدفق بانسجامٍ ودون استثناء جميع المعاناة والهوائج والهموم الآخرى. ولكن من الأفضل القول بأن العذاب الأساسي ليس إلا المعاناة التى تحدث من تقييدنا من قبل إنسان آخر، من حقيقة أننا نختنق وننكبتُ ضمن التصور المحدود والضيق والثابت عنا هو لدى الإنسان الآخر. أو ربما يستندُ أساسُ هذا السِفرِ إلى العذاب الأولي والقاتل لخضرة البراعم والأوراق الصغيرة والشطئات غير الكاملة إنسانيا

أو عذاب التنمية والتنمية غير الكاملة تماما

وربما معاناة التشكيل غير التامّ والتكوين غير التام

أو عذاب تخليق الأنا الداخلية من خلال الآخرين

عذاب الاغتصاب البدني والنفسي

معاناة توترات العلاقات الشخصية الديناميكية

عذاب غير محدد ومنحاز للانحياز النفسي

التعذيب الجانبي للالتواء والجزع والأداء النفسي غير البارع

عذاب الخيانة المتواصل والخداع

المعاناة التلقائية للميكانيكية والآلية

عذاب القياس المتماثل وعذاب التماثل القياسي

معاناة التركيب التحليلي ومعاناة التحليل التركيبي

وربما ألم أجزاء الجسد واضطراب التسلسل الهرمي لأعضائه المنفردة

أوجاع الطفولية الخفيفة

والبوبو والتربية والشكليات المدرسية ونظام التعليم

والبراءة والسذاجة التي لا عزاء لها

والابتعاد عن الواقع

والأوهام الغريبة والتخيلات والآمال بعيدة التحقق والأفكار الباطلة والهراء

والمثالية العليا

والمثالية الدنيا الحقيرة في الزوايا المظلمة

وأحلام اليقظة الهامشية غير الشريفة

وربما عذاب الضآلة والتصغير الشاذ

عذاب تنافسية الترشح

عذاب الإرادة

عذاب التقدم بأي طلب

وربما مجرد معانة سحب نفسك إلى الأعلى والتحمس بما يتجاوز حدود قدرتك وبالتالي عذاب عدم الاستطاعة العامة والخاصة الناتجة عنها

twitter @baghdad_library

عذاب التفوق والإعجاب بالنفس
ألم إذلال الآخرين
معاناة الشعر الأعلى والأدنى
أو متاعب المأزق النفسي الكئيب
العذاب المخادع للمراوغة والمداراة والغش
أو على الأصح عذاب العمر في معناه الخاص والعام
معاناة الطرز القديمة
معاناة الطرز المودرن
معاناة بسبب ظهور طبقات اجتماعية جديدة
عذاب أشباه المثقفين
عذاب غير المثقفين
متاعب المثقفين
أو ربما مجرد عذاب عدم الاحتشام للمثقفين الصغار
ألم من الغباء
من الذكاء
من القبح
من الجمال والجاذبية والفتنة
أو ربما متاعب المنطقية القاتلة واتساق في الغباء
لوعة التلاوة
يأس التقليد

متاعب الملل المملة والكلام المكرر مرارا وتكرارا

أو ربما العذاب المهووس للهوس

متاعب غير الموصوف للاموصوف

عدم التسامي الموجع

ألم الإصبع

الظفر

الأسنان

الأذن

متاعب التوافق المرعب والاعتماد المتبادل والاختراق المتداخل وترابط جميع العذابات وجميع الأجزاء وعذاب مائة وستة وخمسين ألف وثلاث مائة وأربعة وعشرين ونصف من العذابات الأخرى، بدون حساب النساء والأطفال، كما كان سيقول مؤلف فرنسي عجوز من القرن السادس عشر.

أية من تلك العذابات يمكن أن يكون هو العذاب الأولي الأساسي وأي جزء يعتبر مكملا يمكنك من خلاله أن تتناول الكتاب وما الذي يجب أن تلتقطه من العذابات والأجزاء المذكورة أعلاه؟ يالها من أجزاء لعينة، هل سأتحرر منك أبدا، آه، يا لثراء الأجزاء ويا لثراء العذابات! أين الأم الأولية الرئيسية وهل يجب أن أعتبر أن أسس العذاب الميتافيزيقية أم الفيزيائية، الاجتماعية أم النفسية؟ رغم ذلك لا بد لي، لا بد لي وإلا فلن أستطيع، لأن العالم مستعد أن يعتبرني غير مدرك لأهدافي وأني أهرول فاقدا صوابي. ولكن ربما في هذه الحالة سيكون

twitter @baghdad_library

أكثر عقلانية أن أتطور وأبرز أصل العمل بالكلمات وليس على أسس العذابات، بل «في مواجهة» و«بالنسبة إلى» و«بخصوص»، إنه أنشأ:

بخصوص المعلمين وطلاب المدارس

في مواجهة الحمقى المدعين بمعرفة كل شيء

بشأن الكائنات العميقة والعليا

بالنسبة إلى الشخصياتِ البارزة في الأدب الوطني المعاصر وممثلي النقد الأكثر صقلا والمنظمين والجامدين

بالنسبة إلى تلميذات المدارس

بخصوص الناضجين والرجال العالمين ببواطن الأمور

في الارتباط المتبادل بالرجال شديدي التأنق والغندورين والعاشقين لذواتهم ومتذوقي الجمال ومحبيه ومتابعي الفنون السامية ومرتادي الأماكن الراقية

بالنسبة إلى الخبراء في الحياة

الأسرى عند عمات الثقافة

بخصوص الأعيان في المناطق الحضرية

في مواجهة الأعيان الريفيين

بشأن الأطباء الصغار من الأقاليم والمهندسين وموظفي الحكومة ذوي الآفاق الضيقة

بشأن موظفي الحكومة الكبار والأطباء والمحامين ذوي الآفاق الواسعة

بخصوص الأرستقراطية المتوارثة وغيرها

في مواجهة الغوغاء.

ومن المحتمل أيضاً أن عملي نشأ من عذاب التفاعل مع شخص معين، مثل السيد س المثير للاشمئزاز والسيد ص الذي أحتقره وس ص المتعب والمنَفّر بالنسبة لي- أوه، يا لها من عذابات رهيبة للتفاعل معهم! و- ربما - سبب وغرض هذا السِّفْر ليس إلا أن أظهر لهم ازدرائي وأن أغضبهم وأزعجهم وأثير سخطهم وأن أصدّ عنهم في طريقي. في هذه الحالة، فإن السبب سيصبح محدداً ومميزاً وخاصاً وفردياً.

ولكن ربما نتج عملي من تقليد الأعمال الرائعة؟

من عدم القدرة على انتاجِ عمل عادي؟

من الأحلام؟

من التعقيدات؟

أو ربما من ذكريات الطفولة؟

أو ربما لأنني بدأت الكتابة وبالتالي تم إنتاجه؟

من اضطراب القلق؟

من اضطراب الوسواس القهري؟

ربما من فقاعة؟

من نتفة؟

من جزء؟

من جزءين؟

من لا شيء؟

twitter @baghdad_library

ينبغي علي أن أقرر أيضاً وأعلن وأحدد إذا كان العمل رواية أو مذكرات أو عملاً ساخراً أو عملاً هجائياً أو تناولاً مختلفاً لموضوع الفنتازيا أو دراسة - وما هو العنصر الغالب فيه: النكتة أو السخرية أو المعنى العميق أو الاستهزاء أو الأطروفة أو مجرد الهراء، كلام خاوٍ من المضمون تماماً، وبعدئذ إذا لم يكن ذلك مجرد تظاهر أو إدعاء أو إيهام أو هراء أو تصنع أو قلة خفة الظل أو فقر العواطف أو ضمور الخيال أو تقويض النظام أو هدم الدماغ. ولكن إجمالي الإمكانيات والعذابات والتعريفات والأجزاء يفوق الحصر وهو خارج الاستيعاب ولا ينضب إلى درجة أنه ينبغى القول بمسؤولية أعمق عن الكلمة وبعد تبصّرٍ مدقق أننا لا نعرف شيئاً، صو، صو، أيها الفرخ الصغير؛ ومن ثم أولئك الذين يرغبون في التعمق والفهم الأفضل، فليتفضلوا، أرجوكم أن تقرأوا «فِيليبَرت المبطن بالطفل» لأنني وضعتُ في رمزيته السرية ردي على جميع الأسئلة المقلقة. لأن «فيليبرت» الذي تم تثبيته نهائياً وعلى أساس القياس على «فيليدور»، يخفي في طيات اتحاده الغريب معنى العمل السري والنهائي. وبعد كشف ذلك لن يوقفك أي شيء من أن تغامر بشكل أعمق في أحراش الأجزاء المنفصلة والرتيبة.

الفصل الثاني عشر

فيليبرت المبطن بالطفل

في نهاية القرن الثامن عشر كان لدى فلاح من باريس طفلٌ وكان لدى هذا الطفل طفل أيضاً، ثم كان لدى ذلك الطفل طفلٌ آخر كان هو أيضاً لديه طفل، والطفلُ الأخير كان يلعب مباراة تنس كبطل للعالم في ملعب التنس الشهير لنادي سباقات باريس، في أجواء توتر شديد وبمصاحبة تصفيق هادر لا يتوقف. غير أنّ (ويا لها من حياة غادرة بشكل لا يصدق!) عقيداً من زواف[1] جالساً بين المتفرجين في المدرجات المكشوفة، سرعان ما شعر بالحسد تجاه البطلين في المبارة المثيرة التى لا يشوبها أي خطأ، وأراد هو أيضاً التباهي بمهاراته أمام ستة آلاف مشاهد (خصوصاً أن خطيبته كانت تجلس إلى جانبه) - فجأة أطلق النارَ من مسدّسه على الكرة الطائرة في الجو. انفجرت الكرة وسقطت، أما البطلان اللذان حُرمَا بغتةً من هدفهيما، فحاولا لبعض الوقت أن يحركا مضربيهما في الفراغ، ولكن عندما أدركا سخافة حركتهما دون كرة، انقضّا على بعضهما البعض بمخالبهما. انطلقَ وسط المتفرجين صوتُ تشجيعٍ هادر.

---

(١) ضابط المشاة الجزائريّ في وحدة جيش فرنسيّة.

twitter @baghdad_library

ربما كان الأمر سينتهي عند هذه النقطة. لكن طرأ ظرْفٌ آخر أن العقيد في غمرة إثارته نسي أو لم يأخذ في اعتباره (أوه، كم يجب عليك أن تكون حذراً!) المتفرجين الجالسين في مقابل الملعب في ما يسمى المدرجات المكشوفة. بدا له دون سبب معروف، أن الرصاصة بعد أن اخترقت الكرة كانت ستتلاشى؛ بينما استمرتْ، للأسف، في مسارها حتى أصابت مالك بواخر بحرية في رقبته. تدفق الدم من الشريان الممزَّق. أرادت زوجة المصاب تحت تأثير الانفعال الأوّلي أن تهجم على العقيد وتخطف مسدسه، لكنها لم تتمكن من ذلك (لأنها كانت محاصرة بين الجماهير) فلطمت جارها الذي على يمينها على بوزه. لطمته لأنها لم تستطع أنْ تنفسَ عن انفعالها بأية طريقة أخرى ولأنها اعتقدتْ في أعماق نفسها، تحت وطأة منطق أنثوي خالص، أنه يجوز لها كامرأة فعل ذلك ومن الذي سيمنعها؟ ولكن أصبح واضحاً أن الأمر لم يكن كما كانت تظن تماماً (أوه، يجب عليك أن تضع في حساباتك كل شيء على نحو مستمر) لأن جارها كان مصاباً بصرع كامن ومن تأثير الصدمة النفسية الناتجة عن اللطمة، أصيب بنوبة وانفجر مثل المحموم بالارتعاشات والتشنجات. أما المرأة اليائسة فوجدت نفسها بين رجلين، أحدهما يتدفق منه الدم، والآخر تدفقت منه الرغوة. انطلقَ وسط المتفرجين صوتُ تشجيعٍ هادر.

حينئذ ثمة شخص ما كان جالساً على مقربة وفي خضم الذعر المفاجئ، وثب على رأس السيدة الجالسة أسفله التى انطلقتْ بدورها وقفزت إلى وسط الملعب بأقصى سرعة وهي تحمله على ظهرها. انطلقَ وسط المتفرجين صوتُ تشجيعٍ هادر. ربما كان الأمر سينتهي عند هذه النقطة. ولكن طرأ ظرْفٌ آخر(كم يجب عليك أن تتوقع كل شيء دائماً!)

كان شخص من تولوز متقاعد أنهى خدمته ومتواضع وحالم في أعماقه، يجلس على مقربة وكان منذ زمن يحلم بأن يقفز على رؤوس الناس الجالسين في الأسفل أثناء المناسبات العامة، لكنه كان يمنع نفسه قبل ذلك بقوة إرادته فقط. والآن بعد أن رأى المثال أمامه، قفز فوراً على ظهر السيدة الجالسة أسفله (وكانت موظفة صغيرة جاءت حديثاً من طنجة في أفريقيا) فظنَّت أن كل ما يحدث هو تصرفٌ لائقٌ في المدينة - وانطلقتْ به على ظهرها وهي تبذل قصارى جهدها في ألا تظهر أية مظاهر للحرج في تحركاتها.

عندئذ بدأ الجزء الأكثر تهذيباً من المتفرجين يصفق بلباقة حتى يتسترَ على الفضيحة الحادثة أمام ممثلي المفوضيات الأجنبية والسفارات الذين كانوا محتشدين في المباراة. ولكن حدث سوء فهم هنا أيضاً، لأنَّ الجزء الأقلَّ تهذيباً رأى في التصفيقَ دلالة على الموافقة - فاعتلوا ظهور سيداتهم كذلك. أظهر الأجانب دهشة متزايدة. ماذا بقيَ، بالتالي، لباقي الجمهور الأكثر تهذيباً؟ ولكي يُداروا الحدثَ اعتلوا ظهورَ سيداتهم أيضاً.

ربما كان الأمر سينتهي عند هذه النقطة. لكن الماركيز دي فيليبرث بذاته الذي كان يجلس في المقصورة مع زوجته وعائلة زوجته، شعَرَ فجأةً بأنه جنتلمان فانطلقَ إلى وسط الملعب مرتدياً بدلته الصيفية الفاتحة، وهو شاحب ولكنه مصمم في الوقت نفسه - وسأل ببرود اذا ما كان هناك أحد ما ومن هو بالإسم؟ يريد أن يهين الماركيزة دي فيليبرث - زوجته؟ ثم رمى على الحشد حفنة من كروته الشخصية المكتوب عليها: فيليب هرتال دي فيليبرث. (آه، كم يجب علينا أن نكون حذرين

twitter @baghdad_library

بحدَّة! يا لها من حياة صعبة وغادرة، ولا يمكن التنبؤ بها!). خيَّم صمت قاتل.

وفجأة بدأ ما لا يقل عن ستة وثلاثين رجلاً بالاقتراب من الماركيزة دي فيليبرث بمشيةِ خيلٍ متئدةٍ وببطء، بدون سرج، على نسائهم ذوات الأصول العريقة، النحيفات في عراقيبهن، الأنيقات، بملابسهن الفخمة، حتى يهينوهنّ ويشعروا بأنهم جنتلمَنات بما أن زوجها الماركيز، شعر بأنه جنتلمان. أما هي فقد أجهضت من الخوف - وسُمِعَ أنين الطفل عند أقدام الماركيز تحت وطأة حوافر النساء. الماركيز الذي تبطن بالطفل بشكل غير متوقع للغاية، واستندَ واكتملَ بالطفل حين كان يقدم مثالاً فردياً وكجنتلمان ناضج في ذاته، أصيب بالإحراج وذهب إلى المنزل - بينما انطلقَ وسط المتفرجين صوتُ تشجيعٍ هادر.

الفصل الثالث عشر

عامل المزرعة أو حالة أَسْرٍ جديدة

وبالتالي أنا والكباس ذاهبان للبحث عن عامل المزرعة. تلاشت الفيلا عند زاوية الشارع مع رفات عائلة الغلامي وهم يتدحرجون، أمامنا - امتدادُ طويل لشارع «فيلتروفى»، شريط لامع. أشرقت الشمس، كرة صفراء، نحن نتناول الإفطار في حانة، تستيقظ المدينة، الساعة الآن الثامنة، نعاود الإنطلاق، أنا بحقيبتي الصغيرة، أما الكباس فبعصا المشي. تزقزق الطيور الصغيرة على الأشجار. هيا، هيا! يسير الكباس بنشاط، يحمله الأمل في المستقبل وأنا أشاركه في أمله، أنا - أسيره! - إلى الضواحي، إلى الضواحي - يكرر - سوف نجد عامل المزرعة اللطيف هناك، سنجده هناك! رسم عامل المزرعة الصباح بألوان براقة ولطيفة، وكان المشي عبر المدينة للبحث عن عامل المزرعة ممتعاً ومبهجاً! ماذا سأكون؟ ماذا سيجعلون مني؟ وأية ظروف ستحدث؟ لا أعرف أي شيء، أسير بنشاط خلف سيدي الكباس، ولا يجوز لي أن أكون متعباً ولا حزيناً، لأنني في مزاج جيد! أبواب المنازل في هذه المنطقة قليلة جداً وتفوح منها رائحة البوَّابين مع أسرهم. يتلصص الكباس بالنظر داخلها كلها، ولكن البواب شيء مختلف تماماً عن عامل مزرعة، أليس البواب مجرد فلاح في وعاء زهور؟ هنا وهناك نصادف

twitter @baghdad_library

إبن بوَّاب، ولكنّ أيا منهم لا يرضي الكباس، لأنه أليس ابنُ البواب في الواقع هو عامل المزرعة محبوساً في قفص، محبوساً في بئر السلم.

- لا يوجد ريح هنا - يعلن - في تلك الأبواب لا توجد إلا تيارات هوائية، وأنا لا يعجبني عامل مزرعة في تيارات هوائية، بالنسبة لي عامل المزرعة هو الذي يتواجد حيث تهب الرياح العاتية.

نمرَ بمربيات الأطفال والحاضنات اللواتي يدفعن الرضع في عربات أطفال ذات صرير. وهن يرتدين فساتين سيداتهن المهترئة ويمشين على كعوب أحذيتهن الملتوية ويلقيين نظرات إغراء إلينا. سِنّان ذهبيان في فميهما، مع أطفال ناس آخرين، يرتدين ملابس بالية ورؤوسهن تحلم برودلف فالنتينو. نمر بالمديرين والموظفين بحقائبهم تحت أذرعهم، مسرعين إلى مهامهم اليومية، وهم جميعاً مصنوعون من عجينة الورق، مكتبيون وسلافيون، بأطراف أكمامهم وأزرارها كما لو أنها تمثل سلسلة لحمل الأنا الخاصة بهم، كأنما كان عند كل واحد منهم سلسلة ساعة خاصة، أولئك أزواج زوجاتهم وأربابُ عمل الحاضنات. فوقهم سماء كبيرة. نمرُّ بالعديد من المتأنقات اللواتي يرتدبن المعاطف بأناقة وارسو، بعضهن نحيفات ورشيقات، وآخريات أبطأ وأكثر نعومة، منغرزات في قبعاتهن ويشبهنَ بعضهنَّ البعض وتلحق الواحدة بالثانية وتتجاوزها. لم يتكرم الكباس حتى بالنظر إليهنَّ، أما أنا فأصابني ذلك بملل شديد حتى بدأت أتثاءب.

- نحو أطراف المدينة - صاح - سنجد هناك عاملَ المزرعة، هنا لا يوجد أي شي لنعمله، جميعهم رخيصون، الدستة بقرش، أبقار وخيول الإنتلجنسيا، زوجات المحامين وحاضناتهن وأزواجهن مثل

خيول الحنطور. اللعنة، اللعنة، تبا لهم، الأبقار والبغال! أنظر، كم هم متعلمون وعلى الرغم من ذلك فإنهم أغبياء في الوقت نفسه! كم هم مبالغون في ملبسهم، اللعنة، على الرغم من أنهم في منتهى الوقاحة! البوبو، البوبو، تبًّاً!

في نهاية «شارع فافل» رأينا بعض مباني البلدية، المصممة على أعظم مقياس بمظهرها الهائل بمثابة طعام إفطارٍ لجماهير دافعي الضرائب الجائعين والمرهقين. ذكرتنا المباني بالمدرسة فأسرعنا في خطانا. في ميدان ناروتوفيتش[١] حيث يقع سكن الطلبة، صادفنا مجموعة طلابٍ متعبين من قلة النوم يرتدون بنطلونات مهترئة وشَعْرُ جميعهم غير مقصوص، يهرولون إلى محاضرة أو ينتظرون تراما. كلهم، أنوفهم في كتبهم، كانوا يأكلون بيضاً مسلوقاً، ويدسون قشور البيض في جيوبهم، بينما يتنفسون غبار المدينة.

- أف، هؤلاء عمال المزرعة السابقون! - هتف - كلهم أبناء الفلاحين يدرسون حتى يصبحوا مثقفين! فليذهب عمال المزرعة السابقون إلى الجحيم! أكره عمال المزرعة السابقين! ما زالوا يمسحون أنوفهم بأصابعهم وقد بدأوا دراستهم بالفعل! معارف الكتب داخل فلاح! أصبح الفلاح محامياً أو طبيباً! أُنْظُرْ فقط إلى رؤوسهم إنها تتضخَّم من المصطلحات اللاتينية كيف تبدو أصابعهم الغليظة! يالها من كارثة - أرغى الكباس - إنِ ذلك بمثل بشاعة أن يدرسوا ليصبحوا رُهبانا! آه، كم كان بينهم عمال مزرعة جيدون وفائقو المهارة، ولكن

---

(١) في الثلاثينات أحد أكبر الميادين في وارسو المسمى تكريما باسم الرئيس البولندي الأول (Gabriel Narutowicz 1865-1922).

twitter @baghdad_library

كل ذلك ذهب هباء - لقد غيروا جلودهم، لقد قُتلوا، ذُبحوا! إلى الضواحي، إلى الضواحي، الرياح العاتية تهب هناك!

استدرنا نحو شارع غرويتسكي - الغبار والضوضاء والرائحة الكريهة، تنتهي المباني الكبيرة، وتبدأ العمارات الصغيرة، وعربات محملة بجميع البضائع اليهودية، العربات العامرة بالخضار وريش البجع وبالحليب وبالملفوف وبالحبوب وبالقش وبخردة الحديد، والقمامة، تملأ الشوارع بجلجلتهم وقعقعتهم وخشخشتهم. على كل عربة يهتز فلاح أو يهودي - إما فلاح المدينة أو يهودي الريف - لا أعرف أيهم أفضل. نتوغل أكثر وأكثر في المناطق الدنيا، في ضواحي المدينة غير الناضجة وتزيد أعداد الأسنان المكسورة والآذان المحشوة بالقطن والأصابع الملفوفة بالخرقِ، والشعر المشحم بالدهن، والزغطات ورؤوس الجلد السوداء، والكرنب والعفن. الحفاظات المعلقة على النوافذ لتجف. الثرثرة المستمرة في الراديو، الحملة التعليمية تغلي، والعديد من البيمكوهات يعلمون أرواح أصحاب الصيدليات، بصوتهم الساذج على نحو مصطنع وبمودة أو خشونة أو مرح، بينما يشرحون لهم مسؤولياتهم ويدرسون لهم الحب لكوشتشوشكو[١] البقالون يتذوقون قراءة الجرائد الرخيصة التى تصف حياة الطبقة العليا وزوجاتهم يهرشون ظهورهن ويستعدنَ ذكريات أمسية الأمس مع مارلين ديتريش. العملية التربوية قائمة على قدم وساق وهناك الكثير من المندوبات

(١) تادئوش كوشتشوشكو (Tadeusz Kościuszko, 1746-1817) -جنرال ووطني بولندي، بعد تقسيم بولندا الثاني في ١٧٩٢ قاد انتفاضة وطنية عام ١٧٩٤ لكنّ ثورته هُزمتْ من الروس عند ضواحي وارسو وأدى ذلك لتقسيم ثالث.

يهرعن بنشاط بين أبناء الشعب، يُعَلّمنَ ويرْشدنَ، ويُؤثرْنَ فيهم ويُطوّرنَ، يُوقظنهم ويجعلنهم اجتماعيين بتعبيرات وجوههن المنبسطة لهذا الغرض. ههنا مجموعة من زوجات سائقي الترام يرقصن في دائرة ويغنين مبتسمات ويعززن فرح الحياة تحت إشراف شخص مثقف بشوش تم إضحاكه خصيصاً وتوكيله لهذا الهدف، وهناك سائقو الحنطور يغنون أناشيد ويخلقون إحساساً غريباً من البراءة. في أماكن أخرى، الفلاحات الشابات السابقات يتعلمن اكتشاف الجمال في غروب الشمس. وعشرات العقلانيين والدوغماتيين والديماغوجيين والمشاغبين يحولون ويقولبون الناس، حيث يزرعون آراءهم ومفاهيمهم واعتقاداتهم وأفكارهم التي بسطت جميعها لهذا الغرض وأعدت خصيصاً للصغار.

- دمامة، دمامة - قال الكباس بفظاظته المعتادة - تماماً مثلما في مدرستنا! لا عجب في أن الأمراض تأكلهم أحياء و الفقر يخنقهم، لست مندهشاً أن يختنق ويؤكل هؤلاء الدهماء. أي شيطان جعلهم على هذه الهيئة - أنا مقتنع أنه إذا لم يتم وضعهم هكذا بشكل خاص، فلم يكونوا ليستطيعوا أن يحدثوا كل ذلك القبح والكراهية والقذارة التى تنبثق خارجة منهم إلى هذا الحد، ولماذا لا تنبثق من فلاح على الرغم من أنه لا يغتسل أبدا؟ مَنْ، أنا أسأل، حوّل هذه البروليتاريا الجيدة والمحترمة إلى مثل ذلك المنتج؟ من الذي علّمهم تلك القذارة والتجهم؟ أوه، سدوم وعمورة - لن نجد عاملَ المزرعة هنا. هيا بنا لنمضي. متى ستهبُّ الريح العاتية؟

لكن لا توجد ريح، ركود فقط، يعبث الناس داخل إنسانيتهم مثل أسماك في البركة وتتدفق الرائحة النتنة إلى السماوات، أما عامل المزرعة

twitter @baghdad_library

فلا وجود له حتى الآن. الخياطات الوحيدات يفقدن وزنهن والحلاقون المحليون يسمنون من الشياكة الرخيصة وقرقرة في بطون الحرفيين الصغار والخادمات العاطلات عن العمل على سمانات سيقانهن القصيرة والسميكة يتفوهن بالأقوال البذيئة والعبارات المتكلفة واللهجات الطنانة، وحرم الصيدلي بنعيقها تسمو نفسها بلباقتها فوق الغسالة، والغسالة أيضاً تسمو بنفسها على كعبي حذائها العاليين ذوي المسامير. إنهم حفاة في الواقع، رغم أنهم ينتعلون الأحذية الرقيقة، وتبدو أقدامهم غريبة في الأحذية مثل رؤوسهم في القبعات، الجذوع الريفية أو الفلاحية في كسوة السيدات والرجال.

يالها من دمامة - قال الكباس - لا شيء حقيقي و لا شيء طبيعي، كل شيء مقلد وحقير ومتكلف ومزيف بالأكاذيب. وعامل المزرعة ما زال غير موجود.

عثرنا أخيراً على عامل لا بأس به، أشقر لطيف متناسق القوام، لكنه كان، للأسف، على معرفة بالطبقات الاجتماعية ويزمجر بكلمات ماركس.

- يا للدمامة - قال الكباس - يا له من فيلسوف!

وشريرٌ نموذجي آخر بدوره، يحمل سكيناً بأسنانه، عبقري من الضواحي، بدا للحظة أنه يمكن أن يكون عامل المزرعة المراد، ولكنه للأسف كان يرتدي قبعة سوداء مستديرة. نوع آخر اقتربنا منه في الزاوية، كان يبدو مناسباً بدرجة كبيرة، لكنه ويا للحسرة استخدم في حديثه عبارة «حيثما».

- دمامة - همس الكباس بغضب - إنه لا يصلح. هيا، إلى الأمام -

كرر بشكل محموم - كل هذا هراء. تماماً مثلما هو الحال في مدرستنا. الضواحي تتلقّى دروساً من المدينة. اللعنة، الطبقات الدنيا هي فعلاً في مستوى المدرسة الابتدائية. إنهم طلاب برتبة مبتدئة، وربما لذلك تسيل أنوفهم. يا للجرب والقرح اللعينة، ألن نهرب أبداً من المدرسة؟ الدمامة، الدمامة، الدمامة! هيا، إلى الأمام!

تقدمنا أكثر وأكثر، البيوت الصغيرة الخشبية، والأمهات تفلي بناتهنّ من القمل - الأمهات والأطفال يتمرغن في المجاري، والعمال يعودون من أعمالهم، وتدوي الكلمة العظيمة الوحيدة من الأعلى ومن الأسفل، والشارع بأكمله ممتلئ بها حتى الآن وتتحول إلى الترنيمة الحقيقية للبروليتاريا، مدوية بالتحدي والغطرسة، وتطرح بالعاطفة إلى الفضاء، تمنح على الأقل وهم القوة والحياة.

- هل تراهم؟! - اندهشَ كباس - إنهم يتظاهرون بالشجاعة، تماماً كما نفعل نحن في المدرسة. لن تعالج بوبوهاتهم الضخمة والكلاسيكية التي ركبت لهؤلاء الأوغاد أهل المخاط. المفزع أن ليس هناك أي واحد اليوم لم يكن في مرحلة المراهقة. هيا، إلى الأمام - لا يوجد عامل المزرعة هنا! وما أن أكمل كلماته، حتى هبّ نسيم خفيف على خدودنا، وتلاشت البيوت، والشوارع، والقنوات، والمجاري، والحلاقون، والنوافذ، والعمال، والزوجات، والأمهات، والبنات، والحشرات، والملفوف، والهواء الفاسد، وضيق المكان، والغبار، والمالكون، والعمال المهرة، والأحذية، والبلوزات، والقبعات، والكعوب، والترامات، والمحلات، والخضار، والأشرار، وعلامات المحلات، ورؤوس الجلد السوداء، والبضائع، والنظرات، والشعر، والحواجبُ، والشفاهُ، والأرصفة، والبطون، والأدوات، والأجهزة

twitter @baghdad_library

العضوية، والزغطات، والرُّكَبُ، والمرافقُ، وزجاج النوافذ، والصيحات، والتنشق، والبصق، والتنحنح والأحاديث، والأطفال، والقعقعة. انتهت المدينة. أمامنا - الحقول والغابات. الطريق السريع.

بدأ كباس غناءه:

هاي، هاي، هاي، غابة خضراء

هاي، هاي، هاي، غابة خضراء!

- خذ عصاً في يدك. اقطعْ فرع شجرة. سنجد عامل المزرعة هناك - في الحقول! بالفعل أستطيع أن أراه في خيالي. عامل مزرعة لا بأس به!

غنيت:

هاي، هاي، هاي، غابة خضراء

هاي، هاي، هاي، غابة خضراء!

لكني لم أستطع أن أخطو خطوة أخرى. مات الغناء على شفتيّ. الفضاء. في الأفق - بقرة. الأرض. على مبعدةٍ أوزة تفرد جناحيها. السماء ضخمة. الأفق الشاحب في الضباب. توقفت عند حدود المدينة وشعرت بأنني لا أستطيع أن أكون بدون القطيع ومنتجاته، بدون الإنسانية بين الناس. أمسكت الكبّاسَ من يده.

- يا كباس لا تذهب هناك، لنعود إلى أدراجَنا، لا تخرج من المدينة يا كباس.

بين الشجيرات والأعشاب الغريبة ارتعدتُ مثل ورقة في مهب الريح، تجردت من الناس والتشوهات الحادثة لي منهم، أصبحت شيئاً

سخيفاً بدونهم ولا مبرر له. تردد الكباس أيضاً، ولكن احتمال وجود عامل المزرعة جعله يتغلب على خوفه.

- هيا، إلى الأمام! - صاح وهو يلوح بعصاه - لن أذهب وحدي! يجب عليك أن تذهب معي! لنذهب، لنذهب! هبّت الرياحُ وتأرجحت الأشجارُ وخشخشت أوراقُها، وأصابني رعبٌ من واحدة منها على وجه الخصوص عند أعلى الشجرة، كانَ مُعَرَّضَا إلى الفضاء بدون رحمة. ارتفعَ الطائرُ في طيرانه. انطلقَ كلبٌ من المدينة وركض عبر الحقول السوداء. في حين أن الكباس انطلقَ بجرأة في الدرب الموازي إلى الطريق السريع - وأنا خلفه كأنني أبحر بقارب في أعلى البحار. تختفي الأرض وكذلك المداخن والأبراج، نحن وحدنا. الصمت، يمكنك تقريباً سماع الحجارة الزلقة الباردة وهي بارزة من الأرض. أذهب وما زلت لا أعرف أي شيء، وتهب ريح في أذني وأترنح في إيقاع مشيتي... الطبيعة. لا أريد الطبيعة، الناس هم الطبيعة بالنسبة لي، «لنعود يا كباس، أفضّلُ الزحمة في دار السينما من الأوزون في الحقول». مَنِ الذي قال إن الإنسان يصبح صغيراً تجاه الطبيعة؟ على العكس من ذلك، أتضخم وأنمو، ومع ذلك أصبح هشّاً، أشعر بأنني عارٍ وكأنني على صينية من حقول الطبيعة الضخمة في كل اللاطبيعية الإنسانية، آوه، أين اختفتْ غابتي، حشائش العيون والشفاه والكلمات والنظرات والوجوه والابتسامات والتكشيرات؟ تقترب غابة أخرى، غابة الأشجار المخروطية والصامتة والخضراء، يمر من تحتها أرنب وتزحف يرقة. وهنا كما لو نكاية فينا، لا توجد أية قرية على مرمى البصر، الطريق يمر عبر الحقول والغابات. لا أعرف كم ساعة مشينا مجهدين بالغرابة والجمود عبر الحقول، كأننا نمشي على الحبل - لم يكن هناك أي شيء

twitter @baghdad_library

آخر يمكن أن تفعله، لأن وقوفنا في مكاننا سيتعبنا أكثر، ولم نستطع أن نجلس أو نستلقي على الأرض الرطبة والباردة. مع أننا مررنا ببعض القرى، إلا إنها بدت ميتة - الأكواخ المسَمَّرَة بالألواح الخشبية، اتسعتْ مُقْلات عيونها الفارغة. توقفت حركة المرور على الطريق السريع تماماً. كم من الوقت سيكون علينا أن نتسكع في ذلك الفراغ؟

- ماذا يعني ذلك؟ - قال الكباس - . هل أصيب الفلاحون بالطاعون؟ هل ماتوا كلهم؟ إذا استمر هذا الوضع، فلن نجد عامل المزرعة.

أخيراً، بعد أن عثرنا على قرية مهجورة أخرى، بدأنا ندق على أبواب الأكواخ. رد علينا نباحٌ شرس كأنه قطيع من الكلاب الوحشية، بدءاً من كلاب الحراسة الضخمة، إلى الكلاب الهجينة الصغيرة التي شحذت أسنانها للهجوم علينا.

- ما هذا؟ - قال الكباس - من أين جاءت تلك الكلاب؟ لماذا لا يوجد الفلاحون؟ اقرصْني لأنني بالتأكيد أحلم...

لم تبدأ كلماته في الذوبان في الهواء النقي، حتى برز من حفرة البطاطس المجاورة رأس فلاح ثم اختبأ فوراً، وحين اقتربنا منه، سمعنا نباحاً شرساً من الجحر.

- اللعنة - قال الكباس - الكلاب مرة أخرى؟ أين الفلاح؟ - التففنا حول الحفرة من جانبيها (وأثناء ذلك تردد من الأكواخ عواء ظاهر) وأثرنا ذعر الفلاح فأخرجناه هو وزوجته مع أربعة من التوائم الذين كانت ترضعهم من ثدي واحد جاف تقريباً (لأنها لم تعدْ تستخدم الثاني منذ وقف طويل) وهم ينبحون بشكل يائس وبشراسة. انطلقوا راكضين،

ولكن الكباس وثب وأمسك الفلاح. كان هذا الأخير هزيلا ونحيفا جداً إلى درجة أنه سقط على الأرض وتأوه:

- ارحَمْنَا يا بيه، ارحمنا، اترُكْنَا، سيبنا في حالنا، يا سعادة البيه!

- يا أستاذ - قال الكباس - ماذا بك؟ ما حكايتك؟ لماذا تختبئون منّا؟

عند سماع كلمة «أستاذ» تضاعف النباح في الأكواخ والشوارع بجانب الأسوار أما الفلاح المسكين فقد أصبح شاحبا مثل ورقة.

« - ارْحَمْنِي، يا بيه، أنا مش استاذ، اتْركنِي!»

- يا مواطن - قال الكباس استرضاءً - أجننتَ؟ لماذا تنبحان، أنت وزوجتك؟ إن نوايانا طيبة.

عند سماع كلمة «مواطن» تردد النباح المتضاعف ثلاث مرات، أما الفلاحة فقد انفجرت في البكاء:

« - ارحمنا يا بيه، يا سيدي، هو مش مواطن! ده شكل مواطن؟! آه، يالهوي، يا مصيرنا الأسود! بعتولنا لنا «نواي» مرة تانية، يا داهيتي!»

- يا صديقي - قال الكباس - ماذا بكم! لا نريد أن نضركم. لا نريد إلا مصلحتكم.

- صديق! - صاح الفلاح برعب.

- تريد مصلحتنا! - صرخت الفلاحة: «أحنا مش ناس، أحنا كلاب، كلاب! هاو! هاو!»

فجأة نبح الطفل عند ثديها ونظرت الفلاحة حولها وحينما أدركت

twitter @baghdad_library

بأننا نحن الإثنين وحدنا، زمجرت وعضتني في بطني. انتزعتُ بطني من أسنان «الولية»! ولكن الآن ظهر من جانب الأسوار كل سكان القرية ينبحون ويزمجرون:

« - امسكوهم يا جدعان! ما تخافوش! عضوهم!جرر... جرر! أطلقوا عليهم الكلاب! القطط! امسكوا «النوايا»، إمسكوا بتوع الثكافة! جرر... جرر، أطلقوا الكلاب عليهم والقطط كمان! هش هش...»

وهكذا اقتربوا منّا ببطء في تحفظ وأطلقوا عنان الكلاب علينا - وما هو أسوأ من ذلك، حتى يضللونا أو ربما من أجل تشجيع أنفسهم، قادوا بالحبال كلاباً حقيقية كانت تقف على أرجلها الخلفية وتقفز باتجاهنا وتنبح بشراسة واللعاب يسيل من فمها.

أصبح وضعنا حرجاً، وحتى من الناحية النفسية أكثر من البدنية. الساعة السادسة عند المغرب، بدأ الظلام يحل والشمس وراء الغيوم وبعض رذاذ المطر، بينما نحن - في مكان غير مألوف لنا، ورذاذ مطر خفيف بارد، حيث نواجه عدداً كبيراً من الفلاحين الذين يتظاهرون بأنهم كلاب، حتى يتجنبوا عوامل التأثير الشامل لجميع مثقفي المدينة. لم يعد أطفالهم يستطيعون الكلام ولكن كانوا ينبحون ويمشون على أربعة، أما آباؤهم فكانوا يشجعونهم أكثر:

« - انبحْ انبحْ يا ولد ركس حتى يسيبوك في حالك، انبحْ انبحْ يا ركس - ...» ولأول مرة أرى جماعة من الناس بأكملها تحولت على عجلٍ إلى كلاب، بموجب قانون التنكر وخوفاً من الأنسنة التي كانت تُطَبّقُ بشدة أكثرَ مما ينبغي. لكن الدفاع كان مستحيلاً، لأنه من المعروف أنه يمكنك أن تدافع عن نفسك ضد كلب أو فلاح بشكل منفرد، ولكنه

غير معروف ماذا يمكن أن تفعل ضد قطيع من الفلاحين يُزمجرون ويعوون، وينبحون ويريدون أن ينهشوك. يُسْقِطُ الكباس عصاه من يده. أما أنا فأنظر بلا معنى أمامي في المرج الغامض والزلقِ حيث ستفيض روحي قريباً في تلك الظروف العجيبة. وداعاً، يا أجزاءَ جسدي. الوداع يا دمامتي ووداعاً لك، يا بوبوهي المألوفة!

وبالتأكيد كان سيتم التهامنا هناك بطريقة ما غير معروفة، في ذلك المكان بالضبط، حين يتغير كل شيء فجأة، ويتردد صوت بوق سيارة وتدخل سيارة في الحشد، وتقف وتهتف عمتي حورليتسكا لين المنسوبة لأمها وهي تنظر إلي.

- جوي! ماذا تفعل هنا، يا صغيري؟

غيرَ مدركةٍ للخطر ولا تلاحظ أي شيء، كما هي عادتها، تنزل عمتى الملفوفة في العديد من الشالات وتهرع حتى تقبلني وذراعاها مفتوحتان. عَمّيمتي! عَمّيمتي! أين يمكنني أن أختفي منها؟ كنت أفضل أن يتم التهامي، على أن أرتبط بعَمّتى في ذلك المشوار الطويل. كانت تعرفني تلك العَمّة منذ أن كنت طفلا، احتفظتْ في داخلها بذكريات عن ملابسي الداخلية الطفولية! رأتني عندما كنت أرفس بقدميّ الصغيرتينِ في المهد. تسرع نحوي، تقبّلني على جبيني ويتوقف الفلاحون عن النباح وينفجرون بالضحك، كل القرية تهتز وتهدر - يدركون بأني لست مسؤولاً ذا قوة خارقة، بل أنا طفل العمة الصغير! ينكشف الالتباسُ. ينزع الكباس قبعته وتمد العَمّة يدها العميمية لكي يقبلها.

- هل هو صديقك، يا جوي؟ تشرفنا.

يُقَبّلُ الكباسُ يدَ العَمّةِ. أنا أقبل يد العمة. تسأل العمة إذا لم نكن

twitter @baghdad_library

بردانين وإلى أين سنذهب ومن أين ولأي غرض ومتى ومع من ولماذا؟ أجيب بأننا ذاهبانِ في رحلة.

- في رحلة؟ ولكن، يا أولادي، من سمح لكما بالخروج من المنزل في ذلك الجو الرطب؟ اجلسا معي، سنذهب إلى منزلي، إلى بولموفو. عمك سيكون مسروراً من ذلك.

الاحتجاجاتُ لن تجدي. العَمّة لا تقبل الاحتجاجات. في الطريق الكبير حيث ينزل رذاذ المطر الخفيف وفي الضباب الصاعد - نحن مع العميمة. ندخل إلى السيارة. يزمر السائق وتنطلق السيارة ويزأر الفلاحون بالضحك وتبدأ السيارة المشدودة على سلسلة أعمدة الهاتف تسرع - نحن نتحرك.

بينما العمّة:

- حسناً، جوي، ألست سعيداً، ههنا أنا، عمتك ابنةُ خالة والدتك، كانت أمي ابنةَ خالة خالة والدتك. أمك المتوفاة! تسيشا العزيزة! منذ كم سنة لم أراك؟ أربعة سنوات منذ وقت زفاف فرانك. أتذكر كيف كنت تلعب في الرمال - تذكر الرمال؟ ماذا أراد هؤلاء الناس منكما؟ أوه، كم روعوني! فلاحو اليوم غير ممتعين تماماً. الجراثيم في كل مكان، لا تشربا الماء غير المغلي ولا تأخذا في فمكما الفواكه غير المقشرة أو غير المغسولة بالماء الساخن. من فضلك، غَطِّ رقبتك بذلك الشال، إذا لم تكن تريدني أن أتضايق، وليأخذْ زميلُك الشال الثاني، ولكن من فضلك، لا تغضبْ، يمكنني أن أكون أمَّ زميلك. بالتأكيد أمه قلقة عليه في البيت.

يزمر السائق. تهمهم السيارة وتهمهم الريح وتهمهم العمة، وتمر

الأعمدة والأشجار والأكواخ الرديئة والبلدات مثل البرك الضحلة، وتمر غابات أشجار البتولا وجاري الماء والشوح، وتحملنا العربة بسرعة فوق الحفر في الطريق ونقفز على مقاعدنا. بينما العمّيمة:

- يا فيليكس، لا تسرع هكذا، لا تسرع. هل تذكر العم فرانك؟ كريشا تتزوج. أنّى الصغيرة أصيبت بالسعال الديكي. هَنيو أخذوه للجيش. تبدو هزيلاً، كما لو كانت أسنانك تؤلمك، لدي قرص من الأسبرين. وكيف أخبار المدرسة - جيدة؟ بالتأكيد أنت موهوب في التاريخ، لأن أمك المتوفاة كانت لديها موهبة مدهشة في التاريخ. ورثتَ ذلك عن أمك. عيناك الزرقاوان من أمك وأنفك من أبيك، على الرغم من أن الذقن نموذجية لعائلة بيفتشيتسكي. وتذكر كيف بكيت عندما أخذوا منك قلب التفاح وأنت وضعت إصبعك الصغيرةَ في فمك وصحت: «تيا تيا فاحة فاحة هنا»! (يالها من عمةٍ ملعونة!) انتظرْ، انتظرْ، منذ كم سنة كان ذلك؟ - عشرين، ثمانِ وعشرين، نعم، كان ألف وتسعمائة... بالتأكيد، كنت أذهب آنذاك إلى فيشي واشتريتُ حقيبة سفر خضراء، نعم، نعم، فسيكون عمرك اليوم ثلاثين... ثلاثين... نعم، بالتأكيد - ثلاثون بالضبط. يا صغيري، غَطِّ نفسك بالشال، لا يمكنك أن تكون حذراً كفاية من تيارات الهواء.

- ثلاثون؟ - سأل الكباس.

- ثلاثون - قالت العَمّةُ - أصبح عمره ثلاثين عاماً في يوم ميلاد القديسينِ بطرس وبولس! أصغر بحوالي أربع سنوات ونصف من ترينيا، وترينا أكبر من صوفيا، ابنة ألفريد، بستة أسابيع. هنريك وزوجته تزوجا في فبراير.

twitter @baghdad_library

- لكنْ، يا سيدتي، هو يذهب إلى المدرسة معي، في نفس الصف السادس!

- هذا صحيح. هنريك وحرمه تزوج بالتأكيد في فبراير، كان ذلك قبل خمسة أشهر من مغادرتي لمنتون وفي الصقيع الشديد. توفيت هيلينكا في يونيو. ثلاثون. عادت أمي من بودولى[1] ثلاثون. بعد سنتين بالضبط على إصابة بوليك بالخُناق. الحفلة في موجليتشاني - ثلاثون. هل تريدان حلوى؟ جوي، أتريد حلوى؟ عمتك لديها دائماً حلوى - هل تذكر كيف كنت تمد يديك وتصيح: «الحلوى، عميمة! الحلوى!» لا يزال لدي نفس الحلوى، خذْ، خذْ، إنها جيدة للسعال، غطِّ نفسك، يا صغيري.

يزمر السائق. تسرع السيارة. تمر الأعمدة والأشجار وقطع الأسوار وقطع الأراضي المشتتة وقطع الغابات والمروج والأماكن الغريبة. السهول. الساعة السابعة. الظلام، يُطلق السائقُ أعمدة الإنارة الكهربائية للسيارة، وتقومُ العمة بإشعال الضوء في الداخل وتقدم لي حلوى طفولتى. الكباس المندهش يمص الحلوى أيضاً، وكذلك العمَّة والكيس في يدها. نمص جميعنا. يا امرأة، إذا كان عمري ثلاثين عاما، فأنا عمري ثلاثون - ألا تفهمين ذلك؟ لا، لا تفهم. هي طيبة أكثر مما يجب. طيبة القلب أكثر مما يجب. إنها لا شيء إلا الطيبة. أغرق في طيبة العمة، أمص حلواها الحلوة - بالنسبة لها لا يزال عمري سنتين، وأيا ما كان، هل أنا لي وجود عندها على الإطلاق؟ لستُ موجوداً، شَعري شَعر العم إدوارد وأنفي لأبي وعينايَ لأمي وذقني لعائلة

(١) منطقة تاريخية وجغرافية في أراضي أوكرانيا.

بيفتشيتسكي - أنا تشكيلة من أجزاء جسد الأسرة. تغرق العَمّة في الأسرة وتلفني بالشال. يركض إلى الطريق عجل ويقف، ويفتح رجلية، ويزمر السائق مثل كبير الملائكة، ولكن العجل لا يريد أن يفسح الطريق، وتقف السيارة ويدفع السائق العجلَ جانبا - ونسرع من جديد، بينما تحكي العَمّةُ كيف كنت أرسم الحروف على زجاج النافذة بإصبعي عندما كان عمري عشرَ سنوات. تذكر أشياء لا أذكرها وتعرف شكلي الذي لم أعرفه أبداً، ولكنها طيبة جداً ولا أستطيع أن أقتلها - كان الله عنده حكمة عندما غمر في الطيبة معرفةَ العمات عن التفاصيل الغامضة والمخجلة والمضحكة لماضي الأطفال. نسرع، ندخل غابة ضخمة، وخلف الشبابيك في الأضواء العلوية تتطايرُ قطع الأشجار، وعبرَ ذاكرتي - قطع الماضي، المنطقة هنا شريرة ومشؤومة. كم نحن بعيدون! إلى أين وصلنا! تحيط بصندوقنا قطعة كبيرة من أراضي الإقليم الوحشي والأسود، والزلق من المطر وتقاطرِ الماء، في حين تثرثر العمة حول أصابعي، بأنني جرحت إصبعي قبل زمن وبالتأكيد لدي آثار الجرح حتى الآن، أما الكباس بعامل المزرعة في رأسه فيتعجب من الثلاثين عاما لعمري. بدأت تمطر بشدة. تستديرُ السيارة إلى طريق جانبي، بمطبات وحفر رملية، واستدارةٌ أخرى وتقفز علينا كلاب الحراسة الشرسة والغاضبة، ويهرع إلينا الحارسُ ويزجرها - إنها تزمجر وتنبحُ وتئنُّ - ويخرج خادمٌ إلى الرواق ويتبعه آخر. ننزل.

الريف. تهب الرياح على الأشجار والغيوم. يظهر في الليل شكلُ مبنى كبير غير واضح المعالم وهو ليس غريباً بالنسبة لي - بل هو معروف - لأنني كنت هنا مرة قبل زمن. تخاف العمة من الرطوبة، يحملها خادمان من تحت ذراعيها إلى الردهة. يحمل السائق بجهد

twitter @baghdad_library

خلفهم الحقائب. كبير الخدم العجوز ذو السوالف يخلع معطف العمة. الخادمة تخلع معطفي. بينما يخلع الخادم الصغير معطف الكباس. الكلاب الصغيرة تتشممنا. أعرف كل ذلك ولكني لا أتذكر... لقد ولدت وقضيت السنوات العشر الأولى من حياتي هنا.

- أتيت معي بضيوف لك - صاحت العمة - عزيزي كوستا، هو إبن فلاديسلاف، يا زوجي العزيز، إبن عمك! يا صوفيا!يا جوي - هذه ابنة عمك. هو جوي، إبن هيلا المتوفاة. يا جوي - عمك كوستا، يا كوستا - هذا جوي.

المصافحات وتقبيل الخدين واصطدام أجزاء الجسد ببعض وأعراض الفرح والضيافة، وتقودنا إلى غرفة الجلوس ونجلس على مقاعد «بيدرماير» القديمة ويسألون عن الصحة، «كيف أخبارنا» - وأنا أسأل بدوري عن صحتهم ويبدأ الحديث عن الأمراض، ويقبض علينا ولا يتركنا. العمة عندها مرض القلب، والعم قسطنطين عنده الروماتيزم، وأصيبت صوفيا مؤخرا بأنيميا وهي عرضة لنزلات البرد، ولوزتاها ليستا على ما يرام ولكن هناك نقص في الموارد اللازمة للمعالجة الجذرية. زيغمونت يعاني من نزلات البرد أيضاً، وإضافة إلى ذلك كانت لديه إصابة فظيعة في أذنه، تعرض إلى تيارات الهواء في الشهر الماضي عندما جاء الخريف برياحه ورطوبته. كفَى- بدا أن الاستماع عن أية أمراض محتملة لأفراد الأسرة مباشرة يعد أمراً غير صحي، غير أنه كلما بدأ الحديث يتلاشى : - «Sophie, parle» - همست العمة، وصوفيا حتى تحافظ على الحديث الذي هو ليس في صالح فتنتها، تقدمت بمرض جديد. عرق النسا والروماتيزم والتهاب المفاصل وهشاشة في العظام

والنقرس ورشح الأنف والسعال والتهاب الحلق والانفلونزا والسرطان والطفح الجلدي العصبي وألم الأسنان والحشوات والأمعاء والضعف العام والكبد والكلى ومصحة كارلسباد[١] والأستاذ كاليتوفيتش ودكتور بيستاك. كان الأمر على وشك أن يتوقف عند بيستاك ولكن لا، من أجل الحفاظ على الحديث، تتدخل العمة بالكلام عن دكتور فيستاك، بأن حاسة السمع لديه أفضل من بيستاك، ومن جديد فيستاك، وبيستاك والفحص وأمراض الأذن والحلق وأمراض الجهاز التنفسي وأمراض صمامات القلب والمخاط والاستشارات والحصوات والقرحة المزمنة والإجهاد وخلايا الدم. لم أستطع أن أغفر لنفسي بأنني سألت عن الصحة. رغم أنه ما كان بإمكاني ألاّ أسأل عن الصحة. رأيت أن صوفيا، بالأخص، كانت مرهقة من ذلك، وأن تعريةَ داءِ الخَنَازِير الخاص بها أمام الآخرين من أجل الحفاظ على الحديث تسبب في ألمها، ولكن لم يكن جائزاً أدبياً أن تسكت بحضور الضيوف الشباب الذين وصلوا للتو. هل كان ذلك أسلوباً اعتيادياً؟ هل تمسّكوا دائماً بأي شخص أتى إليهم في الريف بهذه الطريقة؟ هل لم يبدأوا أبدا الحديث في الريف بشكل آخر غير طريق الأمراض؟ كانت تلك كارثة طبقة ملاك الأراضي لأنّ حسن السلوك السّرمدي أجبرهم على إنشاء العلاقات من خلال المنظور الارتشاحي للأنف، ولذلك ربما بدوا باهتين على نحو ارتشاحي في ضوء مصباح الزيت وبكلابهم الصغيرة على ركبهم. الريف! الريف! العزبة الريفية القديمة! القواعد العتيقة والألغاز الغريبة العتيقة! كم هي تختلف عن شوارع المدينة والحشود في شارع مرشالكوفسكى!

---

(١) تقع هذه المدينة في تشيكيا وتشتهر بوجود الحمامات الطبيعية فيها (حاليا تسمى كارلوفا).

twitter @baghdad_library

العَمّة فقط بطيبتها وبدون أي إجبار تمرغت في حالات ما قبل الحمى والإسهال الدموي للعم. الخادمة بوجهها الأحمر، مرتدية مريلة صغيرة، دخلت وأشعلت المصباح. أعجب الكباس الذي تحدث قليلاً، بوفرة الخادمات والوشاحين السلوتسكيين[1] كانت الفخامة في كل ذلك - ولكنني لم أكن أعرف فيما إذا كان عمي أيضاً ما زال يتذكرني حين كنت طفلاً. تعاملوا معنا مثل الأطفال الصغار إلى حد ما، ولكنهم تعاملوا مع بعض أيضاً على نحو مماثل، بالتهذيب الموروث عن أجدادهم. تذكرت بطريقة غامضة أنني كنت ألعب ألعاباً ما تحت الطاولة المخدوشة ولاحت لي من الماضي أهداب الأريكة المدمرة الموجودة في الركن. هل عضضتها أم أكلتها أم جدلتُ منها ضفائر - أو من المرجح أنني غمسْتُها في وعاء صغير ولطختها - بماذا ومتى؟ أو ربما وضعتها في أنفي؟ جلست العمة على الأريكة متبعة التقاليد القديمة، باعتدال، بصدرها المدفوع إلى الأمام، ورأسها إلى الخلف قليلاً، وجلست صوفيا محنيَّة الظهر ومصابة بالسأم من الحديث، بأصابعها المشبوكة، وزيغمونت بمرفقيه على مساند المقعد حدق في أطراف حذائه، أما العم فكان يشدُّ شعرَ الكلب الألماني وهو يحدق في ذبابة خريفية كانت مسافرة على السقف الضخم الأبيض. هبت في الخارج الرياح بقوة وخشخشت الأشجار أمام البيت ببقايا الأوراق الهشة، وصدر صرير شيش النوافذ القديمة، وفي داخل الغرفة تحرك الهواء على نحو بسيط - بينما خضعت أنا لهواجسي السابقة عن الدمامة الجديدة والمتضخمة. الكلاب عوت. متى سأعوي أنا؟ فكوني سأعوي كان شيئاً

(١) الوشاح الذي إرتدوه النبلاء البولنديين مع المعطف التقليدي.

مؤكداً. عادات ملاك الأراضي الغريبة وغير الواقعية والمدللة عن طريق شيء ما، والمدلعة والمغنجة والمتضخمة في فراغ لا يمكن تخيله، وخمولهم والرقة والإفراط في الدقة وتأدبهم وترفعهم والفخر والحنو والبدع والغرابة الكامنة في كل كلماتهم - ملأتني جميعها بالقلق والإرتباك. ولكن ماذا كان أخطر؟ - هل ذبابة أواخر الخريف وحدها على السقف، العمة بذكرياتها عن طفولتي، الكباس مع عامل المزرعة، الأمراض، أهداب الأريكة، أم كل ذلك معا، متجمعين وموجهين في شكل شوكة صغيرة. جلست بهدوء على مقعدي الـ«بيدرمير» - تذكار موروث من أسلافي واستبقتُ ظهور الدمامة التي لا مفر منها، أما العمة التي كانت تجلس على مقعدها ومن أجل الحفاظ على الحديث، بدأت تئنُّ من تيارات الهواء لأنها تؤذي العظام على نحو رهيب في هذا الوقت من السنة. صوفيا، الآنسة العادية التي يوجد آلافٌ من مثيلاتها في العزب ولا تختلف بأي شكل عن الآنسات الآخريات، من أجل الحفاظ على الحديث انفجرتْ في الضحك - وإنفجروا جميعهم بالضحك الملتبس الاجتماعي والمهذب - ثم توقفوا عن الضحك... لمن ومن أجل من ضحكوا؟

لكن العم قسطنطين الذي كان طويل القامة ونحيلاً وهزيلاً وأصلع وذا أنف طويل رقيق وأصابعه طويلة رقيقة، وذا شفتين ضيقتين ومنخرين حساسين وذا سلوكيات مصقولة جداً وخبرة بالحياة وتمرس وهوادة استثنائية، بأناقة الوجيه اللامبالية انحنى على كرسيه إلى الخلف ووضع قدميه في حذائه الشمواة الأصفر على الطاولة.

- تيارات الهواء - قال - لقد كانت عندنا. لكنها انتهتْ.

طنت الذبابة.

twitter @baghdad_library

- كوستا - هتفت العَمّة بالطيبة - لا تدع القلق يأكلك. وأعطته حلوى.

لكنه كان يأكله ويتثاءب - فتح فمه واسعاً، حتى رأيت أبعد أسنانه الصفراء من السجائر وتثاءب مرتين بشكل سافر وبمنتهى اللامبالاة.

- ترلّلي، ترلّلي - تمتم - رقص مرة الكلب في الفناء وانفجرت القطة في البكاء!

أخرج علبة سجائر فضية ونقرها بأصابعه، ولكنها وقعت على الأرض. لم يلتطقها بل تثاءب مرة أخرى - من أجل من تثاءب هكذا؟ لمن؟ صاحبته عائلته في أفعاله وهم جالسون على مقاعدهم الـ«بيدرمير» صامتين. دخل فرانسيس، الخادم العجوز.

- العشاء جاهز - أعلن وهو يرتدي سترته المشقوقة الذيل.

- العشاء - قالت العمة.

- العشاء - قالت صوفيا.

- العشاء - قال زيغمونت.

- علبة السجائر - قال العم. التقطها الخادم - وتوجهنا إلى غرفة الطعام التى كانت على طراز هنري الرابع، حيث علقت على الجدران لوحات بورترية قديمة وفي الركن هسهست الغلاية السّماور. قدموا فخذ الخنزير المقرمش والبسلة المعلبة. بدأ الحديث من جديد.

- كلوا! - قال قسطنطين وهو يأخذ لنفسه القليل من الخردل وبعض الفجل (ولكنه أخذها ضد من؟).

- لا شيء أفضل من فخذ الخنزير المقرمش لو كان جيد الإعداد. فخذ الخنزير المعدّ جيداً

يمكنك الحصول عليه فقط عند «سيمون»، فقط، ترلّلي، ترلّلي عند «سيمون»! لنشرب. جرعة صغيرة.

- لنتجرّغ - قال زيغمونت أما عمي فسأل:

- وهل تذكرين فخذ الخنزير التي قدموها قبل الحرب في شارع إيريفانسكى؟

- لحم الخنزير صعب الهضم - قالت العميمة - يا صوفيا، لماذا أخذت القليل مرة أخرى، أليست لديك شهية؟ أجابت صوفيا لكن لا أحد سمعها، لأنه كان معروفاً أنها تحدثت فقط من أجل أن تتحدث. أكل قسطنطين بصوت عال إلى حد ما، ولكن ما زالت طريقة راقية وأنيقة؛ بينما تعامل بأصابعه فوق الطبق، التقط قطعة من لحم الخنزير وأضاف الفجلَ الحار والخردل ثم حشرها في فتحة فمه - وضع بعض الملح هنا وبعض الفلفل هناك، دهن الخبز بالزبدة وحتى أنه مرة بصق قطعة لأنه لم يَسْتَسِغْها. أخذها كبيرُ الخدم مباشرة. ولكن بصقها ضد من؟ وضد من دهن؟ أكلت العمة خلسة بطيبة، على نحو كثير لكن بقطع رقيقة في كل مرة. صوفيا كانت تحشر في داخلها، وزيغمونت استهلك بتأنٍّ، أما الخدم فكانوا يخدموننا على أطراف أصابعهم. فجأة توقف الكباس عن الأكل وتجمدت شوكته في نصف الطريق وأظلمت نظرته وتحول لون دمامتة إلى لون الرماد، وانفرجتْ شفتاه وازدهرتْ على دمامته الفظة ابتسامةٌ مندولينية في منتهى الجمال. ابتسامةُ التحية والترحيب، أهلا بك، إذن أنت موجود، وأنا موجود كذلك - استنند بيديه على الطاولة وانحنى إلى الأمام، ورفع شفته العليا كما لو كان

twitter @baghdad_library

سيتنهد. ولكنه لم يتنهد، بل انحنى إلى الأمام أكثر. رأى عامل مزرعة! كان عامل المزرعة في الغرفة! الخادم الصغير! كان الخادم الصغير هو عامل المزرعة! لم يكن لدي أي شك - الخادم الصغير الذي قدم لنا البازلاء ولحم الخنزير، كان عامل المزرعة من أحلامه.

عامل المزرعة! عمره مثل عمر الكباس، أي ليس أكثر من ثمانية عشر، لا طويل ولا قصير، لا قبيح ولا وسيم - شعره فاتح ولكنه ليس أشقر. تحرك وخدمنا بسرعة بقدميه الحافيتين وبمنديل متدلٍ فوق ذراعه الأيسر، بدون ياقة وقميصه مثبت بزرار، يرتدي أفضل لباس لعمال الريفيين المألوف ليوم الأحد. كانت لديه الدمامة ولكنها لم تكن مثل دمامة الكباس البغيضة، فإنها لم تكن دمامة إصطناعية ولكن طبيعية، دمامة شديد الملامح الفلاحية الإعتيادية. لم تكن وجه تحول إلى دمامة، بل الدمامة التي لم تحظَ أبداً بالفرصة لتكون وجهاً - كانت دمامته مثل الساق! لم يستحق أن يكون لديه وجه محترم، مثلما لم يستحق أن يوُصف بالأشقر ولا بالوسيم - خادم صغير لا يستحق أن يكون كبيرَ خدم! لقد غير ترتيب الصحون بدون قفازات وبقدميه الحافيتين ولم يتفاجأ من ذلك أحد - صبي لا يستحق سترة مشقوقة الذيل. عامل مزرعة!... أي حظ سيئ أتى به إلى هنا، إلى بيت العم وحرمه؟ «سنبدأ - فكرت وأنا أمضغ لحم الخنزير الذي أصبح الآن مثل المطاط - سنبدأ...». هم وللحفاظ على الحديث بدأوا يُصرُّون على أن نتناول الطعام، وكان يجب علي أن أجرب كومبوت الكمثرى - ومرة أخرى قاموا بتقديم البسكويت المملح لنا مع الشاي، وكان لا بد لي أن أكون ممتناً وآكل الخوخ المسكر الذي وقف في حلقي، أما العمة ومن أجل الحفاظ على الحديث اعتذرت عن مثل ذلك العشاء المتواضع.

- ترَلّلي، تَرَلّلي!- قال العم قسطنطين المتمدد على الطاولة وهو يفتح فمه باتساعٍ وتكاسل، ورمى فيه خوخة صغيرة التقطها بإصبعيه - كلوا! كلوا! بالهَناء، يا أعزائي! - ابتلعَ ومصمص شفتيه - وقال كأنه كان يفعل ذلك متعمداً التباهي بشبعه: - غدا سأفصل من العمل ستة من سائسي الخيول ولن أدفع لهم لأنه ليس لدي نقود!

- كوستا! - صاحت العمة بطيبتها. لكنه لم يرد عليها.

- الجبنة، من فضلك.

ضد من قال ذلك؟ خدمنا الخدم على أطراف أصابعهم. حدق الكباس، تشربت نظراته بالدمامة الفلاحية غير المشوهة، الزراعية والسفلية، وشربها كأنها كانت المشروب الوحيد من نوعه في كل العالم. تعثر الخادم الصغير تحت نظراته الثقيلة والسارحة وكاد يصبّ الشاي على رأس العمة. لكزه فرانسيس العجوز على أذنه قليلاً.

- أوه فرانسيس - قالت العمة بطيبة.

- يجب أن يكون حذراً! - تمتم عمي وأخرج سيجارة. وثب الخادم الصغير بالنار إليه. أطلق العم سحابة من الدخان من خلال شفتيه الرقيقتين، أما ابن العم زيغمونت فأطلق سحابة ثانية من الدخان من خلال شفتيه الرقيقتين المشابهتين لشفتي عمي وانتقلنا إلى غرفة الجلوس، حيث جلس الجميع على مقاعدهم «بيدرمير» الغالية. الغلاء ملأنا بالرفاهية الفظيعة من الأسفل. عوى الجو العاصف خارج النوافذ. اقترح ابنُ العم زيغمونت المنتعش بشكل ما.

- ربما القليل مِن البريدج؟

لكن الكباس لم يكن يعرف كيف يلعبها فسكت زيغمونت وجلس.

twitter @baghdad_library

ذكرت صوفيا إنَ الطقسَ في الخريف غالبا ما يكون ماطراً، أما العمَّة فسألتني عن العمة ياجيا. لقد نفذ الحديث - العمُّ ساقا على ساق ورفع رأسه ونظر إلى السقف حيث سافرت عبره الذبابة الخاملة ذهابا وإيابا - وتثاءب وهو يظهر لنا حنكه وصف أسنانه المصفرة من التبغ. انشغل زيغمونت في هز رجله ببطء، متابعا تألقات الضوء على طرف حذائه، والعمة وصوفيا جلستا وأيديهن على ركبهن، وجلس الكلب البينتشير الصغير على الطاولة ونظر إلى ساق زيغمونت، أما الكباس فجلس في الظل مُريحا رأسَه على كتفه، وهادئاً للغاية. انتفضت العميمة وأمرت الخدم بإعداد غرفة الضيوف وبوضع زجاجات الماء الساخن عند أسرتنا وطبق المكسرات مع المربى بجانب وسائدنا. العم عندما سمع ذلك قال ببساطة أنه يريد البعض من ذلك أيضاً، وعلى الفور جاء بها الخدم بكل طاعة. تناولنا، على الرغم من أننا كنا شبعانين - ولكن لم يكن بوسعنا إلا أنْ نتناول، لأنها كانت على الصينية، جاهزة لتناولها، وأيضاً لأنهم قدموها ودعونا أن نتناولها. ولم يستطع ألا يدعونا لأنها كانت على الطاولة. قاوم الكباس، فلم يرد المربى حتماً وكنتُ حزرتُ لماذا - بسبب عامل المزرعة - ولكن العميمة بطيبتها وضعت له كمية مضاعفة وقدمت لي الحلوى في كيس صغير. كل شيء حلو، حلو جدا، لا أستطيع، حلو جداً، حلاوة مثيرة للغثيان، ولكن وطبق الحلوى أمامي لا أستطيع أن أرفض وأنا مصاب بالغثيان وطفولتي والعمة والسروال القصير والأسرة والذبابة والكلب البينتشير الصغير وعامل المزرعة والكباس ومعدتي الممتلئة، والهواء الفاسد هنا والجو العاصف خارج النافذة والفيض والإفراط في كل شيء، الأكثر مما يجب، وأتخمني «بيدرمير» من الأسفل. لكني لا أستطيع أن أقف وأقول «تصبحون على

خير»، لا ينفع بدون مقدمة ما... نحاول أخيراً ولكنهم يمنعوننا ويدعوننا لأن نأكل أكثر. ضد من يحشر عمي قسطنطين حبة فراولة إضافية بين شفتيه المتعبتين والحلوتين؟ سرعان ما عطست صوفيا وأعطانا ذلك فرصة للمغادرة. السلامات والانحناءات والشكر واصطدام أجزاء الجسد ببعضها. تقودنا الخادمة على السلالم الخشبية المتعرجة التي بدا لي أنني أتذكرها... وراءنا الخادم بالمربى والمكسرات على الصينية. الهواء خانق ودافيء. أتجشأ وأشعر بطعم المربى. الكباس يتجشأ أيضاً. العزبة في الريف... عندما انغلق الباب وراء الخادمة، سألني الكباس قائلاً:

- هل رأيت؟

جلس ودفن وجهه في يديه.

- أتتحدث عن الخادم الصغير؟ - رددت بلا مبالاة على ما يبدو. أنزلت الستائر على عجل - النافذة المضيئة في وسط الحديقة المظلمة كانت تخيفني.

- لا بد لي أن أتحدث معه. سأنزل! أو لا - دُقّ الجرسَ له! بالتأكيد تم تعيينه لخدمتنا. دُقّ الجرسَ مرتين.

- لماذا؟ - حاولت أن أصرفه عن ذلك - يمكن أن ينتج من ذلك تعقيدات. تذكر أن أولئك عمي وعمتي... يا كباس - صحت - لا تستدعيه، قل لي أولاً ماذا تريد منه؟

دَقَّ الجرس.

- اللعنة! - همهم - كأن المربى لم يكنْ كافياً، فتركوا لنا تفاحاً وكمثرى أيضاً. خبئها في الخزانة. تخلص من زجاجات الماء الساخن. لا أريد أن أرى كل ذلك...

twitter @baghdad_library

كان غاضباً بالغضب الذي يكمن وراءه الخوف على مصير أحد، غضب الأمور الإنسانية الأكثر حميمية.

- يا جوي - همس بحرارة وصدق وهو يرتجف - جوي، هل رأيت ذلك، إنه عنده دمامة حقيقية - ليست مصطنعة، بل إنها الدمامة العادية! الدمامة بدون إعطاء الوجوه! عامل المزرعة الكلاسيكي، لن أجد أفضل منه في أي مكان. ساعدني! لن أستطيع أن أعالج الأمر وحدي!

- اهدأ! ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أعرف، لا أعرف. إذا أصبحت صديقه... إذا نجحت في أن أتآ... أتآ... أتآخي معه - اعترف بخجل - أن أتآ... خى معه! أن أ... عاشره! ينبغي لي أن أفعل ذلك! ساعدني!

دخل الخادم الصغير الغرفة.

- تحت أمرك - قال.

كان واقفاً عند الباب وانتظر الأوامر، وبالتالي أمره الكباس بصب الماء في الطست. صب ووقف من جديد - ثم أمره الكباس بفتح شباك التهوية، وعندما فتحها ووقف، أمره بتعليق المنشفة على الوتد. عندما علقها، أمره بوضع سترته على الشماعة - ولكن تلك الأوامر عذبت الكباس جداً. ظلَّ يأمر وعامل المزرعة ينفذ كلَّ الأوامر دون تذمر - بيد أن الأوامر أصبحت تشبه الحلم المزعج أكثر وأكثر، أوه، أن تأمر عامل المزرعة الخاص بك، بدلاً من أنْ تتآخى معه - أن تأمره بنزوة مهيبة وتستمر في حالة إصدار الأوامر طوال ليلة مليئة برغبات السيد! وأخيراً،

عندما لم يعدْ يعرف بماذا يأمره بعد أن انتهتْ كلُّ الأوامر، أمره أن يخرج الزجاجات المخفية والتفاح من الخزانة وهمس لي منهكاً.

- حاولْ أنت. أنا لا أستطيع.

خلعت سترتي ببطء وجلست على مسند ذراع السرير وساقايَ تتدليان - كان هذا الوضع مناسباً أكثر لكي أبادر عامل المزرعة بالكلام. سألته بكسلٍ من الضجر.

- ما اسمكَ؟

- فاليك - ردّ عليَّ وكان واضحاً، أنه لا تصغيرَ له، ولكنه كان منسجماً معه - كأنما لم يكن يستحق أن يحصل على اسمِ «فالنتي» أو اسمٍ كاملٍ. ارتجفَ كباس.

- منذ متى تخدم هنا؟

- منذ شهر تقريباً، سعادتك.

- وأين اشتغلتَ قبل ذلك؟

- في إسْطَبل الخيول، سعادتك.

- هل أنت سعيد هنا؟

- سعيد، سعادتك.

- اِئْتِ لنا ببعض الماء الساخن.

- أمرك، سعادتك.

عندما خرج، ظهرت الدموع في عيني الكباس. بكى بحرقة. سالتِ القطرات على وجهه المعذب.

- هل سمعت؟ هل سمعت؟ فاليك! حتى لا يوجد له لقب! أوه،

twitter @baghdad_library

كل ذلك يتلاءم معه بشكل مثالي! هل رأيت دمامته؟ الدمامة بدون إعطاء الوجوه، الدمامة البسيطة! جوي، إذا هو لم يَتَ... آخى معي فلا أعرف ماذا سأفعل!

كان يوقع نفسه في ثورة غضب ولامني على أنني أمرته بأن يأتي بالماء الساخن، ولم يستطع أن يغفر لنفسه أنه نتيجة نفاذ الأوامر، كان قد أمره بإخراج زجاجات الماء الساخن المخبأة داخل الخزانة.

- إنه على الأرجح لا يستخدم الماء الساخن أبدا ناهيك عن الماء في الزجاجات للسرير. إنه على الأرجح لا يغتسل بالمرة. وبالرغم من ذلك إنه ليس قذراً. يا جوي، ألاحظتَ، هو لا يغتسل وليس قذراً - قذارته تبدو غير ضارة، لا يثير الاشمئزاز! هاي، هاي، أنظر إلى قذارتنا، قذارتنا...

انفجرَ شغفه في غرفة الضيوف للعزبة القديمة بقوة ساحقة. مسح دموعه - عاد الخادم الصغير بإبريق الماء. هذه المرة بدأ الكباس في متابعة خطى أسئلتي.

- كم عمرك؟ - سأل بينما كان يحدق أمامه.

- أأأأي... كيف يمكنني أن أعرف ذلك، سعادتك.

اندهشَ الكباس. لم يكن يعرف ذلك! لم يكن يعرف عمره! إنه حقاً عامل المزرعة الفردوسي، الخالي من الملاحق السخيفة! اقتربَ نحو الخادم الصغير بحجة أنه يريد أن يغسل يديه وقال بينما هو يسيطر على ارتعاشه.

- ربما عمرك مثل عمري.

لم يكن ذلك سؤالاً. لقد ترك له حيزاً للإجابة. التّ... آخى كان من المفترض أن يبدأ. رد الخادم الصغير.

- حسن جداً، يا سيدي.

عندئذ عاد الكباس مرة أخرى لتساؤلات لا مناص منها.

- هل تعرف القراءة والكتابة؟

- أأأي... كيف يمكنني ذلك، سعادتك.

- هل عندك أسرة؟

- عندي أخت، سعادتك.

- وماذا تفعل أختك؟

- تحلب الأبقار، سعادتك.

كان واقفاً بينما دار الكباس حوله - بدا أنه لا توجد هناك وسيلة أخرى إلا من خلال الأسئلة والأوامر، الأوامر أو الأسئلة. إذن جلس الكباس وأمره مرة أخرى.

- اخلع حذائي.

جلستُ أيضاً. كانت الغرفة طويلة وضيقة، لا تصلح لأن نتحرك ثلاثتنا فيها. كان البيت الكبير المظلم واقفاً في الحديقة المعتمة الرطبة. بدا أن الريح هدأت وكان ذلك سيئاً - الرياح العاتية كانت ستكون أفضل. مد الكباس ساقه وركع عامل المزرعة وانحنى فوق ساق الكباس بدمامته، في حين تعلقت دمامة الكباس فوقه على نحو اقطاعي، شاحبة ومرعبة، ومتصلبة بأوامره ولم تعد تدري ماذا تسأل. سألت بغتة.

- وهل يصعفك السيد الصغير على دمامتك؟

twitter @baghdad_library

ابتهجَ الخادم الصغير على الفور وهتف سعيداً بطريقة فلاحية.

- أوه، نعم، يصفعني على دمامتي! أوه، يصفعني!

ما أن قال ذلك، حتى قمت فجأة ولوّحْتُ بذراعي وصفعته بقوة على جانب دمامته الأيسر. تردد صوت الصفعة في صمت الليل مثل إطلاق الرصاص من مسدس. أمسك الولد بدمامته، لكنه أنزل يده بعد ذلك ووقف قائلاً:

- يا الله يا للصفعة الجيدة، سعادتك! - همس بإعجاب واحترام.

- انصرفْ! - قلت صائحاً.

فانْصَرَفَ.

- ماذا فعلت! - قال الكباس مبديا قلقه - أردتُ أن أصافحه! أن أمسك يده بيدي! وبالتالي حينها ستتساوى دمامتنا ومعها كل شيء آخر. لكنك ضربته بيدك على دمامته! أما أنا فقد مددت ساقي ليديه! ليفك رباط حذائي - تأوه - حذائي! لماذا فعلت ذلك؟!

لم يكن لدي أدنى فكرة لماذا. حدث الأمر كما لو أنه انطلقَ من زنبرك، صرخت «انصرفْ» لأنني ضربته، ولكن لماذا ضربته؟ دق أحد على الباب - وظهر عند العتبة ابنُ العم زيغمونت، بشمعة في يده وهو يرتدي الشبشب وسروالاً.

- هل أطلق أحد النار؟ - سأل - بدا لي أنني سمعت صوت إطلاق نارٍ من مسدس؟

- صفعت فاليك على بوزه.

- صفعت فاليك على بوزه؟

- أخذ سيجارتي خِفْية.

فضلّتُ أنْ يعرف ذلك مني وأن يسمع روايتي من القصة على أن يعرفها من الخدم في الصباح. استغْرَبَ زيمغونت قليلاً ولكنه ضحك بعد حين بكرم الضيافة.

- ممتاز. سوف يؤدبه ذلك! ولكن - صفعته على بوزه للمتعة فقط؟

- سأل بتشكك. ضحكت أما الكباس ألقى عليّ نظرة لن أنساها أبداً، نظرة الشخص الذي تمت خيانته، ثم خرج، كما ظننت، إلى الحمام. لاحقه إبن العم بنظرته.

- يبدو أن صديقك يستنكر ذلك - أليس كذلك؟ - ألقى ملاحظته بسخرية خفيفة - هل هو ساخط منك؟ البرجوازي النموذجي!

- برجوازي! - قلتها لأنه أي شيء آخر يمكنني أن أقول.

- البرجوازي - قال - ولد مثل فاليك سيحترمك كسيده لو ضربته على دمامته! يجب عليك أن تعرف كيف تعامل أمثاله! هم يعجبهم ذلك!

- يعجبهم ذلك - قلت - يعجبهم ذلك، يعجبهم ذلك، ها، ها، ها! يعجبهم ذلك! - لم أكن أصدق إنه نفس ابن العم الذي عاملني بنوع من التحفظ حتى الآن، تبدد خموله وتألقت عيناه، وأعجبه صفع دمامة فاليك وأنا أعجبته؛ ظهر سيد شاب أصيل من خلف الطالب البليد المتململ، كأنه شم فجأة من خلال فتحات أنفه رائحة الغابة وعامة الشعب. وضع الشمعة على حافة النافذة وجلس على طرف السرير بسيجارة.

- يعجبهم ذلك - قال - يعجبهم ذلك! ضربهم مسموح، ولكن

twitter @baghdad_library

يجب عليك أن تعطيهم بقشيشاً أيضاً - إنني لا أعترف بالضرب من غير البقشيش. ذات مرة ضرب والدي والعم سيفيرين في «فندق جراند» البواب على بوزه.

- والعم إؤستاحي - قلت - ضرب الحلاق على بوزه.

- لا أحد ضرب على البوز أفضل من الجدة أفيلينا، ولكن ذلك كان أيام زمان. أوه، مؤخراً سكر هنري باتس وضرب محصل التذاكر على بوزه. هل تعرف هنري باتس - إنه من النوع المتكلف.

رددت بأنني أعرف عدداً من الرجال باسم باتس وكلهم طبيعيون للغاية وغير متكلفين، بيد أني لم أتعرف حتى الآن على هنري. ولكن بوبيش بيتفيتسكي كسر في «كاكادو» زجاج النافذة ببوز النادل.

- مرة واحدة فقط صفعت بائع التذاكر على بوزه - قال - هل تعرف السيد بيبوفسكي وحرمه؟ إنها مغرورة جداً ولكن ذوقها رفيع. من الممكن أن نذهب غدا لصيد الحجل.

(أين كباس؟ أين ذهب؟ لماذا لم يَعُدْ؟). ولكن لا يُبْدي ابنُ العم أية نية للإنصراف، لقد قربتنا الصفعة على خد فاليك من بعضنا البعض مثل جرعة الفودكا وبينما هو يدخن السيجارة، يدردش بأن صفع البوز والحجلة وحرم بيبوفسكي وعدم التكلف وبنات تاتسيانكا[1] وكلومبينا[2] وهنري وتاجيو، وكم يجب عليك أن تكون شاطراً في حياتك وواقعياً

(١) البنات من فرقة الرقص على المسرح في وارسو أدارتها تاتسيانا فيسوتسكا (Tacjanna Wysocka).

(٢) إحدى الشخصيات الرئيسية للكوميديا المرتَجلَة أو الملهاة المرتجلة (Commedia dell'arte).

والمدرسة الزراعية والمال الذي سيكسبه بعد التخرج. أرد عليه بنفس المواضع تقريباً. فيعود ويردُّ بنفس الكلام أيضاً. فأردّ بنفس الشيء. فيعود الحديث مرة أخرى إلى صفع البوز وأنه يجب عليك أن تعرف متى ومع من وبكم، ثم أردّ مرة أخرى عن أن الضرب على الأذن أفضل من الضرب على الفك. ولكن في كل ذلك كان هناك - شيء غير حقيقي وأحاول مرات عدَّة أن أدخل في ثرثرتنا أن ذلك ليس صحيحاً واليوم لا أحد يصفع الثاني، وأن ذلك ليس موجوداً وربما لم يكن موجوداً أبدا، إنها أسطورة وتخيلات الأسياد. إنما لا أستطيع، يا لحلاوة هذه الثرثرة، أمسكت تخيلات الأسياد ولا تتركنا ونثرثر مثل السيد الشاب مع السيد الشاب الآخر! «إنه شيء جيد أن تصفع أحداً أحيانا على دمامته!». «الصفع على الدمامة - صحّي جداً!». «لا شيء يقارن بضرب رجلٍ على دمامته!».

- حسناً، حان وقت مغادرتي - قال أخيراً - طال جلوسي بالفعل... سنتقابل في وارسو. سأعرفك على هنري باتس. أنظر - لقد انتصف الليل تقريباً. طال غياب صديقك في الحمام... ربما هو ليس على ما يرام. تصبح على خير. عانقني.

- تُصْبح على خير، يا جوي.

- تصبح على خير يا زيجي - ردَدْتُ.

لماذا لا يعود الكباس؟ مسحت العرق من على جبيني. لماذا جرت تلك المحادثة مع ابنِ العم؟ نظرت من خلال فتحة التهوية، توقف المطر، لم أتمكن من الرؤية أبعد من خمسين خطوة، وفقط هنا وهناك خمنت شكل الأشجار في عتمة الليل - ولكن شكلها بدا أغمق من الظلام وغير محدد تماماً.

twitter @baghdad_library

خلف ستار الظلام كانت الحديقة، الغامضة والله أعلم ماذا أيضاً، وتقطر بالرطوبة ومخترقة من أولها إلى آخرها بتقسيمات الحقول الصمّاء. تراجعت إلى داخل الغرفة وأغلقت فتحة التهوية وأنا غير قادر أن أدرك ما الذي كنت أنظر إليه وغير قادر على أن أرى أي شيء غير عتمة الليل، رغم أنني نظرت. كل ذلك كان غير ضروري. كان غير ضروري أن أضرب عامل المزرعة. الثرثرة كانت غير ضرورية. صحيح أن ضرب البوز كان مثل جرعة الفودكا، مختلف تماماً عن الصفعات الجافة والديمقراطية في المدينة. وماذا بحق الجحيم، يعتبر بوز الخادم في عزبة النبيلة القديمة؟ كان قاتلاً أنني استخرجتُ دمامة الخادم الصغير على السطح وفوق ذلك افتريتُ عليه كذباً مع السيد الشاب. أين الكباس؟

عاد حوالي الساعة الواحدة في الصباح. لم يدخل مباشرة، بل نظر خلسة من خلال الباب نصف المفتوح ليرى فيما إذا كنت نائماً أم لا - تسلل كأنه عائد من عربدة ليلية وأطفأ بسرعة فتيل المصباح. خلع ملابسه على عجل. لقد لاحظتُ عندما انحنى فوق المصباح أن دمامته خضعت إلى تحولات دنيئة جديدة - الجانب الأيسر كان متورماً ومنتفخاً، ويشبه تفاحة صغيرة، ولكن تفاحة في كومبوت، وكل شيء فيه ظهر كأنه عصيدة. ياله من تصغير جهنمي! رأيته في حياتي من جديد، وهذه المرة على وجه صديقي! أصيب بـ«دلع رهيب» - هذا ما سميته - أصيب بـ«دلع رهيب». ما هي القوة الهائلة التي أوقعته في ذلك المأزق؟ أجاب على سؤالي بصوت ناعم ورفيع.

- كنت في غرفة المؤن. تآ.. خيتُ مع عامل المزرعة. ضربني على دمامتي.

- ضربك الخادم الصغير على دمامتك؟ - سألتُ ولم أكنْ أصدق أذني.

- ضربني - أكدّ لي بسعادة ولكنها اصطناعية وما زالت رفيعة جداً - لقد أصبحنا أخوة. أخيراً تواصلت معه. ولكنه قال ذلك مثل[1] Sonntagsjäger، مثل موظف مدني يفتخر بأنه كان يشرب في حفلة زفاف ريفية. لقد تم تدليكه عن طريق قوة ساحقة ومدمرة - ولكن طريقة تعامله مع تلك القوة كانت غير صادقة. ضغطت عليه بأسئلتي وبالتالي كشف لي على مضض، بينما وجهه مدفون في الظل.

- لقد أمَرْتُه.

- كيف حدث ذلك؟ - غلى دمي في عروقي - كيف حدث ذلك؟ أمرتَهُ بأن يضربكَ على وجهك! سيظن أنك مجنون! - يبدو كأنني أنا الذي تلقيت الصفعة - مبروك! انتظرْ حتى يعرف عمي وعمتي ذلك!

- إنها غلطتك - ردَّ بتجهم وبشكل مقتضب - لم يكن عليك أن تضربه. أنت الذي بدأت. لقد طمحت أن تصبح سيداً! اضطررتُ أن أتلقي ضرباته على دمامتي، لأنكَ ضربته... بدون ذلك لن يكون هناك مساواة ولن يكونَ باستطاعتي أنْ أتَ... آخى...

أطفأ النور ونفث من خلال جملٍ متقطعةٍ قصة معالجاته اليائسة. وجد عامل المزرعة في غرفة المؤن أثناء تنظيف أحذية أسياده، فجلس بجانبه ولكن الخادم الصغير قام. كرر Da capo[2] - حاول أن يفتح الحديث

(١) صياد من ذوي المهارات الضعيفة (الألمانية).

(٢) من البداية (اللاتينية).

twitter @baghdad_library

وأن يجعله بسيطاً ومنفتحاً وأن يأنس إليه ولكن كلماته لا زالت تخرج من فمه على شكل أنشودة فلاحين تافهة. أجابه عامل المزرعة بأفضل ما يستطيع، ولكنْ كان من الواضح أنه بدأ يشعر بالملل ولا يعرف ماذا يريد منه السيد المجنون. أخيراً ورَّط الكباس نفسه في الإسهاب الرخيص المستقى من الثورة الفرنسية ووثيقة الحقوق، وظل يوضح له أن كل الناس متساوون، وطالب بتلك الحجة أن يصافح عامل المزرعة - لكنه رفض ذلك بحزم.

- يدي لا تلائم يد سعادتك.

أنئذ خطرت ببال الكباس فكرة مجنونة إنه اذا تمكن من جعل عامل المزرعة يصفعه، فسيسقط حاجز مقاومته.

- اصْفعني على بوزي - كان يرجوه بدون أي مواربة - اصْفعني على بوزي! - وانحنى تجاهه وعرض وجهه لكفه.

غير أن الخادم الصغير استمرّ في رفضه:

« - إإي - قال - ليه أضرب سعادتك؟»

توسل الكباس وتوسل حتى صاح أخيراً:

- اضْرِبْ، اللعنة، افعلْ ما آمركَ به! بحق الجحيم!

وفي تلك اللحظة رأى نجوما وارتطامات وشواكيش - لقد ضربه عامل المزرعة على بوزه!

- مرة أخرى - صاح الكباس - اللعنة! مرة أخرى!

نجوم وارتطامات وشواكيش. يفتح عينيه ويرى أن الخادم الصغير يقف أمامه ويداه مستعدتان لتتفيذ أوامره! ولكن الصفعة الموجهة بأمر لم

تكن صفعة حقيقية - ليست أكثر من صب الماء في الطست وخلع الحذاء - وغطى تورد الخجل التورد الذي ظهر على خديه نتيجة الضرب.

- أكثرْ، أكثرْ - همس الشهيدُ حتى يت... آخى معه عاملُ المزرعة على وجهه في النهاية. ومرة أخرى - نجوم وارتطامات وشواكيش أمام عينيه - أوه، ذلك الصفع على البوز في غرفة المؤن المهجورة، بين المناشف المبتلة وفوق حوض الماء الساخن!

لحسن الحظ، إنّ خيالات الأسياد أضحكت ابنَ الفلاحين. ربما وصل إلى استنتاج أن سعادته فقد عقله (ولا شيء يُجرّيءُ الفلاحين على أسيادهم أكثر من المرض العقلي) وشرع في المزاح بأسلوب فلاحي الذي نتج عنه درجة من التقارب. سريعاً تآخى عامل المزرعة معه إلى حد أنه وكزه في ضلعه واحتالَ عليه بأخذ الفكة منه:

« - إديني يا سيدي علشان الدخان!»

لكن ذلك لم يكن المطلوب، كل شيء كان عدوانياً وغير أخوي وغير ودي وساخراً بطريقة فلاحية وقاتلاً وبعيداً عن حلم التآخي. لكنه تحمل كل ذلك، فضّلَ أن يذله عاملُ المزرعة على أن يذل الخادم الصغير على نحو سيادي. خرجت الخادمة من المطبخ، «مرسيا»، بفوطة مبللة لتنظف الأرض، وبدأت تتعجب من المسخرة الحادثة:

- يا يسوع المسيح! عجايب!

كلُّ البيت نامَ - لذلك كان يمكنهم بأمان أن ينغمسوا في المرح مع ذلك السيد الذي قام بزيارتهم في غرفة المؤن، ويتهكمون عليه بالتهكم الفلاحي والريفي. كان الكباس يساعدهم في ذلك بنفسه ويضحك معهم.

twitter @baghdad_library

ولكن تدريجياً، بينما كانوا يسخرون من الكباس، بدأوا في الاستهزاء من أسيادهم أيضاً.

« - هما البيه والهانم كدا - » قالوا باللهجة الشعبية، وبطريقة المطبخ وغرفة المؤن.

« - هم كدا! البيه والهانم لا يعملوا أي حاجة إلا يحشون ويحشوا الأكل حتى ينفجرو! يحشوا ويمرضو ويرحرحوا ويتمشوا في الغرف ويدردشوا في حاجة. ويحشوا حش! يا الله يا الله! أنا لا أحش نصف الأكل بتاعهم، على الرغم من أني فلاح بسيط. أهو العشاء والشاي والبونبون والمربى والبيض بالبصل قبل الغداء. البيه والهانم مفجعوين ويحشوا بإفتراء - بعدين يناموا على بطنهم المكشوفة ويمرضوا من كل ده. ولما البيه راح يصطاد نط على حارس الصيد! نط على حارس الصيد! فينتسانتي، حارس الصيد كان واقف وراه ببندقية إحتياطيه، فضرب البيه النار على الخنزير البري وجري الخنزير البري ناحية البيه، فرمى البيه البندقية على جنب ونط على فينتسانتي - أسكوتي، مارسيا - نط على فينتسانتي! ما كنش في شجرة قريبة، فنط على فينتسانتي! بعدين أعطاه البيه زلوتي ووصاه ما ينطقش بالكلمة لأي حد وإلا هيطرده.»

« - يا الله! يا الله! كفاية بطني بتوجعني من الضحك!» - ثم أمسكت ببطنها- أما الآنسة فهي بتتجول وتتفرج على البيئة حولها «تتمشى. البيه والهانم بيتجولوا ويتفرجوا. وزيغمونت بيه يظل يتفرج علي ولكني مش قد المقام - قرصني مرة بس ما عملش حاجة بعدها. يتفرج ويتفرج لما محدش يكون شايفه حتى وجعتني بطني من الضحك، فهربت! فأعطني بعدها واحد زلوتى وأمرني ما أقولش لحد انه كان سكران!»

«- يا نهار أبيض، سكران! - تدخل عامل المزرعة - البنات التانية برضو مش عايزين أي حاجة معه علشان هو بيتفرج بس. عنده هناك في القرية يوزيفكا العجوزة، الأمْرَلة، بيقابلها في الحشائش عند البركة، وخلاها تحلف انها مش هتجيب سيره لحد - لأي حد أكيد طبعا!»

« - هي هي هي هي! أسكت يا واد يا فاليك! البيه والهانم متربيين جدا! حساسين جدا!»

« - حساسين، أيوه، بس مطلوب مننا اننا نمسح لهم مناخيرهم لأنهم ما بيعرفوش يعملوا أي حاجة لنفسهم. هات ده ودي ده أعملي ده، لازم تجيب لهم هدومهم علشان هما ما بيلبسوش بنفسهم. أول يوم لي هنا، كل حاجة كانت غريبة علي. لو عاملني حد بالطريقة دي، فأحسن لي إن الأرض تنشق وتبلعني بصراحة. في المغرب لازم أحط كريمات للبيه.»

« - وأنا أدلك الآنسة - قالت البنت بصوت عال. أدلك الآنسة بيدي علشان تفضل طرية. البيه والهانم ناعمين وأيديهم الصغيرة! هي هي هي أيديهم الصغيرة! - يا يسوع المسيح! يتمشوا ويحشوا ويبررلون بارليه فرانسيه ويملوا. أسكت يا فاليك، يا قلبي! ده كلام فارغ، الهانم طيبة!»

« - طيبة علشان تعرف تخنق أمثالنا - فلازم تكون طيبة! البطون في القرية تقرقر من الجوع. دول يخنقوا الناس. يا نهار أبيض، الكل بيشتغل عندهم، يخرج البيه إلى الحقول وبيتقرج على الناس المستعبدين علشانه.»

« - الهانم بتخاف من الأبقار. بتخاف من الأبقار البيه والهانم بيتناقشوا! يتمشوا - هي هي هي! - لونهم أبيض جدا! - ...» ظلت الخادمة تُرغي وتتعجب، أما عامل المزرعة المتحمس فكان يتكلم لكنه استغربَ، حين دخل فرانسيس...

twitter @baghdad_library

- دخل فرانسيس؟ - صحتُ-   كبير الخدم؟

- فرانسيس! جلبته الشياطين - أصدرَ صوتاً ناعما - ؛ بالتأكيد أيقظه صخبُ مرسيا. بطبيعة الحال لم يجرؤ أن يقول لي أيّ شيء، ولكنه وبّخ مرسيا وعاملَ المزرعة لأنّ الوقت غير مناسب للدردشة، انْصَرِفا حالا إلى عملكما، الوقت متأخر في الليل ولم يتمّ غسل الأواني. ذهبا على الفور. ياله من إمعة خسيس!

- هل سمعكم؟

- لا أعرف - ربما سمعنا. إنه مريب - إمعة بسوالفِ شعرٍ وياقة منشاة. فلاح بسوالف - خائن. خائن ومخبر. إذا كان سمعنا - فسوف يخبرهم عَنّا. ولقد كانت دردشة حلوة - قال بالصوت الناعم.

- سوف ينتج منه مشاحنةٌ شيطانية -   قلتُ بهدوء.

لكنه تمتم وبإصرار بصوت سوبرانو.

- خونة! أنت أيضاً - خائن! كلكم خونة، خونة...

لم أستطعْ أن أنام لوقت طويل. فوق السقف، في العَليّة، تهادت السّماميرُ أو الجرذان محدثة ضجيجاً، وسمعتُ صريرها ووثباتها المفاجئة، وجريها ومطارداتها، والدربكة الفظيعة لتلك الحيوانات المتوترة بوحشيتها. سقطت القطرات من السقف. عوت الكلابُ بشكل أتوماتيكي، والغرفة، بستائرها المشدودة، كانت مثل علبة مظلمة. استلقى الكباسُ على السرير الآخر ولم يكن نائماً، واستلقيتُ أنا على سريري ولم أكن نائماً، استلقيتُ على ظهري، ويدايَ خلف رأسي، ونظرتي مثبتة على السقف - كلانا مستيقظ ودلّتْ على ذلك أنفاسنا غير المسموعة. ماذا كان يفعل تحت غطاء الظلام - نعم، ماذا، بما أنه لم

يكن نائماً، فبالتأكيد كان يفعل شيئاً - وأنا كنت أفعل شيئاً كذلك. الإنسان الذي لا ينام، يعمل، لا يمكنه ألا أن يعمل. إذن كان يعمل. وأنا عملت كذلك. فبماذا كان يفكر؟ بماذا كان يحلم، بصوته الرفيع والناعم، المتوتر والمشدود، كأنه بين فكي كمّاشة. دعوت الله أن ينام، لأنه ربما سيصبح آنذاك أقل هدوءاً وأكثرَ ظهوراً وأقلَّ تخفّياً - سيسترخي قليلاً ويخف توتره...

ليلة من العذاب! لم أكن أعرف ماذا أفعل! أن أفر في الفجر؟ كنت مقتنعاً أن الخادم العجوز فرانسيس سيخبر عمي وعمتي عن الحوارات وصفع البوز مع عامل المزرعة. وعندئذ فقط سيبدأ ذلك الرقص الجهنمي والتنافر والكذب واللعب الشيطاني والدمامة، ستبدأ الدمامة من جديد! والبوبو! هل لذلك السبب هربت من السيد والسيدة الغلامي؟ أيْقَظْنَا الوحشَ! لقد أطلقنا وقاحة الخدم المنزلي! في هذه الليلة الرهيبة بينما أنا مُسْتَلْقٍ في سريري مستيقظاً، أدركتُ سرَّ العزبة الريفية وملاك الأراضي وأعيان الريف، السر الذي أعراضه متعددة وغامضة منذ اللحظة الأولى كانت تملأني بنذير الدمامة، والمهابة منها! الخدم كان السر. الفلاحون البسطاء كانوا سر طبقة الأعيان. ضد من تثاءب العم، ضد من حشر في فمه حبة الفراولة الحلوة الأخرى؟ ضد الفلاحين البسطاء، ضد خدمه! لماذا لم يلتقط علبة سجائره؟ حتى يلتقطها له الخدم. لماذا تلطف معنا بحسن ضيافته الشديد، من أين كل تلك الدماثة والمراعاة، والأدب العالي والتشريفات؟ لكي يميز نفسه عن الخدم ويحتفظ بالأعراف السيادية ضدهم. وكل ما فعله ملاك الأراضي، كان في مواجهة الخدم وبالخصوص الخدم وبالنسبة للخدم المنزلي والخدم الزراعي. أيمكن أن يكون الأمر مختلفاً؟ نحن في المدينة لم نشعر حتى

twitter @baghdad_library

بأننا من طبقة الملاك، كلنا كنا نرتدي ونتكلم بنفس الطريقة، وعدد كبير من النغمات النصفية الدقيقة وغير الملحوظة جعلتنا نتحد مع البروليتاريا - لو نزلنا السلم بدءاً من البقال وسائق الترام وسائق الحنطور سيمكننا أن نصل بشكل مبهم إلى الأسفل حتى الزبال؛ ولكن هنا في الريف نمت السيادية مثل شجرة حور وحيدة عارية. ولكن هنا ليس ثمة منطقة وسيطة بين السيد والخادم، لأن مدير العقارات عاش في المباني الملحقة بالعزبة والكاهن في البيت الملحق بالكنيسة. نمت سيادية العم الفاخرة المتوارثة مباشرة من الحشائش الفلاحية وامتصّتْ من الفلاحية عصيرها. كانت الخدماتُ في المدينة تقدم بشكل دوار وكإجتهاد فردي - كل على انفراد - ولكن هنا كان لدى السيد فلاحه المحدد والخاص الذي يمد ساقه إليه حتى يقوم بتنظيف حذائه... عمي وعمتى بالتأكيد كانا يعرفان ماذا يقولون عنهما في غرفة المؤن - كيف نظرت إليهما عيون الفلاحين البسطاء. كانا يعرفان - لكن لم يسمحا بإنتشار هذه المعرفة، قمعاها وخنقاها ودفعاها إلى سرداب دماغهما. أوه، هذا الإحساس عندما ينظر إليك فلاحك البسيط! أن يتم فحصك ونشر الإشاعات عنك من قبل فلاحك! أن تكون منكسراً باستمرار في المنشور الزجاجي الفلاحي للخادم الذي يمكنه الدخول إلى غرفك، والذي يستمع إلى محادثاتك ويرى سلوكك والمسموح له بتقديم القهوة إلى طاولتك وسريرك - أن تكون موضوع ثرثرات المطبخ السفلية والجامدة والغليظة وألا تكون قادراً أبدا على الردّ عليه في المقابل. حقاً، إنه فقط من خلال الخدم مثل كبير الخدم والحوذي وخادمة الغرفة، يمكنك أن تعرف جوهر أعيان الريف. لن تفهم السيد بدون كبير الخدم. دون خادمة الغرفة لن تتعمق في داخل نوعية المزاج الروحي لسيدات ملاك الأراضي، على

نغمة طموحاتهن السامية، أما السيد الشاب فمرجعيته هي الفلاحة الشابة. أوه، فهمت الآن في النهاية سبب خوفهم العجيب وتقييدهم، الذي كان يصعق أي شخص من المدينة يزور قصور ملاك العزب. لقد أخافتهم الفلاحية. كانوا مقيديين بالفلاّحية. الفلاّحية سيطرت عليهم تماما. ههنا - السبب الحقيقي. ههنا - التقيح الأبدي السري. ههنا - الصراع الخفي حتى الموت المطعم بكل سموم الصراعات الخفية المدفونة. وأسوأ مئة مرة من مجرد الصراعات المالية، كان هذا القتال يدور على خلفية الغرابة والآخرية - آخرية الجسد وغرابة الروح. كانت أرواحهم وسط أرواح الفلاحين كأنها في غابة؛ أجسادهم السيادية الحساسة وسط أجساد الفلاحين كانت كأنها في أدغال. نفرَتْ أيديهم من حوافر الفلاحين، وكرهت السيقان السيادية السيقان الفلاحية، وكرهت الوجوهُ الدماماتِ، والعيونُ كرهت الحدقاتِ الفلاحية، وأصابعهم الرهيفة كرهت الأصابعَ الفلاحية الغليظة، وكان هذا الوضع دائم الإذلال لأنهم كانوا على الدوام ملموسين منهم، و«يعاملونهم» كما قال عامل المزرعة، المدللون والمدهونون بالكريمات... بأن لا يكون لديك بجوارك في البيت إلا أجزاء جسد مختلفة وغريبة عنك! - لأنه في دائرةِ نصف قطرها كيلومترات عديدة يوجد فقط أطرافٌ ريفية، كلام ريفي من قبيل «بَسْ» و«بجد» و«يا نهار أسود» و«ضَنايا» و«أما» و«أبا» وربما فقط كاهن الرعية ومدير مباني المزرعة كانوا أقرباء للسيد والسيدة. لكن في الواقع كان المدير من أجل الرسميات والكاهن يرتدى تنورة في الحقيقة. ألم يكن الشعور بالوحدة هو سبب تلك الضيافة الجشعة التي شجعونا بها للبقاء بعد العشاء - لقد شعروا بشعور أفضل معنا. كنا حلفاءهم. ولكن الكباس خانَ الوجوه السيادية مع دمامة عامل المزرعة.

twitter @baghdad_library

إنها الحقيقة الهدامة أن الخادم الصغير ضرب بيده وجهَ الكباس- الذي كان، أولاً وأخيراً، ضيف الأسياد وهو نفسه سيِّدٌ - وكان يجب أن ينتج عن ذلك عواقب هدامة. اعتمدَ التسلسل الهرمي الأبدي على هيمنة الأجزاء السيادية وكان ذلك نظاماً هرمياً مستحكماً وإقطاعياً، حيث كانت يد السيد تساوي دمامة الخادم وساقه هي محصلة الجزء الأوسط من الفلاح. كان هذا تسلسلاً هرمياً عتيقاً. تركيبة متفقاً عليها ونظاماً وقانوناً منذ قرون. كانت هي العروة السرية التى تربط الأجزاء السيادية والفلاحية، تم تقديسها بالعُرفِ والتقاليد على مر القرون، وفقط من خلال هذا النظام كان يمكن للأسياد أن يتلامسوا ويتصلوا مع الفلاحين البسطاء. ومن ذلك نبع سحر صفع البوز. وبالتالي عبادة صفع البوز الشبه دينية عند فاليك. وكذلك عربدة زغمونت السيادية. بالطبع، لم يعد هناك ضرب حالياً (على الرغم من أن فاليك اعترفَ بأنه يتلقى ضربات من العم أحياناً) ولكن احتمالَ الصفعة كان موجوداً دائماً في داخلهم، وهذا ما احتفظ بالسيادة عليهم. والآن، ألم يُعاشرْ هذا الحافرُ الفلاحي وجهَ السيد؟

والآن رفع الخدم رؤوسهم. وبدأ الكلام في المطبخ. والفلاحون المتجرئون وفاسدو الخلق نتيجة تعاشر أجزاء الجسد، شوهوا سمعة أسيادهم علانية، وازدادتْ الانتقادات الفلاحية - ماذا سيحدث، ماذا سيحصل عندما يخترق ذلك أذن العم والعمة ويتقابل الوجه السيادي مع الدمامة الفلاحية الهائلة؟

الفصل الرابع عشر

دمامة طليقة وحالة تلبس جديدة

إذن في اليوم التالي بعد الإفطار أخذتني عمَّتي لكي تتكلم معي على انفراد. كان نهاراً طرياً ومشمساً، والأرض رطبة وسوداء، انتصبتْ أجماتُ الأشجار في الفناء الكبير وتأرجحت بأوراقها السماوية الخريفية؛ الدجاج الأليف تحت الأشجار ينقر ويأكل من الأرض. وقف الوقت ثابتاً في تلك اللحظة الصباحية واستلقتْ شرائط الضوء الذهبية على أرضية حجرة التدخين. تسكعت الكلاب البلدية بتكاسل من هنا إلى هناك. أطلقَ الحمام المنزلي هديله. غير أن عمَّتي كانت متهيجة في داخلها مثل موجة شديدة.

- طفلي عزيزي - قالت - اشرحْ لي، من فضلك... أخبرني فرانسيس أن صديقك يتباسط، كما هو يعتقد، في المطبخ مع الخدم. هل هو ربما من نوعية المشاغبين؟

- إنه صاحب نظريات! - رد زيغمونت - لا تقلقي يا أمي - إنه باحث فى الجانب النظرى من الحياة! لقد جاء إلى الريف بنظرياته - ديمقراطي من المدينة!

كان لا يزال في حالة مبتهجة وزهو إلى درجة ما بعد الأمس.

twitter @baghdad_library

- يا عزيزي زيجي، إنه ليس صاحب نظريات، بل ممارس! حسب ما يقول فرانسيس، لقد صافح فاليك يدا بيد!

لحسن الحظ لم يقل الخادم العجوز كل شيء، أما العم، بقدر ما كان يمكنني أن أستنتج، فلم يكن يعرف شيئاً على الإطلاق. تظاهرت بأنني لم أسمع شيئاً عن ذلك، وضحكت (أوه، كم مرة تضطرنا الحياة إلى الضحكات المتكلفة) وقلت شيئاً عن أيديولوجية الكباس اليسارية وهلم جرا وانتهى الموضوع مؤقتاً. بالطبع لم يتحدث أحدٌ عن ذلك مع الكباس. حتى الغداء لعبنا كينج[1]، لعبة كوتشينة اقترحتها صوفيا للتسلية ولم يكن من اللياقة أن نرفض - وحتى موعد الغداء استحوذتْ علينا اللعبة. صوفيا وزيغمونت والكباس وأنا، جميعنا شعرنا بالضجر، كنا نضحك ونضع أوراق اللعب على اللباد الأخضر، الأوراق ذات القيمة الأكبر على تلك ذات القيمة الأقل، وفقا للألوان أو للقطع للقلوب. زيغمونت كان يلعب بشكل مباشر وجاف كأنه في النادي، والسيجارة في فمه، ورمى أوراق اللعب بدقَّة وبأفقية والتقطَ مكاسبه بأصابعه البيضاء محدثاً صوت طقطقة. الكباس بلل أصابعه بلعابه، دَلكَ الأوراقَ ولاحظتُ أنه كان يخجل من لعب الـ«كينج» حيث أنه اعتبرها لعبة السادة، وظل يلتفت إلى الوراء ناحية الباب خوفاً من أن يراه عامل المزرعة على سبيل المصادفة - لقد كان يفضل أن يجلس على الأرض ويلعب الـ«كومي». أكثر من أي شيء، كنت خائفاً من الغداء، لأنني توقعت أنه لن يستطيع تحمل المواجهة مع عامل المزرعة على الطاولة - واتضحَ أن مخاوفي كانت في محلها.

---

(١) لعبة بالورق.

قدموا وجبة «بيجوس[1]» وشوربة الطماطم الشفافة وريش العجل والكمثرى في صوص الفانيليا - جميعها مجهزة بأصابع الطباخة القروية الغليظة، بينما يخدم الخدم على أطراف أصابعهم - فرانسيس بقفازيه الابيضان أما الخادم الصغير بقدميه الحافيتين والمنديل على ذراعه. الكباس شاحب بنظراته المستكينة يأكل الوجبات البارعة من أنواع فن الطهي التي وضعها أمامه فاليك وكان معذباً للغاية لكون عامل المزرعة يغذيه بتلك الأطايب. علاوة على ذلك، عمَّتي التى رغبت بلباقة في أن تجعله يدرك عدم ملاءمة تهتكاته في غرفة المؤن، كانت تتعامل معه بتهذيب مفرط وتسأل عن العلاقات الأسرية ووالده المتوفى. كان مضطراً لاستخدامِ جمل محفوظة، وأجاب بمعاناة وبأقصى هدوء ممكن حتى لا يسمعه عامِل المزرعة ولن يجرؤ على النظر في اتجاهه. وربما لذلك عند تقديم وجبات التحلية بدلاً من أن يرد على العمَّة، حدق أمامه وسرح بابتسامةِ الشوق والوداعة على دمامته الناعمة الهشة وهو يمسك بالملعقة الصغيرة بيده. لم أستطع أن ألكزَهُ، لأنه كان جالساً على الناحية الآخرى من الطاولة. سكتت عمتي، أما عامل المزرعة فقد انفجرَ في ضحك ريفي ماجن، كما هي عادة الفلاحين في الريف عندما «يبحلق» فيهم الأسياد، وغطَّى فمه بيده. ضربه كبير الخدم ضربة خاطفة على أذنه. عند هذه النقطة كان العم يشعل سيجارته ويستنشق دخانها. هل رأى ما حدث؟ كان ذلك صارخاً إلى درجة أنني كنت خائفاً أن يأمر الكباس بأن يقوم من على الطاولة.

ولكن قسطنطين أطلق سحابة الدخان من أنفه، وليس من فمه!

---

(١) وجبة تقليدية من الملفوف واللحم (البولندية).

twitter @baghdad_library

- النبيذ - صاح - النبيذ! هاتوا النبيذ!

اشتدّ مزاجه فجأة، وبسط نفسه على الكرسي ونقر بأصابعه على الطاولة.

- النبيذ! قُلْ لهم يا فرانسيس أن يأتوا بزجاجة «الَجدّة هنري» من السرداب - سنشرب جرعة صغيرة! فاليك، قهوة سادة! وسيجاراً! لندخن السيجار الممتع - اللعنة على السجائر!

وبينما هو يشرب نخب الكباس، بدأ يقص ذكرياته، كيف كان في الأيام الماضية يصطاد طيور التدرج[1] مع الأمير سيفيرين. وكان مستمراً في كلامه ويشرب نخب الكباس بالأخص وهو غافل عن الآخرين تماماً وحكى عن الحلاق في فندق «بريستول»، من أفضل الحلاقين الذين قابلهم في حياته. انتعشَ وانفعلَ أما الخدم فقد تضاعف اهتمامهم وملأوا الكؤوس سريعاً بأصابعهم الفلاحية. بدا الكباس كأنه ميت والكأس في يده، كان يشرب نخب العم قنسطنطين وهو لا يعرف لماذا العم يسبغ عليه كل هذا التركيز غير المتوقع، وكان معذباً جداً، لكن كان المفروض عليه أن يستوعب النبيذ المعتق الرقيق بعبقه المميز وتأريخه في حضور فاليك. بالنسبة لي أيضاً لم يكن تصرف العم متوقعاً. بعد الغداء أمسكني من ذراعي وقادني إلى غرفة التدخين.

- صديقك - قال بخبرة خبير بالحياة وبشكل أرستقراطي أيضاً - إنه خَوَ... خَوَ... همم... إنه يلاحق فاليك!... هل لاحظت ذلك؟ ها، ها. حسناً، أتمنى ألا يكنّ السيدات قد عرفن بذلك. الأمير سيفيرين كان أيضاً لديه نزواته من وقت لآخر!

(١) طائر من فصيلة التدرجية.

مدّ ساقيهِ الطويلتينِ أمامه. أوه، يالها من براعة أرستقراطية تلك التي ألقى بها خطبته! ياله من دهاء سيادي أسهم فيه أربعمائة نادل وسبعون حلاقاً وثلاثون فارساً ونفس العدد من مديري المطاعم، ياله من سرور ذلك الذي أبرز به معرفته المتبلة في المطاعم لـ bon vivant[(١)] و grand seigneur[(٢)] هي السيادة الأصيلة الحقيقية عندما يعرف شيئاً من طراز الانحراف الجنسي أو سوء المعاملة الجنسية، يظهر خبراته الذكورية للحياة التي تعلمها من الجرسونات والحلاقين. أما أنا فقد هيجتني فوراً حكمة الحياة المتبلة في المطاعم عند عمي مثلما يتهيج الكلب من القط، وأغضبتنى السهولة الساخرة التي قدّم بها تفسير الحدث في غاية الملاءمة والسيادية للحدث. نسيتُ جميع مخاوفي. ونكاية فيه كشفت عن كل شيء بنفسي! فليسامحني الله - بتأثير نضجه المطعمي وقعت في الخضرة، واعتزمتُ أن أمتعه بوجبةٍ غير مطبوخة وغير ناضجة جيداً أكثر من أية من وجبة تُؤكل في المطاعم.

- الأمر ليس كما تظن على الإطلاق، يا عمي - قلت بسذاجة - فهو مجرد يَتَ... آخى معه.

اندهشَ قسطنطين:

- يتآخى؟ كيف - يتآخى؟ ماذا تقصد بـ«يتآخى»؟ - نظر إلي شَزْراً وهو منزوع السرج.

- يت... آخى - رددتُ - يريد أن... يتآخى قليلاً.

---

(١) إنسان يقضي حياته في الملذات (الفرنسية).

(٢) سيد عظيم (الفرنسية).

twitter @baghdad_library

- يتآخى مع فاليك؟ ما معنى - يتآخى؟ ربما تريد أن تقول - يثير شغب الخدم؟ المشاغب؟ البلشفية - أليس هكذا؟

- لا، يتآخى مثل صبي مع صبي آخر.

نهض عمي ونفضَ رمادَ السيجار - سكت وبحث عن الكلمات.

- يتآخى؟ - كرر - يتآخى مع الفلاحين، أليس كذلك؟ - حاول أن يعطي تسمية لذلك، أن يجعله مقبولاً من ناحية الضرورات العالمية والاجتماعية والعملية، لا، التآخي الصبياني البحت كان بالنسبة له غيرَ مقبول، ولم يتوقع أنه من المحتمل أن يقدم ذلك في المطعم الجيد. وأكثر ما أزعجه أنني أسوة بالكباس كنت أنطق «يَتَ... آخى» بلمسة تأتأة محرجة وخجولة. وذلك ما أغضبه تماماً.

- إنه يتآخى مع الفلاحين؟ - سأل بحذر.

رددتُ:

- لا، يتآخى مع الصبي.

- ماذا يعنى ذلك؟ هل يريد أن يلعب معه الكرة أم ماذا؟

- لا. إنه فقط صديقه كصبي - يتآخون مثل صبيّ مع صبيّ آخر.

أحمرَّ وجهُ العم خجلاً ربما لأول مرة منذ أن بدأ يحلق ذقنه، أوه، يا لها من حمرة خجل للبالغ الوجيه الـ à rebours[1] في مقابل الشاب الساذج - أخرج ساعته، نظر إليها وملأها وهو يبحث عن المصطلح العلمي والسياسي والاقتصادي والطبي، لكي يضعَ ويغلقَ فيه كما في العلبة تلك المسألة العاطفية الحساسة.

---

(١) بالعكس (الفرنسية).

- شذوذ ما؟ أليس كذلك؟ عقدة؟ هو يَتَ... آخى؟ ربما هو اشتراكي، عضو في الحزب الاشتراكي البولندي؟ ديمقراطي، هاه؟ يت... آخى؟ Mais qu'est que c'est[١] يت... آخى؟ Comment[٢] يت... آخى؟ Fraternité, quoi, égalité, liberté[٣] - قالها بالفرنسية، ولكن ليس بشكل عدواني، بل على العكس، مثل الشخص الذي يحمي نفسه وحرفياً «يبحث عن الملاذ» في اللغة الفرنسية. لقد كان عاجزاً في مواجهة الصبي. أشعل سيجارته وأطفأها، وضعَ ساقاً على ساق ولعب بشاربه.

- هو يتآخى؟ What is that[٤] يَتَ... آخى؟ إلى الجحيم! الأمير سيفيرين...

استمررتُ أكررُ بإصرار لطيف «يت... آخى» ولم أكنْ أتخلى على أية حال عن سذاجتي المخضرة والرقيقة التى كنت ألطخ بها العم.

- كوستا - قالت العمة بطيبة وهي واقفة على عتبة الباب وكيسُ الحلوى في يدها - لا تنزعج، إنه بالتأكيد يتآخى معه في المسيح، في الحب الأخوي.

- لا! - رددتُ بعناد - لا! هو يتَ... آخى بشكل عارٍ، بدون أي شيء!

- إذن في النهاية هو شاذ! - صاح العم.

---

(١) ولكن ما يعني ذلك؟ (الفرنسية).

(٢) كيف ذلك؟ (الفرنسية).

(٣) حرية (...) مساواة، إخاء (الفرنسية) - شعار الثورة الفرنسية.

(٤) ما هذا؟ (الإنجليزية).

twitter @baghdad_library

- لا على الإطلاق. إنه يتَ... آخى بدون أي شيء تماماً، دون شذوذ أيضاً. يتآخى كصبي.

- صبي؟ صبي؟ ولكن ماذا يعني ذلك؟ Pardon, mais qu'est-ce que c'est صبي؟ - ادّعى الغباء - كصبي مع فاليك؟ مع فاليك وذلك في بيتي؟ مع خادمي الصغير؟ - انزعجَ ودق الجرس - سأريكم الصبي!

هرع الخادمُ الصغيرُ إلى الغرفةَ. اقتربَ منه العمُّ بيدٍ ممدودةٍ وربما كان سيوجُّه له ضربة خاطفة، دون أن تتأرجحَ ذراعه، لكنه وقف بحيرة في منتصف الطريق، وترنّح من داخله ولم يستطع أن يضرب، لم يستطع أن يتصل بدمامة فاليك في تلك الظروف. أن يضرب الصبي لأنه صبي؟ أن يضربه لأنه «يتآخى»؟ مستحيل. وقسطنطين الذي كان يضرب بسهولة بسبب إراقة القهوة، خفضَ يده.

- امْشِ! - صرخ.

- كوستا! - هتفت العمَّة بطيبة - كوستا!

- لن يجدي ذلك - قلتُ - على العكس، إنّ ضرب البوز سيزيد فقط التَّ... آخي. إن الكباس يحب من يقع ضحية ضرب البوز.

رمشَ عمّي بعينيه، كما لو كان ينفضُ يرَقةً بإصبعه من على سترته، ولكنه لم ينطق بشيء. بعد أن سُخِرَ منه بالسذاجة السفلية أصبح ذلك المايسترو في السذاجة الصالونية والمطعمية مثل أستاذِ مبارزةٍ تحرّشَتْ به بطة. ظهرَ مالكُ الأراضي الوجيه بسذاجةٍ طفولية في مواجهة السذاجة. والمثير للاهتمام أكثر، أنه على الرغم من حنكتة وتجاربه في الحياة، لم يتبادر إلى ذهنه أنني يمكن أن أكون متحالفاً ضده مع الكباس وفاليك وأنني أستمتع بتشنجاته السيادية - لقد تميز بولاء الطبقة الاجتماعية

الراقية التي لم تسمح بالخيانة في دائرتها. دخل فرانسيس العجوز الحليق، بسوالفه، مرتدياً سترته المشقوقة الذيل، ووقف وسط الغرفة.

قسطنطين الذي كان مضطرباً قليلاً، عاد إلى وضعية اللامبالاة المعتادة.

- ما هي الأخبار، يا عزيزي فرانسيس؟ - سأل بأريحية ولكن في صوته يمكن أن نلمس أثر احترام السيد لخادمه العجوز المتمرس، تماماً مثل ذلك الاحترام تجاه النبيذ المجري المعتق - . ماذا لديك يا فرانسيس؟ نظر الخادم نحوي ولكن لوح العم بيده - . تكلم يا فرانسيس.

- هل تحدثت يا سعادة البيه مع فاليك؟

- آه، نعم تحدثتُ تحدثتُ، يا عزيزي فرنسيس.

- أردت فقط أن أؤكد على أنه من الجيد أن سعادتك تحدثت معه. يا سعادة البيه، لو كان الأمر بيدي لما كنتُ استبقيتُهُ ولا دقيقة واحدة! كنتُ سأرميه في الخارج فوراً على بوزه، يا سعادة البيه. لقد تعاشر مع سيادتكم أكثر مما يجب! يا سعادة البيه، بدأ الناس يثرثرون!

مرت ثلاثُ بنات ريفيات جرياً عبر الفناء، فانكشفتْ سيقانهنَّ أثناء جريهن. هرع خلفهن كلبٌ أعرج وهو ينبح. انسلَّ زيغمونتْ إلى غرفة التدخين.

- يثرثرون؟ - سأل العم قسطنطين - ماذا يقولون؟

- يثرثرون على سيادتكم!

- يثرثرون علينا؟

ولكن لحسن الحظ لم يُرِد الخادم العجوز أن يقول أي شيء أكثر من ذلك.

twitter @baghdad_library

- يثرثرون على سيادتكم - قال - تعاشر فاليك مع السيد الشاب الذي جاء، ومن ثم، عذرا يا سعادة البيه، يثرثرون على سيادتكم بلا أي احترام. خصوصاً فاليك والبنات من المطبخ. لقد سمعت أمس بنفسي كيف ثرثرن مع السيد الشاب حتى وقت متأخر من الليل، أفصَحْنَ له عن كل شيء. يثرثرون بكل ما أمكنهم، بقدر ما يستطيعون يثرثرون! يثرثرون حتى لا أعرف إلى أية درجة! يا سعادة البيه، كنت سأطرد الفاسق شر طردة حتى يفر بسرعة شديدة في ثوانٍ - احمَرَّ وجه الخادم الحسن المظهر مثل زهرة الفاوانيا[١]، مغموراً بحمرة الخجل، أوه، يا لها من حمرة خجل الخادم العجوز! ردت عليه حمرة خجل السيد الرقيقة والهادئة. كان السيد والسيدة يجلسان في صمت - الأسئلة لم تكن مجدية - ربما سيضيف الخادم العجوز شيئاً طواعية - بشفتيه - لكنه لم يُضِفْ.

- حسناً، حسناً، يا عزيزي فرنسيس - قال العم قسطنطين أخيراً - يمكنك أن تذهب يا فرانسيس.

وكما أتى الخادم، غادر بنفس الطريقة.

«يثرثرون على سيادتكم» - كان هذا كل ما عرفاه. أرضى العم نفسه بتوجيه ملاحظة لاذعة للعميمة:

- إنك متساهلة مع الخدم أكثر مما ينبغي، يا روحي، لماذا أصبحوا غير منضبطين؟ ياله من هراء؟ - وبدأوا بالحديث عن شيء آخر، ولفترة

---

(١) الفاوانيا أو عود الصليب، هو نبات عشبي حولي أو معمر وأزهاره حمراء تشبه أزهار الورد.

طويلة بعد انصرافِ الخادم تبادلا الملحوظات الغثة والتافهة، مثل: «أين صوفيا؟» و«هل جاء البريد؟» - واستهانا بالموضوع حتى لا يظهرا إلى أي مدى أصاب فرانسيس ببلاغه غير المكتمل نقطة ضعفهما. بعد ربع ساعة فقط من الاستهانة تمدد قسطنطين، تثاءب واجتازَ بدون استعجال الأرضيةَ الخشبيةَ باتجاهِ غرفة الجلوس. خمنتُ ما كان يبحث عنه هناك - عن الكباس. كان عليه أن يتحدث معه، الضرورة النفسية للتفسير والتوضيح الفوري قد ضغطت عليه، ولم يعد في وسعه أن يتحمل الوضعَ في ذلك الغموض أكثر. تبعته العمة.

غير أن الكباس لم يكن موجوداً في غرفة الجلوس، كانت هناك فقط صوفيا تجلس بكتاب على حجرها عن الزراعة العملية للخضار وهي تحدق في الجدار، على ذبابة - لم يكن أيضاً في غرفة الطعام ولا في المكتب. كانت العزبة ومبانيها تنام في هدوء ما بعدَ الغداء، أما الذبابة فطنّتْ، وتجول الدجاج فوق الحشائش الذابلة في الخارج ونقرت بمناقيرها في الأرض، والكلب البنتشير الصغير وكزَ الكلبَ البودل بذيله وعضعضه قليلاً. انتشرَ العَمُّ والعمة وزيغمونت في البيت باحثين عن الكباس بهدوء، كل بمفرده. لم تسمح لهم كرامتهم أن يعترفوا بأنهم يبحثون عنه. لكن مظهر الأسياد الطليقين في ما بدا حركة لامبالية وبطيئة، على الرغم من أنها كانت متواصلة، كان أكثر تهديداً من مظهر مطاردة عنيفة، وكنتُ أبحث في ذهني عن طريقة لدرء الضجة التي كانت تتهيج مثل القرحة في الأفق. ولم يعد عندي أيُّ اتصالٍ بهم. لقد أغلقوا أنفسهم بالفعل. لم أعد أستطيع التحدث معهم عن ذلك. عندما مررت بغرفة الطعام، رأيت العمة واقفةً خلف باب غرفة المؤن الذي كان كما هو معتاد تتناهى من خلفه دردشاتُ ولَغَطُ ووشْوَشَاتُ

twitter @baghdad_library

الخادمات وهنّ يغسلن الأواني. كانت مستغرقة في التفكير ورغم ذلك منتبهة، واقفة بتعبيرات وجه سيدة البيت المتلصصة على الخدم الخاص بها، أما طيبتها المعتادة فتلاشتْ دون أي أثر. عندما لاحظتني، سعلت وانصرَفتْ. وفي الوقتِ نفسه أضاعَ العمُّ طريقه أمام المطبخ من جهة الفناء الخارجي، فوقف قرب النافذة، ولكن عندما حشرتْ خادمة المطبخ رأسها من خلال النافذة، صاح:

- زيلينسكي، زيلينسكي! قلْ لنوفاك أن يصلحَ ماسورة المِزْراب! - ثم ابتعدَ ببطء في طريق من أشجار النير، يتبعه البستاني زيلينسكي وقبعتهُ في يده. اقتربَ مني زيغمونت وأمسكني من ذراعي.

- لا أعرف إن كنتَ تحب أحياناً أن تتذوق مثل هكذا وليةً فلاحةً عجوزة، زائدةَ النضج قليلاً - فأنا شخصياً أحب أن أتذوق الولية - هنري باتسْ بدأ تلك الموضة - أحب أن أتذوق الولية - من وقت لآخر، يجب علي أن أقول ذلك، أحب أن أتذوق الولية j'aime parfois une simple «الولية»، أحب أن أتذوق الولية! أحب أن أتذوق الولية! تم تم تم أحب أن أتذوق الولية العادية وأفضل أن تكون عجوزاً قليلاً!

أها - لقد كان خائفاً من أن يكون الخدم قد أخبروا عن عجوزته، عن الأرملة يوزيفكا التي يلتقي بها في الحشائش عند البحيرة؛ وقد أمّنَ موقفه بحجة غرابة الموضة، وجرّ معه باتس الشاب. لم أجب لأني كنت أعرف بأن لا شيء يمكن أن يوقف غرابة الأسياد الطليقة في حركاتها، ارتفعتْ تلك النجمة المجنونة في سمائي من جديد، وتذكرت كل مغامراتي منذ الوقت الذي ركَبَ بيمكو لي البوبو - ولكن تلك بدتْ أسوأ. ذهبت مع زيغمونت إلى الفناء، حيث ظهر بعد قليل العم عند نهاية صف أشجار النير وخلفه البستاني زيلينسكي وقبعته في يده.

- يا للجو الجميل! - نادى علينا في الهواء الصافي - إنه جاف أخيراً.

في الواقع كان الجو بديعاً، كانت الأشجار تقطر بالأوراق الذهبية القاتمة على خلفية السموات الزرقاء، أما الكلب البينتشير فكان يلعب مع البودل. ولكن الكباس غير موجود. جاءت العمة تحمل إثنين من عيش الغراب على كفها وتريهم إلينا من على بعد وهي تبتسم ابتسامةً خفيفة وطيبة. اجتمعنا أمام الرواق، بما أنه لا أحد أراد أن يعترف بأننا في حقيقة الأمر - نبحث عن الكباس، لذا سادت بيننا لياقة ولطافة استثنائية. سألت العمة بطيبة، إذا كان أحد يشعر بالبرد. الغربان جلست على الشجرة. على باب الفناء جلس «العيال» وكانت أصابعهم المطينة محشورة في أفواههم وبحلقوا بنظراتهم على أسيادهم الذين يتمشون في المكان وكانوا يثرثرون حول شيء ما، حتى طردهم زيغمونت بخبطة من قدمه؛ ولكن بعد قليل بدأوا يبحلقون من خلال حواجز السور، فطردهم مرة أخرى؛ ثم طردهم البستاني زيلينسكي بالحجارة - هربوا ولكن عادوا للبحْلَقة من جديد من عند البئر، إلى أن استسلمَ زيغمونتْ أخيراً، بينما أمر قسطنطين أن يأتي الخدم بالتفاح، وكان يأكل على نحو متباهٍ وهو يرمي القشور حوله. لقد أكلَ في مواجهة «العيال».

- ترَلّلِي، تَرَلّلِي! - تمتم.

وما زال الكباس غير موجود ولم يتفوه أيٌّ منا بكلمة عن ذلك، على الرغم من أننا جميعاً كنا بحاجة إلى المواجهة والتوضيح. لو كانت تلك مطاردة، فهي مطاردة متلكئة للغاية، في منتهى اللامبالاة، وجامدة تقريباً وبالتالي - خطرة. فإن السيادية طاردت الكباس ولكن السادة والسيدة

twitter @baghdad_library

تحركوا بالكاد. بيد أن إطالة البقاء في الباحة بدت عديمة الجدوى، وخاصة أن الـ«عيال» ما زالوا يبحلقون من خلال حواجز السور، فاقترح زيغمونتْ أن نلقي نظرة على الزرائب.

- لنذهب إلى فناء الزريبة - قال ومشينا ببطء في ذلك الاتجاه، العم قسطنطين يتبعهُ البستاني وقبعتهُ في يده - أما الـ«عيال» فقد انتقلوا ببحلقتهم من عند حواجز السور - إلى محيط مخزن الحبوب. خلف البوابة بدأت الأرض تكون موحلة، وهجم علينا الأوز، ولكن الخولي اندفع إليها؛ كشر الكلبُ الأعرجُ عن أنيابه وزمجر، ولكنْ اندفع إليه الخفيرُ. بدأت الكلاب المربوطة بالسلاسل بالقرب من الإسطبل تنبح وتزمجر، متحفزة مثارة من غراب أزيائنا - حقاً، كنت أرتدي لباس المدن الرمادي، بياقة وربطة عنق وحذاء وكان العم يرتدي معطفاً طويلاً وكانت العمة ترتدي عباءة سوداء بلا أكمام مزينة بالفراء وقبعة زورقية الشكل، بينما ارتدى زيغمونت جوارب أسكتلندية وبنطلوناً واسعاً مضموماً عند الركبة. لقد كان هذا «طريقَ صليب»، بطيئاً ومن أصعب الطرق التي مررت بها في حياتي؛ سوف تعلمون مرة عن مغامراتي في البراري وبين الزنوج، ولكن لا يمكن مقارنة أي زنجي بذلك الترحال عبر الفناء في بولموفو. لا يوجد أي مكان أكثر إثارة للدهشة. لم يكن في أي مكان سم زعاف أكثر من هذا. لم تزهر تحت الأقدام في أي مكان آخر أوهام وزهور - أوركيد - غير صحية أكثر من هذا المكان، وفي أي مكان آخر لم يكن هناك هذا العدد من الفراشات الشرقية، أوه، لن يتساوى أي طائر طنان مزغب في غرابته مع أوز لم تمسسه يدٌ. أوه، لأنه لا شيء هنا مسته أيدينا، سائسو الخيول عند الحظيرة - غير ممسوسين، الفلاحات الشابات عند مخزن الحبوب - غير ممسوسات،

الماشية والدواجن، والشوكات، ومرابط الخيل، والسلاسل والأحزمة والأكياس- جميعها غير ممسوسة. ولا الطيور البرية والخيول الوحشية، والبنات الفلاحات الوحشيات، والخنازير البرية. من الممكن فقط أن دماماتِ سائسي الخيول ربما كان يمسها العم، وكذلك يد العمة قد مُسَّتْ من قبل سائسي الخيول الذين طبعوا عليها قبلات الولاء والإخلاص الفلاحية. أما غير ذلك فلا شيء ولا شيء ولا شيء - كل شيء مجهول وغير مجرب من قبلنا! مشينا على كعوبنا عندما أدخلت الأبقار من خلال البوابة، الفناء بأكمله ملأه القطيع الضخم الذي همزه ونخسه أولاد أعمارهم عشر سنوات، ووجدنا أنفسنا بين الماشية المجهولة وغير المجربة من قبلنا.

- Attention! صاحتِ العمةُ - Attention, laissez les passer![1]

- أتسيونلسبا، أتسيونلسبا! - قلدها الـ«عيال» من عند المخزن، ولكن قفز إليهم الخفير مع الخولي وطردوا الـ«عيال» والأبقار على السواء. عند الحظيرة الفلاحات الشابات المجهولات انفجرنَ في أغنية فلاحية بسيطة - أيوه أه! - أما الكلمات فلم يمكن بوسعنا أن نلتقطها. ربما كنَّ يغنين عن السيد الشاب؟ ولكن الأمر الأكثر إزعاجاً كان يبدو أن الأسيادَ كما لو كانوا تحت رعاية الفلاحين، وعلى الرغم من أنهم سادوا في الواقع بكل استغلالهم الاقتصادي، فقد بدا الأمر من الخارج يأخذ مظهرَ التدليل كما لو كان الفلاحون يدللون الأسياد، والأسياد مدللون من الفلاحين - والخولي مثل العبد وهو يحمل العميمة عبرَ البركة، إنما بدا وكأنه يدلِّلها. لقد امتصوا الفلاحين اقتصادياً، ولكن إلى جانب

(١) انتباه! اسمحوا لهم بالمرور (الفرنسية).

twitter @baghdad_library

الامتصاص الاقتصادي، قاموا أيضاً بامتصاصٍ من النوع الصبياني، لم يمتصوا الدم فحسب، بل الحليب أيضاً، ومهما كان العم يشتم سائسي الخيول بشدة وقسوة ومهما سمحت العمة بطيبة أبوية أن يُقبّلوها مثل الماما - فلم تخفف الطيبة الأبوية ولا الأوامر الأكثر صرامة الانطباع بأن السيد هو الإبن الصغير بالنسبة للفلاحين، والسيدة هي الإبنة الصغيرة بالنسبة لهم. لأن الفلاحين المحليين هنا لم يخضعوا بعدُ لعملية التدليك من قبل الإنتلجنسيا مثل أولئك الغوغاء في الضواحي الذين تهربوا منّا على شاكلة الكلاب؛ هنا كان الفلاحون من قديم الأزل، سالمين، ومتماسكين في داخلهم، حتى أنه عندما مررنا بهم من بعيد، شعرنا أن قوتهم مثل قوة مائة ألف حصان حقل ثائر.

على مقربةٍ من زريبة الدجاج علفت مربية الدواجن الديك الرومي السمين وجعلته يشبع فوق طاقته تكريماً للأذواق السيادية، بإعداد طعام لذيذ للأسياد. قطعوا عند الحداد ذيل حصان الجر من أجل الشياكة، بينما ربتَ زيغمونتْ على ردفه وفحص أسنانه، لأن الحصان كان واحداً من الأشياء القليلة التي سُمح للسيد الشاب أن يلمسها - والفلاحات الشابات المجهولات والممصوصات غنين له بصوت أعلى: أيوه أه، أيوه أه، أيوه أه، أيوه أه! لكن فكرة الوْليّة العجوزة دمرت زهوه، مكتئباً ترك عنق الحصان ونظر بشكل مرتاب إلى الفلاحات الشابات، فربما كنّ يضحكن عليه. الفلاح العجوز كثير التجاعيد مثل جذع الشجرة، أيضاً المجهول والممصوص قليلاً، دنَا من العمةِ وقبّلها في الجزء المسموح من جسدها. وصل موكبنا إلى آخر الزريبة. خارج الزريبة - طريق وتقسيمات الحقول، فراغ شاسع. من بعيد، من بعيد لمحنا سائس ممصوصٌ واقفاً خلف محراث وعلى الفور ضرب الحصان بالسوط

محدثاً فرقعة. لم تسمح الأرض الرطبة بالجلوس ولا القعود. على ناحية اليد اليُمنى الصغيرة السيادية - أخاديدٌ وجُذاماتُ الزرع وأراضي بور وخث، على ناحية اليد اليسرى الصغيرة السيادية - غابةٌ دائمة الخضرة وخضرةٌ صنوبرية. لم يكن الكباس موجوداً في أي مكان. الدجاجة البرية المحلية التقطتْ بمنقارها حبوب الشوفان في الحقل.

فجأة، على مسافة بضع مئات من الخطوات ظهر الكباس من الغابة - لم يكنْ وحده - كانَ الخادم الصغير إلى جانبه. لم يلاحظنا - لم يلحظْ أيَّ شيء من العالم حوله، عيناه ثابتتانِ مستمعاً بكل حواسه، ومتعلقاً تماماً بعامل المزرعة. كان يدور ويقفز مثل المغفل المدعي وبين الحين والآخر يُمسكُ بيد عامل المزرعة ويتطلعُ إلى عينيه. كان عامل المزرعة يسخر منه بكل ما أوتي من قوة من خلال ضحكاته الماجنة الفلاحية الشعبية وربته على كتفه بتباسط. مشيا بمحاذاة الخميلة، الكباس مع عامل المزرعة - لا، عامل المزرعة مع الكباس بجانبه! ظل الكباس بشكل محموم أن يمدّ يده إلى جيبه ويدس شيئاً لعامل المزرعة - نقود على الأرجح، أما عامل المزرعة فقد وَجّهَ إليه وَكزَةً بلا احتشام.

- إنهما سكرانان! - همست العمة...

لا، هما ليسا سكرانين. قرصُ الشمس يميل نحو الغرب، أنارَ وكشفَ كل شيء. صفع عامل المزرعة الكباس على خده عند غروب الشمس...

صرخ زيغمونت صرخة مثل فرقعة السوط:

- فاليك!

أطلق الخادم الصغير ساقيه للريح وفر إلى الغابة. أما الكباس فكما لو

twitter @baghdad_library

كان تجمد في مشيته، انتُزِعَ من أحلامه. بدأنا نتمَشّى نحوه عبر الجُذامة، فبدأ هو يمشي نحونا. ولكن قسطنطين لم يُرِدْ أن يجري مواجهة وسط الحقل، لأن «عيال» الفلاحين لا زالوا يُبحلقون من الزرائب والفلاح الممصوصُ ما زال يحرث.

- دعونا نمشي في الغابة - اقترحَ فجأةً بلياقةٍ استثنائيةٍ، ومباشرة من الحقل دخلنا الخميلة المظلمة. صمت. جرت المواجهة وسط أشجار الصنوبر الكثيفة - كنا واقفين بجوار بعضنا البعض بازدحام. كان العم قسطنطين يهتز داخلياً، ولكنه ضاعف لياقته وقال.

- أرى أن رفقة فاليك تناسبك يا حضرة - فتح العم الحديث بالسخرية الخفيفة.

رد عليه الكباس بصوتٍ ناعمٍ وشحوبٍ من الكراهية.

- نعم، تناسبني...

داخلَ شجرة الصنوبر الشائكة، بدمامته المغطاة بالفروع مثل ثعلب محاصر من قبل صياد - على بعد خطوتين منه العمة داخل شجرة الصنوبر، والعم، وزيغمونث... ولكن العم سأل ببرود بالغ وسخرية ملحوظة بالكاد.

- يزعم أن حضرتك تتَ... آخى مع فاليك، أليس كذلك؟

الصوت الناعم الملئ بالكراهية الغاضبة:

- أتَ... آخى!

- كوستا - نطقت العمة بطيبة - لنذهبْ. هنا رطوبة!

- الخمائل كثيفة. سينبغي أن نقطع كل شجرة ثالثة - قال زيغمونت إلى أبيه.

- أت... آخى! - قال الكباس بنحيب. لم أكن أظن أنهم سيجعلونه يخضع لذلك التعذيب. ما الذي دعاهم للدخول إلى الخميلة حتى يدعوا أنهم صم؟ ألهذا طاردوه لكي يحتقروه عندما يبلغوه؟ أين التفسيرات؟ أين المواجهة؟ بدلوا الأدوار بشكل غادر، لم يعالجوا القضية معه - كانوا فخورين ومستعجلين لأن يظهروا له ازدراءهم إلى درجة أنهم تخلّوا عن التوضيحات. لقد استهانوا به. تجاهلوه. بالكاد لمحوهُ - أوه، يا لهم من أسياد غاضبين ومقرفين!

- وحضرتك نططتَ على حارس الطرائد! - صاح الكباس - نططتُ على حارس الطرائد خوفاً من الخنزير البري! أنا أعرف كل ذلك! الجميع يثرثرون! ترَلّلِي، تَرَلّلِي! - ظل يقلده وهو يفقد في غمرة غضبه ما تبقى له من ضبط للنفس.

مط قسطنطين شفتيه و- خيم الصمت.

- سنطرد فاليك شرَّ طردة! - قال زيغمونت إلى أبيه ببرود.

- نعم، سنفصل فاليك من الخدمة - وافقَ العم قسطنطين ببرود - أنا آسف، ولكن لم أتعود على تحمل الخدم فاسدي الخلق.

لقد ثأرا من فاليك! آه، يا للأسياد الغادرين الحقراء، إنهم حتى لم يلتفتوا للرد على الكباس، ولكنهم تخلصوا من فاليك - طعنوا الكباسَ من خلال فاليك. ألم يفعل فرانسيس العجوز الشيء نفسه عندما لم يوجه أية كلمة له في غرفة المؤن، حين وبخ فاليك والفلاحة الشابة؟ اهتزّتْ شجرة الصنوبر وكان بالتأكيد على وشك أن يندفع إلى رقابهم - لكن

twitter @baghdad_library

سرعان ما خرج من الحشائش بجوارنا حارس الطرائد مرتديا سترة ضيقة خضراء، ببندقية على كتفه، وألقى علينا تحية عسكرية بكل الرسميات الممكنة.

- نُطْ عليه! - صاحَ الكباس - نُطْ عليه بسبب الخنزير البري! الخنزير البري!!!... العجوزة العجوزة، يوزيفكا! - صرخ في وجه زيغمونت ثم هرع إلى الغابة مثل المجنون. هرعتُ وراءه.

- كبّاس، كبّاس! - صرختُ دون جدوى، وأشجارُ الصنوبر قد ضربتْ دمامتي مثل جلدات السوط! لم أكنْ أريدُ قطعاً أن يجدَ نفسَه وحيداً في الغابة. قفزتُ فوق الوهدات والمجوفات والجحور والشقوق والجذور. ركضنا من الخمائل إلى الأحراش، وهو ضاعف سرعته واستمرّ في الجري، وجرى مثل خنزير بري مجنون!

فجأة رأيت صوفيا، التي كانت تتنزه في الغابة وتلتقط عيش الغراب من على الطحالب في ضجر. جرينا نحوها مباشرة وخفت أن يصيبها بضرر وهو في حالة هيجان.

- اهربي! - صرختُ.

كان يبدو على صوتي الهلع، لأنها إندفعتْ إلى الفرار - وعندما رأى الكباس أنها تهرب، بدأ يلاحقها ويطاردها! انطلقتُ بأقصى سرعة متبقية لدي لكي ألحق به قبل أن يلحق بها - ولحسن الحظ تعثر بجذر شجرةٍ ووقع على أرض منبسطة. وصلت إليه راكضاً.

- ماذا؟ - تذمر وهو يُلصقُ وجهه على الطحالب - ماذا؟

- ارجعْ إلى البيت!

« - سيادتهم بهوات! - » بصقَ تلك الكلمة من خلال أسنانه.

« - سيادتهم بهوات»! اذهبْ، اذهبْ! أنت أيضاً « - سعادة البيه!»

- لا، لا!

« - يا نهار أبيض! أيوه! أنت سعادة البيه! سعادة البيه!»

- يا كباس، تعال إلى البيت - يجب أن تتوقف عن ذلك! ستحدث كارثة! يجب أن تتوقف، أنهِ الأمرَ - بالتأكيد هناك طريقة أخرى!

- سعادة البيه! الأسياد، اللعنة! لن يسمحوا! الملاعين! الله! لقد نجحوا في تجنيدك أيضاً!

- توقفْ، هذه ليست لغتك! كيف يمكنك أن تتكلم بتلك الطريقة؟ كيف تكلمني هكذا؟

« - بتاعي، بتاعي... مش هأسمح لهم! بتاعي! سيبه! عايزين يطردوا فاليك! يطردوه! مش هأسمح لهم - بتاعي - مش هأسمح!»

- هيّا إلى البيت!

يا للعودة غير المشرّفة! هاج في أنينه ونحيبه وتذمر بنواح شجري - آه، يا لهوي، يا مصيبتي السوداء! استغرب وتعجّبَ الفلاحاتُ والسُيّاس في الزرائب من السيد الشاب الذي كان ينوح بلغتهم. كان وقت الغسق عندما تسللنا خلسة عبر الشرفة الخلفية؛ قلت له أن ينتظر في غرفتنا في الطابق العلوي، في حين ذهبت للتّحدث مع العم قسطنطين. التقيتُ في غرفة التدخين بزيغمونت، يداه في جيبيه، وهو يتمشى من ركن الغرفة للآخر. لقد كان السيد الشاب مغتاظاً غيظاً شديداً في داخله بينما تخشب من الخارج. عرفت من كلامه الجاف أن صوفياً رجعت راكضة من الغابة، وكانت بالكاد على قيد الحياة و - على ما يبدو - أصيبت بالبرد،

twitter @baghdad_library

وتقيسُ العمةُ درجةَ حرارتها. فاليك الذي عاد إلى المطبخ، مُنع من الدخول إلى الغرف، وسيطرد غداً في الصباح الباكر من الخدمة وسيصرف. أشار كذلك إلى أنه لا يلومني على التصرف الفاضح لـ«السيد منتالسكي» على الرغم من أنني - في رأيه - يجب علي أن أختار أصدقائي بعناية أكثر. تأسف لأنه لن يستطع التمتع بصحبتي أكثر من ذلك ولكن لم يعتقد أن إطالة بقائنا في بولموفو يمكنها أن تكون ممتعة بالنسبة لنا. غدا في التاسعة صباحا سيغادر القطار إلى وارسو، التوجيهات أصدرتْ للسائس. أما بالنسبة للعشاء، سنفضل بالتأكيد أن نتناوله في غرفتنا في الأعلى، لقد زود فرانسيس بالتعليمات كما ينبغي. أخبرني بكل ذلك بلهجة غير قابلة للناقش، على نحو شبه رسمي متقمصاً دور ابنِ والديه.

- أما بالنسبة لي - قال وهو يضغط على أسنانه - سأردُّ بطريقة مختلفة. بدون تأخير ستكون لي حرية عقاب السيد منتالسكي لإهانته والدي وشقيقتي. إنني أنتمي إلى نقابة «استوريا».

وألقى من داخله التهديد بالصفعة! فهمت ماذا كان يعنيه. أراد أن يهين الوجه الذي كان يتلقى ضربات على البوز من قبل الفلاحين، أراد أن يحذفه من قائمة الوجوه المحترمة السيادية من خلال الضرب.

لحسن الحظ دخل العم قسطنطين إلى الغرفة وسمع تهديداته.

- ماذا يقصد بـ«السيد منتالسكي»؟ - هتف - من تريد أن تصفع، يا عزيزي زيغمونت؟ صبي يافع أخضر لا ريش له في سن المدرسة؟ ينبغي أن يصفع أبو المخاط على البوبو! - واحمرّ زيغمونت خجلاً وتلعثم في مشروعه الشريف. بعد كلمات العم لم يعدْ بإمكانه أن يصفع، صحيح،

كشخص سنه أكثر من عشرين عاماً لا يمكنُ أن يضرب بشرف حدثاً عمره أقل من ثمانية عشر، وخصوصاً عندما تم إبراز نقطة «الثمانية عشر» وأصبحت ظاهرة. غير أن أسوأ ما في الأمر أن الكباس كان في الواقع في عمر انتقالي وبينما كان يمكن للأسياد أن يعتبروه أبو المخاط، فالفلاحون الذين كانوا ينضجون أسرع، كان بالنسبة لهم سيداً بكل دمامته، كان لدى وجهه بالنسبة لهم ملامح سيادية كاملة القيمة. كيف إذن - بوجهٍ حسنٍ بما يكفي يمكنُ أنْ يضربه فاليك كوجه سيادي، ولكنه لا يصلح لإرضاء الأسياد؟ نظر زيغمونت إلى أبيه نظرةً غاضبة من ظلم الطبيعة. ولكن قسطنطين رفض الفكرة تماماً بأن الكباس كان يمكنه أن يكون شيئاً آخر غير صبي، رغم أنه على العشاء كان يشرب نخبهُ وعلى أطيب علاقة معه على أرضية مُثلية، فقد نأى بنفسه الآن عن أي قواسم مشتركة معه، عاملهُ كصبي غِرّ، أبو بربور، واستخدم عمره للاستهانة به! كبرياؤه لم تكن لتسمح له بأي تصرف مغاير! كان أصله في حالة ثورة، الأصل! السيد الذي حرمه التاريخ في تقدمه الشرس من أراضيه وسلطته، ولكن بقي أصيلاً رغم كل شيء في جسمه وروحه، وخصوصاً في جسمه! استطاعَ أن يتحمل الإصلاح الزراعي والمساواة السياسية القانونية السطحية، ولكن غلَى دمه عند التفكير في المساواة الشخصية والبدنية، عن الت... آخي الفردي. هنا تعدّت المساواةُ على أكثر الزوايا المغمورة بالظلام في الشخص - في مناطق أصوله الموحشة والبدائية التي حرسها رد الفعل الغريزي البغيض، الاشمئزاز والرعب والدنس! دعوهم يأخذون ممتلكاته! دعوهم يُدخلون الإصلاحات! ولكن من المستحيل أن تمتد اليد السيادية إلى يد عامل المزرعة، وأنْ يَصلَ الخدانِ السيادياِن إلى الحوافر. كيف ذلك، أن يسعى أحد طوعاً

twitter @baghdad_library

إلى الاشتياق المحض لجماعة الفلاحين؟ أليست هناك خيانة للأصل وعبادة الخدم، العبادة الساذجة والواضحة لأعضاء جسد الخادم وحركاته وأقواله، وعشق كيان الفلاح البسيط؟ وماذا كان موقف السيد الذي أصبحَ خادمهُ موضوعاً لثناء سافر مثل ذلك من قبل سيد آخر - لا، لا، الكباس لم يكن سيداً، إنه مجرد غر وأبو المخاط! إنها الشقاوة الصبيانية تحت تأثير الدعاية البلشفية.

- أرى أن التيارات البلشفية سائدة بين شباب المدرسة - كان يتكلم كما لو كان الكباس طالباً ثورياً، وليس محباً لذوي الأصول الأدنى.

- اضْربهُ على البوبو! - ضحك - على البوبو!

وفجأة دخلت من خلال فتحة التهوية المفتوحة أصواتُ التمرغات والتأوهات الآتية من عند الشجيرات بالقرب من المطبخ. كانت أمسية دافئة، يوم السبت... جاء عمال المزرعة إلى خادمات المطبخ للزيارة والمضاجعة... انحنى قسطنطين من خلال فتحة التهوية...

- مَنْ هناك؟ - هتف - ممنوع!

انطلقَ شخص إلى الأحراش. وضحك آخر. حجرٌ تمّ رَمْيُهُ بقوة وسقط تحت النافذة. صرخ أحدٌ من بين الشجيرات بصوت عال متعمدا تغييره:

«هاي، كروان كروان على الشجرة!

حد ضربَ دمامة البيه، هاي، ضرب الدمامة!

هاي ها، هاي ها!»

ومرة أخرى تأوه شخص بصوت عال وضحك! لقد انتشرت الإشاعة

بين الفلاحين. كانوا يعلمون بما حدث. كان من الواضح أن خادمات المطبخ نقلن الكلام لعمال المزرعة. كان ذلك متوقعاً، ومع ذلك لم تتحمل أعصاب السيد الوقاحة التي غنوا بها تحت النوافذ. توقف عن الاستهانة، وظهرت بقعٌ حمراءُ على خديه، وأخرج المسدسَ بصمت. لحسن الحظ جاءت العمة في اللحظة الأخيرة.

- يا كوستا العزيز - صاحت بطيبة وهي لا تضيع الوقت في الأسئلة.
- ضعه جانباً يا كوستا! ضعه جانبا! أرجوك، يا كوستا، ضعه جانباً، أكره الأسلحة المعبأة، وإذا كنت ترغب في حمل ذلك بجانبك، فعلى الأقل فرّغ الرصاصات من فضلك!

وبالضبط تماماً كما هو استهانَ قبل قليلٍ بتهديدات زيغمونت، فإنها استهانتْ به الآن. قبلته - تم تقبيله والمسدسُ في يده - عدلت له ربطة عنقه وبذلك أبطلت المسدس تماماً، أغلقت فتحة التهوية بسبب التياراتِ وقامت بالكثير من الأعمال المماثلة حيث استهانت بها واستصغرتها بلا كلل. فرضت على سير الأحداث كل استداراتِ جسدها المتوهج بدفء الأم العاطفي الذي كان يكسوها مثل القطن. أخذتني جانباً وأعطتني، خلسة، بعض الحلوى كانت معها في حقيبة صغيرة.

- أوه، يا أشقياء! - همست بعتاب وطيبة - يا للمصائب التي سببتماها! صوفيا مريضة، العم منزعج، أوه، هذه علاقة رومانسية مع الفلاحين! ينبغي أن تعرف كيف تتعامل مع الخدم، لا يمكنك أن تتعاشر معهم، المفروض أنك تعرفهم - إنهم جهلة وغير ناضجين مثل الأطفال. كان أيضاً لكيكي، ابن العم ستاش وحرمه، كانت له أيضاً مرحلة ولع شديدة بالفلاحين - أضافت وهي تفحص وجهي بعناية -

twitter @baghdad_library

حتى أنك تشبهه، ههنا في زوايا الأنف. حسناً، أنا لست غاضبة، ولكن لا تأتيا للعشاء، لأن العمّ لا يريد ذلك، سوف أرسل لكما مربى إضافياً من أجل الترضية - وهل تتذكر كيف ضربك خادمنا القديم فلاديسلاف ضرباً مبرحاً لأنك سميتَهُ «وسخا»؟ يا له من رجل حقير، ذلك الفلاديسلاف! ما زلت أرتعد حتى الآن! طردته على الفور. تصوّرْ أن يضرب ملاكاً صغيراً مثل هذا! يا عزيزي! يا كل حياتي! يا روح قلبي!

قبلتني في اندفاعٍ عاطفيّ مفاجئ وأعطتني الحلوى مرة أخرى. انصرفتُ بسرعة وحلوى الطفولة في فمي، وعند مغادرتي سمعت كيف طلبت من زيغمونت أن يقيس لها نبضها، وأخذ السيد الشاب معصمها وقاس وهو ينظر إلى ساعته - كان يقيس نبض أمه التي كانت مستلقيةً على الأريكة وتحدق في الفضاء. عندما عُدتُ بالحلوى إلى الأعلى، كنت أشعر بعدم واقعية، ولكن كل شخص يصبح غير واقعي في مقابل هذه المرأة، لقد كانت عندها مقدرة خاصة على إذابة الناس في طيبتها وعلى أن تمرغهم في الأمراض وأن تخلطهم بأجزاء أجساد الناس الآخرين - أيمكن أن يكون ذلك خوفاً من الخدم؟ «طيبة علشان تخنق الناس» - تذكرت قول فاليك. «تخنقنا فلازم تكون طيبة». أصبح الموقف خطراً. استهانَ بعضهما ببعض، العم بدافع الكبرياء، أما العمة فبدافع من الخوف، وبفضل ذلك فقط لم يحدث أي إطلاق حتى الآن - لم يطلق زيغمونت قبضته على الكباس، ولم يطلق العمُّ النارَ من مسدسه.

كنت أفكر في رحيلنا بسرور.

وجدت الكباس على الأرضية ورأسه مدفون بين ذراعيه - لقد كان لديه الآن الميل إلى تغطية رأسه، يلفها ويعانقها بذراعيه، ولم يتحرك، برأسه المدفون، تأوه بهدوء بأغنية حزينة عن المروج والشباب.

- هيه هيه - تمتم - هوه هوه! - وكلمات أخرى بدون تناغم، رمادية وخشنة مثل الأرض وخضراء مثل شجرة البندق الصغيرة، وريفية وفلاحية وشابة. لقد فقد أي شعور متبقي بالخجل. حتى وصول فرانسيس بالعشاء لم يقطع رثاءهُ ولا عويله الهادئ الفلاحي. لقد بلغ الحد الذي لم يعد يخجل بعده من الاشتياق إلى الخدم بحضور الخدم واللوعة على الخادم الصغير أمام كبير الخدم. أبدا حتى الآن لم أرَ أي أحد من طبقة المثقفين يهبط إلى مثل هذا المستوى. لم ينظر فرانسيس ناحيته، ولكن ارتعدت يداهُ من النفور عندما كان يضع الصينية على الطاولة وأغلق الباب باندفاعٍ عند خروجه. لم يأخذ الكباس في فمه ولا حتى لقمة واحدة، كان لا يمكن تعزيته - ظل شيء في داخله يغنغن وينق ويتوق ويشتاق، وحجب كل شيء بالضباب، كان يشتبك مع شيء ويئنُّ ويستخلصُ بعضَ القوانين... ثم أمسك بحلقه الغيظ الفلاحي البسيط بشدة. ألقى بتبعة فشله مع عامل المزرعة على الأسياد بالكامل، إنها غلطة الأسياد، الأسياد، لو لم يتدخلوا ويتطفلوا، لكان سيتَ... آخى بالتأكيد! لماذا تدخلوا؟ لماذا طردوا فاليك بعيداً؟ عبثا حاولت أن أقنعه بالمغادرة في اليوم التالي.

« - مش ماشي، قولت مش ماشي! خليهم هما يمشوا لو أحبوا! هنا فاليك وهنا أنا أيضاً. مع فاليك! مع فاليك بتاعي، هيه هوه هيه هوه مع عامل المزرعة!»

لم أستطع أن أتواصل معه، استغرقَ في عامل المزرعة تماماً، لم تعد هناك أي اعتباراتٌ دنيوية ذات أهمية بالنسبة له. وعندما أدرك في النهاية استحالةَ بقائنا، توسل إلي برعب، ألا نترك عامل المزرعة.

« - مش همشي من غير فاليك! مش هسيبه! لنأخذه معنا، هشتغل

twitter @baghdad_library

وأكسب - هأموت، ومش ماشي من غير فاليك بتاعي! يا جوي، يا الله، مش من غير فاليك! هيطردوني من العزبة، فأجد بيت في القرية، عند ولية عجوزة - أضاف بلذاعة - هأستقر عند العجوزة! وليه لا! مش هيطردني من القرية! أي شخص من حقه يعيش في القرية!»

لم أكن أعرف ماذا أفعل مع تلك المعضلة. لم يكن من المستحيل على الاطلاق عليه أنْ يسكن عند عجوزة زيغمونت البائسة، عند «الأمْرَلة» كما كان يقول الخادم الصغير، ومن هناك سيضايق العزبة وسيذل العم والعمة وسيفشي الأسرار السيادية بلسانه الفلاحي الغليظ، هو - خائن ومخبر - أضحوكة الفلاحين البسطاء!

فجأة من خلف النافذة في الفناء سمعنا صوت صفعة هائلة على الخد. اهتزّت الدنيا، نبح جميع الكلاب. التصقنا بزجاج النوافذ. على الرواق، في خلفية الضوء الآتي من البيت، كان يقف العم قسطنطين ببندقيته، وهو يحدق في الظلام. وضع السلاح بجانب خده مرة أخرى وأطلق النار - انطلقَ صوتُ الانفجار في الليلِ مثل السهم الناري. تردد صدى الصوت على بعد مسافات في الظلمة. هاجت الكلاب.

- يطلقَ النارَ على عامل المزرعة! - أمسكني الكباس بإحكام. إنه يصوب على فاليك!

كان قسطنطين يطلق طلقات تحذيرية. هل كان خدم المزرعة يغنون شيئاً مرة أخرى؟ هل أطلق النار لأنّ أعصابه لم تتحمل، لأنه كان مبرمجاً على إطلاق النار منذ اللحظة التي أخرج فيها مسدسه من الدرج في غرفة التدخين؟ من كان يعرف ماذا يدور في داخله؟ هل كان ذلك عملاً من أعمال الإرهاب، ناجماً من الكبرياء والغطرسة؟ كان السيد

المغتاظ يعلن بدوي ضرب النار على بعد شاسع حتى أبعد الطرق وأشجار الصفصاف الوحيدة عند فواصل الحقول بأنه يقف في الحراسة. اقتحمت العمة الرواق وقدمت له الحلوى بسرعة، وألقت الشال حول عنقه وسحبته إلى داخل البيت. ولكن صوت ضرب النار قد تردَّد بشكل غير قابل للنقض. عندما هدأت كلاب العزبة للحظة، سمعت الاستجابة البعيدة للكلاب في القرية وتصورت لبرهة قصيرة إثارة الفلاحين - عمال المزرعة والبنات الفلاحات والفلاحون يسألون بعضهم: «إيه ده، بيضربوا نار في العزبة؟». «البيه يضرب نار»؟ «ليه»؟. والشائعات عن ضرب البوز، بأن السيد الشاب تلقى ضربة على بوزه من قبل فاليك، تضخمت من فم إلى آخر تحت تأثير صوت الطلقة المدوي والمتباهي. لم أستطع السيطرة على أعصابي. اتخذت قراراً بالهروب على الفور، خفت أن أقضي الليل في تلك العزبة بقواها الباطنية الطليقة، المليئة بأبخرة العفن السامة. الهروب! الهروب، على الفور! لكن الكباس لم يكن يريد الهروب بدون فاليك. لذلك، حتى أهرب بأسرع ما يمكن، وافقت على أن نأخذ معنا عامل المزرعة. مع هذا وذاك فهو سيُطْرَدُ من عمله. قررنا أخيراً أن ننتظر حتى ينام كل البيت، وعندئذ سأذهب إلى الخادم الصغير وسأقنعه بالفرار أما إذا قاوم - فسوف آمُره! سأعود به إلى الكباس وبعدها سنقرر ثلاثتنا كيفية الخروج إلى الحقول. الكلاب كانت تعرف فاليك. سنقضي بقية الليل في الحقل ثم سنركب القطار إلى المدينة. إلى المدينة، بأقصى سرعة! إلى المدينة حيث الإنسان أصغر، ومستقر بصورة أفضل داخل الناس ويشبههم أكثر. طالت الدقائق إلى ما لا نهاية. جمعنا أشياءنا وأحصينا أموالنا، والعشاء الذي لم نلمسه تقريباً لففناه في منديل.

twitter @baghdad_library

بعد منتصف الليل عندما تأكدت من خلال نافذتنا على أن الظلامَ سادَ كل الغرف، خلعت حذائي وخرجت حافي القدمين إلى الردهة الصغيرة، لكي أتسلل بأقصى هدوء ممكن إلى غرفة المؤن. عندما أغلق الكباس الباب خلفه وحرمني من شعاع الضوء الأخير، شرعت في العملية وبدأت مغامرتي السرية في البيت النائم، وأدركت مدى جنون مشروعي وكم كان هدفي طائشاً - أن أخوض في المكان من أجل خطف عامل مزرعة. أليست تلك العملية بذاتها تستدعي كل الجنون من الجنون؟ تقدمت خطوة خطوة، كانت الأرضيةُ تصدر صريراً أحياناً، وفوق السقف كانت الجرذان تعض وتطلق أصواتاً حادة. ورائي بقي في الغرفة الكباسُ الريفي؛ وتحتي في الطابق الأرضي العمُ والعمة وزيغمونت وصوفيا الذين كنتُ أتجه إلى خادمهم بدون صوت وأنا حافي القدمين؛ أمامي في غرفة المؤن ذلك الخادم المذكور، هدف جميع المساعي. كان عليَّ أن أكون حذراً جداً. إذا اكتشفني أحدٌ هنا في الردهة، في الظلام، كيف كان يمكنني أن أشرح سبب مغامرتي؟ أوه، أية طرق تؤدي بنا إلى تلك الطرق المتعرجة وغير الطبيعية؟ الطبيعية هي مثل بهلوان يمشي على حبل مشدود فوق هاوية غير الطبيعية. كم من الجنون الافتراضي يكمن في النظام المعتاد - لا تعرف أبداً متى وكيف سيصل بك مسار الأحداث إلى خطف عامل المزرعة والهروب إلى الحقل. في الواقع صوفيا هي التي كان ينبغي علي أن أخطفها. إذا كان هناك أحد يجب أن يخطف، فكانت صوفيا، كان الأمر الطبيعي والصحيح هو خطف صوفيا من عزبة الريف، إذا كان أحد، فهو صوفيا، صوفيا، وليس عامل المزرعة الغبي والمأفون. وفي عتمة الردهة

الكئيبة انتابتني وسوسةٌ من أجل خطف صوفيا، خطف صوفيا واضح وصافي، أوه، أن أخطف صوفيا بوضوح!

هاي، أن أخطف صوفيا! أن أخطفها على نحو ناضج وسيادي ونبيل، تماماً كما تم الخطف مرات عديدة من قبل. كان يجب علي أن أحمي نفسي من هذه الفكرة، أن أثبت كم هي لا أساسَ لها من الصحة - غير أنني كلما تقدمت أكثر على الألواح الأرضية الغادرة، أغرتني الطبيعية أكثر وأكثر، وفتنتني بالخطف البسيط والطبيعي في مقابلَ ذلك الخطف المعقد. تعثرت في حفرة - كانت هناك حفرة تحت أصابع قدمي، حفرة في الأرض. كيف أتت هذه الحفرة هنا؟ بدت لي مألوفة. أهلا، أهلا بك - إنها حفرتي، لقد حفرت هذه الحفرة منذ سنوات! حصلت على فأس صغيرة من العم لعيد ميلادي، وحفرت الحفرة بالفأس الصغيرة. جاءت العمة بسرعة. كانت واقفة هنا بالضبط، كانت تزجرني، وتذكرتُ كما لو كان ذلك بالأمس، شظايا توبيخاتها المنفصلة، ولهجة صرخاتها المميزة - وأنا، طاااخ، ضربتها من الأسفل بفأسي الصغيرة على ساقها! «آه، آه» صرخت! كانت صرختها لا تزال موجودة هنا - وقفت كما لو أن المشهد أمسكني من ساقي، المشهد الذي لم يعد حاضراً، والذي رغم ذلك كان هنا، في هذا الموقع بالضبط. ضربتها على ساقها. رأيت بوضوح في الظلام كيف ضربتها، لسبب ما وبشكل غير متعمد، تلقائياً، وكيف هي صرختْ. صرختْ وقفزتْ. أفعالي الحالية كانت تختلط وتتشابك مع أفعالي المفعولة في الماضي، في الماضي البعيد، وفجأة أصابتني القشعريرة وتخشب فكاي. يا الله، لقد كان يمكنني أن أقطع ساقها، لو لوّحَتْ يدي بقوة أكثر، لحسن الحظ لم يكن لدي ما يكفي من القوة، يا للضعف المبارك.

twitter @baghdad_library

ولكن الآن كان لدي القوة. وربما الآن بدلا من عامل المزرعة، لا بد لي أن أذهب إلى غرفة نوم العمة وأضربها بفأسي الصغير بقوة؟ انصرفي، انصرفي يا طفولة. الطفولة؟ ولكن، والله على ما أقول شهيد، عامل المزرعة كان أيضاً من الطفولة، وإذا كنت ذاهبا إلى عامل المزرعة، ففي الواقع كان يمكنني على حد سواء أن أذهب وأضرب العمة، كان الواحد مثل الثاني - طاخ، طاخ! أوه، يا للطفولة. تلمستُ خطواتي بعناية، لأن كل صرير بصوت عالٍ كان يمكنه أن يغدر بي، ولكن بدا لي بأنني ألمس الأرض كما لو كنت طفلاً وكنت ذاهبا كطفل. أوه، يا للطفولة. كانت الطفولة التي تعَلّقَتْ بي، ثلاثيةً، كنت أنجح في التعامل مع واحدة ولكن كان هناك ثلاثة منها. كانت الأولى، طفولة مغامرتي طلباً للخادم الصغير - عامل المزرعة. الثانية - طفولة ذكريات حياتى هنا منذ سنوات. الثالثة - طفولة السيادة، وكسيدٍ كنتُ طفلاً أيضاً. أوه، وهناك أماكن على الأرض وفي الحياة أكثر أو أقل طفولية، ولكن العزبة الريفية هي على الأرجح من أكثرها طفولية. هنا، الأسياد والفلاحون يمسكون ببعضهم البعض ويقعون في الطفولية، هنا الجميع أطفال للجميع. كنت أتعمق حافي القدمين في الردهة المستترة بالسواد وكأني كنتُ أدخل في الماضي النبيل وطفولتى الخاصة بي، بينما العالم الحسي والبدني والصبياني والمتقلب كان يمتصني ويجذبني في داخله. عَمى الأفعال. تلقائية ردود الأفعال. رجعية الغرائز. الفنتازيا السيادية الطفولية. مشيتُ كما لو كنت في مفارقة تاريخية للصفع الهائل على الخد والذي كان في نفس الوقت تقليدا لقرون عديدة والصفعة الصبيانية، كان يحرر في دفعة واحدة السيد والطفل. تحسست أخيراً درابزين الدرج الذي كنت ذات مرة أنزلق عليه وأنا أتمتع بتلقائية

الانزلاق - من أعلى حتى الأسفل! الـ infante - ملك، طفل، سيد طفل بأقصى سرعة، أوه، لو كنتُ أضرب العمةَ الآن، فإنها لن تقوم - وفزعت من قوتي ومن أظافري ومخالبي والوكزات، خفت من الرجل في الطفل. ماذا أفعل هنا، على ذلك الدرج، إلى أين ولماذا أذهب؟ وبزغ في رأسي من جديد خطف صوفيا كسبب وحيد مقبول لتلك الحملة، الحل الرجولي الوحيد والمكان الوحيد للرجل... أن أخطف صوفيا! أن أخطف صوفيا مثل رجل حقيقي! كنتُ أقصي الفكرة، ولكنها كانت تستمرِ في مطاردتي... وتطن في داخلي.

توقفتُ في الأسفل، في الدهليز. الصمت شامل- لم يتحرك أي شيء في أي مكان، الجميع ذهبوا إلى الفراش كمثل كل يوم، في الموعد المحدد، بالتأكيد أن العمةَ قد صرفت الجميع إلى أسرّتهم ولفّتهم بألحفتهم. غير أن نومهم لم يكن نوماً على الأرجح، كان كل واحد منهم ينسج تحت لحافه نسيجه الخاص لأحداث اليوم. كان المطبخ هادئاً أيضاً، فقط من خلال شق في غرفة المؤن تسرب الضوء، وكان الخادم الصغير ينظف الأحذية ولم ألاحظ أي انتعاشٍ على دمامته، كانت عادية. انزلقت ببطء، وأغلقت الباب وضعت إصبعي على شفاهي وهمستُ في أذنه بأقصى حذر بدأتُ أُقنِعُهُ. بأن يأخذ قبعته على الفور ويترك كل شيء ويذهب معنا، إننا ذاهبون إلى وارسو. كان لي دورٌ كريهٌ لألعبه، كنتُ أفضل أي شيء على ذلك الإقناع السخيف، وعلاوة على ذلك بالهمس. وخصوصاً أنه كان يقاوم. قلتُ له إن الأسياد سيطردونه وأنه أفضل له بكثير أن يهرب بعيداً، إلى وارسو، مع الكباس الذي سيتكفل بمعاشه - لم يفهم، لم يستطع أن يفهم.

« - ليه نهرب؟ - » تكلم بالنفور الغريزي لكل الهواجس السيادية

twitter @baghdad_library

ومرة أخرى خطر في بالي أن صوفيا كانت ستتقبل ذلك بسهولة أكثر وأن الهمس الليلي مع صوفيا سيكون له معنى أفضل. ضيق الوقت كان عقبة في سبيل إقناعه. ضربته على دمامته وأمرته فأطاعني - ولكن ضربته من خلال الخرقة. صفعته على نصف دمامته من خلال الخرقة، كان يجب عليّ أن آخذ الخرقة وأصفعه من خلالها لأتجنب الضجيج - أوه، أوه! - كنت أضرب عامل المزرعة في الليل من خلال الخرقة. أطاعني، على الرغم من أن الخرقة أثارت بعض الشك فيه، لأن الفلاحين لا يحبون الانحراف عن المألوف.

- تعال، اللعنة - أمرته وخرجت إلى الردهة، وهو ورائي. أين الدرج؟ الظلام كان حالكاً.

أصدر البابُ في آخر الردهة صريراً وسمعتُ صوت العم يسأل.

- من هناك؟

أمسكت بسرعة بالخادم الصغير ودفعته إلى غرفة الطعام. جثمنا وراء الباب. كان قسطنطين يقترب ببطء، ودخل الغرفة وتمشى مباشرة بجانبي.

- مَنْ هناك؟ - كرر بحذر، لأنه لم يكن يريد أن يجعل من نفسه أضحوكة في حال لم يكن أحد هناك. بعد طرح السؤال تبعه أكثر إلى داخل غرفة الطعام. وقف. لم يكن لديه كبريت، وكان سواد لا يمكن اختراقهُ. تراجع إلى الوراء ولكن وقف بعد بضع خطوات هادئاً بثبات - هدأ بشكل كامل وفوري - هل شمّ في الظلام رائحة عامل المزرعة الفلاحية المميزة، هل أحسّ من خلال جلده السيادي الرقيق الحوافر والدمامة؟ كان قريباً جداً لدرجة أنه كان يمكنه أن يبلغنا بيده ولكن لذلك

السبب على الأخص فأنه احتفظ بيديه إلى جانبه، كان قريباً أكثر مما ينبغي وحبسته تلك المقربة في الفخ. تجمد وكان جموده في البداية بطيئاً، ثم بسرعة أكبر حتى تكثّفَ في حالة مخيفة. لا أعتقد بأنه كان جباناً، على الرغم مما قيل أنه قد نطَّ على حارس الطرائد من الخوف - لا، لم يتمكن من التحرك لأنه كان خائفاً ولكنه كان خائفاً لأنه لم يتمكن من التحرك - ما أن توقف وأصبح هادئاً، حتى صارت كل ثانية تمر تجعل التحرك من جديد أكثر صعوبة وذلك لأسباب شكلية خالصة. كان الرعب يكمن فيه من فترة طويلة والآن فقط ظهر وتآمر ضده، وعظام السيد الصغيرة الرقيقة وقفت في حنجرته مثل الشوكة. لم يصدر عامل المزرعة حتى أدنى نفس. وهكذا كان ثلاثتنا نقف على بعد نصف متر. تنمّلَ جلدنا، وقف شعر رأسنا. لم أقطع ذلك الموقف. حسبت أنه في النهاية سيستعيد السيطرة على نفسه وسينسحب بما يسمح لنا بالانسحاب والهروب من خلال الردهة إلى الأعلى، ولكن لم آخذ باعتباري أن الخوف المتزايد سيشله - لقد كنت أعرف بالتأكيد الآن أنه حدث تغير وانعكاسٌ داخلي، حيث لم يعد خائفاً لأنه لم يتمكن من التحرك، ولكنه لم يتمكن من التحرك من الخوف. شعرت أن بجسامة الرعب المرسوم على وجهه، كان ينبغي عليه أن يكونَ مركِّزا، بجديةٍ عالية... وأنا أيضاً بدوري بدأتُ أخاف - ليس منه ولكن من رعبه. إذا تراجعنا أو قمنا بأقل حركة، فإنه يمكن أن يندفع إلينا ويقبض علينا. إذا كان معه المسدس، كان يمكنه أن يطلق النار - ولكن لا، كنا قريبين منه جداً لإطلاق النار، كان يمكنه من الجانب الجسدي ولكن لم يكن يمكنه من الجانب النفسي - لأنَّ الإنسان يجب أن يسبق إطلاق النار بإطلاق داخلي روحي، وقد كان يفتقر إلى المسافة الكافية لذلك. غير

twitter @baghdad_library

أنه كان بإمكانهِ أن يندفع باستخدامِ يديه. لم يكن يعرف ماذا يتربص به أمامه، وفي أية ورطة سيدخل يديه. كنا نعرف شكله - أما هو فلم يكن يعرف شكلنا. أردت أن أكشف نفسي، أن أقول «يا عم» أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن بعد كل تلك الثواني، وربما حتى الدقائق، لم أعد أستطيع، لقد فات الأوان - كيف كان يمكنني أن أشرح الصمت؟ أردت أن أضحك، كما لو أن أحداً يدغدغني. التكبير. الاتساع. الاتساع في السواد. الانتفاخ والتضخم مع التقلص والتوتر في نفس الوقت، والتفادي وبعض الغربة العامة والخاصة، والانشداد التخشبي والتخشب الانشدادي، والتدلي على خيط رفيع والتحول والتحويل إلى شيء آخر، وبعدئذ - الوقوع في النظام التراكمي والنتوءي وكأنه كان على لوحة صغيرة ضيقة مرتفعة حتى علو الطابق السادس، باستثارة جميع أعضاء الجسم. والدغدغة. سُمِعَ في الردهة صوتُ زحفِ نعال، ولكننا شَعَرْنا بعدم القدرة على التزحزح من مكاننا فلم نتزحزح. اقتربَ زيغمونتْ مرتدياً نعليه.

- هل يوجد أحدٌ هنا؟ - سأل عند العتبة.

تقدم خطوة إلى الداخل وكرر: «هل يوجد أحدٌ هنا؟». تم سكت وتجمد ثابتاً وهو يُحِسّ بأنَّ شيئاً ما كان يحدث. كان يعرف أن أباه في مكان ما هنا، لأنه بالتأكيد سمع في السابق صوت خطوات وأسئلة قسطنطين - فلماذا لم يتفوّهْ أبوه بشيء؟ ولكنّ أباه انكتمَ من خلال المخاوف والأهوال البدائية، ها، ها، ها، لم يتمكن، لم يتمكن لأنه كان خائفاً! أما الابنُ فانكتمَ بخوف أبيه. ارتعبَ بكل كمية الرعب الذي نتج حتى الآن وسكت كما لو للأبد. وربما في البداية لم تكن مشاعره

واضحة ولكنْ بعد قليلٍ اكتسبَ عدمُ الوضوح صفاتِ الرعب ونما في نفسه. وDa capo الغربلة والتضخم والاتساع والرفع إلى الأُسّ ١٠١ والتكبير والتوتر والتلطف والتدليل والإجهاد والإصغاء في الرتابة والنتوء والتدلي - بلا نهاية، بلا نهاية، بدون حدود، نزولا وصعودا، بينما ما زال زيغمونت قريبا. الاختناق وعدم القدرة على الابتلاع والانسداد والإمساك بالرأس والتفكك والتكسر والتحلل الطويل والإجمال والدفع إلى الخارج والتأدية والتغير والتشدد، التشدد... دقيقة؟ ساعة؟ ماذا سيحدث؟ حلّقَت العوالمُ عبر رأسي. تذكرت الآن: لقد كان ذلك هنا حيث تربصت مرة لتخويف مربيتي - هذا هو المكان بالضبط - وكدت أضحك. صه! لماذا الضحك؟ كفى بالفعل، يجب علي أن أتوقف، أنقطع عن ذلك، ماذا سيحدث إذا ظهرت طفولتي أخيراً، إذا اكتشفوني بعد كل ذلك الوقت مع الخادم الصغير، إنه كان أمراً غريباً لا يمكن تفسيره، أوه، صوفيا، أن أكون مع صوفيا، مع صوفيا أحبس أنفاسي وليس معه! مع صوفيا لن يكون الأمر طفوليا! فجأة عملتُ خطوة جريئة واختبأتُ وراء الستائر، وأنا متأكد بأنهم لن يجرؤوا على التحرك. فإنهم لم يجرؤوا في الواقع. في الظلام، بالإضافة إلى الرعب، كان هناك بعض الغرابة، كان غريباً وغير مريح بالنسبة لهم أن يقفوا بصمت، وربما كانت لديهم النية وفكروا في ذلك، لكنهم لم يعرفوا كيف يمكن أن يعالجوه. وأتكلم هنا عن صمتهم. فإن صمتي قد قطعته بتحركي. من الممكن أنهما فكّرا فقط من ناحية المسألة الشكلية، وبحثاً عن المظاهر والحجج والمبررات الخارجية، والأسوأ من ذلك أن كل واحد أحرج الآخرَ بحضوره، وكان كلا المفكرين واقفين ولم يتمكّنا من التوقف والانقطاع بينما الدفع إلى الخارج والتحلل كانا متواصلينِ بلا كلل. بعد

twitter @baghdad_library

أن استعدتُ القدرة على التحرك، قررت أن أمسك بعامل المزرعة، وأسحبه وأخرج بسرعة إلى الردهة، ولكن قبل أن أتمكن من أن أنفذ القرار - ثم نور، نورا! - ضوءٌ باهتٌ على الأرضية وصريرُ وصوتُ زحفِ قدمين، وفرانسيس، يجيءُ فرانسيس بالنور، ويظهر شكل ساق عمي، إلى النور، إلى النور، إلى العلن!! لحسن الحظ كنتُ خلف الستائر! لكن الخادم العجوز أخرجهم إلى النور ومعهم كل ما حدث في الظلام! وخرجَ جميعهم: عمي وزيغمونت والخادم الصغير - كان يجب عليهم أن يخرجوا! العم بشعره المشعث قليلاً، وعلى بعد خطوة منه عامل المزرعة، يواجهان بعضهما البعض - أما زيغمونت فكان أبعد في داخل الغرفة وبرز مثل العمود.

- هلْ منْ أحدٍ يمشي؟ - سأل كبير الخدم بصوته النائح وهو يُضيءُ بمصباحه الزيتي الصغير؛ ولكنّ سؤاله كان متأخراً وفقط من أجل تبرير وصوله. لأنه رآهما كما لو كانا على كف يده.

تحرك قسطنطين. ماذا كان يفكر فرانسيس حين رآه مباشرة بجانب الخادم الصغير؟ لماذا كانا واقفين قُربَ بعضهما البعض؟ لم يستطع أن يتراجع بسرعة، ولكنه بحركة بسيطة وسّع المسافة بينه وبين فاليك، ثم اتخذَ خطوة إلى الجانب.

- ماذا تفعل هنا؟ - صاح وهو يحول خوفه إلى غضب.

لم يُجب الخادم الصغير. لم يجد أية إجابة. كان واقفاً باسترخاءٍ كبير ولكنه بلعَ لسانه. كان وحده مع الأسياد. وصمت ابن الفلاحين وعدم التفسير من ناحيته، ألقى بظلال الاشتباه. تطلّعَ فرانسيس إلى العم - الأسياد في الظلمة مع فاليك؟ هل السيد أيضاً يتعاشر معه؟ - كان وجه

الخادم العجوز الواقف بانتصابٍ بمصباحه الزيتي يتغطى ببطء بالحمرة وكان يتوهج مثل الشفق في الغروب.

- فاليك! - صاح زيغمونت.

لم تكن كل تلك الهتافات في محلها، بدتْ مبكرة أو متأخرة جداً، فانكمشتُ خلف الستار.

- سمعتُ شخصاً يمشي هنا - بدأ زيغمونت كلامه بشكل مرتبك وهو يلتفت إلى اليسار واليمين - سمعت أحداً يمشي. يمشي. ماذا فعلتَ هنا؟ ماذا تدبر؟ تكلم! ماذا أردت من هنا؟ أجبني!!! أجبني، اللعنة! - كان يصيح بارتباكٍ عظيم.

- إنه شيء واضح - قال الخادم وهو متوهج احمراراً مثل النار بعد فترة صمت قاتلة وطويلة - واضح، يا سعادة البيه.

تحسس سوالفه.

- فضة الطاولة في الدرج. وسيادتكم غداً ستطردونه. فأكيد خطط... لكي يختلسها.

سيختلس! أراد أن يسرق! وجدوا تفسيراً - أراد أن يسرق وتم ضبطه متلبساً. الجميع، بما في ذلك فاليك، شعروا بالارتياح، وأنا أيضاً خلف الستار هدأت إلى حد ما. ابتعدَ قسطنطين عن الخادم الصغير وجلس على كرسي عند الطاولة. استعادَ طريقة معاملته السيادية المعتادة مع عامل المزرعة بالإضافة إلى ثقته في نفسه. إنه أراد أن يسرق!

- تعال هنا - قال قسطنطين - تعال هنا أقول لك... اقتربْ، اقتربْ... - لم يعد يخاف من التقرب وبدا واضحاً إنه يستمتع بعدم خوفه- اقتربْ - كرر - اقتربْ - فاقتربَ فاليك بحذر وبشكل متلكئ - اقتربَ

twitter @baghdad_library

أكثر - حتى كاد عامل المزرعة يلمسه تقريباً، ثم وهو ما زال جالسا، طوح يده إلى الخلف وصفعه على بوزه مثل «ماني، تقيل، فيريس[١]»!

- سوف أعلمك كيف تسرق منا! - أوه، يا لنعيم الضرب في الضوء بعد ذلك الخوف في الظلام، أوه أن تضرب الدمامة التي أخافتك، أن تضرب ضمن الأطر المحددة بمفهوم السرقة الواضح! أوه، يا لنعيم العلاقة الطبيعية بعد الكثير من العلاقات غير الطبيعية! زيغمونت، متابعاً مثال أبيه، وَجّهَ ضربة خاطفة إلى أسنان فاليك كأنما في حدائق بابل المعلقة! ضربه بصفعة مدوية. التففتُ خلفَ الستارة مثل خيطٍ على بكرة!

« - ما سرقتش! - » قال عامل المزرعة وهو يلتقط نفسه.

كان ذلك ما انتظراه. لقد سمح لهما باستغلالِ حجة السرقة إلى أقصى درجة.

- ألم تسرق؟ - قال قسطنطين وهو ينحني نحوه من على كرسيه ووجه له ضربة ثانية على بُوزه.

- ألم تسرق؟! - قال السيد الشاب وضربه على بوزه بضربة خاطفة وموجزة - اندفعا إليه - «ألم تسرق؟ ألم تسرق؟» - وبهذا السؤال المتكرر باستمرار ودون انقطاع، ظلا يضربانه ويبحثان عن دمامته بأيديهما، وبعد أن وجدوها استمرّا في ضربها بطريقة خاطفة كالسوستة أو بأرجحة اليد واصطدامها! غطى نفسه بذراعيه ولكنهما عرفا كيف يصلا إليه! لفترة طويلة لم يكن يستطيعا الوصول إلا إلى دمامته، ولكنني

(١) النبوءة التي ظهرت وفقاً للكتاب المقدس على جدار القصر في بابل لتعلن عن الدمار.

أحسستُ بأن منطقة تركيزهما ستتسع؛ وحقاً، كسر السيد الحاجز وأمسك بشعره ولأنه أمسكه، فقد بدأ يصدم رأسه ببوفيه الخزانة.

- سأعلمك كيف تسرق! سأعلمك كيف تسرق!...

ها، بدأت الأحداث! يا لليل الملعون المنتفخ! يا للظلام الملعون المتضخم، الظلام الكاشف، لولا الانغماسُ في الظلام لما حدثَ كل ذلك. انتشرتْ رواسب الظلام فوقه. انطلقَ كوستا، مالك الأراضي بلا قيود. متحججاً بالسرقة فكان يوجه الضربات للخوف والرعب وحمرة الخجل وللت... آخي مع الكباس ولكل شيء كان يعاني منه.

- إنها لي! لي! - كرر وضربه على الأدراج والحواف والحليات والأفاريز - إنها لي، اللعنة! - وتغير ببطء معنى تلك الـ«لي» ولم يعد معروفاً ما إذا كان يقصد الفضة ومكونات المائدة، أو جسده وروحه وشعره وعاداته ويديه وسياديته رُقيَهُ وثقافته وأصله، ولم يعد يضربه على الدرج فقط، بل ضربه في الفضاء - بدون أية حجة! بدا أنه من خلال ضرب وطرد عامل المزرعة، يريد أن يفرض نفسه عليه، نفسه وليست الفضة ولا ممتلكاته، ولكن نفسه. لقد فرض نفسه! يا للإرهاب! الإرهاب! أن يرهب ويفرض نفسه على عامل المزرعة، حتى لا يجرؤ على التَّ... آخي ولا الثرثرة ولا التعجب، عليه أن يقبل الأسياد مثل الآلهة! بيده الرقيقة السيادية كان السيد يدخل كيانه في بوزه! هكذا يغرس في عصفور ديكاً رومياً! هكذا يغرس كلب فوكيترير في كلبِ هجينٍ عبادةَ فوكيتير! بومة في أبو زُريق! جاموسة في كلب! فركت عيني خلف الستائر، أردت أن أصرخ، أن أطلب النجدة، لكني لم أستطع. أما فرانسيس فقد أضاء من الجانب بالمصباح الزيتي الصغير.

twitter @baghdad_library

العميمة! العميمة! هل خدعتني عيناي أم أنني رأيت العمة عند باب غرفة التدخين والحلوى في يدها. غمرني أمل في أن العمة ستنقذني، ستخفف الأحداث - ستحيدها. لا! رفعت يديها كأنها ستصرخ ولكن بدلاً من أن تصرخ كانت تبتسم بشكل عديم المعنى، لوحت بيدها، وقامت بإيماءة أو اثنتينِ لا يمكن وصفها، ثم تراجعت إلى غرفة التدخين. تظاهرت بأنها لسيت موجودة على الإطلاق، لم تقبل بما رأت، لم تستوعبه، كانت الجرعة شديدة جداً - وتلاشت بسرعة، تلاشت في الداخل أو بالأصح إنسابت إلى الوراء بطريقة ضبابية، إلى درجة أنني شككت فيما إذا كانت موجودة بالفعل. كانتْ قوى قسطنطين تخور - ثم يستأنف فرض نفسه من جديد - بينما زيغمونت ظل يقفز من الجانب ويفرض نفسه أيضاً، يفرض ويفرض، بقدر ما كانت تستطيع يده أن تصل إلى عامل المزرعة. عندما خارت قوة العم، بلغه زيغمونت وفرض نفسه عليه بكل طاقته وبالعنف والجبروت. أطلقا كلمات بأنفاسهما المتقطعة من خلال فكيهما المتشنجين، مثل:

- أها، أنا نططتُ على حارس الطرائد، هاه؟! أنت استخلَيتُ التَ... آخي!

- أها، أنا مولع بالفلاحة العجوزة؟!

وضرباه حتى يُدمّرا كل ذلك ويتغلّبا عليه إلى الأبد! فرضا نفسيهما ولكن وفقا للقواعد، لم يضرباه على ساقه أبداً، ولا على ظهره، دائماً صفعاً بأيديهما على دمامته، ضرباها بعنف وحطماها! لم يتقاتلا معه - لم يضرباه - ولكنهما ضربا بوزه! وذلك كان مسموحاً لهما. لقد كان ذلك حقهما الرسمي منذ قرون. أما فرانسيس العجوز فقد أضاء بمصباحه، وعندما تراخت أيديهما، ذكّرَهُما بمهارة:

- معالي السادة، سيعلمونك عدمَ السرقة! سيعلمك معالي السادة.

توقفا أخيراً. جلسا. التقطَ عامل المزرعة أنفاسه، وتدفق الدم من أذنه وكانت دمامته ورأسه مضروبينِ إلى أقصى حد. قدما سجائر لبعضهما البعض، أما العجوز فقفز إليهما بكبريتة. بدا أنهما قد انتهيا. ولكن زيغمونتْ نفث دائرة دخان.

- أعْطِنا العجوز! - صاح - آتينا بالعجوز!

هل أصابهما الجنون؟ كيف كان يمكنه أن يعطيهما العجوزة؟ رمشَ عامل المزرعة بعينيه الداميتين.

«- بس هي في القرية، يا سعادة البيه!»

فركتُ جبهتي. ولكنهما لم يكونا يقصدان العجوز القروية الخجولة يوزفكا، بل يقصدان العجوز الناضجة المذاق واللذيذة والسيادية التى كانت لديهما في غرفة المؤن، أي التي في الزجاجة! وعندما فهم الخادم الصغير في النهاية، وثب إلى الخزانة وأخرج الزجاجة والكؤوس وضرب زيغمونتْ وأبوهُ كأسيهما، ثم تجرعا كأساً من الفودكا الأصيلة القوية. ثم جرعة ثانية! وثالثة ورابعة!

- سنعلمه الدرس! سندربه!

وبدأت الأحداث من جديد... حتى شككتُ فيما إذا كانت حواسي تخدعني. لأنه لا شيء يخدعنا مثل حواسنا. هل كان يمكن لذلك أن يكون حقيقياً؟ لمختبئٍ خلف الستارة، حافي القدمين، لم أكن متأكداً فيما إذا كنت أرى الحقيقة أو استمرارية الظلام - حافي القدمين، هل تستطيع أن ترى الحقيقة وأنت حافي القدمين؟ اخلعْ حذاءك، اختبئ وراء الستائر وأنظر! أنظر حافي القدمين! شيء رديء للغاية! بينما

twitter @baghdad_library

احتسيا جرعة الـ«عجوز» الناضجة القوية جرعة تلو الأخرى، بدآ تدريب عامل المزرعة للتحول إلى خادم متمرس.

- أعْطِني هذا، أعْطِني ذاك! - صاحا - الكؤوس! مفارش المائدة! الخبز، الباجيت! المزة! لحم الخنزير! افرشْ! اخدمْ! - جرى عامل المزرعة واشتغلَ بجد ونشاط - وبدآ يأكلان أمامه، ويتذوقان ويرشفان ويلتهمان المزةَ بعد الجرعات - فرضا نفسيهما بالأكل، فرضا أنفسهما بالأكل السيادي.

الأسياد يشربون! - صاح قسطنطين وهو يتجرع جرعة من الـ«عجوز».

الأسياد يأكلون! - تبعه زيغمونت - آكلُ أكلي! أشرب شرابي! إنه شرابي الذي أشربه!

أكلي الذي أكله! إنه لي، وليس لك! لي! أعرف من هو السيد! - صاحا ودفعا نفسيهما تحت أنفه مباشرة، وفرضا عليه جميع خصائصهما، حتى أنه لن يجرؤ على الانتقاد ولا التساؤل إلى آخر حياته، ولا على التعجب والاستغراب، حتى يقبل الجميع مثل الشيء في ذاته[1]، Ding an sich! وصاحا: «عندما يأمر السيد، فالخادم يجب أن يطيع!» - وأصدرا الأوامر ولم يكن هناك نهاية للأوامر، بينما ظل على عامل المزرعة أن ينفذها كلها! «قَبِّلْني في ساقي!» - فقبل- «انحنِ انزلْ على الأرض»! - فنزل! - أما فرانسيس كما لو كان يعزف ببوق ويضبط به الإيقاع:

---

(١) مصطلح من الفلسفة الكانتية يترجم «الشيء في ذاته».

- معاليكما تدربانه! معاليكما تؤدبانه!

لقد درباه! على الطاولة الملطخة بالـ«عجوز»، على ضوء المصباح الزيتي الصغير! كان يجوز لهما ذلك لأنهما يدربان عامل المزرعة الريفي ويحولانه إلى خادم صغير. أردت أن أهتف - لا، لا، كفاية - لكنني لم أستطع. كنت أخجل من أن أنكشفَ بأنني أرى. ولم أكن أعرف إذا كان ما أراه حقيقة أم أنا غلطان، وكم من تلك الرداءة التي انتشرتْ أمامي كانت من نسج خيالي، ربما لو نظرت وأنا مرتدٍ حذائي، لما كنتُ أرى كل ذلك. وارتعدتُ من فكرة أنْ تكونَ نظرةُ شخصٍ ثالثٍ قد شملتني في ذلك المشهد باعتباري جزءاً من ذلك المشهد. انكمشتُ من الضربات التي تلقاها عامل المزرعة على دمامته، وخنقني اليأس والرعب، بيد أنني أردت أن أضحك وضحكت على الرغم من إرادتي مثل شخص مدغدغ في كعبه، أوه، صوفيا، لو فقط كانت صوفيا موجودة، أن أخطف صوفيا، أن أهرب مع صوفيا مثل رجل بالغ! بينما هما ما زالا يدربانه، يدرّبان ولداً غير ناضج بطريقة ناضحة وسيادية، بأناقة وحتى بمهارة، وهما متمددان على كرسَيْهما عند الطاولة ويحتسيان الـ«عجوز» القوية.

ظهر الكباس عند الباب!

« - سيبوه! سيبوه!»

لم يصرخ. أصدر صوتاً ناعماً من حنجرته. تقدم نحو العم! فجأة رأيت أن كل شيء كان مكشوفاً للنظر! مكشوفاً! حيث تواجد حشدٌ خلف النوافذ. عمال المزرعة والفلاحات الشابات والسائسون والفلاحون والوليات والعجائز وخادمات البيت وخدم المزرعة والمنزل، جميعهم

twitter @baghdad_library

كانوا ينظرون! كانت النوافذ مكشوفة. جذبتهم الضوضاء في سكون الليل! نظروا باحترام كيف كان السيدان يُشَغّلانِ فاليك - كيف يعلمانه ويدربانه ويروضانه ليتحول إلى خادم صغير.

- احترسْ يا كبّاس! - صرخت. بعد فوات الأوان. لقد تمكن قسطنطين من أن يدير جانبه إليه ويصفع الخادم الصغير مرة أخرى على بوزه بازدراء. اندفعَ الكباس، أمسك بعامل المزرعة وعانقه بيديه وحضنه.

« - بتاعي! مش هسيبه! مش هسيبه! سيبوه - عوى - سيبوه! مش هسيبه!»

- أنت يا أبو مُخاط!- صاح قسطنطين - على البوبو! على البوبو! ستأخذ ضربات على البوبو، يا أبو مُخاط!

اندفع هو و زيغمونتْ باتجاهه. أصاب عواء الكباس الصبياني الأسياد بالجنون. أن يستهينا به من خلال البوبو! أن يحرما الت... آخي من أي معنى، أن يضرباه على البوبو بحضور فاليك وأمام الفلاحين خلف النافذة!

- إيه إيه! - أصدر الكباس صوتاً ناعماً وهو منكمش بشكل غريب. قفز وراء عامل المزرعة. أما الآخرُ كما لو كان استعادَ غطرسته وجسارته نحو الأسياد نتيجة لتآخيه مع الكباس، في نوبة التعاشر المفاجئ ضرب قسطنطين بعنف على بوزه.

« - أنت بتحشر نفسك ليه؟ - » صاح بشكل غليظ.

انفصمت العروة السرية! نزلت يد الخادم على وجه السيد. ارتطامات وشواكيش ونجوم في عيون قسطنطين. إنه لم يكن مستعدا لذلك إلى

درجة أنه سقط على الأرض. انسكبَ عدم النضج في كل مكان. صوت الزجاج المكسور. الظلام. حجر مرمي بإحكام كسر المصباحَ. النوافذ انفصلتْ - فرضَ الفلاحون أنفسَهم وبدأوا يزحفون إلى الداخل ببطء، وازدحمَ الظلام بأجزاء أجساد الفلاحين. كان الهواءُ خانقاً مثلماً في مكتب مدير. الحوافر والأقدام - لا، لا توجد أقدام عند الغوغاء - الحوافر والسيقان، عدد كبير من الحوافر والسيقان، الضخمة والثقيلة. الفلاحون المتشجعون من عدم النضج الاستثنائي للمشهد، فقدوا احترامهم ورغبوا أيضاً في الت... آخي. سمعت فقط أنين زيغمونت وأنين العم - يبدو أن الفلاحين أوقعوهما بطريقة ما فيما بينهم وتناولوهما ببطء شديد وبشكل أخرق، ولكني لم أرَ ذلك بسبب الظلام... قفزت من خلف الستائر. العميمة! العميمة! تذكرت العمة. ركضت حافي القدمين إلى غرفة التدخين، أمسكت بالعمة التي تظاهرت على الأريكة بعدم الوجود، وهيا، سحبتها ودفعتها إلى الكومة حتى اختلطتْ بالكومة.

- يا طفلي، يا طفلي، ماذا تفعل؟ - توسلتْ وركلتْ وقدمت الحلوى، ولكنني كنتُ أسحبها تماماً مثل طفل، أسحبها وأسحبها إلى داخل الكومة، أدفعها، لقد تمكنوا منها، هم يمسكون بها! العمة في الكومة الآن! بالفعل في الكومة! جريتُ عبر الغرف، دون أنْ أهرب - أن أجري، فقط أن أجري، لا شيء أكثر إلا أن أجري، أن أجري وأن أحرّض نفسي على الجري وأن أدبَّ على الأرض حافي القدمين! اقتحمتُ الرواق! أبحر القمر من وراء الغيوم، لكنه لم يكن القمر، بل البوبو. البوبو بحجم هائل فوق قمم الأشجار. البوبو الطفولي فوق العالم. والبوبو. ولا شيء غير البوبو. هناك هم بأجسادهم يتدحرجون في

twitter @baghdad_library

الكومة، وهنا البوبو. الأوراق على الشجيرات ترتجف في نسيم خفيف. والبوبو.

أمسكني اليأس القاتل وسيطر علي بإحكام. تمّتْ «صبينتي» تماماً. إلى أين أجري؟ هل أعود إلى العزبة؟ لا شيء هناك، لا شيء إلا - الصفع والضرب ودحرجة الأجساد في الكومة. إلى أين أتجه، ماذا أفعل وأين أرتب نفسي في العالم؟ أين أضع نفسي؟ كنت وحدي وحتى أسوأ من وحدي لأني أصبحت صبيانيا. لم أستطع أن أكون وحدي مدة طويلة، بدون علاقة بأي شيء. ركضت في الشارع وأنا أقفز فوق الأعواد الجافة مثل الجندب. كنت أبحث عن علاقة، عن ترتيب جديد ولو حتى مؤقت، حتى لا أظل معلقاً في الفارغ. انفصلَ الظلُّ عن الشجرة. صوفيا! مسكتني!

- ماذا حدث هناك؟ - همستُ - هل هاجم الفلاحون والدي؟

أمسكت بها.

- لنهرب! - رددت.

هربنا معا عبر الحقول إلى حيز مجهول وكانت هي كأنها مختطفة، أما أنا - فكنتُ كأنني خاطف. ركضنا على طول فواصل الحقول حتى تقطَّعتْ أنفاسنا. قضينا بقية الليل في مرج صغير عند البركة، مستترين بالأعشاب ونحن نرتعش من البرد وتصطك أسناننا. خشخشت الجنادب. عند الفجر ظهرت في السماء البوبو الأخرى الحمراء والأعظم بمائة ضعف، وملأت العالم بأشعتها وهي تجعل جميع الأشياء تلقي ظلالاً ممدودة.

ولم نكن نعرف ماذا يجب علينا أن نفعل. لم أتمكن من التوضيح لصوفيا أو التعبير بأية طريقة أخرى عما حدث في العزبة، لأنني خجلت، وعلاوة على ذلك لم أستطع أن أجد الكلمات الصحيحة. وربما كانت هي تخمن إلى حد ما، لأنها خجلت أيضاً ولم تتمكن من التعبير عن نفسها كذلك. جلست هي عند أعشاب البركة وسعلت قليلاً بسبب الرطوبة الناشئة من الأعشاب. أحصيت أموالي - كان معي حوالي خمسين زلوتيا وبعض الفكة. من الناحية النظرية كان ينبغي علينا أن نمشي على الأقدام إلى إحدى العزب القريبة ونطلب المساعدة هناك. ولكن كيف كان يمكننا أن نعبر عن أنفسنا ونحكي قصتنا في مثل هذه العزبة، منعني الخجل من الكلام وفضلت أن أقضي بقية حياتي في الأعشاب على أن أجاهر بذلك أمام الناس. أبدا! من الأفضل أن يُفترض أنني اختطفتها وأننا نهرب معا من بيت والديها، كان ذلك أنضج بكثير وبالتالي أسهل لهم في التقبل. ومتابعاً ذلك الافتراض لم يكن عليّ أن أشرح لها أي شيء ولا أن أوضح لها، لأن المرأة دائماً مستعدة لأن تتقبل حقيقة أن أحداً يحبها. كان يمكننا بتلك الحجة أن نتسلل خلسة إلى محطة القطارات، وأن نذهب إلى وارسو ونبدأ هناك حياة جديدة في السر بعيداً عن الجميع - والخطف كان مبرراً لهذه السرية.

من ثم طبعت قبلة على خديها واعترفتُ لها بعواطفي الحرة، وبدأت أعتذر لها بأنني خطفتها ووضحت بأن أسرتها لن توافق أبداً على علاقتها معي، لأنني لم أكن من الأثرياء وبأنني من أول نظرة وقعت في حبها وأدركت بأنها شعرت بنفس الشيء.

- لم يكن هناك طريقة أخرى إلا أن أختطفك، يا صوفيا - قلتُ - إلا أن نهرب معاً.

twitter @baghdad_library

هي اندهشتْ في البدء قليلاً، ولكن بعد ربع ساعة من التقدم لخطبتها بدأت تتخذ وجوها، وتنظر إلي لأنني كنت أنظر إليها، وتلعب بأصابعها. لقد نسيتْ تماماً الفلاحين والفوضى في العزبة وبدأت تعتقد بأنني خطفتها بالفعل. أشبع ذلك كبرياءها للغاية، لأنها حتى الآن كانت تعمل فقط في التطريز أو كانت تدرس أو تجلس وتحدق أو تتململ أو تتنزه أو تنظر من النافذة أو تعزف على البيانو أو تعمل أعمالاً خيرية في «مؤسسة الإطعام التعاونية» أو تأخذ امتحانات في زراعة الخضار أو تغازل وترقص على نغمات الموسيقى أو تذهب إلى المنتجعات الصحية أو تنشغل بالمحادثة وتنظر من خلال زجاج النوافذ إلى مكان ناءٍ. لم يكن يتواجد لديها حتى الآن أمل بأنه سيظهر شخص ما يستولي عليها. وهنا فإنه لم يظهر فحسب، وإنما اختطفها أيضا! فشحذت كل قدرات الحب عندها ووقعت في حبي - لأنني أحببتها.

بينما في نفس الوقت ارتفعت البوبو عالياً وأطلقت الملايين من الأشعة المتألقة فوق العالم الذي بدا كأنه بديلٌ لعالمٍ مقصوصٍ من الكرتون وملونٍ بلمسة من اللون الأخضر والمضيء من أعلى بتوهج حارق. بدأنا نتسلل إلى المحطة من المسارات الجانبية ونحن نتجنب المستوطنات البشرية، وكان الطريق طويلا - حوالي عشرين كيلومتراً. مشتْ ومشيتُ، مشيتُ ومشتْ ومشينا هكذا معا ونحن نحافظ على مشيتنا تحت أشعة البوبو القاسية المشعة والمحتدمة، البوبو الصبيانية والـ«مصبينة». قفزتِ الجنادب. طنّتِ الصراصيرُ في الأعشاب. حطت الطيور الصغيرة على الأشجار أو طارت. انحرفنا عن الطريق أو اختفينا في الشجيرات الجانبية عند رؤيتنا لأي إنسان كان. ولكن صوفيا أكدت لي على أنها تعرف الطريق، لأنها ركبت فيه آلاف المرات بالحنطور أو

بعربة مكشوفة أو عربة أخرى بزلاجات يجرها حصان. أزعجنا الجو الملتهب. لحسن الحظ استطعنا أن نُنشّطَ أنفسنا سراً من خلال امتصاص الحليب من بقرة واقفة على جانب الطريق. وعاودنا مشينا. ولكن في كل ذلك الوقت وبسبب إعلاني لمشاعر حبي لها كان علي أن أحفاظ على أحاديث الحب وأظهر الاعتناء بها مثل مساعدتها في عبور الجسور المرمية عبر الجداول وأهش الذباب عنها وأن أسألها إن كانت متعبة - وكثير من العنايات الأخرى والأفضال. وهي بدورها ردت بالمثل وسألتني وهشّتْ واعتننتْ. كنت في غاية التعب، أوه، أن أصل فقط إلى وارسو، أن أحرر نفسي من صوفيا وأبدأ العيشَ من جديد. أردت أن أستخدمها ذريعة وحجة حتى أبتعد عن الكومة في العزبة بشكل ناضج نسبياً وأن أصل أخيراً إلى وارسو، حيث سيكون بوسعي بعد فترة ما أن أعيد تركيب نفسي. ولكن حتى ذلك الحين، كان لا بد لي أن أهتم بها وعموماً أن أجري تلك المحادثات الحميمة لاثنين من الناس يمتعان بعضهما البعض، وصوفيا، كما قلت، المتأثرة بمشاعري أصبحت تتفاعل أكثر وأكثر معي. بينما البوبو المتوهجة بشكل لا يصدق، المرتفعة بارتفاع مليار كيلومتر مكعب، اجتاحتْ أودية العالم.

إنها كانت آنسة من الريف، ربتها والدتها وعمتي، حُوْرليتسكى، المنسوبة لعائلة لين، والخدم أيضاً - حتى الآن إما كانت تُعَلّم نفسَها وتدرس في مدرسة فِلاَحَةِ البساتين وتشارك في دورات المدرسة التجارية أو انشغلتْ في صنع المربى أو تقشير الكشمش أو تطوير عقلها وقلبها أو جلست لبعض الوقت أو عملت عملاً إضافياً كمساعدة في المكتب أو عزفت قليلاً على البيانو أو تمشّتْ بعض الوقت وقالت شيئاً، ولكن قبل كل شيء كانت تنتظر وتنتظر وتنتظر مَنْ سيأتي ويقع في حبها

twitter @baghdad_library

ويخطفها. كانت خبيرة عظيمة في الانتظار، لطيفة وسلبية وخجولة ولذلك غالباً ما كانت تعاني من آلام الأسنان لأنها كانت مناسبة جداً لغرفة الانتظار عند طبيب الأسنان، وأسنانها كانت تعرف ذلك. إذن الآن، عندما ظهر في النهاية الرجل المنتظر وخطفها وبزغ ذلك اليوم البهيج، بدأتُ أعاملها بحدة وقامت بالتباهي والإظهار والإبراز لجميع مفاتنها وتقديمها بينما تعطي الوجوه الحلوة وتبتسم وتقفزُ، وتُقَلّبُ عينيها، وتضحك كاشفة عن أسنانها بفرحة الحياة وتُومِئ أو تُدَنْدِنُ ألحاناً بهدوء حتى تظهر ثقافتها الموسيقية (لأنها عزفت على البيانو قليلاً واستطاعتْ أن تؤدي «سوناتا القمر»). علاوة على ذلك أبرزت وعرضتْ أجزاءَ جسدها، تلك التي كانت جذابة لديها، في حين خبأت الأسوأ. وكان عليّ أن أنظر وأدقق وأدعي بأنني مثار وأستوعب كل ذلك في داخلي... بينما هيمنت البوبو المرتفعة والعالية على العالم في زرقة السموات التي لا حدود لها وتعظمت وتألقت ولمعت وجففت الأعشاب والحشائش وهي تحمص وتحرق. أما صوفيا، ولأنها عرفت أن الذي يحبُّ يكون سعيداً، فكانت سعيدة - وألقتْ نظراتٍ بعينيها المتألقتين والمشرقتين، وأنا أيضاً كان يجب علي أن ألقي تلك النظرات.

وهمسَتْ.

- كم أتمنى أن يكون كل الناس راضيين وسعداء مثلنا - لو كانوا طيبين، فسيكونون جميعهم سعداء.

أو كانت تقول.

- نحن شباب، نحبّ بعضنا البعض... العالم ينتمي إلينا! - وحضَنَتْني فكان يجبُ علي أن أحضنَها كذلك.

وهي مقتنعة بأني أحبها، انفتحتْ أمامي وبدأت تسر إليَّ وتتحدث بإخلاص وبصداقة حميمة كما لم تفعلْ مع أحدٍ من قبل. لأنها حتى الآن كانت مرعوبة من الناس حيث أنها كانت متربية من قبل عمتي حُورليتسكى، المنسوبة لعائلة لين - الآن تائهة في الكومة - وأيضاً من قبل الخدم بنوع من الانعزال الأرستقراطي، فلم تُسِرَّ بشيء أبدا إلى أي شخص خشيةً من أنْ تُنْتَقَدَ أو يُسَاءَ فهمها وكانت كأنها غير مكتملة وغير محددة وغير مقررة داخلياً، كأنه كان لا رادع لها وهي غير متأكدة من الانطباع الذي كانت تتركه. كانت بحاجة ماسة إلى اللطف، ولم تستطع أن تفعل أي شيء بدون اللطف، كان بإمكانها أن تتحدث فقط مع من يكون في البداية a priori[١] لطيفاً ودافئاً في أسلوبه معها... أما الآن، بما أنها أدركت أنني أحبها وظنت إنها اكتسبت المعجب a priori الدافئ والمتيم بها، الذي سيقبل لأنه يحبها، فبدأت تسر إليّ وتفضي بمكنون صدرها، فحدّثتني عن أحزانها، وأفراحها، وأذواقها، وتفضيلاتها، وشغفها، وأوهامها، وإحباطاتها، ونشواتها، ومشاعرها، وذكرياتها وكل التفاصيل الصغيرة - ها، وجدتْ أخيراً الشخص الذي يحبها، الذي كان يمكنها أن تبوح له بنفسها، وهي متأكدة بالحصانة وأن كل شيء سيقبل بدون أن تنال أي عقاب، بالحب والدفء... أما أنا فكانَ عليّ أن أوافق وأقبل وأن يعجبني ذلك كله...

وقالت: - الإنسان ينبغي أن يكون واسع المعرفة، وأن يحسّنَ نفسَه روحياً وجسدياً، وأن يكون جميلاً دائماً! أنا أؤيد كمال الإنسانية. أحياناً

---

(١) مقَدَّمَا (اللاتنية).

twitter @baghdad_library

في المساء أحب أن أستند بجبهتي إلى زجاج النافذة وأغمض عيني، آنذاك أستريح. تعجبني السينما ولكن أحب الموسيقى - وأنا كان عليّ أن أوافق على ذلك. ثم زقزقتْ أكثرَ بأنه بعد الاستيقاظ صباحاً من النوم يجب عليها أن تفرك أنفها الصغير وهي متأكدة بأنني لا يمكن أن أكون غير مهتم بأنفها الصغير، وانفجرتْ بالضحك، وأنا انفجرتُ أيضاً. ثم كانت تقول بحزن:

- أعرف بأني غبية. أعرف أنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء جيداً. أعرف أني لست جميلة - أما أنا فكان علي أن أنكر كل ذلك. بينما هي عرفت أنني أنكر ليس من أجل الواقع والحقيقة، ولكن لمجرد أنني أحببتها، وبالتالي قبِلتْ ذلك الإنكار بلذة وهي سعيدة أنها وجدت المعجبَ المتيمَ بها a priori الذي يحب ويتفق ويقبل أي شيء منها، أي شيء باللطف والدفء...

أوه، يا للعذاب، كان يجب علي أن أتحمل حتى أنقذ على الأقل مظاهر النضج في تلك الدورب بين الجُذامات، حيث هناك على بُعْدٍ، تتدحرج أجساد الفلاحين والأسياد بشكل مخزٍ ويُدَلّكُ بعضُهم البعض، بينما في الأعالي كانت البوبو معلقة في أوجها، رهيبة وقاسية وهي تطلق أسهمها المشعة، بالملايين من سهامها - أوه، يا لللطف الدافئ والحنان الملزم والقاتل والإعجاب المتبادل والولع... أوه، يا لوقاحة أولئك النسوة التافهات الحريصات على الحب والطامعات للغاية في ذلك التجمع للحب والمتلهفات لكي يصبحن محط إعجابٍ... كيف جَرأتْ برقتها وفراغها وتبلدها على أن ترضخ لولعي وتقبل عبادتي، وتشبع

بشراهة وجشع بتملقي؟ هل يوجد هناك على الأرض وتحت البوبو المتوهجة والمحتدمة شيء أكثر فظاعة من ذلك الدفء النسائي، ذلك التعبد الخجول والحميم والمتعانق لبعضهما البعض؟... وما هو أسوأ من ذلك، حتى تردَّ علي وتستكمل تركيب الإعجاب المتبادل، بدأت تعجب بي - وباهتمامٍ وعناية شرعت تسألني عن نفسي، ليس لأنها كانت مهتمة بصدق، ولكن من أجل رد الجميل- لأنها عرفت أنه إذا أبدت اهتماماً بي، فأنا سأهتم بها أكثر. هكذا كنت مضطراً أن أحكي لها عن نفسي، وهي استمعتْ إليّ ورأسها الصغير الحلو على ذراعي، وتتدخل من وقت لآخر بأسئلةٍ لكي تؤكد على أنها تستمع. وغذتنيى بدورها بإعجابها، تحتضنني وتغرم بي، وقالت لي إنها معجبة بي جدا ومن البداية تركتُ فيها انطباعا وهي تحبني أكثر وأكثر وأني جريء جداً وشجاع...

- خَطَفْتَنِي - كانت تقول وهي تثملُ من كلماتها - لا أحدَ كان يجرؤ على ذلك. وقعْتَ في حبي وخَطَفْتَنِي، ولم تسألْ عن أي شيء، فقط خطفتني، لم تَخَفْ من والدي... أحبُّ عينيك الجريئتين، المقدامتين والجارحتين...

والتويتُ بتأثير إعجابها كأن شيطاناً يجلدني، أما البوبو الضخمة والجهنمية فكانت تتعاظمُ وتخترقنا من الأعلى - بشارة الكون الختامية مثل مفتاح كل الألغاز، القاسم المشترك الأخير لكل الأشياء. بينما حضنتني، قلَبَتْني وأعطتني شكلاً أسطورياً كما شاءت بالدفء والخجل، وشعرت أنها كانت تعشق صفاتي ومزاياي بطريقة خرقاء، وتبحث عنها وتجري وراءها وهي تسخن وتتوهج... أخذتْ يدي وبدأت تعانقها، وأنا

twitter @baghdad_library

بدوري عانقتُ يدها - حينما بلغتِ البوبو الصبيانية الجهنمية أوْجَها، ذروتها، وكانت تحتدم عمودياً من الأعلى.

وقذفت وهي معلقة في قمة السماوات النائية بأشعتها الذهبية المتألقة على كل الأرض وفي كل الآفاق. بينما صوفيا حضنتني أكثر وأكثر، وتوحّدَتْ معي أوثق وأوثق وأدخلتني فيها. كنتُ نعسان. لم أعد أستطيع أن أمشي أكثر ولا أن أسمع أو أستجيب ولكن كان يجب عليّ ذلك. عبرنا بعض المروج، وعلى تلك المروج كان عشبٌ أخضرُ خضرةً واخضراراً، وهي مليئة بزهور الحوذان الصفراء ولكن الحوذان كانت خجولةِ ومُحْتَضَنة بالعشب وكان العشب زلِقاً قليلاً، ورطباً ومبتلاً بعض الشيء وتبخر بالبخار الساخن تحت الحرارة العنيدة من أعلى. ظهرت الكثير من زهور الربيع على جانبي الطريق ولكن كانت بلون الشاي الخفيف وبدت هزيلة. كانت هناك العديد من شقائق النعمان على المنحدرات وأعداد من الشمّام. على المياه، في الخنادق الرطبة - زنابق الماء، الباهتة والممتقعة والرقيقة والمبيضة، في حالة ركود تام من القيظ المحرق والمبَخّر. أما صوفيا فما زالت تحضنني وتكشف أسرارها لي. بينما استمرتْ البوبو تطعن العالم. الأشجار القزمية الهزيلة والمنتفخة في ماهيتها بدتْ كأنها فطر البافبول في الواقع وكانت خائفة إلى درجة أنها، إنْ لمستُ واحدةً منها، فرقعتْ على التو. عددٌ وفير من العصافير المغردة. وفوق كانت الغيوم الصغيرة القرنفلية والمبيضة والمزرقة كأنها مصنوعة من الشاش، وبشكل يدعو للأسى والتعاطف. كل ذلك غامض، بدون خطوط عريضة واضحة، هادئ ومُخزِ ومخفي في حالة انتظار، غير مولود وغير محدد حيث يكاد لا شيء هنا قد تمّ فصله

وفرزه، بل كان كل شيء يتحد بالآخر في عجينة واحدة مستنقعية ومبيضة وباهتة وهادئة. غمغمتِ الجداولُ الصغيرةُ الرخوة، سالتْ وتسرّبَتْ وتبخرتْ أو بقللتْ هنا وهناك، وهي تشكل فقاعات وأهداباً. وتضاءل العالم كأنه يتقلص وينكمش، وبينما هو ينكمش توتّرَ واندفعَ، حتى أحكمت وثاقها حول الرقبة كطوقٍ خانق برفْقٍ. بينما البوبو الصبيانية بالكامل، كانت تطعن من الأعلى بطريقة مخيفة. فركتُ جبهتي.

- ما هذا المكان؟

أما هي فقد التفتتْ ناحيتي بوجهها المسكين، الهزيل والمتعب، وأجابت بخجل وحنان وهي تستند على ذراعي بدفء.

- إنه مكاني.

خنقني ذلك من رقبتي. لقد قادتني إلى هنا. إذن نعم، كل ذلك كان لها... ولكنني كنت نعسان، تدلّى رِأسي، ولم يكن لدي القوة - أوه، أن أنفصل، أن أبتعد ولو لخطوة واحدة، أدفع نفسي بعيداً بمقدار ذراع، أن أضرب بغضب، أن أقول شيئاً غير لطيف، أن أكسرها - أن أكون شريراً، آه، أن أكون قاسياً على صوفيا! أوه، أن أكون قاسياً على صوفيا! - يجب علي، يجب علي - فكرت وأنا نعسان ورأسي متدلية على صدري - على صوفيا يجب أن أكون قاسيا! أوه، يا للقسوة الباردة مثل الثلج، المنقذة للحياة والمنعشة! حان الوقت لكي أكون قاسياً. ولكن كيف لي أن أكون قاسياً عليها في حين أنني لطيف - في حين أنني مفتون بها وممتلئ بلطفها، وهي ممتلئة بلطفي وتعانقني بينما أنا أعانقها... لا توجد مساعدة من أي مكان! في تلك المروج والحقول بين

twitter @baghdad_library

العشب الخجول فقط نحن الإثنان - هي معي وأنا معها - ولا يوجد هناك أي أحد يمكن أن ينقذنا. أنا وحدي هنا مع صوفيا - ومع البوبو، كأنها جثة هامدة في بقائها المطلق في السماء، لامعة وساطعة، وصبيانية و«مصبينة»، مغلقة ومغمورة ومتفاقمة في ذاتها، معلقة في أوْجِها في ذروة وطيدة...

أوه، أيها الثالث! الغوث! النجدة! تعالَ، أيها الرجل الثالث، إلينا نحن الاثنين، تعالَ، أه الانقاذ أيها الخلاصُ، اظهرْ، إسمحْ لي أن ألتحق بك، أنقِذْنَا! لِيَأتِ إلى هنا فورا، الرجلُ الثالثُ، الغريب والمجهول والبارد واللامبالي والنقي والبعيد والنزيه، لِيَضْرِبْ مثل موجة البحر بغرابته في تلك الألفة المتبخرة، ليفرقني عن صوفيا... أوه، أيه الثالث، احضرْ، أعْطِني أساساً لمقاومتي، اسمحْ لي أن أستوحي منك، تعالَ، يا نافخَ الروحِ، تعاليْ، أيتها القوة، انزعْني واطرَحْنِني بعيدا واجرفْنِي! ولكنّ صوفيا عانقتني بحنان أكثر، ودفء، وعاطفية.

- لماذا تنادي وتصرخ؟ نحن وحدنا...

ودَفَعَتْ دمامتها نحوي. أما أنا فقد افتقرتُ إلى القوة، انهال الحلمُ على اليقظة، ولم أستطع - اضطررتُ أن أقبَلَ دمامَتَها بدمامتي، بما أنها قبلت دمامتي بدمامتها.

والآن، تعالي أيتها الدمامات! لا، أنا لا أودعكم، يا وجوهاً غريبة ومجهولة لرفاق سوف يقرَؤونني، أهلاً بكم، أهلاً، يا باقات أجزاء الجسد الرشيقة، الآن ليبدأ كل شيء - تعالوا، تقدموا إلي، ابدأوا تدليككم، ركبوا لي الدمامة الجديدة لكي أكون مضطراً أن أهرب منكم

مرة أخرى في ناس آخرين وأجري، أجري، أجري عبر كل الإنسانية. لإنه لا يوجد مفر من الدمامة إلا في دمامة أخرى ومن الإنسان يمكنك أن تلجأ فقط إلى أحضان إنسان آخر. بينما من البوبو لا يوجد ملجأ على الإطلاق. طارِدُوني إذا أردتم. أنا هاربٌ بدمامتي في يدي.

النهاية... ياللإبهار

وقارئ هذه القصة حمار!

ف.ج.

twitter @baghdad_library

الفهرس

مقدمة الطبعة الأولى الإسبانية (١٩٤٧)	٥
الحفلة التنكرية العظيمة	١٥
الفصل الأول: اختطاف	٢٩
الفصل الثاني: سجن ومزيد من التصاغر	٥٥
الفصل الثالث: ضَبْطُه متلبسا ومزيدٌ من التدليك	٩٣
الفصل الرابع: مقدمة لفيليدور المبطن بالطفل	١١٩
الفصل الخامس: فيليدور المبطن بالطفل	١٤٣
الفصل السادس: إغواء ومزيداً من الاندفاع إلى الشباب	١٦٣
الفصل السابع: الحُبّ	١٨٥
الفصل الثامن: كومبوت فواكه	٢٠١
الفصل التاسع: تلصص ومزيد من المغامرة في الحداثة	٢٢١
الفصل العاشر: سيقان طليقة وحالة تلبس جديدة	٢٤٧
الفصل الحادي عشر: مقدمة لِفِيلِيْبَرتْ المبطن بالطفل	٢٨١
الفصل الثاني عشر: فيليبرت المبطن بالطفل	٢٨٩
الفصل الثالث عشر: عامل المزرعة أو حالة أسْرٍ جديدة	٢٩٣
الفصل الرابع عشر: دمامة طليقة وحالة تلبس جديدة	٣٣٩

twitter @baghdad_library

هذا الكتاب

تبدو فيرديدوركه اليوم كجوهرة الثقافة الرائعة في فترة ما بين الحربين العالميتين - تيار السخرية والليبرالية والابتكار الذي وصل ذروته نهاية الثلاثينيات، عشية الكارثة. كانت مرحلة الاستيعاب المحموم للمشروع الحضاري الغربي والتعويض عن التأخر الناجم عن العوامل التاريخية والحماس العظيم تجاه كل ما هو حديث - «المدينة - الجموع - الآلة»، التي تغنى بمحاسنها أعضاء الطليعة، أي التقدم التقني، والديمقراطية الوليدة وحركات التحرر والثورة الفنية والثورة على التقاليد.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-9933351915
9 789933 351915